

سلسلة بناء العبد الرباني



مصطفى حسني

الجزء 2 (من معركة الخندق 5هـ إلى وفاة النبي ﷺ)



دار النهضة مصر

ور السيرة النبوية

الجزء 2 (من معركة الخندق 5 هـ إلى وفاة النبي ﷺ)

مصطفى حسني

العنوان:

نور: السيرة النبوية (الجزء الثاني)

(من معركة الخندق 5هـ إلى وفاة النبي ﷺ)

تأليف:

مصطفى حسني

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي:

978-977-14-6538-6

رقم البايدياع:

2025 / 37500

طبعة: يناير 2026



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

تليفون: 33466434 - 02 33472864

فاكس: 02 33462576

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com

رف 404

t.me/Rff404

الإهداء

))

إهداء لمن قرأ النصف الأول من سيرة سيد الكونين صلى الله عليه وآله وسلم ، فأراد أن يكمل الرحلة خلفه ليصل إلى الله ويصل إلى أعلى درجات الرقي والإنسانية، بل والنجاح والإنجاز إذا تشبه وتخلق بأخلاق رسول الله الذي قرأ سيرته، فعرفه فأحبه، فاتبعه، فنجني في الدنيا والآخرة.

((

مصطفى حسني

ما هي سلسلة بناء العبد الرباني؟

الأزمة الحقيقية التي يواجهها عالمنا الإسلامي هي الفهم السليم، ثم التطبيق الرحيم للدين الإسلامي العظيم .. فهناك فجوة بين الشريعة الكاملة النقية وبين فهم العقول لمراد الله منها، وكيفية تطبيقها بالشكل الصحيح على واقع العصر الذي نحياه معاً.

وطالما حلمتُ بأن أسهم بما أتعلم من العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية في بناء شخصية مؤمنة تحمل بين جنبها نفساً سوية وعقلاً مستنيراً، نفساً تصلح أن تكون خليفة الله في الأرض، نفساً تحب العلم وتحترمه وتبحث عن صفات الله الظاهرة في الكون لتتعرف إليه .. لتتعلق به وتحبه، ثم

تنشر هذه الصفات بين الخلق، فترحم برحمة الله، وتعطي بكرم الله، وتسامح كما رأت ربها يعفو ويسامح، نفساً ترى عمارة الأرض واجباً لا يقل عن الصلاة التي تقدسها بين يدي ربها.

وهذا مصداق قول الله في آية وصفت المتقين الصادقين:

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة : 177]

دين شامل .. عقيدة أثمرت عبادة ظهرت آثارها في رقي
معاملة الخلق وبناء الحضارة ..

وهذا هو الهدف والغاية والرسالة السامية التي أحملها على
كتفي منذ أن بدأت طريق الدعوة من سنين عديدة، وهو
بناء العبد الرباني العابد لسيده ومولاه، المنشغل بعمارة
وطنه وأرضه، المتخلق مع الخلق بأخلاق ربه، حتى نعمل
بوصية الله الخالدة لنا:

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران : 79]

ستجدون في سلسلة بناء العبد الرباني كتباً تتناول البناء
الكامل المتزن لهذا العبد الذي نحلم به ..

- كتباً في بناء العقل السوي المستنير وضبط المفاهيم.

- كتب إصلاح القلب وتأهيله للفهم عن رب العالمين؛ ليظهر ذلك في سلوكيات من يحمل الخير والحق والجمال للخلق.

- كتباً عن العبادات؛ فهماً لمعناها، وتعلماً لكيفيتها، وسعيًا لارتقاء الروح بها.

- كتباً عن المهارات الشخصية وتطوير النفس التي هي أمانة الله؛ لتصبح أكثر فاعلية في الحياة العملية وعمارة الأرض.

- كتب المعاملات بين المسلمين؛ للارتقاء في معاملاتنا مع بعضنا، وتقبُّل الطبيعة البشرية لكلِّ منا.

- كتباً عن السيرة النبوية وقصص الأنبياء العظيمة، والتي نستوحي منها الطرق العملية للتصرف السليم في جميع المواقف التي نتعرض لها في حياتنا اليومية.

- كتباً عن القرآن الكريم وتعلُّم كيفية فهمه وتدبره وتطبيقه بشكل عملي في حياتنا حتى نكون من «أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته».

بداية معركة الخندق: يومُ التآمر والفتنة

بداية المعركة:

كانت حياة الرسول ﷺ سلسلةً متصلةً من الأحداث العظام، تُعَلِّمُ الصحابة دروساً في الإيمان والصبر والثبات على الحق.

ففي العام الخامس من الهجرة، بينما كان شهر شوال يُودع أيامه، ويستقبل ذو القعدة أنفاسه الأولى، هبَّت رياحٌ غربية على المدينة المنورة، وإذا بيهود بني النضير - الذين أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة بعد محاولتهم الدنيئة لقتله - يتحصنون في حصون خيبر، يحملون في قلوبهم نار الحقد والغدر. لم يكتفوا بما فعلوا، بل انطلق سادتهم «حُيَّ بن أخطب» و«سلام بن أبي الحقيق» إلى مكة، يحملون شعلة الفتنة، يُحرِّضون قريشاً على غزو المدينة.

وقف زعماء اليهود أمام مشركي قريش قائلين: «انطلقوا معنا لنقضي على محمد وأصحابه!».«

فتعجَّب المشركون: «أليس دين محمد أقرب إليكم من ديننا؟ أنتم تعبدون إلهه!».«

فأجابوا بقلوبٍ مظلمة: «كلا! دينكم - وإن كنتم مشركين - أقرب إلينا من دين محمد!»،

فأنزل الله تعالى قوله الحق:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ
بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ
أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (51) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾

[النساء : 15 - 52]

فضح خبث قلوبهم للعالمين.

فاستجابت قريش لدعوة الشر، وانطلق جيشهم الجرار. ثم ما لبثوا أن استنهضوا حلفاءهم من غطفان؛ تلك القبيلة العتيدة؛ فاجتمع من قريش وغطفان، ويهود بني النضير وبقايا بني قينقاع الذين أجلاهم النبي ﷺ أيضاً عندما اعتدوا وتحرشوا بالمرأة المسلمة. هكذا اجتمعت جيوش الظلام؛ عشرة آلاف مقاتل يزحفون كالسيل الجارف نحو المدينة.

المسلمون بين الخوف والثبات

علم الرسول ﷺ بالأمر، فجمع أصحابه للشورى. كانت الأعداد غير متكافئة: عشرة آلاف مقاتلٍ مقابل ألفٍ أو ألفٍ وخمسمائة من المسلمين. في تلك اللحظة الحرجة، برز من بين الصفوف رجلٌ فارسيٌّ، كان عبداً فاشترى حرّيته بإيمانه، وأصبح من أهل البيت النبوي.. **سلمان الفارسي**.. فقد كان سيدنا سلمان من بلاد (فارس) وقد كان لديهم في بلادهم استراتيجية مختلفة في الحروب فنقلها للنبي ﷺ.

فكرة الخندق:

قال سلمان بصوته الهادئ الحكيم: «يا رسول الله، إذا جاءنا العدو نُخندق لهم». أى إذا حاصرنا العدو، نحفر خندقاً يحول بينهم وبيننا.

كانت كلمة «نُخندق» غريبة على مسامع الصحابة. فما هو الخندق إلا حفرة عظيمة بعرض مدخل المدينة، بعمق ثلاثة أو أربعة أمتار، وبعرض مماثل، لا يستطيع الحصان اجتيازها لا بقفز ولا بنزول. أشرق وجه الرسول ﷺ وقال:

«وَقَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانَ؟»⁽¹⁾

وهكذا بدأت الاستعدادات لحفر الخندق، في مشهد يجمع بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب، بين الخوف من العدو والثقة بنصر الله، بين ضعف الإمكانيات وقوة الإيمان.

فتنافس المهاجرون والأنصار: «سلمان منا!»، «بل سلمان منا!».

فتبسم الرسول ﷺ وقال كلمات تملأ القلب دفئاً: «إِنَّمَا سَلَمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ». لقد جمعت كلماته هذه بين الأخوة الإيمانية والاعتراف بالفضل، في لحظة جمعت بين الحكمة والمحبة.

مواقف من نور

❖ ومضات من نور النبوة... بين حبٍّ
وحكمة ❖

- (1) موقف سقوط عقد السيدة عائشة للمرة الثانية
- (2) موقف التيمم

• الموقف الأول:

في لحظة من اللحظات العميقة في حياة أم المؤمنين السيدة عائشة، فقدت عقدها للمرة الثانية. تلك اللحظة تحمل في طياتها رسالة عظيمة لنا جميعاً، فالعثرات ليست نهاية الطريق بل هي جزء من رحلة الإنسان. قد ننسى، قد نكرر الأخطاء، لكن ذلك لا يقلل من قيمتنا ولا يجعلنا أقل في نظر الله ورسوله. فالرسول ﷺ علمنا من خلال هذه المواقف أن الإنسان ليس معصوماً من النسيان، بل هو جزء من طبيعته، وقد سماه الله «إنساناً» لما في طبيعته من النسيان.

والأكثر نوراً في هذه الحكاية هو كيف تعامل الرسول ﷺ مع الموقف. لم يعاتبها ولم يُلِّهها، بل جلس بجانبها برفقٍ وحنان، يواسيها في وقت الأزمة. فحينما تكون في لحظة ضعف أو ارتباك، ليس الوقت الأنسب للتوجيه أو العتاب، بل هو وقت المساندة والدعم. وتلك المساندة كانت من النبوة الحقيقية التي تعلمنا أن الدعم في الأوقات الصعبة هو ما يحتاج إليه الإنسان، وليس اللوم.

وفي النهاية، عندما وجدوا العقد تحت الجمل الذي كانوا بجواره، لم يكن الأمر مجرد العثور على شيء مفقود، بل كان تذكيراً بأن الله دائماً مع عباده، وأنه في كل محنة هناك نور ورحمة.

• الموقف الثاني:

في مشهدٍ يفيضُ بالبشر والرحمة، تروي لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها موقفاً جرى في أحد الأسفار حين شارف الجيش على دخول المدينة؛ حيث افتقدت عقدها مجدداً، فاحتبس النبي ﷺ والناس لطلبه في مكانٍ لا ماء فيه. ومع تأخر الوقت وضيق الحال، دخل عليها والدها أبو بكر الصديق رضي الله عنه مُعتباً، فجعل يطعنها في خاصرتها ويلومها؛ لأنها تسببت في تأخير الجيش، فتصف السيدة عائشة ثباتها وإيثارها قائلة: «فأخذ أبو بكر يطعنني في خاصرتي، وما يمنعني من الحركة

إلا مكانَ رسول الله ﷺ في حجرِي وهو نائمٌ؛ إيثاراً لراحته وسكينته رغم ألمها من وخزات والدها.

وفي تلك اللحظات نزل الوحيُ بآية التيمم من سورة (المائدة) رخصةً وتيسيراً للأمة بعدما حان وقت الصلاة وعزَّ وجود الماء، فكانت تلك البداية لتشريع التيمم بالتراب عند فقد الماء؛ مما دفع أسيد بن حضير رضي الله عنه لقوله مُغْتَبِطًا: «ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر». وعندما انبعث الجملُ الذي كانت عليه وجدوا العقد تحته؛ ليتجلَّى لنا في هذا الموقف تواضع النبي ﷺ في بيته وبساطة عيشه، وكَمال أدب السيدة عائشة، وحرصها على راحة زوجها، فكانت هذه الحادثة بركةً شرعيةً خالدة تزيد القلوب حباً وتوقيراً لهذا البيت النبوي الطاهر.

ومن بذور الإحسان تُولد المعجزات

حين زلزلت جيوش الأحزاب المدينة، اجتمع الرسول ﷺ بأصحابه يستشيرهم.. وهنا بزغ نجم سلمان الفارسي، ذاك الغريب الذي صار منهم، ذاك الذي حمل معهم الحب والجوع والمعاناة، فكان اقتراحه حفر الخندق.. لكن هل ننسى أنه، يوماً، لم يكن حراً؟ كان عبداً، وطلب منه سيده أن يزرع 300 نخلة ليفك رقبتَه! فإذا فعل الصحابة؟ قاموا، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، وجمعوا له النخيل حبة حبة، حتى عادت له حريته. قال الرسول ﷺ يوماً:

«أَعِينُوا أَخَاكُمْ» (2).

ولأن الله لا ينسى المعروف، ردّ إليهم جميلهم في صورة فكرة أنقذت المدينة.
من يزرع خيراً يحصده نوراً، ومن يمنح حباً، يعدّ إليه مدراراً. قال تعالى:

﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ
خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل : 20]

فربنا كبير ، سبحانه وتعالى.

بين الصدق والخذلان.. ميزان الإيمان

وتبدأ المعركة الكبرى.. تُقلب المدينة تربةً وتُقلب القلوب معها. الصخور
قاسية، والتراب يملأ الوجوه، لكن الإيمان يملأ القلوب. الرسول ﷺ لا يُعطي
الأوامر من بعيد، بل يكون في مقدمة الحافرين للتحندق، يحمل الصخر، يعرق، يضع
يده في الحُفرة..

«فإذا جلد رسول الله ﷺ قد تغير من التراب».

هل ترى هذا؟! قائد أمة، لكنه وسط جنوده، يشاركهم التعب، يُعطي بيده لا
بكلامه.

وهنا يكشف المستور.. المنافقون يتسللون ليلاً:

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ [النور : 63]

أما المؤمنون، فواقفون، حفاة أحياناً، جوعى أحياناً، لكن قلوبهم تُنشد بيعة لا تزول، وإذا كان عند أحد أزمة أو حاجة يريد أن يعود إلى داره ليفعلها لم يذهب إلا بعد أن يستأذن النبي ﷺ، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا
مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ^ج إِنَّ
الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ
وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور : 62]

نشيد من جوف الصدور

وسط الحفر.. تعبٌ وجوعٌ، وبدأ الصحابة ينشدون ويتذكرون الأيام التي كانوا يحفرون فيها لبناء المسجد النبوي من خمس سنوات، وتذكروا بيت الشعر الذي تردد وقتها:

اللَّهُمَّ لَا عِشَ إِلَّا عِشُ الْآخِرَةِ * فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُ

ويؤلف سيدنا (عبد الله بن رواحة) نشيداً جديداً فيقول:

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا
صَلِّينَا

*

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا
اهْتَدَيْنَا

وَوَثَّيْتُ الْأَقْدَامَ إِنْ
لَا قَيْنَا

*

فَأَنْزَلْنِ سَكِينَةً
عَلَيْنَا

وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً
أَبِينَا

*

إِنْ إِلَّا إِلَى⁽³⁾ هُمْ
بَغَوْا عَلَيْنَا

فتجد أن رسول الله ﷺ يردُّ عليه من آخر الخندق فيقول:

«أَيْنَا أَيْنَا» (4).

فِيُثَبَّتِ الْقُلُوبَ، وَكَأَنَّ كَلِمَاتِهِ بَلَسْمٌ عَلَى الْأَرْوَاحِ، يَرِبْتُ عَلَى قُلُوبِهِمْ بِقَلْبِهِ،
وَيَزْرَعُ فِي أَعْمَاقِهِمْ يَقِينَ النَّصْرِ رَغْمَ ظَلَالِ الْهَزِيمَةِ.

صخرة الأحزاب.. وجوع النبوة

وَيَأْتِي سَيِّدُنَا (جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ)، يَنَادِي الرَّسُولَ ﷺ لِيَسَاعِدَهُمْ عَلَى كُدْيَةِ
(صَخْرَةِ ضَخْمَةٍ جَدًّا أَبَتْ أَنْ تَنْكَسِرَ). فَيَقُولُ: (نَادَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ وَفِي
عَيْنَيْهِ أَثَرُ الْجُوعِ). أَجَلٌ.. نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، مَنْ يَحْمِلُ هَمَّ الْأُمَّةِ، لَمْ يَكُنْ يَجِدُ فِي يَوْمِهِ
إِلَّا التَّمْرَ وَالْمَاءَ، لَكِنَّهُ لَا يَشْكُو. وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَوَقُّفِ التَّجَارَةِ وَمَنْ ثُمَّ بَدَأَ الطَّعَامَ يَقِلُّ
فِي الْمَدِينَةِ، وَرَغْمَ كُلِّ هَذَا لَمْ يَشْتِكْ أَوْ يَتَنَبَّأْ. بَلْ أَخَذَ الْمَعُولَ، وَضَرَبَ قَائِلًا: «بِسْمِ
اللَّهِ». فَتَفَتَّتْ جُزْءٌ مِنْهَا، وَهَتَفَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ» الرُّومُ.. فَفِيهَا
أَقْوَى وَأَكْبَرُ جِيُوشِ الْعَالَمِ، ثُمَّ قَامَ فَضْرَبَ ضَرْبَةً ثَانِيَةً وَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ
مَفَاتِيحَ فَارِسٍ، وَاللَّهُ إِنِّي لَا أَبْصُرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ أَيْضًا». وَضَرَبَ الضَّرْبَةَ الثَّلَاثَةَ فَقَالَ:

«اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَا أَبْصُرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا
السَّاعَةَ» (5).

الرُّؤْيَا كَانَتْ فِي قَلْبِهِ أَوْضَحَ مِنَ الْوَاقِعِ، وَالنُّورُ فِي صَدْرِهِ أَسْبَقَ مِنَ الْفَتْحِ. أَمَّا
الْمُنَافِقُونَ، فَتَهَكَّمُوا بِقَوْلِهِمْ: (مُحَمَّدٌ يَعْدَلُكُمْ بِفَتْحِ الدُّنْيَا وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدُنَا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى

بيته ليقضي حاجته! فينزل القرآن:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب : 12]

أي أنهم يقولون إن سيدنا رسول الله ﷺ يخدعكم، فكيف يقول إنه سيفتح الدنيا ولا يستطيع أحدنا أن يقضي مصالحه ويذهب إلى بيته ونحن مُحاصرون كذلك، أما المؤمنون فلم يشكُّوا، بل ازدادوا يقيناً، ووقفوا خلف رسولهم ﷺ، كتفًا بكتف في الحفر؛ لأن جيوش الأحزاب اقتربت جداً من المدينة. وهكذا كان المؤمنون على وعد لا يُخلف.. وعد بالنصر والفتح والنور.

مشهدٌ يُذيب الحجر.. يوم خاض الصحابة في التراب والإيمان

كان المشهد أعجب العجب! ترى الرجال وقد التصق التراب بجباههم، واختلط عرقهم بالتراب، فلم ير إلا عيونهم المملوءة بالنور، وفي قلوبهم يقين، وفي أيديهم إرادة تزلزل الجبال!

ورسول الله ﷺ بينهم.. يسابقهم إلى الحفر، يحمل الصخر ويصعد به، حتى تغير لون جلده الشريف من شدة العمل. يا له من قائد! يا له من معلم!

﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : 163]

فكان أول من يغوص في المشقة، وآخر من يخرج منها.

| وأناشيدهم تُزلزل الأرض:

اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ * فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُ

كلمات تخرج من أعماق القلب، تختصر فلسفة المؤمن: لا حياة إلا بالدين، ولا عز إلا بالإسلام. والنشيد الجديد «اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا.. ولا تصدَّقنا ولا صَلِّنا» اعتراف بالعجز، وتذلل للخالق، واستعانة بالرب. إنها مدرسة اليقين! تأمل في هذه الكلمات وركز في كلمات الأغاني التي تدخلها إلى عقلك وقلبك. لأنها تشكل وجدانك ومشاعرك وأفكارك، فإذا كانت جميع الأغاني تصف أن الناس غدارة فستعامل أنت تلقائياً بهذا الحال مع الجميع من حولك، فما تدخله في عقلك تبدأ في اعتناقه، فاجعل لك حظاً مما يُذكرك برب العالمين في حياتك وبسيدنا النبي ﷺ.. فالصحابة هنا كانوا يغنون مُعتقداً فيقولون:

ولا تصدَّقنا ولا
صلِّنا



اللهم لولا أنت ما
اهتدينا

فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً
عَلَيْنَا

وَوَثَّيْتُ الْأَقْدَامَ إِنَّ
لَا قِيْنَآ

إِنْ الْأُلَى هُمْ بَغَاؤُا
عَلَيْنَا

وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً
أَبَيْنَا

فنحن لولا هدايتك لنا يا رب لما كنا نُصلي ونتصدق، فَأَنْزَلْ عَلَيْنَا السكينة في الحرب فهي منك وبك ولك.

| تأملوا معي هذه الكلمات: ...

-«وَوَثَّيْتُ الْأَقْدَامَ إِنَّ لَا قِيْنَآ».. دموع تذرف عندما تتخيل الموقف! فثبتنا يا رب العالمين عند ملاقاته العدو.

-«إِنْ الْأُلَى هُمْ بَغَاؤُا عَلَيْنَا».. صرخة حق في وجه الباطل! إذا هجم علينا المعتدون.

-«وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا».. كلماتُ تزلزلُ القلوبَ قبلَ الأسماع!

انظروا إلى روعة هذا الموقف المؤثر: أمام جيوش الكفر الزاحفة كالسيل الجارف، يقفُ حَفْنَةٌ من المؤمنين يردِّدون بثباتٍ: «أَبَيْنَا».. رفضاً للذل، وإباءً للضمير، وتوكلاً على العلي القدير.

لقد كانوا يعلمون يقيناً: أنهم لن يُقاتلوا طمعاً في أرضٍ، ولا حُباً في سفكِ دماءٍ، إنما دفاعاً عن حرَمَاتِ الله.

| تأملوا هذا المشهد العظيم: ...

- سيوفهم مُشرعةٌ لكن قلوبهم عامرةٌ بالرحمة.
- وجيوشُ العدوِّ تُحيطُ بهم لكن إيمانهم يحوطهم كالجبال.
- يصرخون بملءِ أفواههم: «أَبَيْنَا!..» فكأنما يقولون للتاريخ كله:

«إِنَّ الْحَقَّ أَبْلَجُ، وَالْبَاطِلَ لَجَلَجُ!»

| يا له من درسٍ خالد! ...

- فإذا أردتَ الاستسلامَ، فتذكر صرختهم: «أَبَيْنَا!».

- وإذا نزلَ بكُ همٌّ، فاستحضر يقينهم: «فَالنَّصْرُ وَالْمَدَدُ مِنْكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ»..
اللهمَّ اجعلنا من الذين يأبُونَ الضيمَ، ويحتسِبُونَ الأجرَ عندك، وارزقنا ثباتَ القدمِ
كما رزقتهم. وبين هذا وذاك.. الصخرة! تلك الكُديّة التي وقفت كجيش عَرَمَرَمٍ،
لكنها ما لبثت أن انفلقت تحت ضربات الرسول ﷺ وهو يبشر:

«اللَّهُ أَكْبَرُ! فَتُحَتُّ الشَّامُ!».. «اللَّهُ أَكْبَرُ! فَتُحَتُّ
فَارِسُ!».. «اللَّهُ أَكْبَرُ! فَتُحَتُّ الْيَمَنُ!»..

والمنافقون يسخرون.. والمؤمنون يوقنون أن وعد الله حق، وأن كلام الرسول
ﷺ صدق:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: 3]

| فما أعظم العبرة! ...

- عندما يصبح التراب وسام شرف!
- عندما تتحول الأناشيد إلى صلوات!
- عندما يكون القائد قدوة!

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه، وارزقنا الإيمان الذي يحول التراب إلى
ذهب، والحن إلى منح.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد مجمع
الحقائق الإيمانية ومهبط الأسرار الرحمانية، قائد

ركب الأنبياء المكرمين وأفضل الخلائق أجمعين،
منبع العلم والحلم .. الخليل الأعظم والحبيب
الأكرم وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آله
وصحبه أجمعين.

اللهم استر علينا برحمتك، وأتم علينا نعمتك،
وابسط علينا واسع زرقك، واملأ قلوبنا بحبك،
واعفُ عنا يا كريم وارحمنا يا رحيم.



(1) رواه البيهقي.

(2) رواه أحمد.

(3) البُغَاة.

(4) رواه البخاري.

(5) رواه النسائي.

أنوار من الخندق.. وبركة لا تنفد

اليقين في وعد الله

في نهاية السنة الخامسة للهجرة، كانت المدينة تنعم بشيء من الهدوء، حتى هبَّت رياح الشدة من جديد. أعداء النور لم يهدأ لهم بال، فخرج يهود بني النضير الذين أجلاهم الرسول ﷺ بعدما حاولوا قتله، يقودهم حُي بن أخطب، واتجهوا إلى مكة ليشعلوا نار الحرب من جديد. استجاب لهم أبو سفيان، قائد قريش، وانضم إليهم من قبيلة غطفان أعتى الفرسان، حتى صار جيش الأحزاب عشرة آلاف مقاتل، وجيش الرسول ﷺ لا يزيد على ألف وخمسمائة رجل.

علم الرسول ﷺ بالخطر الداهم، فكان الوحي في قلبه نوراً يهديه، وبدأ بحفر «الخندق» ليحمي المدينة وأهلها، وكانت حيلة عبقرية لم يعرفها العرب من قبل. كانت الأيام شديدة، والبرد قارساً، والقلوب مضطربة، لكن اليقين في وعد الله كان السند.

وفي قلب هذه الشدة، ظهرت صخرة عظيمة لم يستطع الصحابة كسرها، فنادوا من في قلبه مدد من الله.. نادوا الحبيب ﷺ. جاء النبي، وفي عينيه أثر الجوع، كما

وصفه سيدنا جابر بن عبد الله، وكأن الصخرة لم تقف أمامه، بل أمام النور الذي يحمله، فضر بها وانفلقت بنور الله.

الجوع والبركة.. مشهد من حب

لكن المشهد لم ينتهِ هنا.. سيدنا جابر، الذي لم يحتمل أن يرى الرسول ﷺ يربط على بطنه حجرين من شدة الجوع، أسرع إلى بيته وسأل زوجته: «هل عندك شيء؟»، فأجابته: «قليل من الشعير وعناق صغيرة»؛ عنزة لا تكفي إلا لرجل أو رجلين، فطلب منها أن تُعد الطعام، وذهب للنبي ﷺ سرّاً وقال له: «يا رسول الله، عندي شيء يسير.. تعال أنت ورجل أو رجلان فقط».

لكن النور لا يُخبأ، ولا يُحبس عن أحبابه. فابتسم الرسول ﷺ وقال لأهل الخندق جميعاً:

«يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا، فَيَّ هَلَّا بِكُمْ» (6).

وطلب أن يأتوا على مجموعات قائلًا:

«ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغُطُوا» (7).

أي لا تزدحموا، ثم وضع القدر على النار، وأمر ألا تُكشَف، ومدَّ يده المباركة فيها، فخلق الله البركة في الطعام، حتى أكل الجيش بأكمله من عناق صغيرة وبعض

الشعير.

هكذا النور حين يحل.. لا يقيس الأمور بالحسابات الدنيوية، بل يفيض من فيض السماء. فبركة الحبيب ﷺ لم تكن فقط في الطعام، بل في طمأنينة القلوب، في دفء الجماعة، في المعجزة التي تقول: إن أحب الله عبداً، بارك في كل شيء حوله.

بارك الله في القليل حتى كفى، وفي الضعف حتى صار قوة، وفي الخوف حتى تبدل أمناً.

غدر بني قريظة.. وظلال من خيانة تحت نور العهد

في لحظة من لحظات المدينة التي اختلط فيها النور بالظلام، حدث ما يوجع القلب ويهز الروح، حين جاء الغدر من الداخل لا الخارج، من قومٍ كان يفترض أن يكونوا جداراً يحمي، لا خنجراً يطعن.

كان (حُي بن أخطب)، زعيم يهود بني النضير، ممن أضمروا في قلوبهم الحقد على النور الذي جاء به الحبيب ﷺ، فلها أجلاهم النبي عن المدينة بسبب خيانتهم ومحاولتهم قتله، لم يهدأ له بال. وبينما كان جيش الأحزاب يحيط بالمدينة كبحرٍ هائج، تسلل (حُي) إلى من تبقى من يهود المدينة، إلى بني قريظة، الذين كانوا موكلين بحماية الجنوب، وكانوا قد التزموا بالعهد مع الرسول ﷺ، وقف عند باب حصن (كعب بن أسد القرظي)، قائدهم، يطرق الباب في الليل، وقلبه مملوء بالغدر، وكلماته مليئة بالإغواء:

«جئتكَ بعزّ الدهر، جئتكَ بقريش عن بكرة أبيها في بحر طام، وجئتكَ بغطفان سادتها وكبرائها وجيشها». لكن (كعب) أجابه بكلمة تكتب بماء الذهب: «والله لقد جئتني بذل الدهر، ما رأيت من محمد إلا وفاءً وبراً».

لكن كما يُوسوس الشيطان للإنسان، ظل (حُي) يفتل له خيوط الفتنة، يذكّره بمجد زائل، ويغريه بزيف القوة، ويُعيد على سمعه كلمات الكبرياء المريضة: «كيف تُعاهد من لم يخرج منا؟ كيف ترضى أن يقودك من ليس من قومك؟»

وبعد طول ضغط وإلحاح، وافق (كعب) على خيانة العهد، وبدأ يُحرّك رجال بني قريظة نحو خيانة عظمى، لا تُنسى، ولا تُغفر، في وقتٍ كانت المدينة فيه بأشد الحاجة لكل حليف.

لكن، ما كانت المدينة يوماً قائمة على القوة وحدها، بل على الوفاء والعدل. الرسول ﷺ، حين كتب «صحيفة المدينة»، كتبها بروح العدل لا الإكراه. كتبها ليعيش الجميع، مسلم ومشرِك ويهودي، في أمان واحد، يتصدون معاً لأي خطر خارجي، ويأكلون من خيرات المدينة في عدل وسلام. لم يُجبرهم على الإسلام، بل ألزمهم بالعهد الإنساني، عهد الدفاع المشترك عن الوطن، عهد الكرامة. وخانوا العهد في أشد اللحظات ظلمة.

البركة.. النور الذي يملأ القليل حتى يفيض

وسط هذه الظلمة، يبقى النور مشتعلًا في قلوب المؤمنين. نعود إلى مشهد العناق الصغير، والشعير القليل، الذي أطعم جيشاً كاملاً ببركة يد الحبيب ﷺ. في زمن

الماديات، قد يندهش البعض، ولكن في قلوب من عرفوا الله، هذا هو جوهر الإيمان.

البركة ليست مجرد زيادة، بل هي نفس جديدة ينفخها الله في الأشياء، فتُعطي فوق ما تقدر عليه. هي قدرة الله في أن يخلق الوفرة من الندرة، والنفع من القليل، كما قال الله في سورة «يس»:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

[يس: 82]

فالدواء ما هو إلا مزيج كيميائي.. ولكن فيه شفاء بإذن الله. والماء مجرد سائل، لكنه يُروى إذا أذن الله. والطعام قليل، لكنه يُشبع ويكفي إذا بارك الله فيه. البشر صنعوا فلاشات صغيرة تحمل ذكريات سنين، فهل يعجز خالق الإنسان أن يضع الشبع في لقمة، أو العلم في لحظة، أو الهداية في كلمة؟!

ادعُ الله لا بالكثرة، بل بالبركة. ادعه أن يبارك لك في الصحة فتكون سبباً في عافيتك، في المال فيكفيك ويغنيك، في الوقت فتتنجز فيه أعمال سنين، في الكلمة فتُصلح بها قلوباً.

يا رب بارك لنا.. في أعمارنا، وأرزاقنا، وأعمالنا، وفي حبنا لنبيك ﷺ، واجعل نورك في كل تفاصيل حياتنا.

وسلم وبارك على من إذا حضر، جاء الخير كله.

• الخيانة العظمى

ما فعله يهود بني قريظة في تلك اللحظة لا يُسمى خيانة عظمى فقط، بل هو خنجر في ظهر المدينة وهي تقف على شفا الانبياء. جيش الأحزاب بعشرة آلاف مقاتل، والمسلمون بالكاد 1500. والخيانة جاءت من الجهة التي كانت مكلفة بحماية الجنوب.

ولولا ستر الله ورحمته، لحدث اجتياح شامل لا يبقى ولا يذر، ولكن الله قال:

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: 20]

يا له من وعد مطمئن! كأن الله يُحيط بالمؤمنين من كل جانب، لا تخرقهم السهام، ولا تهزم لهم إرادة.

• يقين رسول الله ﷺ وسط الزلزال

بلغ الرسول ﷺ الخبر. تحرك قلبه، ليس خوفاً على نفسه، بل على أهل بيته، على الصحابة، على المدينة، على كل من صدقوه وآمنوا به، فأرسل سادة المدينة:

سيد الأوس «سعد بن معاذ»، وسيد الخزرج «سعد بن عباد»، وخوات بن جبير، وعبد الله بن رواحة.

وبالفعل ذهب سيدنا (سعد بن معاذ) يتكلم مع (كعب بن أسد القرظي) فوجد اليهود على شر حال، يجهزون أنفسهم ويسبون في المسلمين وفي رسول الله ﷺ، فوقف سيدنا (سعد بن معاذ) يتشاجر معهم ويسبهم فقال له (سعد بن عباد): (لا نشاتم، فما بيننا وبينهم أكبر من المشاتمة). وعادوا إلى النبي ﷺ بقلوبٍ مثقلة، وقالوا له الكلمة المتفق عليها في حال الخيانة:

«عضل وقارة» (8).

تلهيحا للخيانة العظيمة دون أن يهتز الصف.

الرسول ﷺ لم يفزع بل كان قلبه الشريف يسكنه الإيمان بالله واليقين به بالنصر والعزة.

• الحيلة والتدبير مع التسليم لله

بدأ الرسول ﷺ يوزع الفرسان حول المدينة ليظهر أن المسلمين منتشرون في كل مكان، رغم قلة عددهم، وارتفعت صيحات «الله أكبر» في الطرقات.

ثم خطرت له فكرة الصلح مع غطفان ومع عيينة بن حصن: أن نعطيهم نصف ثمار المدينة ليعودوا. استشار الرسول ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج وقال لهم: «ما رأيكم أن نصالح غطفان على نصف ثمار المدينة؟» حتى

يعودوا عن محاربتنا، فقالوا : «يا رسول الله، أهدأ وحي من الله أم من أجلنا؟». قال:

«والله ما أصنع ذلك إلا لأتني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة»⁽⁹⁾.

أي أنني أرى أن جميع القبائل ضدكم فأريد أن أبعد جزءاً منهم عنكم لخوفي عليكم فقالوا: (يا رسول الله، إن هؤلاء القوم ما كانوا يطمعون في ثمرة من المدينة إلا بالثمن أو قرى «ضيافة»، أفبعد أن أكرمنا الله بالإسلام نعطيهم بلا ثمن والله لا يكون يا رسول الله). أي أنهم كانوا يشترون الثمار بالثمن، ولم يأخذوا منها إلا إذا أتوا للضيافة فقط.

فقطع الرسول ﷺ الوثيقة التي كان يريد أن يبرمها مع (عُيينة بن حصن) رئيس قبيلة غطفان..

أي زعامة تلك؟! أي مشاورة؟ وأي تواضع؟! زعيم يُشاوره أصحابه فيرفضون رأيه دون أن يغضب، بل يمثل لصوت الحق.. ويعلم أن النصر من عند الله.

شدة الكرب.. وزلزلة القلوب

بدأت المناوشات، سهام تُرمى من فوق ومن أسفل، والجوع والعطش والبرد والخوف.. حتى وصف الله المشهد في سورة الأحزاب فقال:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا
(10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾

[الأحزاب: 10، 11]

إن جيش الأحزاب كبير جدًا وتأتي سهامه من جميع الاتجاهات من فوق
ومن تحت، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي أنك لا تستطيع أن تركز بصرك في اتجاه
من كثرة أعدائك، فعيناك تتقلب في جميع الاتجاهات، ﴿بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾
أي الأنفاس أصبحت صعبة، ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي أن المؤمنين يظنون أن
الله سينصرهم، والمنافقون يقولون:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا
وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12]

إنها لحظة الحقيقة.. لحظة الفرز بين الصادق في حب الله، وبين المتخاذل وقت
الشدة. بين من أحبَّ الرسول ﷺ وتبعه، ومن كان معه لمصلحة.

في قلب هذه العاصفة، وقف الحبيب محمد ﷺ، شامخاً في تواضعه، قوياً في قلبه، رقيقاً في مشاعره، قائداً، وأباً، وصاحباً، ونبياً. من لا يُحب هذا الرجل؟! من لا يشعر أن قلبه يذوب شوقاً لرفقته؟! من لا يتمنى أن يكون معه في خندقه، يذود عن المدينة، يذوب فداءً لنور وجهه؟!

حُبُّ الرسول ﷺ .. وتربية القلوب بالشورى والرحمة

هل تأملت يوماً في عظمة قلب الرسول ﷺ؟ في وسط حصار خانق، وجيش عدده عشرة آلاف يهدد المدينة، لم يكن يفكر في نفسه ولا في مكانته كقائد مؤيد بالوحي، بل جلس يستشير أصحابه، يُريهم، ويُعلمهم كيف يكون القائد الحقيقي.

رأى الرسول ﷺ أن مصلحة الناس ربما تكون في أن يُصالح غطفان ويُخفف عنهم وطأة الحرب، لكن قبل أن يخطو هذه الخطوة، طلب من رجاله أن يتحرّوا موقف بني قريظة، فلما تأكدوا من خيانتهم، لم يكن حزن الرسول ﷺ على الغدر فقط، بل كان فيه رجاء ويقين بنصر الله. ومع ذلك، لم يأخذ القرار وحده.. جمع أصحابه واستشارهم، ليعلمنا أن القيادة ليست بالأمر، بل بالشورى، وأن القائد الصادق لا يعظم نفسه، بل يعظم من حوله.

رغم أنه ﷺ كان يمكنه أن ينتظر الوحي من السماء، لكنه أراد أن يترك لأُمَّته ضرباً من الحكمة والتواضع.. أن نعيش معاً متحابين متشاورين، نُشارك الرأي، ونُعظم الموقف، ونؤمن أن:

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]

وأن «يد الله مع الجماعة» كما قال الحبيب ﷺ.

كان يُرِيّ الرجال والنساء على القيادة بالحب لا بالتحكم، بالتقدير لا بالإلغاء..
كان يجعل من حوله عظماء؛ لأن قلبه الكبير أراد لهم أن يحملوا مشعل الهدى من بعده.

شجاعة تُلهم.. وقصة تُبكي القلوب

في عزِّ الحصار، عبر خمسة من فرسان المشركين، منهم (عكرمة بن أبي جهل)،
ومنهـم مقاتل اسمه (عمرو بن عبد ود) وكان رجلاً كبيراً جداً في السن ولكنه كان
مقاتلاً شرساً جداً، كان رجلاً شديد البأس، لا يُبارزه أحد إلا قتله. وقف يُنادي
بصوتٍ تهـدّج من تكرار النداء.. أنشد بيت شعر فقال:

ولقد بُححت من النداء * على جمعهم هل من مُبارز

فقام عليٌّ، قلبُ النبي ﷺ، وقال بثقة المحب: (يا رسول الله، دعني أبارزه).

فأعطاه الرسول ﷺ سيفه وعمامته، ودعا له.. ثم ذهب علي وثار الغبار. اختفى كل شيء خلف الغبار.. والقلوب ترتجف، والنفوس تترقب، حتى دوى صوت النصر: تكبير سيدنا علي (الله أكبر.. الله أكبر) لقد انتصر علي، وعاد بنصر يشبه الفجر في ليل الحصار.

ألم سعد بن معاذ.. وحنان الرسول ﷺ

وفي زاوية أخرى من المعركة، كان هناك قلبٌ آخر ينزف.. «سعد بن معاذ»، سيد الأوس، أصيب بسهمٍ في عرق يده، نزف طويل لم يتوقف. فحمّله الصحابة إلى خيمة السيدة ربيعة رضي الله عنها، ممرضة الحرب.

وهناك، في خضم المعركة، لم ينس الرسول ﷺ صديقه.. كان يذهب إليه كل صباح وكل مساء، يسأله برقة الأب: «كيف أصبحت يا سعد؟».. «كيف أمسيت يا سعد؟».. ومع كل زيارة، كانت دموع الرحمة تسقي وجوه الصحابة.. نبينا لا ينسينا أحداً، لا يترك جريحاً، ولا ينسى قلباً يتألم.

وكان سعد يدعو من أعماق قلبه: (اللهم لا تُمتني حتى تُقرَّ عيني من بني قريظة). لأنه لم يكن يريد أن يغادر الحياة حتى يرى عدالة الله تتحقق فيمن خانوا العهد.

بساطة الحبيب ﷺ
.. وصدقه الذي يربي الأرواح

وفي لحظة من لحظات البساطة التي تحببك في رسول الله ﷺ، جاء عمر بن الخطاب إليه، وقد صلى العصر قبل المغرب بقليل، وقال بغضب المحب: (يا رسول الله، لعن الله المشركين، ما صليت العصر إلا قبيل المغرب!). فقال له الرسول ﷺ بكل صدق ووضوح:

«والله ما صليتُها» (10).

هل تتخيل؟ نبي الله ﷺ تفوته صلاة العصر! ليس تهاوناً، بل لأنه كان يحمي أمته بجسده، لا يريد أن يترك مكانه فيحدث ثغرة في صفوف المسلمين. علّمنا أن فرض الصلاة قد يؤخر حين تحكمك الضرورة، ولكن لا يُترك، بل يُقضى بحب، بحرص، بثبات.

فقام ﷺ وتوضأ وصلى العصر، ثم صلى المغرب بعدها، لعلّنا أن العبادة لا تُنسى حتى في شدة المعركة، وأن الله ينظر إلى قلوبنا، فهو رحيم بضعفنا، وأن حبيبنا ﷺ لا يُخفي شيئاً، يُعلّمنا بالصراحة، ويربّيّنا بالرحمة.

الرسول ﷺ قدوة للعالمين

يُبهّنا رسول الله ﷺ ببساطته التي تعلّمنا كيف نعيش بها، فحين اشتد القتال، وتأخرت الصلاة عن وقتها، لم يكن ﷺ في مأمن، بل كان في قلب المعركة، حيث لا وقت للطمأنينة ولا مجال للغفلة. سيدنا عمر رضي الله عنه صلى العصر قبل غروب الشمس بدقائق، خلافاً لما اعتاده الصحابة من أداء الصلاة فور الأذان. فلما أتى الرسول ﷺ، كان متأثراً، وقال بصدق وألم: «ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً،

شغلونا عن الصلاة الوسطى؛ صلاة العصر، حتى كادت الشمس تغرب». ثم قال: «والله ما صليتها».

لم يُظهر نفسه كمعصوم متعال، ولم يوجه اللوم لعمر، بل شاركه الألم، وأظهر ضعفه البشري الذي نُحِبُّه من خلاله أكثر. أخبره أنه لم يتمكن من الصلاة، ثم علمنا ما نفعله إن فاتتنا الصلاة لظرف قاهر، فصلّى العصر أولاً، ثم المغرب بعدها. كان المعلم، والقائد، والقدوة التي تُشبهنا وتشبه واقعنا.

دور المرأة في حياة الرسول ﷺ

حين جرح سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه، من التي أسرعت تطيبه وتداويه؟ إنها السيدة رُفيدة رضي الله عنها. امرأة. نعم، امرأة عظيمة اختارها الله لتكون يد الرحمة في خضم الحرب. هذا ليس كلاماً نردُّ به على النساء، بل واقع نبوي حقيقي يفيض بالإنصاف والتقدير لدور المرأة.

في كل محطة من سيرة الرسول ﷺ، ستجد امرأة تقف بثبات إلى جانبه: تخفف عنه، تسانده، تشاركه الرأي، وتدير معه المشهد. خديجة التي احتوته حين قال:

«قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» (11).

وأم سلمة التي أشارت عليه في صلح الحديبية، فكان رأيها ملاذاً للخروج من موقف شديد. هؤلاء النساء لم يكن في الظل، بل في الصفوف الأمامية من مسيرة

النور. وفي قلب المعركة، كانت رُفيدة تخدم الجيش، لا تخشى الدم ولا الفزع؛ لأن قلبها كان معلقاً برسالة رسول الله ﷺ.

شجاعة السيدة صفية ودعاء الرسول ﷺ في الأحزاب

مشهد نادر تُسجله البطولة بمداد من ذهب، بطلته امرأة أيضاً: صفية بنت عبد المطلب، عمة الرسول ﷺ، أم الزبير بن العوام. كانت في بيت قريب من حصون بني قريظة حين رأت جاسوساً يتسلل بين بيوت المسلمين. هُرعت إلى حسان بن ثابت، ترجوه أن يقتله، فقال معتذراً: (إني لست لذلك بأهل).

لم تتردد، ولم تلتفت إلى ضعفها كأنثى، حملت عموداً وضربت الجاسوس حتى قتله. فعلت ما لم يفعله غيرها، فحمت بيوت المسلمين في لحظة فارقة. ولما سمع الرسول ﷺ قصتها، ضحك إعجاباً بها، ودعا لها بخير.

وفي وسط هذه الشدة، وقف ﷺ يناجي ربه في خيمته، ورفع يديه بدعاء يهزم جيوش الهموم: الدعوة الأولى.. قال:

«اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَجُورِي السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا

عليهم» (12)

الدعوة الثانية.. قال:

«اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذُ بعظمتِكَ أن أَغْتَالَ من تحتي» (13).

يقول أحد الصحابة: (إن النبي ﷺ ظل يدعو بهذا الدعاء ثلاثة أيام حتى استجاب الله لنا وكشف عنا غُمة الأحزاب).

المراة التي تكون أمًّا وأبًّا

مشهد السيدة صفية وهي تُدافع عن بيتها، تذكير قوي بكل امرأة فرضت عليها الحياة أن تكون الأم، والأب في آن واحد. قد يكون الزوج غائبًا للعمل، أو متوفًى، أو مهملاً، لكنها لم تستسلم، قامت بدوره واحتوت أولادها، ووفرت لهم الحنان والشفقة، والتربية والرزق، حتى وإن كانت تُجاهد نفسها كي تبدل طبيعتها في أوقات الشدة.

في مصر وحدها، أكثر من 12 مليون امرأة تعول بيوتاً.. لسن أرقاماً في الإحصائيات، بل بطلات حقيقيات.

ويكفي أن نذكر بقول الرسول ﷺ:

«أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أنني تأتي امرأة تبادرني، فأقول لها: ما لك؟ ومن أنت؟ فنقول: أنا امرأة قعدتُ على أيتام لي» (14).

امرأة قامت بدور الأب بعد موت الزوج، فكان جزاؤها أن تزاحم نبي الله
ﷺ على باب الجنة. يا لها من مكانة! ويا لها من رسالة لكل من أنهكتها الحياة لكنها
وقفت شاحخة!

مواقف صعبة ولكن تجعل في يوم القيامة ميزانك مُضاعفاً وثقيلاً في عين رب
العالمين وعين رسوله الأمين ﷺ.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على الرسول الأعظم والنبي
الأكرم محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه كنوز الحقائق
وهداة الخلائق، نجوم الهدى لمن اهتدى، وسلم
تسليماً كثيراً، اللهم إنا نسألك البركة فيما رزقتنا،
والشكر على ما أعطيتنا، وأن تنفعنا بما علمتنا، وقونا
يا ربنا للقيام بما كلفتنا، وكُن لنا معيناً ونصيراً يا
ربنا.



(6) رواه البخاري.

(7) رواه البخاري.

(8) وهما اسم القبيلتين اللتين خانتا النبي ﷺ وصحابته وطلبتا أن يرسل معهما الصحابة ليعلموهم القرآن وغدروا بهم وقتلوهم فأصبحوا رمزاً للخيانة.

(9) رواه ابن هشام.

(10) رواه البخاري.

(11) رواه البخاري.

(12) رواه البخاري.

(13) رواه أبو داود.

(14) ورد في الأثر.

نهاية معركة الخندق واستشهاد سعد بن معاذ

حدث يقلب موازين معركة الأحزاب

في اللحظات الحاسمة من معركة الأحزاب، تلك الغزوة التي خلّدها القرآن الكريم في سورة الأحزاب، كان هناك حدث جلل قلب موازين المعركة وغير مجراها. ولعل سرد وقائع هذه المعركة العظيمة باختصار يساعدنا على فهم عمق ما حدث بعدها.

فبعد أن أبرم النبي ﷺ معاهدة سلام مع يهود المدينة ليعيش الجميع في كنف وطن واحد، آمن، مطمئن، لم تمر الأيام طويلاً حتى أظهر يهود بني النضير نواياهم الحقيقية، وخانوا العهد، بل وصل بهم الأمر إلى محاولة اغتيال النبي ﷺ نفسه. وحينها لم يكن أمام رسول الله ﷺ إلا أن يُجليهم عن المدينة؛ إذ لا مكان لخائن بين المؤمنين ينقض عهده، ويطعن في ظهر من آمنه.

لكن تلك النفوس المريضة لم تهدأ بعد إخراجها، بل ازدادت حقداً وشرّاً، فتآمرت من جديد. اجتمع بنو النضير مع المشركين، وتحزّبوا ضد المدينة الطاهرة؛

المدينة التي كانت تنبض بالإيمان، والتي يسكنها النبي ﷺ وأصحابه الكرام، يعيشون فيها بقلوب معلقة بالله، يعمرّون أرضها، وينشرون نور الهداية فيها.

وفي طريقهم إلى الغدر، انضمت إليهم قبيلة غطفان، فاجتمع الحقد من أطرافه، وتوحدت الجبهات على هدفٍ واحد: الهجوم على المدينة واستئصال نورها. ولكن رسول الله ﷺ لم يكن رجل حربٍ يسعى إلى القتال، بل كان نبي سلام، لا يرفع سيفاً إلا دفاعاً عن الحق، ولا يقاتل إلا إذا فرض عليه القتال.

وفي تلك اللحظة الفارقة، جاء التوجيه الإلهي يريّخ منهجاً ربانياً خالداً في قلب كل مؤمن:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ

اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190]

فلم يكن القتال عندهم طمعاً ولا عدواناً، بل كان دفاعاً عن النفس، عن الديار، عن الإيمان، وكانوا يسرون على هدى هذا الأمر الرباني، لا يحيدون عنه قيد شعرة، فالله لا يحب المعتدين.

هكذا عاش النبي ﷺ وأصحابه الكرام في المدينة، بمنهج من السماء، يحملون في قلوبهم رحمة للعالمين، ويقفون بثبات في وجه العدوان حين يفرض عليهم، مستمسكين بالحق، لا تزل أقدامهم، ولا تضعف عزائمهم؛ لأنهم مع الله، والله معهم.

وهنا بلغ عدد جيش الأحزاب عشرة آلاف مقاتل، في مشهد مهيب تقشعر له الأبدان، اجتمع فيه الحقد والكراهية من مجموعة من قبائل العرب، أما جيش المسلمين فكان لا يكاد يُقارن بهم عدداً، فلم يتجاوز عددهم عشر هذا الجمع الهائل، أو في أقصى تقدير كان ألفاً وخمسمائة رجل فقط. عشرة آلاف مقاتل جاءوا ليُطفئوا نور الله، ليهدموا المدينة، وليقتلوا جذور هذا الدين من أساسه، فحاصروا المدينة المباركة من كل الجهات، كالسيل الجارف الذي يوشك أن يغرق كل ما يعترض طريقه.

في وسط هذا الزَّخَم الرهيب، وقف النبي ﷺ يستشير أصحابه ويرفق بقلوبهم، ويصنع بأيديهم سُوراً من حكمة وفطنة وإيمان... فكانت فكرة حفر «الخنْدَق» التي اقترحها الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه، فكرة لم تكن مألوفاً للعرب في حروبهم، لكنها كانت بإلهام من الله، فاستجاب لها رسول الله ﷺ، وقاد بنفسه حفر الخندق، يضرب الصخور، ويشارك أصحابه التراب والتعب والجوع.

وتمر الأيام الثقيلة، يوماً بعد يوم، حتى طالت مدة الغزوة ما يقرب من شهرٍ كامل. شهر من الصبر، والجوع، والبرد، والتعب، واليقين في الله. كان الصحابة الكرام، رجالاً ونساءً، شباباً وكهولاً، يتكاتفون صفّاً واحداً، يحرسون الخندق ليلاً ونهاراً، يداهمم البرد والنصب، بينما على الجانب الآخر، عشرات الآلاف من جنود الأحزاب يصبون الحجارة والنبال والحراش من كل صوب، يحاولون اقتحام المدينة وكسر شوكة الإيمان.

وفي خضم هذا الموقف العصيب، حدث ما لم يكن في الحسبان، ووقعت الطعنة من حيث كان الأمان يفترض أن يكون: جاء رجل من يهود «بني النضير» يدعى «حُيَّي بن أخطب»، وقد امتلأ قلبه غلاً وعداوة لرسول الله ﷺ، فضى بخبثه وخيائته إلى زعيم «بني قريظة»؛ تلك القبيلة اليهودية التي كانت تعيش في المدينة بسلامٍ تحت مظلة المعاهدة، بينهم وبين المسلمين عهدٌ واضح: النبي ﷺ يحميهم إن

غزاهم عدو، وهم يحمون المسلمين إن جاءهم خطر، عهد و اتفاقية دفاع ، لأنهم جميعاً في وطنٍ واحد، ومصيرٌ واحد، وحياةٌ واحدة.

لكن حُيي بن أخطب أغوى قلب زعيمهم، واستطاع أن يُقنعه بالخيانة، وأن ينقض العهد، ويستعد لفتح المدينة من الداخل، من الخلف، بينما الأحزاب يحاصرونها من الأمام... فحدثت الطعنة الغادرة، ووقعت الخيانة العظمى من «بني قريظة». وكانت خيانة لا تُغتفر؛ لأنها لم تكن مجرد نقض للعهد، بل كانت محاولة لطعن المدينة في ظهرها، ولتفكيك ظهر المسلمين وهم في أضعف لحظاتهم.

وهنا، في هذه اللحظة الحاسمة، علم النبي ﷺ بخيانة بني قريظة، وأمامه من جهة عشرة آلاف جندي، ومن خلفه خنجر الغدر المسموم... لكن قلبه ﷺ لم يرتجف، ولم يجزع، بل توجه إلى السماء، إلى الملاذ الأوحده، إلى الحصن الحصين الذي لا يخذل من احتوى به، فرفع يديه ودعا بكل يقين:

«اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يديّ، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوق، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي» (15).

يا له من دعاء يفيض صدقاً وخشوعاً و يقيناً! دعاءُ نبيٍّ في أحلك لحظة، لكنه يعلم أن من كان الله معه فلن يخذله أحد، وأن الحصن الحقيقي ليس سوراً من حجر، بل دعاء صادق يرفعه القلب إلى من بيده مقاليد السماوات والأرض.

ثم يأتي القدرُ في أجمل تجلياته، وتشرقُ العناية الإلهية على قلبٍ لم يكن يُنتظر منه شيء... رجلٌ كان غارقاً في ظلمات الشرك، بل من أعتى المشركين العرب، ومع ذلك شاءت رحمة الله أن تصطفيه وتجعله مفتاحاً للفرج في أحلك اللحظات. هذا الرجل اسمه «نُعيم بن مسعود»، وكان من العرب الأتقاح (16)، ومع ذلك كان

مقرباً جداً من يهود بني قريظة، تربطه بهم علاقات ودِّ ومصالح، يجلس معهم، يأكل ويشرب في بيوتهم، يأنسون بحديثه، ويهدونه تمر المدينة في كرم متبادل وعلاقات متجذرة.

ولكن... شاء الله سبحانه وتعالى أن يلقي نور الإيمان في قلب هذا الرجل، فجأة ودون مقدمات. نعم، هكذا تنزل الرحمة... من حيث لا نحتسب. يقول هو عن نفسه: (فألقي الله في قلبي الإسلام، فذهبت إلى محمد بعد العشاء). أي بعدما هدأت الحركة، وسكنت المدينة، ومال الليل إلى السكون، اتجه قلبه لأول مرة إلى طريق النور.

ذهب إلى النبي ﷺ، فوجده قائماً بين المغرب والعشاء، يصلي بين يدي الله في خشوع يملأ الأرض طمأنينةً. فما إن أنهى رسول الله ﷺ صلاته، حتى اقترب منه نعيم، وقال بكلمات تهز الروح وتزلزل القلب: «يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله». ثم أتبعها بسؤال القلب الجديد، سؤال الباحث عن دوره في نصرة هذا الدين: «يا رسول الله، ماذا أفعل؟». فأجابه النبي ﷺ بحكمة القائد، وبصيرة النبي، فقال له:

«إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، نفِذْ عنا إن استطعت» (17).

أي أنك رجل واحد، احتياجنا لك ليس أن تنضم لنا في المعركة، لكن كلمة صدق منك، أو حيلة مدروسة، قد تُحدث فرقاً عظيماً في هذه المعركة الفاصلة.

فقال نعيم بن مسعود للنبي ﷺ متردداً، ولكن بعزم من تذوق بكل كيانه نور الإيمان: «يا رسول الله، هل تُرخص لي أن أقول قولاً فيه كذب؟». أي: هل يجوز لي أن أفعل كذبة تخدم بها المسلمين وتُضعف العدو؟ فأجابه النبي ﷺ بثقة وإذن

واضح: أنت في حلٍّ من ذلك. حيث علمنا رسول الله رخصة الكذب في الحرب لحماية الأرواح من اعتداء المعتدين.

فانطلق نعيم، وقد ألهمه الله فكرة لم تخطر على بال أحد؛ فكرة عظيمة كانت بداية النهاية لجيش الأحزاب. بدأ أولاً بالمشركون، أولئك الذين يعرفونه ويثقون به، فذهب إلى قائدهم «أبو سفيان»، وقال له كلاماً خطيراً فيه الحذر والتحذير: «اعلم أن يهود بني قريظة قد ندموا على خيانتهم لمحمد، وشعروا بعظم ذنبهم، فذهبوا إليه يطلبون منه السماح والغفران، وقالوا له: سنأتيك برؤساء قريش وغطفان، فاضرب أعناقهم، واغفر لنا، وسنعيش معك في سلام، فاحذر، إن طلبوا منك أن ترسل إليهم رؤساء القبائل فلا تفعل!».«

وبعد أن زرع هذا الشك في نفوس المشركين، مضى إلى الطرف الآخر... إلى بني قريظة، أولئك الذين كانوا قد خانوا عهدهم، فخاطبهم بخبث يشبه ما زرعه، وقال لهم: «إن قريشاً وغطفان قد تعبوا من الحصار، ويئسوا من الحرب، وقد علموا أنهم لا يستطيعون اقتحام المدينة، فقرروا أن ينسحبوا ويتركوكم وحدكم في مواجهة محمد وجيشه، وأنتم تعلمون ما فعلتموه، فاطلبوا منهم أن يرسلوا إليكم بعضاً من رجالهم لتتשאوروا معهم، وانظروا ماذا سيكون ردهم».

وبالفعل، فعل بنو قريظة ما نصحهم به نعيم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان يطلبون أن يبعثوا برؤساء القبائل للتشاور... ولكن حين علم أبو سفيان بما طُلب منه، تذكّر فوراً تحذير نعيم، وقال في نفسه: هذا هو الفخ! إنه ذات ما أخبرني به، وإنهم ليخططون لقتلنا!

فرفض أبو سفيان إرسال أحد من القادة، وكذلك فعل عيينة بن حصن الفزاري، قائد غطفان. وعندما وصل هذا الرفض إلى بني قريظة، أيقنوا أنهم قد تركوا وحدهم، وأن الأحزاب راحلون لا محالة. وهنا بدأت الثقة تتزعزع،

والشكوك تفتش، والروابط تنهار. انفك الحصار، وتفرق جمع الأحزاب، وبدأ كل واحد منهم يفكر في النجاة بنفسه، وفي طريق العودة من حيث أتى.

وفي تلك اللحظة الفارقة، تدخلت القدرة الإلهية لتُغلق صفحة هذه الغزوة العصبية، كما أخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز، فأرسل رياحاً عاتية اقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وزعزعت قلوبهم، وملأتهم خوفاً وفوضى حتى تراجعوا خائبين مدحورين. كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

الله المهيمن على الأكوان.. فاطمئن

لعلك تتساءل بدهشة عظيمة، تكاد تُدهش معها روحك: من هذا الرجل الذي ظهر فجأة في قلب المعركة، واسمه «نعيم بن مسعود»؟ من أين جاء؟ وكيف وصل؟! فالجيش المسلم ظل شهراً كاملاً، يُصارع حصاراً قاسياً، لا هواده فيه، يذود عن المدينة ويصبر على الجوع والخوف، ولا يلوح في الأفق أمل في انفراجة. ثم، وفي

لحظة من لطف الله، يأتي الفرج من طريقٍ لم يكن في الحسبان، من حيث لا نحتسب، لا بخطط حربية ولا بمدد ظاهر.

إسلام نعيم بن مسعود، وتلك الفكرة النورانية التي نبتت في عقله وألهمه الله بها ليفرق بين الأحزاب ويُسكك قلوبهم في بعض، هي التطبيق الحي والواقعي للآية الكريمة:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ . [الطلاق: 2]

هنا، تنتقل من مجرد العلم النظري إلى التحقق القلبي.. من المعلومة إلى المعاشة.

العلم قد يكون راكداً في زوايا العقل، لا حياة فيه.. أنت مثلاً تعرف أن الله هو «الرزاق»، لكن لا تشعر حقاً بمعنى الاسم إلا حين تضيق بك الأرض، ثم يفتح الله لك من حيث لم تكن تتوقع، فتستدعي المعلومة من العقل لتسكن القلب وتُنيره. في تلك اللحظة، تبصر معنى قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ . [الطلاق: 2 ، 3]

ومعنى «لا يحتسب» أعمق مما نتصور.. أي أن الفرج يأتيك من طريق لم يخطر ببالك، ولا دار في خيالك، ولا حسبته يوماً وارداً. فحين جاء «نعيم بن مسعود» إلى النبي ﷺ مُعلنًا إسلامه، من الذي ساقه؟ من الذي ألهمه؟ من الذي وضع في قلبه تلك الخطة الباهرة التي فرقت بين اليهود وقريش؟ إنها يد القدرة الإلهية الخفية، التي تدبر الأمور بلطف، وتظهر آثار تدبيرها وقت الحاجة.

وهنا فارق عظيم بين خيانة بني قريظة وبين خذلان جيش المشركين.. فالأمر بدأ بدعاء النبي ﷺ المستمر، وبصبر المؤمنين خلف الخندق، ثم جاء النصر من طريق بسيط جداً.. فكرة! نعم، فكرة واحدة غيرت مصير المعركة، وهذا ما نراه أيضاً في حياتنا.

كم من مرة سألت أحدهم: «كيف بدأت هذه الوظيفة؟». فيرد: «قدمت في كل مكان، وطرقت كل الأبواب، ثم صادفتُ صديقاً قديماً بغير أي ترتيب، أخبرني بأن أحد جيرانه يبحث عن موظف.. وبعدها بأسبوع بدأت عملي». فما الذي حدث هنا؟ لقد سعيت، وبذلت كل ما بوسعك، لكن الله أرسل لك الفرج من طريق آخر.. من حيث لا تحتسب.

أحب دائماً أن أسأل المتزوجين عن قصة لقاءهم الأول.. كثيراً ما أسمع قصصاً توحى بجمال التدبير الإلهي: كنتُ ماراً بسيارتي أمام المسجد، وقررتُ أن أصلي، فوجدتُ زميلة من أيام الدراسة منذ 20 عاماً خارجة من عزاء في نفس المسجد.. وبعدها بدأت قصتنا. اللقاء الأول وحده كان من ترتيب السماء.. من حيث لا يُحتسب.

فاطمئني.. فإن الله مُهيمن على الكون، لا يغيب عنه شيء، يُدبر بعلم، ويُنجي بلطف، ويأمر فتُطاع أوامره.

قصة الريح العاتية وشجاعة سيدنا حذيفة رضي الله عنه

كان النبي ﷺ يدعو ربه ثلاثة أيام متتالية، لا يكل ولا يمل، يناجيه بقلب الصادق المحب:

«اللَّهُمَّ مُزِيلَ الْكِبَابِ، وَجُرِّي السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ» (18).

ويقول أيضاً: «اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذُ بعظمتك أن أغتالَ من تحتي».

وبينما النبي ﷺ يدعو، جاء نعيم بن مسعود يُفرق بين صفوف العدو، وهنا بدأ التحول الكبير.

فثلما أمر الله البحر أن يحفظ موسى عليه السلام، وأمر السماء أن تُمطر، والأرض أن تنفجر وقت طوفان نوح عليه السلام، ها هو الكون كله يتحرك بأمره من جديد.

أمر الله برياح شديدة البرودة والسرعة أن تُغير مجرى الحرب. وكانت هذه الرياح تعصف بخيام المشركين، على مسافة أمتار قليلة فقط من معسكر المسلمين، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9]

كانت الريح تعصف بعنف: تكفى القدور، فلا أحد يستطيع طهي طعامه أو
أكله. تقتلع الأوتاد، فتهدم الخيام.. تغمر الناس بالتراب، حتى الحيوانات كادت
تُدفن تحت الرمال.

وفي وسط هذه الفوضى، جلس رسول الله ﷺ مع أصحابه، وكانوا قلة.. قيل
إنهم كانوا اثني عشر رجلاً فقط، وقال ﷺ:

«أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بَخْبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» (19).

فلم يقم أحد.. من شدة الخوف والجوع والبرد، كما روى سيدنا حذيفة بن
اليمان لاحقاً.

فقال النبي ﷺ: «يا حذيفة». قلت: (ليبك يا رسول الله). قال: «قم». يقول
حذيفة: (فما وجدت بداً من طاعة رسول الله). هو اختارني فلا مجال للاعتراض.
فلبس قطيفة ثقيلة كانت لزوجته من شدة البرد و الفقر والحاجة، وعبر الخندق في

برد قارس، فإذا به يدخل معسكر المشركين ويقول: «وكأني في حمام». أي أن الله قد أزال عنه البرد.

وقد أوصاه النبي ﷺ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِنِي». فدخل المعسكر، ورأى بأم عينيه الرياح تكفيء القدور، وتغطي الجنود، وأبو سفيان يُنادي فيهم: «لا طاقة لنا بالمقام هنا، الخيام اقتلعت، والرمال أكلتنا، والبرد أهلكنا.. الرحيل، الرحيل». يقول سيدنا حذيفة: (فوقفت وأبو سفيان أمامي موقد للنار؛ فإن شئت آتي من الكثانة بسهم وأضربه به فأقتله ولكني تذكرت أمر رسول الله ﷺ بألا أحدث شيئاً حتى أرجع إليه). ثم طلب أبو سفيان من الجميع أن يتحققوا من جيرانهم خوفاً من التجسس وسط الظلام، فبادر حذيفة وسأل من على جانبه: «من أنتم؟»، فأجابوه ولم يسألوه لجرأته وهدوئه.

عاد سيدنا حذيفة إلى سيدنا النبي ﷺ، فوجده قائماً يصلي.. فالنبي ﷺ إذا أفزعه أمر، فزع إلى الصلاة. يقول: (فلما اقتربت منه وهو يصلي أشار إلي أن ادن مني) .. فقديمًا كان العرب يرتدون ملابس واسعة جدًا، حتى عندما نشاهد في أيامنا هذه ملابس من ملابس آل البيت أو السيدة فاطمة والموجودة في المتاحف تجد أنها شديدة الاتساع، فكان النبي ﷺ يلبس عباءة واسعة فأشار إلى سيدنا حذيفة أن ادن حتى أسبل عليه الرداء؛ أي غطاه معه (فألْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عِبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا)، فقلت: (سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا. وقال لهم أبو سفيان: ارتحلوا وكنت لأضربه بالسهم ولكني تذكرت أمرك لي بألا أحدث شيئاً حتى آتي إليك).. وهنا فقد صرف الله القوم بالريح والحمد لله، وهكذا صرف الله الأحزاب، وأذهب عن المؤمنين الخوف، وكتب لهم نصراً عظيماً، لا بسيف ولا بعدد، بل برحمة من الله، وريح من أمره، ونور من دعاء نبيه ﷺ.

وهكذا، بقلوب صادقة، وبدعاء نبي، وبجيلة رجل ألهمه الله، وبريح من السماء... انقلبت الموازين، وانتهت الغزوة قبل أن تبدأ الحرب الحقيقية.

يقين سيدنا حذيفة رضي الله عنه في كلام النبي ﷺ

تجلت قصة ذهاب سيدنا حذيفة بالأخبار من داخل معسكر الأحزاب - ذلك الجيش الجرّار الذي اجتمع على حرب المسلمين - كقصة تُشرق بأنوار إيمانية عظيمة، تُعلّم القلب كيف يكون التسليم والثبات عند أمر الله ورسوله ﷺ.

النور الأول

هو نور يفتح البصيرة على بشرية الصحابة صلى الله عليه وسلم، أولئك الأبطال الذين خاضوا معارك أحد وبدر بثبات وشجاعة تفوق الوصف. وبرغم بطولاتهم الخارقة، فقد كانوا في تلك الليلة القارسة من ليالي الأحزاب يعانون من شدة البرد والخوف والجوع، حتى إن أرجلهم لم تعد تقوى على الحركة، وقلوبهم بلغت الحناجر. والنبي ﷺ، في هذه اللحظة، طلب من أحدهم أن يذهب ليأتيه بخبر القوم، وضمن لمن يذهب أن يعود، بل بشره بأنه سيكون رفيقه في الجنة. ومع ذلك، لم يتحرك أحد من الصحابة، لا عجزاً عن الطاعة، ولكن لفرط ما أصابهم من برد وشدة ورهبة.

هنا، لم يُطل النبي ﷺ على أصحابه لحظة التردد، بل رحمةً بهم، اختار بنفسه، وقال: «قم يا حذيفة». فاستجاب حذيفة بكل طمأنينة ويقين، وقال: «فما وجدت من طاعة الله ورسوله بدأ». فما دام أن هذا أمر رسول الله ﷺ، فلا مجال للمراجعة أو التراجع. وكان قلبه كله يقيناً بأن وعد الحبيب ﷺ صادق، وأنه سيعود كما قال.

ثم انطلق سيدنا حذيفة في مهمته، ودخل معسكر المشركين، وكان من الممكن أن ينتهز الفرصة ويُطلق سهمًا فيقتل قائد القوم، أبا سفيان، ويعود بنصرٍ يتغنى به الناس، لكن قلبه كان متعلقًا بوصية النبي ﷺ حين أوصاه ألا يُقدم على شيء حتى يعود إليه، فالتزم بالأمر رغم ما كان فيه من فرصة عظيمة، واكتفى بأن يُصغي ويرى ويعود، مستجيباً لطاعة تُظهر مدى صدقه، ويقينه، ونقاء سريرته.

• - النور الثاني

في أشد اللحظات ظلمة وضيقًا، لا ينسى النبي ﷺ أن يُمارس رحمته الواسعة وعطفه الإلهي على أصحابه، في وقتٍ لم تعرف فيه العرب هذه اللفتات الخنونة، ولم تألفها القلوب القاسية. حين عاد سيدنا حذيفة من مهمته، في ظلمة الليل، وقسوة الريح، والبرد القارس، كان النبي ﷺ يُصلي وقد التحف ببرد واسع، فأخذ سيدنا حذيفة رضي الله عنه، وأدخله تحته، إلى جواره، وغطّاه بالبرد، وأكل صلاته وهو يحتضنه بهذا الحنان النبوي العظيم.

ثم، بعدما انتهى ﷺ من صلاته، التفت إليه بلطف الحبيب وسأله: «ما الأخبار؟». تلك اللمحة وحدها كافية لتُعلِّمنا أن الطمأنينة وقت الشدة لا تعني الغفلة، بل تعني الثبات، تعني أنك على يقين أن ما من شيء يقع في مُلك الله إلا بما أَراده الله. فالإنسان الراضخ الإيمان، الثابت القلب، إذا مرَّ بالكرب لا يتوتر ولا يضطرب؛ لأنه يستحضر يقيناً حياً نابضاً؛ أن الله هو الذي يُدبر كل شيء في هذا الكون، فلا نفس يخرج أو يدخل، ولا رزقٌ يكثر أو يقل، إلا بأمره سبحانه.

لكن كثيراً من الناس يعرفون هذه المعاني، ولا يُفعلونها في لحظة المحنة، فيبقونها معلقة في العقل دون أن يترجموها في القلب والسلوك. فإذا أتاك البلاء،

فكن على طريق رسول الله ﷺ، ساكن النفس، راسخ اليقين، تفيض منك أنوار الطمأنينة والحنان على من حولك، فترى فيك جمال شخصيتك المتأثرة بالنبى ﷺ.

فاطمئن... فما قدره الله لك سيأتيك، وما ليس لك فلن يصيبك، وسيرى من حولك كنوزك المخبوءة و صفاتك العظيمة التي ظهرت في المحن، حين تُسلم قلبك لله، وتفعل كما فعل حذيفة رضي الله عنه، وتوقن كما أيقن رسول الله ﷺ، وتكون، في لحظة الشدة، رسولَ رحمة في محيطك، كما كان حبيبك ونبيك ﷺ.

جزاء خيانة بني قريظة:

بعد أن انقضت غزوة الأحزاب بفضل الله العظيم، الذي ألهم (نُعيم بن مسعود) الإسلام في وقتٍ دقيقٍ وفارق، ثم أرسل ريحاً عاتية اقتلعت خيام الأحزاب ومعداتهم وفرقت جمعهم، جاءت لحظة فرح مميزة لقلوب المؤمنين؛ إذ دخل إلى المدينة سيدنا العباس بن عبد المطلب - عم النبي ﷺ - مهاجراً من مكة، وهي لحظة أسعدت قلب النبي ﷺ. ويرجح بعض العلماء، وأنا معهم، أن سيدنا العباس كان مسلماً يخفي إسلامه حماية لابن أخيه ﷺ، يُخبره بما يجري في مكة من أخبار تمس المسلمين، وأنه أسلم في وقتٍ مبكر ربما منذ غزوة بدر.

وبعد أن هدأت الساحة قليلاً، دخل النبي ﷺ إلى بيته - الذي كان جزءاً من المسجد النبوي، وهو ذات الموضع الذي دفن فيه لاحقاً ﷺ - ليضع عنه السلاح ويغتسل من عناء الحرب. ونجأة، نزل عليه جبريل عليه السلام عند باب المسجد، وقال له: (أَوَ قد وضعتَ السلاحَ يا رسول الله؟). فقال النبي ﷺ: «نعم». فأجابه جبريل:

«ما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم»⁽²⁰⁾.

يقصد القوم الذين خانوا العهد، وهم بنو قريظة.

لقد كانت خيانة بني قريظة عظيمة.. فقد كان المفترض بهم أن يكونوا جزءاً من قوة المدينة الداخلية، يحمونها ويقاتلون إلى جوار النبي ﷺ، فإذا بهم ينقلبون ويصبحون حلفاء للأعداء وقت الحرب.

نخرج النبي ﷺ وقال لأصحابه:

«لا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»⁽²¹⁾.

في إشارة منه لسرعة التحرك إلى ديار بني قريظة ، فتحرك الصحابة على الفور، منهم من صلى العصر في الطريق لما أوشك وقت المغرب على الدخول، ومنهم من أصر على ألا يصلها إلا في بني قريظة امتثالاً دقيقاً لأمر النبي ﷺ. وهنا تتجلى روعة الفهم والاتباع؛ فبعضهم استند إلى «المقاصد والمعاني»؛ أي مقصد النبي ﷺ من الأمر وهو سرعة الحركة ، والبعض الآخر التزم بـ «الألفاظ والمباني»؛ أي ظاهر لفظ الحديث. ومن هنا، نشأت أصول الاختلاف في بعض النصوص؛ فكل له وجهته المستندة إلى الفهم والاجتهاد.

وصل النبي ﷺ إلى حصون بني قريظة، علماً أن عدد شهداء المسلمين في غزوة الأحزاب لم يتجاوز الستة، مقابل ثلاثة فقط من المشركين، رغم حصار دام خمسة وعشرين يوماً، وهذا من ستر الله ورحمته.

فبعث إليهم (حُي بن أخطب) رئيس يهود بني النضير، وهو الذي حرضهم من البداية على الخيانة، يوم أن ذهب إلى (كعب بن أسد القرظي) داخل حصونه وأقنعه بنقض العهد مع النبي ﷺ. ولما اشتد عليهم الحصار، اجتمعوا ليتشاوروا، فقال لهم حُي إن أمامهم ثلاثة اختيارات:

♦ إما أن يُسلموا للنبي ﷺ فيتصالحوا معه، فقالوا: لن نترك التوراة أبدًا.

♦ أو أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم، ثم يقاتلوا قتال المستميت بلا خوف، فإن انتصروا عادوا إليهم، وإن هُزموا لم يكن عليهم همٌّ، فرفضوا هذا الرأي وقالوا: فما ذنب النساء والأطفال؟

♦ أو أن يقاتلوا محمدًا وجيشه، فقالوا: اليوم السبت، ولا نفعل فيه شيئًا.

فقال لهم حُي ساخرًا: «منذ أن عرفتم ولا تثبتون على حال». أي لا رأي لكم ولا عزيمة منذ القدم.

وصل النبي ﷺ وحاصر حصون (بني قريظة) وكان ممن ارتبط ببني قريظة بعلاقات سابقة سيدنا أبو لبابة الأنصاري رضي الله عنه، فقد كان حليفًا يتاجر معهم، وفقًا لمعاهدة السلام التي أُقرت في المدينة. وعندما بعث إليه بنو قريظة

يسألونه عن نية النبي ﷺ فيهم، أشار بيده إلى رقبته، كناية عن القتل. ثم أدرك أنه أفشى سرًّا من أسرار النبي ﷺ إلى قوم خانوا العهد، فشعر بذنبه العظيم. فذهب وربط نفسه في سارية من سواري المسجد وحلف ألا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده، وظل على حاله عشرين يومًا كاملة، حتى إن النبي ﷺ كان يمر به ويسأل عنه، فيقال له ما فعله، فيصمت ﷺ حتى يقضي الله فيه.

ثم نزل قوله تعالى:

﴿وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

[التوبة: 102]

فأمر النبي ﷺ الصحابة بفك وثاقه، لكن أبا لبابة قال: (والله لا يحلني إلا رسول الله بيده)، فذهب إليه ﷺ بنفسه وفكّ وثاقه، وبشره بتوبة الله عليه، في مشهد يفيض بالرحمة النبوية والقبول الإلهي.

وبعد طول حصار، لم يعد بنو قريظة يُطيعون الصبر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ يخبرونه أنهم سيقبلون بحكمه فيهم. فقال لهم ﷺ:

«أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟».

فكان قبل الإسلام سيدنا (سعد بن معاذ) سيد الأوس أكبر حليف لبني قريظة.. فسألهم النبي ﷺ:

«فَذَاكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ» (22) .

قالوا: (نعم) فهو من يحكم ، فنأى النبي ﷺ على سيدنا (سعد بن معاذ) سيد الأوس، والذي كان مصاباً بسهم في عرق يده منذ غزوة الأحزاب، يُعالج عند السيدة ربيعة الأنصارية، والدم ينزف منه بغزارة.

جاء سعد بن معاذ على حمار، محملاً من شدة الألم، وهو في الرمق الأخير من حياته.. يلي نداء الحبيب ﷺ، فقال النبي ﷺ: «قوموا لسيدكم». فقام له الصحابة احتراماً.. مشهد مهيب... سيد في قومه، وشهيد يوشك أن يلقي الله، وحكم في قضية خيانة كبرى.

من أجمل الخواطر في احترام أدب الخلاف

من المشاهد العظيمة التي ينبغي أن نحفظها في قلوبنا وتأملها بعين الأدب والبصيرة، ذلك الموقف الذي يعد من أشهر ما ذكر في كتب العلماء عن أدب الخلاف، وهو ما حدث بعد غزوة الأحزاب. فحين انتهت المعركة وشرع النبي ﷺ في خلع ملابس الحرب للراحة، إذ بالوحي ينزل عليه، وجاءه سيدنا جبريل عليه السلام برسالة ربانية، يأمره فيها بالتوجه إلى بني قريظة. فما كان من النبي ﷺ إلا أن نهض بعزم لا يلين، وقال لأصحابه الكرام: «لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ».

وهنا اختلف الصحابة في فهم هذا التوجيه النبوي؛ ففريق منهم فهم أن المقصود هو التعجيل والانطلاق الفوري إلى بني قريظة، فصلوا العصر في الطريق خشية خروج الوقت، وفريق آخر تمسك بظاهر النص، فلم يصلوا العصر إلا في بني قريظة تنفيذاً لأمر النبي ﷺ حريفاً. فلها عُرِض الأمر على النبي ﷺ، لم ينكر على أي من الفريقين، وأقر كلا الرأيين؛ لأن كليهما اجتهد وتحرى الفهم الصحيح.

هذا المشهد يجب أن يُخلد في وجداننا، خاصة في هذا الزمن الذي كثرت فيه المشاحنات على مواقع التواصل، وصار بعض الناس يعيب على غيره لأنه أخذ برأي فقهي يختلف عن رأيه. فتجد أحدهم يتعصب لرأي معين في مسألة اجتهادية، ويخطئ أو حتى يسخر ممن اتبع رأياً آخر، كأن الأمر لا يحتمل التعدد والاختلاف.

ولكن الله جل في علاه، بحكمته البالغة، جعل في شريعته نصوصاً قطعية الدلالة لا تحتمل إلا معنى واحداً واضحاً بيناً أجمع عليه العلماء، وجعل فيها كذلك نصوصاً ظنية الدلالة تحتمل أكثر من تفسير، وأكثر من معنى اختلف فيه العلماء، وهنا يأتي دور العلماء، لا العوام؛ لأن العلماء هم الذين امتلكوا أدوات فهم النصوص، وتعمقوا في علوم القرآن والسنة، فصاروا قادرين على التفريق بين ما هو قطعي وما هو ظني، وما يحتمل الخلاف وما لا يحتمله.

ويطلق على هذا النوع من الاختلاف اسم «الخلاف المعتبر»، وهو اختلاف سائغ مقبول، لا يُعاب فيه أحد، ولا يُجرَّح فيه مسلم. فإن أخذت برأي، ووجدت صاحبك قد أخذ برأي آخر، فلا تتعجل بإنكارٍ عليه، ولا ترفع حاجب الدهشة أو الازدراء، فلربما كان في قوله وجه من الدليل كما كان للصحابة أكثر من فهم لنفس حديث سيدنا النبي ﷺ.

والأخطر من ذلك، بل الأشد أماً على القلوب والعقول، أن نرى بعض الناس يُهاجمون العلماء والمؤسسات الدينية المعتبرة كدار الإفتاء، التي تصدر فتوى مبنية

على الدليل وأقوال أهل العلم، فيأتي شاب أو فتاة في التعليقات ويكتب: «لا تفتوا في الدين!» كأنهم يُكذبون علم العلماء أو يُسقطون هيبتهم، وهم لم يدرسوا يوماً على أيديهم، ولم يجلسوا في حلقاتهم.

يا صديقي، دار الإفتاء ليست جهة غريبة عنا، بل هي الجهة التي تربي على أيديها تلامذة نَحترمهم ونجلهم. وهذا لا يعني أننا نُسلم عقولنا بلا وعي، بل يعني أننا نَحترم العلم وأهله، فإن صدر منهم رأي نسأل ونفهم ونتعلم، فإن كنا علماء مثلهم ناقشناهم بأدب، وإن كنا من غير أهل العلم فنتبع من أفنى عمره في دراسة النصوص، وفهم الخلاف، واستيعاب دلائل القرآن وكلام النبي ﷺ.

وفاة سيدنا سعد بن معاذ

بعد أن انتهت المعركة وهدأت النفوس، جاء موعد الفصل، فاستدعي سيدنا سعد بن معاذ ليكون هو الحكم في بني قريظة، فحين وصل، قال النبي ﷺ للصحابة من المهاجرين والأنصار: «قوموا إلى سيدكم». فقاموا جميعاً، ووقف زعماء اليهود يقولون: «نعم، هو من يحكم فينا، رضينا به حكماً». فالتفت إليهم سعد بن معاذ وسألهم: «وهل إذا حكمتُ، يُنفذ حكمي عليكم؟». قالوا: «نعم». وأشار إلى رسول الله ﷺ بإجلال وقال: «وهنا أيضاً؟». فأجابه النبي ﷺ: «نعم». فقال سعد: «آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.. أحكم أن تُقتل مقاتلاتهم وتؤخذ أموالهم».

فقال النبي ﷺ:

«قَضَيْتَ بِحُكْمِ الْمَلِكِ» (23).

وقف الناس كثيراً أمام هذا المشهد، فمن المعروف أن عدد رجال بني قريظة كان ما بين 400 إلى 700، والحكم كان بقتل هؤلاء المقاتلين. وهنا يتوقف البعض ويشعر أن هذا الحكم دموي قاسٍ. لكن دعني أوضح لك أمرين مهمين حتى تتسع الرؤية وتطمئن القلوب.

أولاً: التصور

يجب أن نفهم أولاً ما حدث. بنو قريظة لم يكونوا مجرد يهود يعيشون في المدينة، بل كانوا جزءاً من الحلف العسكري القائم بين المسلمين واليهود، وفق معاهدة واضحة تقول: «إذا هاجم العدو المدينة، يدافع الجميع عنها؛ مسلمون ويهود على حد سواء». يعني كانوا جزءاً من جيش المدينة عند الاعتداء الخارجي، ولكن في لحظة الحرب، خان هؤلاء الحلفاء، تركوا مواقعهم وفتحوا الجهة الجنوبية للمدينة أمام جيش الأحزاب الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل، بينما عدد المسلمين في المدينة كان أقل بكثير من ذلك.

بحسابات الحرب البشرية، لو دخل الأحزاب المدينة، لكانت هناك إبادة جماعية، وانتهى الإسلام قبل أن ينتشر، لكن الله نصر دينه و نبيه ﷺ و عباده الصالحين، الخيانة هنا لم تكن خيانة صغيرة، بل خيانة مصيرية في وقت حرج ، كادت تؤدي بكل من في المدينة من أطفال ونساء وشيوخ ورجال. إذاً فالأمر ليس عاطفياً، بل يُنظر إليه من زاوية المسؤولية العسكرية والسياسية والأمنية.

ثانياً: الثقافة

حين تفهم كيف تعاقب الدول الحديثة من يخون جيش بلاده وقت الحرب، ستري أن الخيانة العسكرية في كل زمان ومكان يُعاقب عليها بأقصى العقوبات. فليس عدد الخونة هو الذي يُحدد الحكم، بل نوع الجريمة وخطورتها. بعضهم يستنكر كيف وافق النبي ﷺ على هذا الحكم، لكنه ﷺ وافق لأن الأمر كان عدلاً، لا انتقاماً. فالقضية كانت قضية بقاء أمة، لا نزاعاً قُبلياً.

بعد أن حكم سيدنا سعد بن معاذ بهذا الحكم العادل، عاد وقد أُصيب في المعركة وظل جُرحه ينزف، فعاش بعد هذا الموقف نحو شهر فقط، ثم مات شهيداً متأثراً بإصابته. وحين فاضت روحه الطاهرة، قال النبي ﷺ:

«اهتزّ العرش لموت سعد بن معاذ»⁽²⁴⁾.

تأمل عظمة هذا الرجل! لم يمضِ على إسلامه سوى ست سنوات، لكن صدقه وإخلاصه ووفاءه جعل عرش الرحمن يهتز فرحاً بقدوم روحه! وعندما سار النبي ﷺ في جنازته، بدا عليه مشقة السير و كأن شيئاً يزاحمه، فقال له الصحابة: «ما بك يا رسول الله؟». فأجابهم:

«لقد تبادر إلى غسله سبعون ألف ملك»⁽²⁵⁾.

وفي يوم آخر، حين قُدِّمت للنبي ﷺ هدية عبارة عن عباءة جميلة نادرة، أُعجب بها الصحابة، فقال لهم النبي ﷺ:

«أتعجبون من هذا؟ قلنا: نعم. قال: مَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ هَذَا» (26).

وسيدنا سعد كان شهيداً، والشهيد يُغفر له من أول دفقة دم، ويُعطى منازل عليّة في الجنة، ويكون في معية الأنبياء والصالحين.

وهكذا انتهت غزوة الأحزاب، بنصر الله وستره، رغم خيانة بني قريظة. وأكمل النبي ﷺ دعوته، لا ببطش أو انتقام، بل برحمة ورفق ومحبة؛ فقد كان ﷺ نوراً أرسله الله ليُخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان والرحمة.

الحكم بقتل جنود بني قريظة مشهد عزل إلهي تهتز له القلوب

أعلم يقيناً أن كل قلب فيه رحمة وكل فطرة لا تزال على صفائها، قد يتعجب من حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في حادثة بني قريظة، حين حكم بقتل من شارك من رجالهم في خيانة الأمة العظمى، وقد وافق النبي ﷺ على حكمه، بل قال له: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات». ورغم هذا، لم يُقتلوا جميعاً، بل كان من بينهم رجل اسمه عمرو بن سعد، لم يشترك في القتال، فتركه النبي ﷺ، بل أكرمه. وهذا التفصيل يُظهر لنا أن الأمر لم يكن إقصاءً عشوائياً ولا قراراً جائراً، بل محاكمة دقيقة ميزت بين الخائن والبريء.

لكن قبل أن تحكم بقلبك أو بعاطفتك على هذا الموقف، تذكّر أن المدينة آنذاك لم تكن حكرًا على المسلمين وحدهم، بل كانت تتألف من المسلمين والمشرّكين

واليهود، وكان الجميع موقعين على معاهدة واضحة كتبها النبي ﷺ بنفسه عند قدومه إلى المدينة، نصت على أن الدفاع عن المدينة واجب مشترك، وأن أي اعتداء خارجي يُرد بجيش واحد يضم الجميع، من مسلمين ويهود ومشركين، جيش المدينة الموحد.

فلو كان النبي ﷺ ينوي إبادة اليهود - كما يزعم البعض - لكان فعلها حين دخل المدينة أول مرة وهو في أوج قوته، لكنه لم يفعل، بل قدم السلام والتعايش، وأقر لهم بحقوقهم، وتعامل معهم كجزء من سكان المدينة الموحدة. لكن حين جاءت غزوة الأحزاب، ووقعت خيانة بني قريظة العظمى، حين نقضوا العهد في لحظة حرجة وانضموا للأحزاب المحاصرة، خانوا المدينة وأهلها، فكان هذا خرقاً عسكرياً مدمراً، يعادل في قوانين العصر الحالي خيانة عظمى لا يتسامح معها.

ولأقرب لك الصورة: لو أن وحدة من جيش أي دولة انفصلت في وقت حرب وانضمت إلى صفوف العدو، وشاركت بفاعلية في محاربة وطنها، ثم عادت بعد الحرب، كيف تحكم عليهم؟ بأي قانون يحاكمون؟

كل قوانين العالم ومبادئ العدل والحق تُجمع على أن الخيانة العظمى لا تُغتفر، وأن من يرتكبها - فرداً كان أو ألفاً - يُحاكم ويُحاسب بالعقوبة التي تليق بحجم الجريمة.

ولا تنسَ أن هذا الحكم لم يكن في جو رخاء أو استقرار، بل في خضم حرب مصيرية، كانت الأمة فيها على شفا الإبادة. ولولا ستر الله، لكانت الأحزاب - بتحالفهم مع بني قريظة - قد اجتاحت المدينة وقضوا على المسلمين قضاءً تاماً، لكن الله سلم، ورد كيدهم. وإن كنت تحيا اليوم في أمن وسلام، فذلك من رحمة الله بك، الذي قال على لسان يوسف عليه السلام:

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: 99]

أما في الحروب، فإن القتل قد يطال الآلاف، والإبادة قد تبتلع أحياءً كاملة. فلو أن الذي وقع هو أن الأحزاب سحقوا المسلمين وقتها، فهل كان قلبك سيتحمل حجم الألم؟ إذا، لا تنظر للنتيجة فقط، بل انظر لبداية القصة، وللخيانة التي كادت تُفني الأمة.

لقد قُتل رجال بني قريظة لأنهم لم يكونوا فقط أفراداً في المدينة، بل جنوداً داخل الجيش، ثم خانوا جيشهم وانقلبوا عليه. ولو لم يُحاسبوا، لضاعت هيبة العدالة وانهار الكيان الوليد.

وينبغي ألا يقال إن النبي ﷺ أبادهم كيهود، فهذا تجنٍّ عظيم، بل الحقيقة أنهم خُونُوا لأنهم خانوا، لا لأنهم يهود. ودليل ذلك أن اليهود الذين لم يخونوا لم يمسهم سوء، بل عاشوا في المدينة سنين بعدها في أمان. وحين تنظر في كتب التاريخ بعين منصفة، ستكتشف أن عدد شهداء المسلمين في جميع حروب النبي ﷺ لم يتجاوز 262 شهيداً، وأن مجموع قتلى المشركين لم يتعد 1025، على مدار أكثر من عقد من الزمان، رغم كثرة المعارك. هذا العدد الهزيل - مقارنة بحروب العالم - يدل على أن النبي ﷺ لم يكن يسعى إلى الدماء، بل كان يحب السلام و حفظ الأرواح.

قارن هذا بحروب العصر الحديث: الحرب العالمية الثانية وحدها كان فيها 15 مليون جندي، لكن عدد القتلى بلغ 60 مليون إنسان! مدن أُبُدت بالكامل، وأقوام مُحِيت من الوجود، رغم أن الكثيرين منهم لم يكونوا محاربين.

فاطمئن، فإن رسول الله ﷺ كان حامل نور وسلام، وكانت رسالته تحركها
أعظم آية في التسامح:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: 256]

الوقت ذاته، كان قرآنه يُقرُّ الحق والعدل والحزم مع من يقاتل الأمة:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: 190]

فالميزان الإلهي دقيق، لا يُميله الهوى ولا يُعطله اللين. إنه ميزان الرحمة والعدل معًا.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي
انشقت منه الأسرار، وانفلقت منه الأنوار، اللهم
عرفنا إياه معرفة نسلم بها من موارد الجهل ونتزود

منه في بحار الفضل، واحملنا على سبيله إلى
حضرتك حملاً محفوظاً بنصرتك محفوظاً برعايتك.

اللهم اجعل لنا أوفر نصيب من كل خير تقسمه،
ومن كل نور نهتدي به، وكل رحمة من فضلك
تنشرها، أو رزق من عندك تبسطه، أو دينٍ عن
عبادك تقضيه، أو فتنة عن عبادك تدفعها برحمتك
وكرمك يا أكرم الأكرمين.



(15) رواه أبو داود.

(16) قُحَّحٌ: من لم يدخل الأمصارَ ولم يختلطَ بأهلها.

(17) ورد في الأثر.

(18) رواه البخاري.

(19) رواه مسلم.

(20) رواه ابن إسحاق.

(21) رواه البخاري.

(22) رواه ابن هشام.

(23) رواه مسلم.

(24) رواه البخاري.

(25) رواه البخاري.

(26) رواه البخاري.

قصة وفاء زينب لزوجها وصُلح الحُدَيْبية

وفاء زينب لزوجها أبي العاص بن الربيع

بعد أن استقر الغبار عن غزوة الأحزاب في السنة السادسة للهجرة، شهدت المدينة المنورة مشهداً يخطف الأبصار ويذيب القلوب، قصة تنسج خيوطها من نور الإيمان وعناقيد الحب الصادق.

كان أبو العاص بن الربيع - ذلك الرجل الذي تشهد له صحائف الوفاء - قد ظل زوجاً للسيدة زينب الكبرى بنت رسول الله ﷺ، متمسكاً بها في أحلك ساعات الدعوة. حين سعى ابنا أبي لهب إلى تطليق ابنتي النبي ﷺ لإثارة قلبه، وقف أبو العاص صخرةً أمام العاصفة، رافضاً تطليق زوجته. لكن شريعة الحق شاءت بعد أعوام أن تفصل بينهما؛ فقد ظل قلبه حبيس أغلال الشرك، بينما أشرقت روح زينب بنور الإسلام من أول يوم، فأمرها أبوها النبي الكريم ﷺ بالعودة إلى بيت الطهر؛ إذ لا عقد بين مؤمنة وكافر.

وفي ليلة قدّرها الله لفتح مغاليق القلوب، كان أبو العاص يسوق قافلته قرب المدينة، فالتقى سريةً من المسلمين. دارت رحى المعركة، وانتهت باستيلاء المسلمين

على القافلة، وفرار أبي العاص في ظلمة الليل.. لكنه لم يفر إلا إلى واحة أمانه الوحيدة! طرق باب زينب - حبيبته وزوجته الأولى - مستجيراً بها، وكلمة (استجار) عند العرب تعني أنه طلب حمايتها، وهنا يعلو المشهد إلى ذروة الجلال، فيقول راوي الحديث: بينما كان الرسول ﷺ يصلي الفجر بالمسلمين، رفعت زينب رأسها من حجرتها المطلة على المسجد وصاحت بكل ثقة الإيمان: «قد أجرت أبا العاص بن الربيع!».

وبعد أن أتم الرسول ﷺ الصلاة، التفت إلى أصحابه يسألهم في خشوع:

«هل سمعتم ما سمعتُ؟» (27).

قلنا: (نعم يا رسول الله). ثم تذكر الصحابة الكرام حديثاً علمهم إياه النبي ﷺ يضيء هذا الموقف:

«وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ» (28).

أي أنه عندما يقول أقل واحد منا: (أنا أحمي فلاناً وأنه يهمني أمره) نحترم هذا الأمر بغض النظر أهو عظيم أم بسيط في قومه.

فأعلن رسول الرحمة ﷺ بصوته الذي يلامس شغاف القلوب:

«وقد أجرنا من أجارت» (29).

فهي ليست كأبي أحد؛ إنها زينب ابنته الكبرى.

وهنا تجلت روعة الإسلام، لم يكتفِ النبي ﷺ بمنح الأمان، بل التفت إلى أصحابه قائلاً في لطف لا يوصف:

«إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردوه،
فإننا نحب ذلك» (30).

فما كان من المسلمين إلا أن أعادوا لأبي العاص قافلته بكل ما فيها، درةً يتيمة في تاج الكرم النبوي.

وقبل رحيله إلى مكة، أوصى النبي ﷺ ابنه أن تكريمَ مثوى أبي العاص بضيافة المؤمنين، لكن بمحدود الشريعة الغراء. فلما عاد أبو العاص إلى مكة، وقف أمام قريش يعلن كلمتين هزتا عروش الشرك: «يا معشر قريش، هل بلغتكم أموالكم؟». قالوا: «نعم، جزاك الله خيراً». فانطلق صوت الحق من أعماقه: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله!» وعاد مسرعاً إلى المدينة؛ ليهتز مسجد الرسول ﷺ ببكاء الفرح، وتلتقي روحان افترقتا ست سنين على عتبات الإيمان.

فكان هذا اللقاء المعجزة ثويجاً لقصة حبٍّ صابرٍ، جمعها النبي ﷺ بعهدته الأول دون إعادة نكاح، فانخت الدموع إجلالاً لوفاء زينب، وصبر أبي العاص، وحكمة الرسول ﷺ الذي أدرك أن نور الإيمان سيذيب - حتماً - ظلمات الجاهلية.

قصة تعيد للحبِّ قدسيته، وللصبر معناه

لقد جسّدت زينب بنت النبي ﷺ وأبو العاص أسمى معاني الوفاء: فهو الذي رفض - يومَ اشتداد الأذى على المسلمين - أن يُطلقها رغم إغراءات قريش: «لا أَرْضَى بديلاً لزينب!»، وهي التي صبرت ست سنين كاملةً وهي تُنادي في صمتها: «رَبِّيَ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبَهُ سَيُشْرِقُ بنور الإسلام!». حتى إذا فرَّ إليها خائفاً بعد غنيمة القافلة، لم تتردد أن ترفع صوتها في محراب الصلاة: «قد أجرت أبا العاص!»، فيجيبها أبوها الحبيب ﷺ بتكريمٍ يذيب الصخر: «وقد أجرنا من أجارت».

لماذا نذكر هذه القصة اليوم؟

لأننا في زمنٍ صار الطلاقُ «كلمة عابرة» تُلقى لأتفه الخلافات، بدعوى:

♦ «أنا أريد راحة البال فقط!».

♦ «لم يعد يُحسن إليَّ، فلماذا أبقيه؟».

♦ «زواجنا كان للسعادة، ولم نعد سعداء!».

يا أحبةَ الحياة الزوجية، إن السيدة زينب لم تصبر لأنها كانت ضعيفةً، بل لأنها آمنت بأن «الراحة الحقيقية» تُكتسب بصبرٍ على عشرةٍ تحتاج إلى:

♦ تذكُّر قول النبي ﷺ:

«لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» (31)

استحضار أن:

« كلُّ ابنِ آدمَ خطَّاءٌ » (32).

فكما تريد أن يُحتمل خطؤك.. احتمل خطأ غيرك.

♦ اليقين بأن:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19]

ليست مجرد كلمات، بل منهج حياة.

رسالة إلى كل زوجين يمرَّان بضيق:

لا تستعجلوا الطلاق، فما ترونه اليوم «شقاء» قد يكون اختباراً لِصِدْقِ حُبِّكم،
كما اختبر حب زينب وأبي العاص.

تذكروا قافلة أبي العاص! لقد ردَّ النبي ﷺ ماله وهو عدوٌّ، فكيف لا تردون
«حُسن العشرة» لشريك حياتكم؟

اسألوا أنفسكم: هل بذلتم جهدكم لدفع السيئة بالحسنة؟

﴿ اَدْفَعْ بِاَلَّتِي هِيَ اَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

عَدَاوَةٌ كَاَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: 34]

فهناك شيء في القلب يحدث من الإحسان المستمر، أم أنكم استسلمتم عند أول عاصفة؟

لماذا نجحت قصتهما؟

لأنهما فهما أن الزواج ليس «حديقة للورود فقط»، بل هو:

◆ مزرعة للصبر تُثمر رحمة.

◆ ورشة للتضحية تُعيد بناء القلوب.

◆ مدرسة للإيمان تُذكرنا بقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ [الروم: 21]

الخلاصة النورانية:

نعم.. هناك بيوت تستحق الانفصال، حياتها جحيمٌ لا يُطاق، لكن أكثر البيوت المنهارة اليوم لم تُمنح فرصة «الست سنين» التي منحتها زينب لقلبٍ تؤمن بأنواره!

فلا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة! بل كونوا كزينب التي صبرت حتى أشرق إيمان أبي العاص، فجمع الله شملهما بعد يأسٍ، لُعلَّنا أن «الصبر على السخافات» قد يُعيد لقلبين الحياة.

«الزواج الناجح ليس بحثاً عن الشخص المثالي.. بل هو التزامٌ بإيجاد الجمال في الشخص غير المثالي الذي اخترته».

بداية صلح الحديبية

بعد أن تهادت أيامُ رمضان وشوال، وصار الكونُ شاهداً على عظمة ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، أشرقَتْ في سماء النبوة رؤيا تُضيء دروب التاريخ.. رأى الحبيب ﷺ في منامه أنه يعتَمِرُ مع أصحابه الكرام، وما رؤيا الأنبياء إلا وحي يُنزله الحقُّ سبحانه، فاستحضر قلبه ﷺ رؤيا الخليل إبراهيم عليه السلام:

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ

مَاذَا تَرَى ﴾ [الصافات: 102]

فكانت طاعته نوراً يهدي الأمم.

تهياً رسول الله ﷺ للعمرة ومعه ألف وأربعمائة من الصحابة الأبرار، لم يحملوا في رحلتهم غير زاد المسافر وسلاح المسالم، توكّلوا على الله وخرجوا يهللون: «لبيك اللهم لبيك».. حتى إذا اقتربوا من مكة، ارتجت قريش خوفاً، فجاءهم بشر بن سفيان ينذر النبي ﷺ: «يا رسول الله، أقسمت قريش باللات والعزى ألا تدخلها عليهم أبداً، وقد لبسوا جلود النمر، واستعدوا للحرب!».

فارتفع صوتُ النبي ﷺ بالحكمة:

«يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب» (33).

(أكلتهم الحرب).. أي أن كل شيء عندهم حرب، فنحن نريد فقط أداء العمرة وليست الحرب، وذهب الرجل ليلغهم أن محمداً وأصحابه جاءوا فقط للعمرة.

عندما بلغوا أرض الحديبية، بركت ناقةُ النبي ﷺ «القصواء» فصاح الصحابة: «حلّ! حلّ!» لكنها أبت أن تقوم، فقال بعضهم: «خلأت القصواء!» (أي عصت).. فالتفت الحبيب ﷺ بقلبٍ يفيض يقيناً:

«ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُقٍ» (34).

فليس من أخلاق ناقتي أنها تعصي كلامي (ولكن حبسها حابس الفيل).

ثم أعلن كلمة تُزلزل الجبال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطّة يعظمون فيها حُرّمات الله إلّا أعطيتهم إيّاها». ثمّ زجرها فوثبت به، وفي هذه اللحظة الإلهية، تذكّر الجميع فيل أبرهة حين منعه الله عن الكعبة:

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (5)﴾

[الفيل: 3-5]

فكان بروك القصواء إيذاناً بأن مكة ستبقى حرماً آمناً برعاية الربّ الجليل.

فعلم النبي ﷺ أن الناقة حبسها حابس الفيل وأنه سيتفاوض معهم بحيث إذا كان هناك أي اتفاق يعظمون فيه حرّمات الله فسيوافق عليه.

وفي ذلك المكان الذي صلى فيه النبي ﷺ عند الحديبية، حيث كان الظمأ يعتصر القلوب، وندرة الماء تلف أرجاء المكان، وقعت أحداثٌ تحولت إلى معجزات خالدة بأمر الله، أضاءت قلب الأمة وأكدت عظمة نبيها ﷺ.

الموقف الأول:

يحدثنا عن تلك البئر الصغيرة التي كانت تُخفر من ملكوت السماء، ظل الصحابة يتناولون منها بلهفة، تتناهشها أيديهم وتحفرها أقدامهم، حتى نزحوها بالكامل. حينها قالوا: «يا رسول الله، لا ماء». فبادرهم ﷺ بحكمة إيمانية، وطلب بسهم، فغرسه في البئر ففاض الماء من بين يديه وكأنه نبع الروح من قلبه، فشربوا وارتووا وسقوا دوابهم، ولم ينقص من ذلك شيء.

الموقف الثاني:

في الموقف الثاني، وبعد أن فرغت الأهواء وأصابهم اليأس من الماء، قالوا: «يا رسول الله، نشكو قلة الماء». فابتسم النبي الشريف، وأمر بإحضار قَدَح صغير، فقال يده على الماء وقلب القَدَح، وبدأ ينبثق من بين أصابعه، كأنه سر إلهي يتفجر في ثنايا يده الطاهرة، فشربوا جميعاً، وسقوا دوابهم، لا بأمر عادي، وإنما بمعجزة أُريدت بقوة القدر الأعلى؛ إذ قال ابن عباس: «كنا نحو 1400، ولو كنا 100 ألف لكان ذلك كافياً» بركة نبيهم وقدره ربهم.

وفي تلك اللحظة، وقف النبي ﷺ، وهو يرى الماء يتدفق من بين أصابعه، ليأمر أهل الوضوء وعموم المسلمين بأن يتطهروا، فظل الماء ينبع، فضلاً عظيماً من الله، ووحياً خالصاً يجسد المعجزة الربانية، ويعكس روح الإيمان والطهر في ظلال النبي وشفاعته.

فعندما قام النبي ﷺ بذلك قال:

«حيَّ على أهل الوضوء» (35).

وظل الماء ينبع من بين أصابعه بمعجزة، بقدرة الله تعالى، فشربوا جميعاً وسقوا الدواب بإذن الله تعالى وبأنوار النبي ﷺ.

دفاع النبي عن ناقته ﷺ "القصواء"

مشهد منير جداً عندما دافع النبي ﷺ عن ناقته وأنه ليس من أخلاقها أن تعصي أمره، فعندما قالوا له: (خلأت القصواء) قال لهم إن هذا ليس سلوك دابتي: «ما خلأت القصواء وما هذا لها بخلق». فالله تعالى يقول في القرآن:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل: 66]

فالناقة التي تعرف النبي ليس من أخلاقها أن تعصي أمره، يقول تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: 36]

لأن من يعرف النبي ﷺ يعرف أنه لا يطلب شيئاً لنفسه، بل إنه يطلب منك لك، من أجل مصلحتك؛ ولذلك راجع نفسك هل سيدنا رسول الله ﷺ سيدافع عن حالك يوم القيامة وبأنك لم تكن تفكر في أن تعصي أمره، أم ستكون مُخرجاً من معصيتك لأوامره ﷺ رغم علمك بها؟

مفاوضات قريش مع رسول الله ﷺ

بدأت قريش تُرسل لسيدنا محمد ﷺ مراسيل من عندها في محاولة يائسة أن تهدد نبي الرحمة وتضغط عليه بالإكراه تارة وبالإشفاق تارة أخرى، فأول من أرسلت كان شخصاً يدعى (بديل بن ورقاء) يحمل بين يديه رسالة من قريش بنبرة تهديد وجبروت. وصل للنبي ﷺ وقال له: يا محمد، لقد تركت قريش وقد جمعوا لك الأحابيش «الجنود الأقوياء»، ولبسوا جلود النمر «لبس الحروب القديمة»، وخرجت ومعهم العوذ المطافيل «الجمال القوية ومعها اللبن»، وإذا طال أمد الحرب، جلسوا يترقبون، ويذبحون من جملهم ما يطعمون به أنفسهم وأهلهم، وجهزوا جيوشهم للقتال، وأعدوا العدة، لتكون الحرب بينهم وبينك حرباً لا يقدر

أحد على الصمود أمامها. لكن النبي ﷺ، بكل ثبات وعزة، رد عليهم بكلام يدافع عن رسالته، ويقوّي عزائم أصحابه، قائلاً:

«إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنّا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب⁽³⁶⁾ وأضرّت بهم، فإن شاءوا ماددّتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر؛ فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا⁽³⁷⁾، وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره»⁽³⁸⁾.

ولم يُعجب هذا الرد قريشاً، فمراة الهزيمة كانت تلوح في أعينهم، والحق واضح كالنهار، أن مواقف النبي ﷺ، كانت دائماً تعبر عن عمق إيمانه، وقوة الله معه، وأنه لن يزحزح عن الحق، مهما عظمت التحديات والتهديدات.

وأرسلوا شخصاً آخر يُسمى (الحلّيس بن علقمة) وقد كان هذا الرجل من قبيلة كنانة، وكان معروفاً عنه حبه للبيت الحرام والعبادة عنده، فبرغم أنه مشرك فإنه يعظم البيت الحرام أشد تعظيم، فعندما رآه النبي ﷺ يأتي من بعيد قال لأصحابه:

«فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ»⁽³⁹⁾.

و«الهدى» هي الجمال التي سيتمون بها المناسك. لما رأى الرجل الهدى، والنظر إليه من قبل الصحابة، وهو يرتدي إحرامه، ويشعر بخشوعهم، ويعرف تعظيمهم للحرم، عادت إليه نفسه، فاقترّب من قريش، وقال لهم بحكمة وصدق: «والله، ما أرى إلا أن تخلوا بينه وبين البيت». أي أنه يرى وجوباً أن يتركوا له حرية زيارة

الكعبة، دون عوائق تشوش على قداسته، وتحرم الناس من فضيلته، فالمكان حق لهم، وحق لله أن يُعبد فيه، كما شرعه رب العالمين.

لكن قريشاً، بجبروتها وتقاليدها، لم تقبل كلامه، وقالت: «والله، إنك لرجل من العرب لا تعلم شيئاً». في إشارة إلى أن رأيه لا قيمة له، وأنهم يرفضون أن يُعطوا الحق في زيارة البيت، رغم أن ذلك هو أعظم حق لله، وأسمى عبادة، ولكن قلوبهم كانت مملوءة بغیظ السيطرة، وطغيان الكبر، فلم يعيروا كلامه احتراماً، ولم يعترفوا بفضله، فظلوا متمسكين برأيهم، رافضين أن يُطلقوا للمسلمين حقهم في بيت الله الحرام.

وأرسلوا شخصاً ثالثاً لم يكن سهلاً وهو.. (عروة بن مسعود الثقفي)، من قبيلة (ثقيف) إحدى أكبر القبائل وهو زعيم كبير عندهم، فدخل على سيدنا محمد ﷺ .. وانتبه جيداً لهذا الموقف وما حدث فيه.. فقد دخل على النبي ﷺ وصاحبه حوله منهم سيدنا أبو بكر الصديق وغيره من الصحابة وبينما هو واقف فقال: (هل رأيت أحداً قبلك رجع ليقض بيضته قبل ذلك؟!).. أي كيف لك أن تحارب قومك في بلدك الذي أكلت وشربت فيه، ثم قال وهو ممسك بلحية رسول الله يلعب فيها.. فلا يوجد مقام أعلى من مقام النبي ﷺ حتى وإن كان هو زعيماً في قومه، ولكن تخيل أنه يقف ويتصرف مع النبي مثل هذا التصرف، ثم قال له: (والله لقد جمعنا لك العوذ المطافيل «الجمال الضخمة» وجلود النمر لبسناها وجئنا بالأحباش، والله لا تدخلها علينا عنوة) ثم قال: (وما أرى إلا أنك جمعت الأوباش، وهؤلاء الأوباش خليق أن يفروا ويتركوك غداً).

وكأنه يستهزئ بأصحاب النبي ﷺ ويقول له إنك جمعت الأوباش الذين سيتركونك وحدك عند المعركة.. ووقتها كان سيدنا أبو بكر الصديق يقف بجوار النبي ﷺ فقال له: (أنحن نفر وندعه؟! امصص بظر اللات).. لم أكن سأتطرق إلى هذا المشهد ولكنني فضلت أن أفسر ما حدث، لأنه قول ولفظ في الأصل أنه بذيء

وعيب جداً.. وسأوضح لك لماذا فعل هذا سيدنا أبو بكر الصديق، وما كان رد فعل النبي ﷺ، وكان الصحابة وقتها يغطون وجوههم، فقال له عروة: (من أنت؟) قالوا: (هذا أبو بكر الصديق). قال: (يا أبا بكر، لولا يد لك عليّ لكفأتك بها ولكن هذه بتلك).. أي لولا أن لك فضلاً كبيراً عليّ لرددت عليك هذه الكلمة ولكني لن أفعل. وفي أثناء حديثه ما زال يتلمس لحية النبي ﷺ ويعبث بها، وكان أحد الصحابة واسمه (المغيرة بن شعبة) قد أخذ جراب السيف وضرب يد عروة بن مسعود وقال له: (يدك عن لحية رسول الله). فقال له: (أوجعتني.. من هذا؟). قالوا: (هذا المغيرة بن شعبة، ابن أخيك). فقال عروة بن مسعود: (هل غسلت سوءتك إلا بالأمس؟). أي أنك هل نسيت ما فعلته مسبقاً من مصائب دفعتها عنك.. وكان وقتها المغيرة بن شعبة قام بفعل مشكلة كبيرة كلفتهم أموالاً طائلة لأنه قتل أناساً كثيرين، ومن دفع الأموال له هو (عروة بن مسعود).. وبعدما انتهى (عروة بن مسعود) من حديثه ظل جالساً لفترة، فخان وقت الصلاة فقام النبي ﷺ حتى يتوضأ.. فرأى عروة مشهداً غريباً جداً، وجد أن الصحابة أثناء وضوء النبي ﷺ لم يتركوا قطرة من ماء الوضوء تسقط على الأرض، وعندما كان يتكلم النبي كانوا وكأن على رؤوسهم الطير «يسمعونه ولا يتحركون»، فعندما عاد إلى قريش قال لهم: (يا قوم، لو عرض عليكم خطة فاقبلوها، فوالله لقد ذهبت إلى كسرى وقيصر والنجاشي فما رأيت أحداً يُعظم ملكاً كما يُعظم أصحاب محمدٍ محمداً).

دلالة اللفظ الذي قاله الصديق لعروة بن مسعود:

اللفظ الذي خرج من سيدنا أبي بكر الصديق هناك نقطتان فيه..

• النقطة الأولى: فهم السياق التاريخي

اللفظ الذي نطقه سيدنا أبو بكر الصديق ؓ في ذلك الموقف لا يمكن أبداً فصله عن السياق الزمني، والموقف الحربي الحرج، والنفسية المتوترة التي كانت تحيط بالمشهد، فعروة بن مسعود لم يكن شخصاً عادياً يتكلم في نقاش فقهي، بل كان مبعوثاً من جيش معادٍ جاء ليسب، ويستهزئ، ويشتم الصحابة علناً أمام نبيهم، ويطعن في كرامتهم وشجاعتهم في موقف حرب تفرضه قريش، وهم أصلاً جاءوا سلماً، فكان رد أبي بكر رضي الله عنه رداً حازماً وردّ اعتباراً في لحظة تحتاج لذلك، لينقل لقريش أن أصحاب محمد ﷺ ليسوا كما تظنون، بل هم رجال صدق وعزة وهيبة، لذلك استخدام مثل هذا اللفظ في حياتنا اليومية، في نقاشات عادية أو حتى خلافات شرعية، هو جهل بالسياق وابتعاد عن الهدى النبوي في الحوار.

«لا يجوز أبداً أن نحتج بلفظ ورد في سياق حرب، لنستخدمه في سياق نقاش أو دعوة أو خلاف شخصي».

هذا هو الفقه الحقيقي في فهم السيرة.

• النقطة الثانية:

أنه جزء رائع جداً، وهو أن هذا ليس مشهداً دعوياً، وإنما كان موقف دفاع عن النبي ﷺ وعن الصحابة أمام إهانة واضحة ومباشرة لأمة وجيش.

والآيات الكريمة التي استشهدت بها تدعم هذا الفهم جداً:

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: 18]

تذكير رائع بأن كل كلمة نَحْكِيها اليوم نحن محاسبون عليها، فما بالك إن كانت بلسان «داعية» أو «طالب علم» يتكلم باسم الدين؟!

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

[النحل: 125]

الدعوة لا تحتوي على تقريع ولا سبٍّ ولا تجريح، حتى مع المخالف... فكيف إذا كان أخاك المسلم؟!

الرسالة الكبرى:

«ليس كل ما قيل في زمن النبي يُؤخذ كقاعدة سلوكية عامة، بل يُفهم ضمن ظرفه، وسياقه، وشخصياته، ومكانه وزمانه».

وهنا الفرق بين فهم السيرة ونقل القصص بدون فقه.

خلاصة ذهبية:

يا شباب، يا دعاة، يا طلاب العلم، انتبهوا... ليس كل موقف في السيرة «نموذجاً قابلاً للتقليد»، بل هو جزء من سياق متكامل.

فلا تقل: «أنا أقتدي بأبي بكر» وتسبُّ واحداً مسلماً لأنه اختلف معك فقهياً، بل قل: «أنا أقتدي بأبي بكر في غيرته على النبي، وفي حبه للدين، وفي دفاعه وقت الحاجة».

حكمة النبي ﷺ عند كتابة الصلح

عندما وجد النبي ﷺ أن جميع الرسل الذين أرسلتهم قُريش لم يستطيعوا أن يأخذوا خطوة للأمام في الاصطلاح على السلام وحسن التعايش بالسماح لهم بعمل العمرة والعودة ثانية إلى المدينة، قرر ﷺ أن يبعث هو رسولاً من عنده لقريش، فبعث سيدنا (عثمان بن عفان) ، فهو سيد من سادات مكة قبل الهجرة وكان الجميع يحبه، فهو رجل معروف ومتقدم في العمر، وبالفعل ذهب سيدنا عثمان بن عفان بوصيتين.. أولاهما: أن يخبر أهل مكة أنهم لم يأتوا إلا للعمرة .

والوصية الثانية: أن يخبر بعض المؤمنين الموجودين في مكة والذين لم يستطيعوا الهجرة إلى الآن أن أبشروا بأن الله تعالى سيفتح على رسوله قريباً.

وبالفعل ذهب سيدنا عثمان بن عفان واستقبله أهل مكة المشركون استقبالاً في غاية الاحترام، وأشاروا عليه أنه إذ أراد أن يطوف بالبيت فليفعل، ولكنه رفض وقال: (لا والله لو أقيمت عندي سنة ما طُفْتُ بالكعبة حتى يطوف رسول الله أولاً).

وبينما كان سيدنا عثمان بن عفان في مكة إذ تأخر في قریش فلم يرجع في الوقت المتوقع لرجوعه، و عندها وردت أخبار لسيدنا محمد ﷺ بأن سيدنا عثمان قد قُتل في مكة، فعندها قال النبي ﷺ: «من يبايعني؟».. فالأصل أننا نبث عن السلام وما جئنا إلا للعمرة، لكن إذا وصلت لقتل أحدها فلا بد أن ندافع عن أنفسنا، فقال: «من يبايعني؟» فتجمع الصحابة تحت شجرة ونزل القرآن بقوله تعالى:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19)﴾ [الفتح: 18-19]

وبالفعل بايع الصحابة رسول الله، وعندما سُئل (عبد الله بن عباس): علامَ بايعكم رسول الله ﷺ؟ قال: (بايعنا على ألا نفر) .. أي ألا نهرب، وعندما بايعهم رسول الله وضع يده الأخرى وقال:

«هذه يد عثمان» (40).

أي بالنيابة عن عثمان، ولكن اتضح فيما بعد أن سيدنا عثمان بن عفان لم يُقتل، وأنه عندما عاد بعد ذلك سأله الصحابة بأنه من المؤكد طاف بالكعبة

فأجابهم : (لا والله أبداً لا أطوف وإن مكثت سنة حتى يطوف رسول الله أولاً). وبعد ذلك أخذت مكة قراراً بأن يبعثوا أحداً من عندهم لعقد صلح مع النبي ﷺ فبعثوا أحد المشركين اسمه (سهيل بن عمرو)، فعندما جاء من بعيد وراه النبي ﷺ قال:

«لقد سهلَ لكم من أمركم»⁽⁴¹⁾.

فقد كان ﷺ يستبشر بالأسماء الجميلة ويستبشر أن وراءها أقداراً جميلة، وكان ﷺ لا يحب الأسماء القبيحة، فعندما رأى بنتاً اسمها (جهدمة) بدله وقال لها:

«بل أنت ليلي»⁽⁴²⁾.

وثانية كان اسمها (عاصية)، فبدله وقال لها:

«أنتِ جميلة»⁽⁴³⁾.

وكان يسعد عندما يسمع اسم نافع أو اسم نجاح أو اسم يسار، فلها رأى سهيلاً وهو قادم قال: «قد سهل أمركم». فجاء (سهيل) وقال: (نحن جاهزون للصلح ونكتب الصلح بيننا). فطلب النبي ﷺ من سيدنا (علي بن أبي طالب) أن يتقدم ليكتب الصلح؛ لأن الراجح عند العلماء أن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

فجاء سيدنا عليّ لكتابة الصلح وقد أملاه أن يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل: (اكتب باسمك اللهم؛ ما نعلم ما الرحمن وما الرحيم). فلها كتبوا

الكتاب، كتبوا:

«هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. قالوا: لا نُقرُّكَ بهذا، لو نَعَلِمُ أَنَّكَ رَسُولُ
الله ما مَنَعْنَاكَ شَيْئاً، وَلَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ. فقال: أنا رَسُولُ اللهِ، وأنا
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ. ثُمَّ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اخُذْ رَسُولَ اللهِ. قَالَ
عَلِيٌّ: لَا وَاللَّهِ لَا أَهْوُكَ أَبَداً. فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْكِتَابَ، وَلَيْسَ يُحْسِنُ
يَكْتُبُ، فَكَتَبَ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» (44).

وكانت بنود العهد:

← ألا يقوموا بأداء العمرة وأن يعودوا.. فوافق النبي.

← أن أي شخص يأتي منهم من مكة مسلماً يردونه لهم
ثانية.. فوافق النبي.

← أن أي شخص مسلم يريد أن يكون مشركاً يعيدونه لهم..
فوافق النبي.

ومدة هذا العهد 10 سنوات .. لأنه بالفعل نحن نريد السلام ولا نريد
الحرب، فعندما يعم السلام يسمع الناس وقتها عن حقيقة الإسلام بدون
المناوشات وسوء الأدب والاجتياح والاعتداء.

حدث أول اختبار للصلح، فبينما هم يكتبون الصلح وقد أقره النبي ﷺ جاء من بعيد (أبو جندل بن سهيل بن عمرو) وهو يقول: (أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله). وهنا قال سهيل بن عمرو: (هذا أول العهد) فهذا أول موقف بعد كتابة العهد .. فيبدو أن سيدنا النبي قد أخذ القرار برد سيدنا (أبي جندل بن سهيل بن عمرو) تنفيذًا للعهد.

• رسول الله أولاً

عندما عاد سيدنا عثمان بن عفان بعد أن أشاع المشركون مقتله، سأله الصحابة بلهفة: «هل طُفَّتْ بالبيت؟».. فكان رده كالصاعقة التي تكشف عن بحر من الحب: «وَاللَّهِ لَوْ مَكَثْتُ سَنَةً مَا طُفْتُ.. حَتَّى يَطُوفَ رَسُولُ اللَّهِ أَوَّلًا!..».

انظروا إلى هذا الوفاء! لقد حوّل سيدنا عثمان أقدس مكان على الأرض إلى مشهدٍ للعطش الروحي.. الكعبة أمام عينيه، لكن قلبه لا يجد لذةً في الطواف ما دام حبيبهُ ﷺ مُحَاصَرًا خارج مكة. كأنه يقول: «كيف أستمع بنعمةٍ حُرِمَ منها مَنْ هو أكرم على قلبي من نفسي؟!».

هل ذقت يوماً انتظارَ الحبيب قبل الطعام؟ تلك السفرة المعدة بأنفس الأطباق.. لكن الأيدي لا تمتدُّ، والعيون تترقب الباب.. فاللحمة لا حلاوة لها دون وجهه، والمائدة بلا روحٍ بغيابه! هكذا كان صحابة النبي ﷺ: وجوده هو الذي يُعطي الحياة طعمها، والنور الذي يجعل للعبادة بهجةً.. فما قيمة الطواف حول الحجر، والقلب بعيدٌ عن حَامِلِ الرسالة؟! هذا ليس مجرد احترام.. هذا إيمانٌ جعل حبَّ الرسول ﷺ أغلى من أقدس شعيرة، وأعزَّ من عامٍ كامل من الحياة!

وضوح هدفك يجنبك التشتت عنه

عندما جلس النبي ﷺ ليُبرم صلح الحديبية، كان قلبه ينبض بهدف واحد: إنقاذ الدماء، وفتح أبواب الدعوة بالحكمة.. فما قيمة انتصارٍ تُغلق بسببه القلوب؟!

واجهته لحظة اختبارٍ عظيمة عندما طلب سهيل بن عمرو (ممثل قريش):

♦ أن تُكتب «باسمك اللهم» بدل «بسم الله الرحمن الرحيم».

♦ وأن يُكتب «محمد بن عبد الله» بدل «محمد رسول الله».

فقال النبي ﷺ لعليّ: «أحُمّها».. لكن قلب عليّ اشتعل غيرةً: «لا والله لا أحموك أبداً!».

هنا تظهر الحكمة النبوية التي تتجاوز ردود الأفعال؛ أمسك النبي ﷺ بنفسه الكريمة، ومحا الكلمات بيده الشريفة.. ليس ضعفاً، بل لأنه يرى ما وراء الألفاظ؛ يرى سلاماً سينجي آلاف النفوس، وهدنةً ستفتح قلوباً صلدة!

وتأملوا المفارقة التي تُذيب القلوب: ذلك الرجل الذي اشترط محو «رسول الله».. سهيل بن عمرو نفسه، لما أسلم بعدُ، صار يلتقط شعر النبي ﷺ أثناء حلاقه كأنه يمسك بذرات نور! لا يدع شعرة تسقط على الأرض.. أتراه كان يناقض

نفسه؟! كلا.. لقد أدرك متأخراً ما وعاه النبي مبكراً: «لو نعلم أنك رسول الله لا تبعناك».

لماذا نضيع أهدافنا في معارك هامشية؟

كم من نقاشٍ مهمٍّ تحوّل إلى ساحة حربٍ لكلمةٍ جارحة! ننسى حلَّ الأزمات، وننشغل بالرد على الإهانات.. كمن يوقف سفينته في العاصفة ليُصلح شراعاً ممزقاً! والدواء القرآني هنا جليٌّ:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [الفصص: 55]

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 3]

لا يعني هذا تنازلاً عن المبادئ، بل ترتيبٌ للأولويات:

◆ النبي تنازل عن «كلمات» ليكسب «قلوباً».

◆ وتغاضى عن «شكل» ليحفظ «أرواحاً».

كيف تُضيء حياتك بهذه الحكمة؟

1 اسأل قبل كل موقف: «ما هدي الحقيقي من هذا النقاش؟».

2 تخير معاركك: لا تجعل كلمة عابرة تُنسيك غايتك العظيمة.

3 تذكر سهيلاً: أحياناً يعاندك من سيصير أقرب إليك من نفسك!

ففي يد النبي ﷺ - وهو يحو اسم «الرسالة» من الوثيقة - كان يكتب بأحرف من نورٍ أعظم درس: «مَنْ أراد القمة فعليه أن يعبر الوديان.. وَمَنْ أراد الثمار فعليه أن يصبر على الأشواك».

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيد الوجود وصاحب
الحوض المورود سيدنا محمد النبي الأكرم، دال
الخلق عليك، وجاذب قلوبهم إليك، مهذب

النفوس، وفيض المعارف والأنوار لحضرة الملك
القدوس، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

اللهم إنا نسألك أن تُعلمنا من علمك، وأن تؤيدنا
بحكمتك، وأن تنصرنا بقدرتك، وأن تُسمعنا
منك، وأن تفهمنا عنك، وأن تهدي قلوبنا إلى كل
ما تحب وترضى يا مولانا ويا سيدنا.



(27) رواه البيهقي.

(28) رواه البخاري.

(29) رواه الطبراني.

(30) رواه الذهبي.

(31) صحيح مسلم.

(32) رواه الترمذي.

(33) رواه البخاري.

(34) رواه البخاري.

(35) رواه البخاري.

(36) أي: الحرب مسيطرة عليهم.

(37) أي: أجريت معهم عهداً حتى تسير الأمور في سلام.

(38) رواه البخاري.

(39) رواه ابن هشام.

(40) رواه البخاري.

(41) رواه البخاري.

(42) رواه ابن حبان.

(43) رواه مسلم.

(44) رواه البخاري.

إرسال الرُّسل للملوك وبداية معركة خيبر

اعتراض عُمر على الصُّلح وحكمة أبي بكر

نحن الآن في نهاية السنة السادسة من الهجرة المباركة، والنبي ﷺ قد بلغ من العمر تسعة وخمسين عاماً. في هذا التوقيت الحرج من السيرة، وقعت واحدة من أعظم المحطات التي اختبر فيها الإيمان والصبر والبصيرة، إنه صلح الحديبية.

ففي نهاية السنة السادسة، عقد رسول الله ﷺ مع قريش صلحاً لمدة عشر سنوات، نصّ على وقف القتال بين الطرفين، وأن يعود المسلمون إلى المدينة هذا العام دون أداء العمرة، على أن يؤدوها في العام القادم. ومن بين شروط الصلح أن من أسلم من قريش وجاء إلى النبي ﷺ يرد إليهم، بينما من ارتد عن الإسلام وعاد إلى قريش لا يعاد للمسلمين.

ورغم أن هذه الشروط كانت شديدة وثقيلة على قلوب الصحابة، وافق النبي ﷺ على كل ذلك، ابتغاءً لحقن الدماء، وسعيًا للسلام في الجزيرة العربية، ورغبة في فتح أبواب الهداية لا بالسيوف، بل بالرحمة والرفق.

وفي لحظة اختبر فيها الإيمان الحقيقي، وبينما بنود الصلح تكتب، إذا برجل يُقبل من بعيد وهو يجر قيوده، وجهه يعلوه الألم والأمل معاً، كان أبا جندل بن سهيل بن عمرو، وقد أعلن إسلامه، وكان أبوه هو من يمثل قريشاً في هذا الصلح، فإذا بسهيل يقول للنبي ﷺ: هذا أول من أُطالب برده وفقاً لما اتفقنا عليه.

فنظر النبي ﷺ إلى أبي جندل، وقلبه مشفق عليه لكنه ثابت على العهد، وقال له كلمات تهز القلوب وتبني الرجال:

«يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً» (45).

وفي صمت الأبطال، عاد سيدنا أبو جندل بن سهيل بن عمرو، حاملاً إيمانه فوق ألمه، واثقاً أن الله لا يضيع من لجأ إليه.

و كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أشد الناس ألماً وغضباً في تلك اللحظة، لم يستطع أن يحتمل ما رأى، فذهب إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال في حوار يهز النفوس:

- يا أبا بكر، ألسنا على الحق؟

- بلى.

- أليسوا على الباطل؟

- بلى.

- أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار؟

- بلى.

- فلم نُعطي الدنْيَةَ في ديننا؟!

فقال له أبو بكر كلمات كلها ثقة وتسليم: «يا عمر، إنه رسول الله، وليس يعصيه، وهو ناصره.. فالزم غرزه». أي اتبع أثره وثق بقيادته.

لكن قلب سيدنا عمر لا يزال يموج بالعاصفة، فلم يهدئها كلام أبي بكر، فمضى إلى رسول الله ﷺ بنفسه، وقال له:

-ألست نبي الله حقًا؟

-بلى.

-ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

- بلى.

-فلم نُعطي الدنْيَةَ في ديننا إذن؟

فأجابه النبي ﷺ بنفس ما قاله أبو بكر، ولكن بصوت النبوة الموقن:

«إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي» (46).

ومع كل ما جال في صدر سيدنا عمر من ألمٍ وغيره على الدين بنية صادقة، إلا أنه ظل بعدها يتصدق ويصلي ويصوم، ويقول في نفسه إنه ما كان ينبغي له أن يُصاب بما أُصيب به من الحزن والاعتراض؛ لأن النبي ﷺ لا يتحرك إلا بوحي من الله.

وبعد إقرار الصلح مباشرة، نزل القرآن الكريم مدهشاً كل التوقعات، فأخبرهم الله أن هذا الذي استثقله المؤمنون هو فتح عظيم! قال تعالى:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [الفتح: 1]

وسورة الفتح نزلت بسبب صلح الحديبية، وليس فتح مكة كما قد يُظن؛ لأن الله فتح بهذا الصلح أبواب القلوب والعقول، وهدأت النفوس، فتبادل الناس التجارة، وتواصلوا بالكلمة بدلاً من السيف، فدخل في الإسلام خلال السنتين التاليتين من الصلح أضعاف من دخلوا في الإسلام خلال التسعة عشر عاماً الماضية.

وكان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه يقول وهو يرى بعين الحكمة: «وكان رسول الله أعلم الناس بربه، وكان الناس يستعجلون، وإن الله لا يعجلُ كعَجَلَةِ أَحَدِكُمْ». فالله سبحانه وتعالى صبورٌ على خلقه، حتى على من كفر أو أشرك به، يفتح لهم الأبواب باباً باباً.

بل رأينا بعدها من حكمة الله وحكمته ﷺ، أن الرجل الذي رفض كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» ورفض الاعتراف بلقب «محمد رسول الله»، وهو سهيل بن عمرو، الذي بعثته قريش ليُبرم هذا الصلح، وكان رمزاً للكبرياء في تلك اللحظة - ينشرح صدره للإسلام. يقول سيدنا أبو بكر: (ولقد رأيتُ سهيل بن عمرو وهو يحج مع رسول الله، ورسول الله يحلق شعره، وهو لا يدع شعرة تسقط من رسول الله على الأرض!). تخيل أن (سهيل بن عمرو) وقت الصلح هو من بعثته قريش لإبرام الصلح مع النبي، وكان يرفض الاعتراف به كنبي، ورفض أن يكتب في الصلح

(بسم الله الرحمن الرحيم)، وأراد استبدال (باسمك اللهم) بها، ولم يرض بكتابة (محمد رسول الله) وطلب بإبدالها بـ (محمد بن عبد الله) - هو هو من حج مع النبي في سنة 10 هجرياً وحدث منه ما حدث من شدة حبه وتعلقه بالنبي ﷺ. فتأمل كيف كانت الرحمة والرؤية والبصيرة سبباً في أن يتحول قلب متجبر إلى قلب عاشقٍ للنور!

خاطرة: قُمْ بما عليك.. وانتظر جميل أقدار الله

كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعترض من قلبه على بنود صلح الحديبية، فكيف نرجع عن العمرة ونحن لم نأتِ للقتال أصلاً؟ نحن أتينا زائرين لبيت الله، وهم الذين وقفوا في وجهنا ومنعونا! فإذا أرادوا الصلح، فليكن صلحاً عادلاً لا يتضمن رجوعنا دون أداء العمرة. فمن وجهة نظره، كانت الشروط غير منصفة بل مجحفة. لكن النبي ﷺ - وهو الموحى إليه - كانت له رؤية أوسع، وبصيرة أبعد من الظاهر. علمنا كما علم سيدنا عمر أن الأقدار لا تسير دوماً كما نهوى، وأن التشبث الدقيق بالحلم أو الهدف - سواء في موقف أو رأي أو عمل - ليس دوماً هو طريق الفتح، بل قد يكون فيه جمود لا يناسب اتساع حكمة الله، ففي بعض اللحظات نحتاج إلى مرونة لا إلى تصلب؛ لأن الله يخبئ في قدره وتديره ما هو أعظم من كل ما سعيناه إليه.

وهنا جاء موقف سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، مؤمناً بأن الخير كل الخير في موافقة النبي ﷺ، فقال كلمته الخالدة: «هو رسول الله، وليس يعصيه، وهو ناصره». وكأنه يقول لنا جميعاً: إن كنتَ تسير في طريق الحق، صادقاً، مخلصاً، تؤدي ما عليك ولا تفرط، فحتى وإن بدا أن الأقدار تخالف هواك، فهي في حقيقتها

تسير بك إلى ما هو خير لك، ولو بعد حين، وإذا أغلق الله باباً واحداً بحكمته فتح أبواباً كثيرة برحمته.

ثم كان أن عاد سيدنا عمر للنبي ﷺ يطلب توضيحاً، فكرر له النبي ﷺ نفس ما قاله صاحبه الصديق، فقال:

«إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي» (47).

وهذه الإجابة العظيمة تشرح لنا درساً عميقاً: قد تأتي الفتح بأشكال لا نتوقعها، ولكن ما دمت في المسار الصحيح، ما دمت لم تفرط ولم تكسل، فانتظر جميل أقدار الله.. وانتظر خيراً لم يكن في حسابك.

فها هو الوعد الإلهي يأتي بعد قليل، في سورة الفتح، ويقول الله تعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين من بعده:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: 1]

ولكن... أين الفتح؟

الفتح الحقيقي لم يكن فقط في دخول مكة لاحقاً، بل في أن عدد من دخلوا في الإسلام في العامين التاليين للصالح كان مساوياً - بل أكثر - ممن دخلوا في

الإسلام في التسعة عشر عاماً التي مضت منذ بداية الدعوة! هذا هو الفتح الذي قدره الله وأخفاه عن أنظار العاجلة، حتى يحين أوانه.

رسل رسول الله ﷺ إلى ملوك الأرض

تم عقد الصلح، واستقرت الجزيرة العربية، وانتقل رسول الله ﷺ إلى مرحلة أخرى من رسالته الشريفة في السنة السابعة من الهجرة، والني ﷺ يقترب من سن الستين المباركة، وبعد أن هدأت الجزيرة العربية من الحروب بعقد صلح الحديبية، لم يتوقف، ولم يسترح؛ لأنه ﷺ بُعث للعالمين: للإنس والجن، لا لهدف مؤقت بل لرسالة خالدة. لن يستريح ﷺ حتى يقول الله في تمام رسالته:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]

ومن هنا جمع النبي ﷺ الصحابة لبدء مرحلة جديدة: إرسال الرسل إلى ملوك الأرض، يدعوهم فيها إلى الإسلام. فقال له الصحابة: «يا رسول الله، إن الملوك لا تقبل كتاباً إلا مختوماً». فصنع ﷺ خاتماً نقش عليه: «محمد رسول الله»، وهو الخاتم الذي إن بحث عن شكله اليوم، فستجده محفوظاً ومشهوراً في كتب السيرة.

فأرسل أول رسول، وهو الصحابي الجليل سيدنا عمرو بن أمية الضمري، إلى النجاشي ملك الحبشة، الملك العادل الذي لم يُظلم عنده أحد. هو نفسه الذي آوى الصحابة في هجرتين. فأرسل إليه النبي ﷺ كتاباً يبدأ بـ: «من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة». فلما قرأ النجاشي الكتاب، وضعه على عينيه، ثم نزل إلى الأرض باكياً وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله».

وكان مما طلبه منه النبي ﷺ أن يتولى تزويج أم حبيبة بنت أبي سفيان - أبو سفيان قائد من قادة مكة وابنته أم حبيبة - التي أسلمت وهاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش، لكنه ارتد ومات في الحبشة. فخطبها النبي ﷺ لنفسه، وزوجها إياه النجاشي إكراماً لمقامها، ورداً لجميل هجرتها في سبيل الله.

وبعد ذلك، حين علم النجاشي أن مكة والمدينة في صلح، أمر الصحابة المقيمين في الحبشة أن يعودوا إلى ديارهم، ووفر لهم سفينتين كاملتين. وعاد الصحابة المهاجرون، ومعهم أربع هدايا من النجاشي للنبي ﷺ: خُف (نعل)، قَدَح (كوب)، خاتم من ذهب، أهداه النبي ﷺ إلى حفيدته أمانة بنت زينب، وبغلة ليركبها النبي ﷺ.

وكان عمرو بن أمية الضمري أول رسول رسمي في هذا الوفد النبوي الشريف.

• الرسول الثاني: دحية الكلبي إلى هرقل عظيم الروم

أرسل النبي ﷺ الصحابي الجميل الوجه دحية الكلبي إلى هرقل ملك الروم، إحدى أكبر الإمبراطوريات آنذاك، برسالة تبدأ بـ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد ابن عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما

بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين».

فاحتفظ هرقل بالرسالة، وانتظر حتى مرت قافلة من قريش عائدة من الشام، فاستدعاهم وكان معهم أبو سفيان بن حرب قبل أن يُسلم. فسأله سلسلة من الأسئلة الدقيقة وأجلس بجواره المترجم للغة:

- كيف نسبه فيكم؟ قال: «عظيم النسب».

- هل ادعى أحد قبله النبوة؟ «لا».

- هل في آبائه ملوك؟ «لا».

- أتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ «الضعفاء».

- أيزيدون أم ينقصون؟ «يزيدون».

- هل ارتد منهم أحد سخطة لدينه؟ «لا».

- هل كنتم تتهمونهم بالكذب؟ «لا».

- هل يغدر؟ «لا.. ولكننا في مدة صلح فلا نعلم ما سيفعل».

- هل قاتلتموه؟ «نعم».

- كيف القتال؟ «سجال، يوم لنا ويوم علينا».

- ماذا يأمركم؟ «بعبادة الله، وترك عبادة الأصنام، ويأمرنا بالصدق، والصلة، والعفاف، والصلاة، والزكاة».

فقال هرقل: «إنه نبي، وما كنت أظن أن يخرج نبي من العرب، ولو كنت أعلم أنني أصل إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وسيبلغ ملكه هذا الموضع». وكان يشير إلى الشام؛ موضع ملكه.

وخرج أبو سفيان يقول بدهشة: «لقد أمر أمرُ ابن أبي كبشة». أي انتشر صيت محمد ﷺ، حتى صار أعظم من أن يُنكر، و«أبو كبشة» هو جد النبي ﷺ من جهة الأم، وكانوا يقولونها تقيلاً من شأنه، لكن الشأن قد علا، وبلغ الآفاق. وصدق رسول الله حين قال: «أنا رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري».

من رسائل النبوة إلى عروش الملوك.. مشاهدان من نور في سيرة الحبيب ﷺ

المشهد الأول: هرقل ورسالة النبي ﷺ

بعدما سمع هرقل، عظيم الروم، ردود أبي سفيان عن محمد ﷺ، وكان أبو سفيان صادقاً في كل كلمة، رغم عداوته حينها للنبي، شعر هرقل أن الكلمات ليست مجرد وصف، بل أنوار تكشف له من يكون هذا الرجل.

فتأكد في قلبه أن ما قرأه عن النبي المنتظر يطابق ما سمعه من أبي سفيان.. ففرج من عزلته، ممسكاً برسالة النبي ﷺ بين يديه، وأمر بغلق أبواب القصر.

استدعى كبار رجال الدين، ووقف يخاطبهم من شرفته العالية، كأنما يخاطب قلوبهم لا آذانهم، وقال: «هل لكم في الفلاح والرشاد، وأن يثبت مُلككم؟».

دهش القوم وقالوا: «كيف؟». فقال هرقل بصدق القلب الذي لامس النور: «تتبع هذا النبي».

ولكن ما إن نطقت شفتاه بالحقيقة، حتى علت أصوات بالرفض والضجر، تقول الروايات: «فخاصوا حيصةً». أي تحركوا حركة شديدة، وثاروا، وكأنهم أصابتهم صاعقة من قول الحق.

اندفعوا نحو الأبواب يصرخون، خاف هرقل على ملكه، على تاجه، على سلطانه، فتراجع وقال لهم: «إنما كنت أختبركم، هل أنتم ثابتون على ما أنتم عليه؟». وفي هذه اللحظة، اختار هرقل الملك، وترك النور.

تأمل ذلك.. رأى نور النبوة، أحس في قلبه صدق الرسالة، كاد يخطو الخطوة الحاسمة نحو الخلاص، لكن حب السلطة وحسابات الدنيا رجحت عنده كفة الظلام. كم من قلوب في عصرنا ترى الحق، وتعلمه، لكنها تتراجع عند أول اختبار؟! كم من ممالك داخلية فينا، تؤثر بقاءها على أن نُسلم قلوبنا لليقين؟! هرقل علم، وصدق، لكنه خاف.. فاختار الدنيا.

المشهد الثاني: عبد الله بن حذافة السهمي ورسالة السماء إلى كسرى عظيم الفرس

ثم أرسل النبي محمد ﷺ رسالة إلى ملك آخر من عظماء الأرض في ذلك الزمان، إلى «كسرى»، عظيم الفرس، تلك المملكة التي عبدت النار، وبسطت

سلطانها على رقعة واسعة من الأرض.

وحمل الرسالة رجل من خيرة الصحابة، عبد الله بن حذافة السهمي، رجل فيه من الجسارة والإيمان ما يجعل الجبال تخني تقديراً له.

دخل على كسرى، وقال له بكل وقار وإيمان:

«من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس» (48).

لكن كسرى امتلأ غضباً وكبراً، لم يحتمل أن يُقدّم عليه اسم النبي ﷺ، فأمسك بالرسالة، ومزقها بيديه. فلما عاد عبد الله إلى النبي ﷺ، وقص عليه ما فعل، قال الحبيب ﷺ قولاً تهتز له قلوب المؤمنين، ودعا عليهم:

«أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مَرْقٍ» (49).

أي مَرَّقَ الله مُلكه.

وهكذا كان..

فلم تمر الأيام، حتى جاء الأمر من كسرى إلى أحد عمّاله في اليمن، رجل يدعى بازان، أن يذهب إلى هذا الرجل الذي «يدعي النبوة»، فإن لم يتب ويترك ما يقول، فليؤت برأسه. انطلق بازان برسالة القتل، لكنه ما إن واجه رسول الله ﷺ، حتى سمع منه كلمات ليست ككل الكلمات، قال له النبي ﷺ بهدوء ويقين:

«إِنَّ رَبِّي قَدْ قَتَلَ رَبَّكَ» (50).

أي أن الله -جلّ في علاه- قد قتل سيدك كسرى.

تخيّر بازان، وتزلزل في داخله، لكنه لم يجادل كثيراً.. عاد إلى دياره، وما إن وصل، حتى وجد الخبر قد سبقه: كسرى قُتل في اليوم نفسه الذي أخبره به النبي ﷺ

وفي تلك اللحظة.. سقط الملك، وبقيت الرسالة.

تمزق التاج، وبقي الوحي.

خُتمت صفحة جبروت فارس، لكن فتحت أمام بازان أبواب الهداية.

تأمل المشهدين جيداً.. في الأول، ملك عرف الحق وخاف، فخرسه.. وفي الثاني، ملك كابر فكُسر، ورجل تبعه، فاهتدى.

النبوة لا تخاطب الأقوياء في سلطانهم، بل الأقوياء في قلوبهم. لا تُخيف إلا من ارتبط بالدنيا، ولا تضيء إلا لمن فتح قلبه للسماء.

رسائل النور وهدايا السماء.. من مصر إلى المدينة، إرسال النبي ﷺ حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط.

بعث رسول الله ﷺ الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة، وهو من أهل بدر، إلى المقوقس، عظيم القبط، حاكم مصر، فدخل حاطب على المقوقس، وناول بين يديه الرسالة المباركة التي تبدأ بكلمات تملأ القلب هدًى وسلاماً:

«من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى» (51).

قرأ المقوقس الرسالة، وتأملها، فوجد نفسه أمام كلمات ليست بكافي الرسائل. قال متأثراً: «قد كنت أعلم أنه قد خلى نبي».

أي: كنت أعلم أن هذا الزمان لا بد أن يشهد خروج نبي.. وها قد جاء.. لكنه، رغم هذا الاعتراف، أثر الصمت على الإيمان، والمجاملة على الاتباع.

لكنه عظم الرسالة، ووضعها في صندوق من عاج، تكريماً وإجلالاً. وأكرم رسول رسول الله ﷺ، وودّعه بهدايا ثمينة إلى النبي ﷺ، منها:

♦ برد مبارك (ثوب).

♦ بغلة اسمها «دندن» أو «جلجل»: وهي التي ركبها رسول الله ﷺ، واشتهرت في سيرته.

♦ جاريتان من نساء القبط كانتا أختين، لهما شأن عظيم في قومهن:

- مارية القبطية.

- سيرين.

وقد قال المقوقس في رسالته للنبي ﷺ:

«بعثتُ إليك بجاريتين لهما مكانة كبيرة في أهل مصر».

فلما وصلت الهدايا إلى النبي ﷺ، أكرم مارية، وتزوجها، فكان زواجه منها تكريماً لأهل مصر، وشرفاً عظيماً ناله القبط، حتى قال النبي ﷺ عن مصر:

«إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً» (52).

نعم، لم يكن الرحم فقط من زواجه من السيدة مارية القبطية رضي الله عنها، بل أيضاً من السيدة هاجر المصرية، زوج إبراهيم الخليل رضي الله عنها، وأم إسماعيل رضي الله عنها، الذي جاء منه نسل الحبيب محمد ﷺ.

فأهل مصر لهم في قلب النبي ﷺ نسب، ورحمة، ووصية.

قصة سحر النبي ﷺ وما فيها من رحمة ودرس عظيم

من أكثر المشاهد التي يسأل عنها الناس في سيرة الحبيب ﷺ، مشهد لطيف الدلالة، عميق المعنى، فيه ابتلاء، وفيه أيضاً درس، ورحمة، وشفاء. إنه سحر النبي ﷺ.

تحكي عائشة زوج النبي ﷺ عما حدث له، فتقول:

«يُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ» (53).

كان نوعاً من سحر التخيل، أصاب النبي ﷺ في بعض الأمور الدنيوية، فلم يكن أذى في التشريع ولا في الدين؛ لأن الله تعالى قد تكفل بحفظ الدين، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9]

عرف الصحابة أن هناك شيئاً غير معتاد يحدث للنبي ﷺ، فبحثوا حتى عرفوا أن الذي سحره يدعى ليلى بن الأعصم، وكان من السحرة المؤذنين، ويقال إن أخواته هنّ من شاركنه في هذا الفعل.

بحثوا عن مكان السحر، فوجدوه موضوعاً في بئر معينة، واستخرجوه، وفكوه، وانتهى أثره. وهنا، أنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ المعوذتين:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2)
وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي

الْعُقْدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5) ﴿

[الفلق : 1 : 5]

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ

النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي

يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

(6) ﴿ [الناس : 1 : 6]

• والحكمة؟

قال العلماء: إن الله تعالى أراد أن يكون النبي ﷺ قدوة للناس حتى في الابتلاء، وحتى يعلمهم كيف يكون الشفاء.

فجعل الشفاء في آيات تحفظها قلوب كل المسلمين، المتعلم والفقير، الكبير والصغير. وقد كان هذا السحر من نوع سحر التخيل، وهو نفسه ما أصاب سيدنا

موسى عليه السلام عند مواجهة سحرة فرعون، قال تعالى:

فَأَلْقُوا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ

الْغَالِبُونَ ﴿الشعراء: 44﴾

ثم يقول الله تعالى في سورة طه:

﴿أَلْقُوا فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ

أَنَّهُ تَسْعَى ﴿طه: 66﴾

فقد رآها سيدنا موسى وهي تتحرك، فقال له الله:

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿طه: 68﴾

فهذا السحر الذي أثبت لسيدنا موسى اسمه (سحر التخيّل) وهو نفس السحر الذي أصاب سيدنا النبي ﷺ وهو لا يؤثر على التشريع؛ لأن الله تعالى هو الذي يحفظ شريعته. وهكذا، رفع الله الأذى عن نبيه ﷺ، وبقيت القصة درساً خالداً أن: كل أذى يمكن أن يُصاب به الإنسان، قد أصاب النبي ﷺ مثله، لكن الله لا يترك أحبائه أبداً.

حب النبي ﷺ لمصر.. ووصيته الخالدة بأهلها

لم تكن مصر بالنسبة للنبي ﷺ مجرد أرض من الأراضي، بل كانت مكاناً مباركاً، مذكوراً في آيات الله، متردداً في السور والقصص، ومشمولاً بعناية السماء منذ الأزل.

فالله، جلّ وعلا، ذكر مصر باسمها خمس مرات في القرآن الكريم، وذكرها بالإشارة إليها في 28 موضعاً، مما يدل على مقامها الرفيع في الأرض، وفضلها عند الله.

ألم تقرأ قوله تعالى:

﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: 50]

قال المفسرون: إنها أرض مصر، فيها القرار والماء والمعين. ثم تأمل هذا: إنها الأرض الوحيدة التي تجلّى فيها الله سبحانه وتعالى، حين طلب سيدنا موسى رؤيته:

﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ^ج قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ
انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا
تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: 143]

وهذا الجبل في أرض مصر.. تجلّى الله فيه، فاندكّ الجبل، وخرّ موسى صعقاً.

فكيف لا يُحب النبي ﷺ مصر وقد جمعه بها الرحم والنسب؟!

فمن مصر جاءت السيدة هاجر، أم سيدنا إسماعيل، ومنه كان نسل النبي ﷺ.

ومنها أرسل المقوقس هديته المباركة، مارية القبطية، فأكرمها النبي ﷺ وتزوجها، وأنجب منه ابنها إبراهيم، وأوصى بأهلها.

بل خاطب الصحابة، وكل من يأتي بعدهم، بهذه الكلمات الخالدة:

«إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة

ورحماء» (54).

والنبي ﷺ لم يكن إذا أحبّ بلدًا، أحبه بعاطفة مجردة، بل كان يعبد الله بحب هذا الوطن وخدمته. فحين كان في مكة أحبها ودعا لها، وحين هاجر إلى المدينة دعا لها قائلاً:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفِي مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَاتِ» (55).

فهل رأيت أسمى من هذا الفهم؟ أن يكون حب الوطن من الإيمان، وأن يكون العمل له عبادة، وأن نخدمه بإخلاص لأنه جزء من عهدنا مع الله، كما فعل الحبيب ﷺ. ومع الأسف، في زماننا هذا، هناك أجيالٌ نشأت على ظنٍّ خاطئ، وهو أن كل من يتحدث عن حب الوطن أو يدعو إليه، لا بد أن تكون له مصلحة أو غاية خفية.

لكن الحقيقة أن حب الوطن ليس تملقًا ولا مصلحة، بل هو سنة نبوية، ووصية شريفة من حبيبنا محمد ﷺ.

فإن كان رسول الله ﷺ قد دعا لمكة، ودعا للمدينة، وأوصى بمصر وأهلها، أفلا نتبعه نحن في حب أوطاننا والدعاء لها وخدمتها؟! فحديث الوطن ليس دعاية، بل عبادة إذا صدقت فيها النية.

الطريق إلى خير.. وعظمة القلب في صوت
الذكر

في العام السابع للهجرة، وبعد أن عقد النبي ﷺ صلح الحديبية، وبعث رسائله إلى ملوك الأرض، لم يبقَ إلا شوكة تنغص على المدينة أمنها. إنها خير، وحصونها الحصينة التي احتشد فيها من خيانات اليهود، من تم طردهم من المدينة بعد مؤامراتهم ومحاولاتهم قتل النبي ﷺ. فأراد النبي ﷺ أن يطهر الأرض من مكامن الغدر، وأن يستأصل كل خطر يهدد الأوطان والرسالة.

وفي شهر المحرم من العام السابع، أمر النبي ﷺ أصحابه بالتجهز. كان عددهم نحو 1400 مقاتل، معهم قرابة 200 فرس، تحركوا بنور الإيمان، وجذوة النصر في القلوب.

وهناك بعض المواقف التي أحب أن أسردها في هذه الأحداث:

• الموقف الأول: الصوت الذي يصل إلى السماء

أثناء سير الجيش، علا التكبير والدعاء من أفواههم: «الله أكبر... الله أكبر!» لكن النبي ﷺ، الذي يعلم قلوبهم، قال برفق القائد ومربي الأرواح:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ» (56) .

كأنما أراد أن يقول لهم: اهدءوا.. فإن ربكم يسمع همس القلوب قبل أن يسمع جلبة الخناجر.

الموقف الثاني: الكلمة التي تفتح كنزاً

وبينما هم يسرون، سمع النبي ﷺ أحد الصحابة، عبد الله بن قيس، يردد: «لا حول ولا قوة إلا بالله». فقال له النبي ﷺ: «ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة؟» قال: بلى يا رسول الله.

فقال:

«لا حول ولا قوة إلا بالله» (57).

ما أعظمها من كلمة! من قالها فُتِحَ له باب في الجنة فيه كنوز لا تُقَدَّر، وأبواب أمان لا توصد.

الموقف الثالث: نشيد القلوب المتعبة

ولأن الرحلة كانت طويلة وقاسية، نادى النبي ﷺ على عامر بن الأكوع، وكان صوته جميلاً، فقال له:

«يا بن الأكوع، خُذْ لَنَا مِنْ هَنَاتِكَ» (58).

أي: أنشد لنا، كما فعلت يوم الخندق.

فأنشد يقول:

ولا تصدقنا ولا
صلينا

*

اللهم لولا أنت ما
اهتدينا

وثبت الأقدام إن
لاقينا

*

فأنزلن سكينه
علينا

إذا أرادوا فتنة
أبيناً (59)

*

إن الألى همُّ بغوا
علينا

وكان النبي ﷺ يردد خلفه: «أبيناً... أبيناً».

صوت عامر، وترديد النبي، كانا ينسجان حالة إيمانية عميقة، فيها استحضار
الهدف، وطلب المعونة، وثقة بالنصر.

دعاء الدخول.. لحظة الوصول

وعندما اقتربوا من أسوار خيبر، وقف النبي ﷺ ودعا بدعاء علمه لأمته إذا
دخلوا أرضاً جديدة، فقال:

«اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَتَ (60)، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ وَمَا أَقْلَتَ (61)، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضَلَّتْ، كُنْ لِي جَارًا مِنْ شَرِّ خَلْقِكَ أَجْمَعِينَ، أَنْ يَفْرُطَ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَوْ يَطْغَى، عَزَّ جَارُكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ» (62).

كان هذا الدعاء بمثابة سياج من النور يسبق دخولهم، ليعلم الأمة أن النصر لا يكون بالقوة فقط، بل باللجوء إلى الله أولاً.

أحوال من نور في الطريق إلى خير

في طريقه إلى خير، لم يكن النبي ﷺ يقود جيشاً فقط... بل كان يقود أرواحاً نحو الله. كان خارجاً من بلده إلى أرض غير أرضه، والمصير قد يكون حرباً شديدة، ولقاءً حاسماً، ومصيراً مجهولاً، لكن قلبه ﷺ كان معلقاً بالسماء، منيراً بالإيمان، وكان ينقل هذا النور إلى أصحابه في كل خطوة، في كل دعاء، في كل موقف.

سار النبي ﷺ مع أصحابه، وهم بشر مثلنا. قلوب تخاف، وأرواح تُرهق، وأجساد تمشي على الرمال. لكن على هذا الطريق، ترك لنا النبي ﷺ أحوالاً من نور، نتمنى لو بقيت فينا ونحن نسير معاً في حياتنا... في بيوتنا، في أعمالنا، في طرقنا، في صمتنا وهمومنا وفرحتنا.

وقف ﷺ بينهم، وهم يرفعون أصواتهم بالذكر، فقال بلطف المحب المربي:

«إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا» (63)

كأنما أراد أن يُطمئن قلوبهم: لا تصيحوا... الله يسمعكم دون صراخ، هو أقرب إليكم من أن تحتاجوا للصوت العالي، بل قلوبكم هي التي تنطق.

وهنا رسالة لنا: لا تقل «ربنا حاسس بنا» فقط.. بل قل: «ربنا عليم بنا». فالسامع قد يسمع دون أن يفهم، لكن «العليم» يعلم ما خفي وما ظهر، يعلم ما لم تُفصح عنه عينك، ولا حتى دمعتك المكتومة.

فقل: «يا رب، خذ بأيدينا، نَجِّنَا، أَعِنَّا على ما نحن مُقبلون عليه، سهِّله لنا، واكتب لنا التيسير في كل خطوة». وقلها بهدوء وطمأنينة، فالله عليم بحالك، وسميع لندائك.

والشيء الثاني: عندما قال النبي ﷺ لسيدنا (عامر بن الأكوع): أنشد لنا.. «يا بن الأكوع، خذ لنا من هناتك».

فبدأ عامر يُنشد وسط صحراء المعركة المقبلة، لا بسيف، بل بصوت فيه رجاء وتضرع، ينشد عن الهداية، والسكينة، واليقين:

وَلَا تَصَدِّقْنَا وَلَا
صَلِّينَا

*

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا
اهْتَدَيْنَا

فَأَنْزَلْنٰ سَكِينَةً
عَلَيْنَا

*

وَوَثَّقْنَا الْأَقْدَامَ إِنَّ
لَاقِينَا

إِنَّ الْأُولَىٰ هُمُ الْبَغَاوَاتُ
عَلَيْنَا

*

وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً
أَبِينَا

وكان النبي ﷺ يرد خلفه بصوت ملؤه القوة والعزم:
«أبيناء.. أبيناء».

كأنما كان النشيد دعاء، وبُكاء، واستعداداً للشهادة، وتذكرة بأن النصر أو
الشهادة كلاهما فرحة... وسماهما الله «الحُسنيين».

♦ وعندما اقتربوا من مشارف خير، علمهم النبي ﷺ
دعاء دخول المدينة؛ لنعرف أن كل خطوة لها ذكر،
وكل موقف له دعاء:

«اللهم رب السموات السبع وما أظلت، ورب الأرضين وما أقلت، ورب
الشياطين وما أضلت، كن لي جاراً من شر خلقك أجمعين، أن يفرط عليّ أحدٌ
منهم أو يطغى، عزّ جارك، وتبارك اسمك».

فهل ترى الآن كيف كانت الروح المؤمنة هي السلاح الأول في حياة النبي

ﷺ

اجعل حياتك كلها مع الله... بالذكر والدعاء إذا أردت أن تحيا هذا الحال المنير، فابدأ من اليوم. اشترِ كتاباً صغيراً مثل: «الأذكار» للإمام النووي أو «حصن المسلم»، وابدأ تعيش كل لحظة بذكرها.

اذكر الله عند النوم، عند الاستيقاظ، عند الخروج، عند العودة، عند اللبس، عند الأكل، عند الخلاء... فهذه أذكار الأحوال التي تُثير القلب، وتسكنه، وتُقويه على البلاء، وثبته في الفرح.

فالذكر يجعلك ترى النعمة بحجمها الحقيقي: لا تراها صغيرة فتزهد فيها، ولا تراها ضخمة فتخاف من فقدانها... بل يسكنك الذكر في رضا الله وطمأنينته.

فكن مثل النبي ﷺ، مضيئاً بنور الذكر والدعاء... وانظر كيف سيتحول طريقك، وحياتك، وقلبك.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد في الأولين
وفي الآخرين، وصلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد
إلى يوم الدين، اللهم صلِّ وسلِّم عليه في الليل إذا
يغشى، وصلِّ وسلِّم عليه في النهار إذا تجلَّى، اللهم
صلِّ وسلِّم وبارك عليه في الآخرة والأولى، اللهم
صلِّ وسلِّم وبارك عليه صلاة تامة تملأ بها بيوتنا
بالبركة.

اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وادفع عنا كل بلاء،
واسترنا، وأحسن إلينا، ولا تؤاخذنا بقُبْح أفعالنا،
ولا تؤاخذنا بسوء أعمالنا، وتداركنا يا ربنا عاجلاً
وآجلاً بلطفك التام وعظيم رحمتك يا ربنا يا حنان
يا منان.



(45) رواه أحمد.

(46) رواه البخاري.

(47) رواه ابن حبان.

(48) رواه الواقدي.

(49) رواه البخاري.

(50) رواه البخاري.

(51) رواه ابن سعد.

(52) رواه مسلم.

(53) رواه البخاري.

(54) رواه مسلم.

(55) رواه البخاري.

(56) رواه مسلم.

(57) متفق عليه.

(58) رواه الهيثمي.

(59) رواه البخاري.

(60) التي ظلت عليهم.

(61) ما تحبته الأراضي بداخلها.

(62) رواه المنذري.

(63) رواه البخاري.

حداث معركة خير ورجوع المهاجرين من الحبشة

الفتح على يد علي بن أبي طالب

بعد أن أبرم النبي ﷺ صلح الحديبية، سكنت الجزيرة، وهدأت القلوب، وبدأ الإسلام يُضيء الدروب. دخلت في الدين قلوبٌ كثيرة، وانتقل الناس من الخوف إلى الأمل، ومن التوجس إلى الطمأنينة. وبينما كانت الدعوة تُخلق برسائلها إلى ملوك الأرض، وتحمل معها النور، التفت النبي ﷺ إلى أولئك الذين كانوا لا يطيقون النور... إلى يهود خير الذين خانوا العهد ونقضوا الميثاق.

كانوا قد كتبوا مع النبي ﷺ عهداً يوم أن وصل المدينة، لكنه لم يكن سوى حبر على ورق في قلوبهم... كانوا يشعلون نار الفتنة بين القبائل، ويحركون جيوش الكفر لتأتي إلى أبواب المدينة، كما فعلوا يوم غزوة الخندق.

خانوا في الخفاء، وسعوا في الخيانة جهراً، وكان لا بد أن تُغلق هذه الجبهة... فوجه النبي ﷺ عنايته نحوهم، لا حباً في القتال، بل طلباً للأمان والصدق والسلام.

وخرج ﷺ في جيشٍ من 1400 من أصحابه، يحملون الإيمان واليقين، وعلى رأسهم 200 فارس من أشجع فرسان الأرض.

ومع خطو الخيول واجتماع النوايا على حماية الأوطان والعقيدة، كان الدعاء والتكبير يعلو من حناجرهم:

«الله أكبر.. الله أكبر» حتى قال لهم النبي ﷺ:

«ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا
وهو معكم» (64).

وعندما وصل النبي ﷺ إلى قرية قريبة من خيبر، دعا دعاء دخول القرية الجديدة، كما ذكرنا في الفصل السابق، ليعبر بالدعاء عن توكله على الله تعالى وحسن ظنه به، مستمداً القوة من ربه.

وفي لحظة وصوله قرب حصون خيبر، صادف رجوع مجموعة من المزارعين اليهود الذين كانوا خارج الحصن لزراعة الأرض، وكانوا يحملون أدواتهم، فما إن رأوا النبي ﷺ حتى همس بعضهم إلى بعض وقالوا: «محمد والخميس» - والخميس هو الجيش القوي - فقرأ النبي ﷺ على شفاههم هذه الكلمات، ثم قال لهم بثقة وقوة:

«اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾»
[الصفات: 177] قالها ثلاثاً (65).

وكرها ثلاث مرات ليُلهب حماسة الصحابة، وليؤكد لهم أن أولئك الخونة ما خافوا إلا لأنهم يعرفون قوة الله ونصره، وإن قلب الخيانة يخشى المواجهة؛ لأن من خان في الخفاء لا يجرؤ على المواجهة.

وقف النبي ﷺ أمام حصن شديد التحصين يُدعى «حصن الناعم»، وطلب من سيدنا أبي بكر رضي الله عنه أن يقود الجيش ويفتح الحصن، لكن رغم الجهد والمحاولات ظل الحصن صامداً. ثم كلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقيادة الهجوم، فلم يأذن الله أيضاً بالفتح على يديه، وبات الصحابة في حيرة، فما الذي يفعلونه؟ فجاءهم النبي ﷺ ووعدهم:

«لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ» (66).

والراية هنا تعني قيادة الجيش، وكان الصحابة يشتاقون لأن يرفعها هذا الرجل لما أعلنه النبي ﷺ من محبة الله ورسوله له، وكان سيدنا عمر يقول بفخر: «والله ما اشتيت الإمارة إلا في هذا اليوم».

ومع أول ضوء الفجر، سأل النبي ﷺ: «أين علي بن أبي طالب؟» فأخبروه أنه يشكو من إصابة في عينه بالرمد، فطلبه النبي ﷺ، وسمى الله، ومسح على عين علي، فبرئت بحول الله، وأصبح بصره أفضل من ذي قبل، وقال له النبي ﷺ:

«امْشِ، وَلَا تَلْتَفِتْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ» (67).

ركب علي رضي الله عنه فرسه وجمع الجيش، وانطلق بثقة، لكنه قبل أن يبتعد تذكر أنه يريد أن يعرف ماذا عليه أن يفعل، ما هي أولوياته وأهدافه في

القتال؟ لكن تذكر وصية النبي ﷺ «لا تلتفت» فرفع صوته وهو ناظر أمامه دون أن يلتفت وقال: «يا رسول الله، علام أقاتلهم؟».

فأجابه النبي ﷺ بحكمة وهدى:

«انفذْ على رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» (68).

فانطلق سيدنا علي رضي الله عنه يستمع إلى نداء النبي ﷺ، ويقف خلفه الجيش، متجهين إلى حصن الناعم، يحملون معهم إيماناً عميقاً وثقة برب العالمين، يستبشرون بالنصر المؤزر؛ لأن الله مع الصابرين والمجاهدين في سبيله.

شدة حب الصحابة لرسول الله وطاعة أوامره

هذا المشهد يرسم لنا صورة بديعة عن عمق المحبة التي كانت تجمع الصحابة مع رسول الله ﷺ، وكيف كانوا متصلين روحياً ونفسياً بطاعة النبي الكريم، يطيعونه في السر والعلن بلا تردد أو سؤال، إلا أن قلبهم المتلهف لفهم مقصد النبي يجعلهم يسألون بشوق وحب. فعندما قال النبي ﷺ لسيدنا علي: «امش، ولا تلتفت». انطلق علي رضي الله عنه بثقة، لكنه تذكر فجأة أنه لم يتفق مع النبي ﷺ على هدف مهمته، فصاح مسمعاً صوته للنبي ﷺ دون أن يلتفت كما أمره: «يا رسول الله، علام أقاتلهم؟».

وهنا تكمن الوصية النبوية العظيمة التي تبين لنا بجلاء ماذا يجب أن يكون منهج كل من يحب النبي ﷺ ويتبع أثره في حياته، فقال ﷺ: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم». هذه الكلمات ليست مجرد توجيه عسكري أو تكتيك، بل هي رسالة تحمل في طياتها معنى عميقاً لمعنى الحياة والهدف من وجودنا في هذه الدنيا.

فها نحن قد جئنا إلى هذه الحياة لنلتقي بخالقنا العظيم، فنعرفه و نتعلق به، ونتعامل مع بعضنا بحبة وعدل، ونعمر الأرض بكل ما نملك من خير وعطاء، فإذا كانت حياتنا بلا هدف ولا نفع، كمن يذهب إلى عمله بلا شغف ولا إنتاج، وعندما يُسأل: «هل تقوم بعملك؟» يجيب بلا مبالاة كما يقال في العامية «هو أنا جاي أَلْعَب»؛ ذلك الإنسان لا يستحق راتبه، ولا يليق به أن يُقال عنه موظف صالح. فاعلم جيداً أن وجودك في هذه الدنيا له أسباب وأولويات سامية، وأهمها أن تعرف ربك و تعبدَه ثم تكون نافعا للناس، تغلب الرحمة و النفع في معاملتك، وتنفني جهدك في عمارة الأرض.

إن أي هداية لأحد من الخلق تنسب فيها في هذه الجوانب الثلاثة، خير لك من الدنيا وما فيها، فعندما تقف أمام ربك يوم القيامة، وتكون أنت السبب في أن يهتدي إنسان لطريق الله، أو تكون سبباً في إصلاح حياته، أو فتحت له باب رزق، فاعلم أنك تمشي على درب الأنبياء، أما من يقف عائقاً بين الناس وبين ربهم، أو يسهم في فساد أخلاقهم، أو يزرع الكسل واللامبالاة، فهو بذلك يصد عن طريق النبي ﷺ ويخالف خطاه.

لذلك، اسأل نفسك كل صباح: هل أنا اليوم سبب في هداية إنسان لمعرفة الله أو تحسين خلقه؟ هل أقدر طيبة من حولي، وأقدم لهم معروفاً، وأشعرهم بمعاملي لهم أن الأمانة والصدق من أسمى الصفات التي ترفع الإنسان في أعين الناس، بدلاً

من السخرية منهم بحجة أن «الجميع يفعل ذلك»؟ إن سفهنا من قيمة الرحمة بالناس، نكون قد كسرنا مجاديف أخلاقهم، وكأنا نهدم أجمل ما فيهم.

تأمل كيف أن الكثير من الناس ثبتوا على أخلاقهم وحسنوا سلوكهم بفضل تقدير الآخرين لهم، وفي المقابل، الكثير منا أصابه الضعف و تزعزعت قيمهم ومبادئهم بسبب السخرية والاستهزاء.

وهنا يتجلى وعد النبي ﷺ لنا بقوله:

«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا» (69).

تأمل عظيم هذا الأجر ووزنه في ميزان حسناتك، كيف يكون ثقيلاً عندما تدلّ شخصاً على الصلاة أو على عمل صالح.

فالهدية العظيمة التي تقدمها للآخرين بهدايتهم خير من كل ما في الدنيا وما عليها، فتذكر دائماً أن هداية إنسان واحد تكون أفضل من كل الكنوز، وأثقل ما في ميزانك يوم القيامة.

بطولات الصحابة في فتح خيبر

وصل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع الجيش إلى بداية حصن الناعم، وكان المشهد عصيباً منذ بدايته؛ إذ مع وصول الجيش تحركت فجأة صخرة ضخمة من داخل الحصن وسقطت على رأس سيدنا محمود بن مسلمة، فاستشهد على

الفور، ليكون أول شهيد نذكر اسمه في غزوة خيبر، ثم غرس سيدنا علي رحمه في باب الحصن، فما كان من أحد اليهود الذين كانوا بداخل الحصن إلا أن نادى: «من؟». فأجيب بصوت واضح: «علي بن أبي طالب». وعند سماع هذا الاسم، صاح الرجل اليهودي في فزع: «هُزمتُم والذي أنزل على موسى». وهذا يدل على أن لديهم في كتبهم ما يشير إلى هزيمتهم هذه وأن قائد الجيش سيكون علي بن أبي طالب.

خرج من الحصن رجل يُدعى مرحب، وهو من قادة اليهود في تلك الجيوش، وبدأ يردد أبياتاً شعرية يعلن فيها عن قوته وعزمه في الحرب، فقال:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
إذا أقبلت الحروب تلهب

بمعنى أنه يصف نفسه بالنار التي تحرق كل من تواجهه في المعركة، حينها خرج له سيدنا عامر بن الأكوع، الذي أوصى به النبي ﷺ في طريقهم لينشد شعراً للمواجهة، وقال له:

«ألا تسمعنا من هنياتك؟» (70).

فبدأ عامر ينشد:

ولا تصدقنا ولا
صلينا

*

اللهم لولا أنت ما
اهتدينا

وأثناء إنشاده النشيد، قال له النبي ﷺ: «يرحمك الله». وهي عبارة تعني أن عامراً سيُقتل شهيداً في هذه المعركة. حينها قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا رسول الله، هلا متعتنا به؟» تعبيراً عن رغبته في أن يعيش عامر معنا أطول وقت ممكن.

دخل عامر بن الأكوع في مبارزة مع مرحب، وكان سيف عامر قصيراً، فأراد مرحب أن يضربه، لكن عامراً انخفض فدخل السيف في صدره.. فلما رأى بعض الناس هذا المشهد ظنوا أنه قتل نفسه متعمداً، أي انتحر، فقال النبي ﷺ: «كَذَبَ مَنْ قَالَهُ؛ إِنَّ لَهُ لَأَجْرَيْنِ». أجر المحاولة و الجهاد، و أجر الشهادة في سبيل الله.

ظل مرحب يردد أبيات شعره التي تعبر عن قوته، لكن رد سيدنا علي كان حازماً ومهيئاً عندما قال:

كليث غابات
كريه المنظره

*

أنا الذي سمتني أمي
حيدرة

على الأعادي مثل
ريح صرصرة

*

ضرغام آجام وليث
قسورة

وبدأت المبارزة بالسيف بينهما، و تعالى الغبار بين مرحب قائد اليهود الشهير بشدته و بين سيدنا علي المجاهد الصادق، فقتل سيدنا علي مرحباً، وكانت هذه بداية بشائر فتح الحصن.

ثم ما لبث أن خرج بعد ذلك أخو مرحب وهو أيضاً ينشد شعراً ويتحدى،
نفرج له سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه ليرد عليه.

وهنا بكت السيدة صفية أم الزبير رضي الله عنها قائلة: «يا رسول الله، يُقتل
ابني؟». فقال النبي ﷺ لها:

«بَلِ ابْنُكَ يَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» (71).

تأكيداً أن ابنها سيكون سبباً في انتصار المسلمين على أعدائهم.
وكان النبي ﷺ يكرر دائماً قوله:

«إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيَ الزُّبَيْرِ» (72).

مجدداً مكانة الزبير بن العوام بين أصحاب النبي الكرام.

وهكذا فتح الله تعالى الحصن أمام المسلمين، وانتقلوا إلى حصن الناعم،
واستمروا بالتقدم على التوالي عبر سبعة حصون بعد ذلك، كان الحصن التالي كبيراً
جداً اسمه حصن (الصعب بن معاذ).

قبل الانتقال إلى حصن الصعب بن معاذ، جاء إلى النبي ﷺ رجل عبد
حبشي، ومعه أغنام كثيرة، بينما كان الصحابة يشعرون بالجوع الشديد، فقال
الرجل: «يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فقد أتيت من
عند اليهود وأنا أقرأ كتبهم وأعرف صفاتك وأنت رسول الله». فسأله النبي ﷺ عن

الأغنام التي معه: هل هي ملكك أم لأحد آخر؟ فأجابه: «إنها لأحد اليهود بالداخل، وإنه أتى بها من عنده حتى يأخذوها».

فأظهر النبي ﷺ عدله وحكمته، فلم يأخذ النبي الأغنام رغم أنها كانت في يد عدو، وقال:

«بل الأغنام ليست لنا»⁽⁷³⁾.

نعم هذا ما حدث وسط الجوع الشديد والحرب الضروس، قبل الإسلام ورفض الأغنام.

ثم سأله ماذا يفعل بها، فأجابه: «احصبها في وجهها إلى ربها». فسمح له بأن يعيد الأغنام إلى مالكيها اليهودي.

وهنا يظهر بوضوح موقف النبي ﷺ الذي يرفع قيم الأمانة والعدل، فقد قال ﷺ:

«أدِّ الأمانةَ إلى من ائتمنَكَ ، ولا تخنْ من خانَكَ»⁽⁷⁴⁾.

وهو درس عظيم في الأخلاق حتى مع من يعتدي عليك، وهذا هو منهج الإسلام في التعامل بالحسنى والعدل مهما كان الخصم.

هذا الموقف يذكرنا بأعلى مراتب الإيمان والنبُل، حيث لا نغفل عن حقوق الآخرين حتى وإن كانوا أعداءنا، لأن الحق والعدل قيم سامية لا تتغير بالظروف.

حافظ على قيمك مهما كان الموقف

في قصة الراعي الذي جاء إلى النبي ﷺ حاملاً أغنماً ليست له، بل ملك لواحد من اليهود، ترك لنا النبي ﷺ نوراً وهدياً عميقاً في فهم معتقدنا وأخلاقنا في الحياة، هذا المشهد يحمل معنى بالغاً في جوهر الإيمان، وهو أننا في هذه الدنيا أرسلنا لنُظهر صفات الله في تعاملنا مع الخلق، نحاول أن نقبس من رحمة رب العالمين الرحمة على قدر استطاعتنا، ونستلهم من كرمه كيف نكرم من حولنا.

الله تعالى من أسمائه «الأحد»، ومعنى هذا الاسم العظيم أن صفاته لا تتجزأ ولا تتنافى، حين يتعامل الله معك، فإنه يجمع بين حكمته وعظمته ورحمته وكبريائه في آن واحد، فلا تُفقد إحدى صفاته لظهور أخرى. أما نحن كبشر، فغالباً ما نميل إلى فقدان بعض الصفات مع ظهور أخرى، فقد يغلبنا الغضب فنفقد الحكمة أو الرحمة، لكن رب العالمين هو الأحد الكامل الذي لا تقبل صفاته التقسيم أو التفكك.

وهذا هو درس لنا كمسلمين: أن نكون متكاملين في صفاتنا. فالمؤمن الطموح، مثلاً، لا يجوز له أن يتخلى عن الأمانة؛ لأن الطموح دون أمانة هو طريق للفساد والغش. قد يغري الغش والطموح غير الملتزم الأمانة في أن يحقق مكاسب سريعة، لكن الأمانة والرحمة والقوة يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع الطموح الحقيقي الذي يرضي الله ورسوله.

نجد هذا المثال جلياً في قصة الراعي الذي رغم أننا كنا في حالة حرب مع قوم يخونون ويكيدون، جاء هذا الراعي حاملاً أغنماً ليست ملكه، بل ملك سيده من اليهود، فسأل النبي ﷺ عن الأغنام فرفض أن يأخذها وأمره أن يعيدها إلى صاحبها. علمه ﷺ بكل وضوح: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

هذه الوصية العظيمة هي دعوة لنا لنعيش رحلتنا في الدنيا — في جهادنا وطموحاتنا وأرزاقنا — لكن دون أن نفقد قيمنا ومبادئنا.

فهذا هو الميزان الحقيقي الذي يعطي الإنسان وزنه الحقيقي عند الله سبحانه وتعالى: أن تحافظ على الأمانة وسط كل ضغوط الحياة، أن تكون طموحاً تسعى إلى الرقي والتقدم، ولكن بلا تحللٍ عن رحمة وقوة وأمانة تحميك وتحمي غيرك، هذا هو النور الذي تركه لنا النبي ﷺ، وهكذا تسير الحياة على طريق الحق والخير، في رضا الله وسمو النفس.

طاعة رسول الله ﷺ سر فتح الحصون

في رحلتنا المباركة نحو خير، افتتح المسلمون الحصن الكبير المعروف باسم (حصن الناعم)، وفي ذلك الوقت اشتد جوع الصحابة بشكل كبير، فاقترب من رسول الله ﷺ جماعة من بني أسلم يشكون له ذلك، قائلين: «يا رسول الله، قد أصابنا جوع شديد». فأجابهم النبي ﷺ بدعاء مملوء بالإيمان والتفائل، راجياً من الله أن يفتح عليهم من خزائنه في الحصون طعاماً وشراباً وخيراً كثيراً. ومع اقترابهم من الحصن التالي، وهو حصن (الصعب بن معاذ) الذي كان يعج بالخيرات، فوجئوا ببعض الحمير الإنسية التي كانوا في الماضي يأكلونها، فقاموا بذبحها وطهيها، وحينما استنشق النبي ﷺ رائحة الشواء وسأل عن مصدرها، أخبره الصحابة: «يا رسول الله، وجدنا حمراً إنسية فذبجناها لنأكل». فأمرهم النبي ﷺ قائلاً:

«أَكْفَيْتُهَا الْقُدُورَ، فَلَا تَطْعَمُوا مِنْ لَحْمِ الْحِمْرِ شَيْئاً» (75).

وكان ذلك تعبيراً عن تحريم أكل لحوم الحمير الإنسانية، ويبدو أن الصحابة لم يكونوا على علم بذلك الحكم، فما إن سمعوا أمر النبي ﷺ حتى استجابوا فوراً بلا تردد، كأنما لم تكن تلك اللحظة.

وبعد بسالة المسلمين أمام حصن (الصعب بن معاذ)، فتح الله عليهم هذا الحصن، الذي كان من أصعب الحصون تحصيناً، ولكنه كان أيضاً من أغنى الحصون بالخيرات. ولم تكن معركة خبير سهلة؛ إذ كلما انكسر اليهود في حصن انتقلوا إلى الحصن التالي، فزاد عددهم وقوة تحصينهم. وبعد حصن (الصعب بن معاذ)، تحرك المسلمون إلى قلعة أخرى تسمى (قلعة حصن الزبير)، وهناك بقي رسول الله ﷺ يحاصرهم لأيام طويلة دون أن يتحركوا، حتى جاءه رجل من اليهود اسمه (غزال) وقال له: «يا محمد، لو أقمت شهراً والله ما فتحو لك ولا فتحت عليهم». وشرح سبب ذلك بأن داخل الحصن آبار مياه متصلة بعيون خارجية، مما يجعلهم في أمان و اكتفاء مائي ولا يضطرون للخروج، فأدرك النبي ﷺ أن الحل هو قطع مصادر المياه عليهم، ليصبحوا مضطرين للخروج. فقام النبي ﷺ بمعاينة منابع المياه وقطعها بالفعل، ففتح الله على المسلمين الحصون وأسرعوا إلى الحصن الذي يليه المسمى (حصن أبي) وحصن آخر يسمى (النذار)، وكانت هذه الحصون مكتظة بالجنود وذات تحصينات شديدة الارتفاع.

وقد وصف الله تعالى هذه الحالة بقوله سبحانه وتعالى:

﴿لَا يِقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ
جَدْرِ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ [الحشر: 14]

بدأت المعركة العنيفة بعد أن حوصروا داخل الحصون، وكان من بين الجيش الذي حارب في تلك المعركة الصحابي الجليل (حباب بن المنذر) الذي كان حاضراً مع النبي ﷺ في غزوة بدر، وقد اقترح عليه في وقت سابق أن يدفنوا آبار بدر لتكون المياه معهم، لا مع الأعداء، وكان بجانبه الصحابي الجليل (أبو دجانة) الذي أخرج العصابة الحمراء في غزوة أحد، حيث أظهر شجاعة فائقة وقاتل بسيفه حتى آخر رمق، وكانت المعركة أشد قتالاً.

وفتح الله تعالى على سيدنا رسول الله ﷺ تلك الحصون الممتلئة بالناس الذين غدروا وخانوا العهود، وكانت هذه الحصون من أكثر الأماكن ثراءً بالطعام والشراب، وبعد ذلك انتقل النبي ﷺ إلى حصون أخرى تسمى (الوطيح) و(السلام)، حيث كان اليهود محتمين فيها بإحكام، فبدأ النبي ﷺ ينصب آلة المنجنيق، وهي آلة تشبه المدفع تستخدم لقذف الحجارة الثقيلة على الحصون، فلما يتقنوا من قوة جيش النبي ﷺ وعدم جدوى المقاومة، نزلوا على الصلح وطلبوا منه أن يحفظ حياتهم .

وبهذا، عاد النبي ﷺ منتصراً بعد أن أسكت تلك الحصون التي كانت مصدراً للخيانة والدسائس والغدر في المدينة، محافظاً على حق الله ورسوله، ومنتصراً بعد صبر وصمود، مظهراً الحكمة والرحمة التي ميزت قيادته ونبوته.

صلى الله
عليه
وسلم

أسباب طاعة الصحابة المطلقة لأوامر النبي

(الحمر الإنسانية) تختلف عن (الحمر الوحشية) .. وهو الحمار المخطط الذي نعرفه، فهو بالمناسبة أكله حلال هو والحصان، فعندما وجد الصحابة الحمر الإنسانية ذبحوها ليأكلوها وكانوا في شدة الجوع، فعندما كانت تُطبخ إذا برائحة اللحم تصل للنبي ﷺ فسأل عنها، فعندما علم أنها حمر إنسية صدر الأمر النبوي الفوري: «أَكْفُوا الْقُدُورَ» فأكفئت كأن لم تكن .. ما دام أمرنا النبي بذلك فسمعاً وطاعة يا رسول الله حتى وإن كنا سنموت جوعاً، وهذا لشيئين:

أولاً: لأنه النبي ﷺ وتعظيمه من تعظيم الله.

ثانياً: لأن رسول الله ﷺ لا يهانا عن شيء ينفعنا، ولكنه يهانا عن كل مؤذٍ، فقد قال ﷺ:

«إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى النَّارِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ» (76).

ففي اللحظة التي أمر فيها النبي ﷺ .. لا توجد مقارنة بين أمره وبين أي شهوة أو غريزة أو احتياج.

شيء ثانٍ هام جداً.. وهو أن الأكل الحرام يفسد الدنيا والآخرة.

فإذا كانت الحمر الإنسانية أكلها حرام .. فلنتأمل الحديث:

«إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ وَدَمٌ نَبَتَا عَلَى سُحْتِ النَّارِ أَوَّلَى بِهِ» (77).

فلا تأكل الحرام.

وإذا أردتَ كمسلم أن تكون دعوتي مستجابة في كل يوم وأن يحافظ الله على النعمة الموجودة عندي، فهناك احتياجات تظهر لي في كل يوم، فيقول النبي ﷺ لسيدنا سعد:

«يا سعدُ، أَطْبُ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ» (78).

ولذلك كان الأمر واضحاً: «أن أكفئوا القدور» .. فأكفئت، كأن لم تكن.

إسلام السيدة صفية ورجوع وفد الحبشة

بعد غزوة خيبر حدثت وقائع عظيمة أحببت أن أشارككم إياها، فهي تحمل بين طياتها معاني سامية ونفحات من رحمة الله وهدايته.

• المشهد الأول:

كان من بين أهم الأحداث إسلام السيدة الجليلة (صفية بنت حيي بن أخطب)، وهي من أكبر وأشرف سادات اليهود في ذلك الزمان، وكانت قد عرفت الإسلام وصفات النبي ﷺ من دينها من كتب أهل الكتاب، وقد روت كيف أن والدها وعمها رأيا النبي ﷺ عندما هاجر إلى المدينة، وكانا قد تسلقا شجرة عالية أو أحد البيوت المرتفعة ليطلعا عليه، فلما رآه عمها قال لوالدها: «أهو هو؟». فأجابه: «نعم، هذه هي صفاته التي وردت في التوراة». فسأله: «وماذا تنوي؟»

فأجاب: «عداوته ما بقيت». كانت كلمات تحمل في طياتها شدة العداء للنبي ﷺ، ولكنها في الوقت ذاته تثبت أن اليهود كانوا يعرفون صفاته بدقة، وكانت (صفية) متزوجة من رجل اسمه (كثانة بن أبي الحقيق)، وذات يوم رأت في المنام رؤيا عجيبة؛ إذ رأت القمر ينزل في المساء ويجلس في حجرها، وعندما أخبرت زوجها، ضربها ضرباً شديداً حتى تورمت عيناها، وقال لها بغضب: «أتطمعين أن تتزوجي نبي العرب؟!». وكأنه كان يفهم تماماً ما تعنيه الرؤيا، ويعرف صفات النبي ﷺ كما وردت في كتبهم، وهذا ما تؤكد آيات الله:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

[البقرة: 146]

إلا أن الله أراد لها الخير، فذهبت إلى النبي ﷺ وأسلمت على يديه، وتزوجها النبي ﷺ بعد إسلامها، فبعد أن كانت ابنة سيد اليهود، أصبحت أمّاً للمؤمنين، وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى ينير القلوب ويهدي من يشاء من عباده.

• المشهد الثاني:

ومن أفراح الإسلام المشرفة، مشهد عودة (أهل الحبشة) مع سيدنا جعفر رضي الله عنه، وكانوا في البداية أكثر من مائة صحابي عندما هاجروا، وزاد عددهم الآن بلا شك، وكان فرح النبي ﷺ بقدمهم عظيماً إلى حد أنه قال:

«ما أدري أنا بقُدوم جعفرٍ أُسرُّ أمْ بفتح خَيْرٍ؟» (79) .

تخيل معي فرحة جعفر وأصحابه وهم يسمعون هذا من حبيبيهم ومصطفاهم، بين فرحين كبيرين؛ فرح بانتصار المسلمين وفتح خير، وفرح بلقائهم سالمين من الغربة والبعء.

وفي موقف إنساني عجيب، حين عادت السيدة الجليلة (أسماء بنت عميس) من الحبشة، دخلت على السيدة عائشة رضي الله عنه، ثم قابلت سيدنا عمر رضي الله عنه، فقال لها: «نحن أحق برسول الله منكم.. نحن هاجرنا مع رسول الله». فحزنت أسماء وقالت له: «يا عمر، ماذا تقول؟ لقد كنتم مع رسول الله يُطعم جائعكم ويعطُ جاهلكم، ونحن كنا في أرض بعيدة في الحبشة». وأصرت على أن ترفع الأمر إلى النبي ﷺ، فذهبت إليه وقالت: «يا رسول الله، إن عمر يقول إنه أحق بك منا أهل السفينة». فأجاب النبي ﷺ برحمة وحكمة:

«ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان» (80) .

أي أنهم هاجروا مرتين؛ من مكة إلى الحبشة، ثم من الحبشة إلى المدينة، وهذه مرتبة عظيمة جداً، وجعلها النبي ﷺ شرفاً لهم وأساساً لفرحهم الكبير.

• المشهد الثالث:

وفي فرحة جديدة، كان هناك رجل اسمه (الطفيل بن عمرو الدوسي)، من قبيلة دوس، حينما ذهب إلى مكة حذروه من سماع كلام النبي ﷺ، وقالوا له: «إنه مجنون». فذهب يطوف بالكعبة وهو يضع القطن في أذنيه حتى لا يسمع، لكنه تعجب من نفسه ولم يستطع أن يستمر، فقال: «لماذا أفعل هذا؟ أنا رجل عاقل وأعرف كيف أزن الكلام». ونزع القطن، فسمع القرآن الكريم من رسول الله ﷺ عند الكعبة فاندفع قلبه، وقال: «ما أجمل هذا الكلام!». وأسلم على الفور. ثم خرج يدعو قبيلته إلى الإسلام، لكنهم رفضوا؛ لأنهم كانوا متشبثين بشركهم، ومتعلقين بخطايا الجاهلية التي اشتهروا بها وخاصة حب الزنى، فكان يقول للنبي ﷺ: «غلبني دوس على الزنى يا رسول الله، فادع الله عليهم». فرفع النبي ﷺ يده وقال:

«اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ» (81).

أي طلب من الله أن يهدي قبيلة دوس ويصلح حالهم ويجعلهم يعيشون في رحاب الإسلام. وبعد فترة، دخل (الطفيل بن عمرو الدوسي) على النبي ﷺ ومعه 70 بيتاً من قبيلته قد أسلموا، ومن بينهم الصحابي الجليل (عبد الرحمن بن صخر الدوسي) الذي كان يحب قطته حباً كبيراً، فأطلق عليه اسم «أبو هريرة»، وقد كان أبو هريرة من أكثر الصحابة حباً وتعلقاً بالنبي ﷺ.

مشاهد من نور

المشهد الأول:

كم كانت كلمات سيدنا محمد ﷺ حين قال: «لا أدري بأيهما أفرح؛ أبفتح خبير أم بقدوم جعفر؟!» صادقة عميقة، تأسر القلب وتشعل المشاعر. كيف لا؟ فهو بين فرحين عظيمين؛ فرحة النصر في معركة خبير الصعبة، وفرحة وصول جعفر رضي الله عنه وأصحابه الذين جاءوا في السفينتين، الذين كان وجودهم ينبض بالأمل والقوة والدعم، هذه الكلمات لم تكن مجرد عبارات عابرة، بل كانت تجسيداً لمحبة صادقة وتقدير عميق للناس الذين يحملون في قلوبهم الخير والوفاء.

ومن يُحب الناس بصدق ويقدرهم من أعماق قلبه، يبدع في اختيار الكلمات العذبة التي تلامس القلوب وتلطف الخواطر، فتشعر حينها أنك عزيز وكبير ومهم لديه، على عكس من لا يلتفت لكلامه، يرمي بكلامه كالسهم الجارحة دون مبالاة، فيجد نفسه متعجباً: لماذا يبتعد الناس عنه ويكرهون الجلوس بجانبه؟ وهو لم يدرك أن سخريته أو تجريحاته حتى وإن كانت بلا قصد قد تركت جراحاً عميقة في نفوس أقرب الناس إليه، جعلتهم ينهارون داخلياً.

أما من ينتبه ويحترم مشاعر الآخرين، فإنه يحفظ لهم كرامتهم وراحة نفوسهم، ويزرع المحبة بينهم بلا مجهود؛ لأن الكلمة الطيبة صدقة، والكلمة الجارحة تؤذي القلب وتدمي الروح.

المشهد الثاني:

هل وقفت يوماً تتأمل في قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه للسيدة أسماء بنت عميس حين قال لها: (نحن أحق برسول الله منكم)؟ تلك الكلمات التي قد تبدو في ظاهرها حادة أو جدلية، حملت بين طياتها تساؤلات كثيرة عن سياقها، هل كانت مناقشة علمية حول فضل المهاجرين من مكة إلى المدينة على من هاجروا إلى الحبشة، أم هي نوع من التعبير عن مكانة أو أولوية معينة؟

حين ردت أسماء بثقة واعتزاز: (كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا نحن بأرض بعيدة)، كانت تؤكد أن لكل مجموعة من الصحابة دورها ومكانتها في دعم الدعوة الإسلامية.

ثم جاءت كلمات النبي ﷺ التي كانت كالبلسم الشافي وراحت تخفف من حساسية الموقف، وتملأ القلوب طمأنينة، حين قال: (ولكم أتم أهل السفينة هجرتان) لتوضح أن للهجرة أنواعاً متعددة ودرجات من الاجتهاد والتضحيات، فهجرة الحبشة وهجرة المدينة كلتاهما عظيमतان، ولكل منهما قيمة لا تقدر بثمن.

وهذا يذكرنا كيف أن كلمة واحدة تخرج من أحداً أحياناً تكون سبباً في رزق أو تيسير أمر أو حل مشكلة قد تبدو معقدة، فالأمر كله بيد الله، يديره بحكمته التي لا تدرك.

دعني أحكِ لك قصة تعبر عن ذلك بوضوح: كانت هناك أسرة يجلس أفرادها يشربون الشاي، وفجأة انزلت قدم أحدهم فسقط كوب الشاي على الحائط، فأمر الأب بتنظيف البقعة بسرعة، فاستعملوا منظفاً تسبب في تفاقم الوضع وترك أثراً أسوأ على الحائط.

كان لديهم عزومة كبيرة بعد أيام قليلة، وكان هذا العيب في الحائط مصدر قلق لهم، فطلب الأب من أحد أصدقائه أن يحضر له شخصاً يصلح الحائط، لكن الجميع كانوا مشغولين.

حتى وجدوا أخيراً رجلاً لا يعمل في ذلك الوقت، فتم التواصل معه، وحضر ليصلح الحائط، لكن مع مرور الوقت، استمروا في تكليفه بأعمال إصلاح أخرى، حتى أنهى دهان صالة الاستقبال بالكامل، وحصل على أجريكيه ثلاثة أو أربعة أسابيع من العمل.

وبعد الانتهاء، قال الرجل لصاحب البيت: «كثّر الله من خيرك، كنت أجلس في بيتي لا أجد عملاً منذ أكثر من شهر، ولم أكن أدري كيف سأنفق على أطفالي».

هل تلاحظ كيف أن انفلات قدم صغيرة تسبب في سيل من الأحداث قاد إلى رزق غير متوقع؟ كيف أن كلمة بسيطة من أحدهم كانت السبب في تواصل أدى إلى رزق بركة لم يكن في الحسبان؟

فالرزق بيد الله سبحانه وتعالى، كما قال في كتابه الكريم:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ

كَلِمَةٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 49-50]

فكلمة سيدنا عمر رضي الله عنه كانت سبباً في أن يشعر النبي ﷺ وأصحابه بأن أصحاب الهجرتين هم مكرمون؛ لأن كل شيء مقدّر بدقة من عند ملك الملوك سبحانه وتعالى، الذي لا يغفل ولا ينسى، ولا يترك شيئاً إلا وقد أحكم تدبيره.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على صاحب المقام
المحمود، وصلِّ وسلِّم وبارك على إمام أهل
السجود، ذي الحنان الأعظم والعطاء الأكرم،
سيدنا محمد ﷺ.

اللهم أفضِّ علينا من أنوارك ما تحجب به عنا
حسد الحاسدين، وقرب لنا من عبادك كل معين،
واقسم لنا حظاً كبيراً من السكينة والسرور وتيسير
الأمر يا مجيب الداعين يا ملاذ التائبين.



(64) رواه البخاري.

(65) رواه البخاري.

(66) رواه مسلم.

(67) رواه البخاري.

(68) رواه ابن حبان.

(69) رواه مسلم.

(70) رواه البخاري.

(71) رواه البيهقي.

(72) رواه البخاري.

(73) ورد في الأثر.

(74) رواه أبو داود.

(75) رواه البخاري.

(76) رواه الحاكم.

(77) رواه ابن حبان.

(78) رواه الطبراني.

(79) رواه الهيثمي.

(80) رواه البخاري.

(81) رواه البخاري.

معركة ذات الرقاع وعمرة القضاء

موقف الشاة المسمومة وقصة الجارية الصغيرة

بينما نُكمل رحلتنا المباركة في قصة حياة الحبيب المصطفى ﷺ، ونقترب من لحظة عودته الميمونة من خيبر إلى المدينة، هناك ثلاثة مواقف عظيمة وقعت في هذا الطريق أحببت أن أشارككم إياها قبل أن نواصل معاً سطور هذه السيرة العطرة.

الموقف الأول: معجزة الشاة المسمومة

في أثناء الطريق، جاءت امرأة من يهود خيبر تُدعى زينب بنت الحارث، وطلبت أن تُهدي النبي ﷺ وأصحابه شاةً مشوية، سألت عن الجزء الذي يُحب النبي ﷺ أن يأكله من الشاة، فأخبروها أنه يحب الذراع، فلأّت الذراع بالسم وقدمته له

ﷺ

النبي ﷺ، الذي كان لا يرد الهدية، جلس يأكل منها ومعه الصحابي بشر بن البراء ابن معرور رضي الله عنه. وما إن وضع النبي ﷺ أول لقمة في فمه حتى تكلمت الشاة! نعم، نطقت الشاة وحذرت النبي ﷺ أنها مسمومة!

يا له من إعجاز إلهي! كما سخر الله الهدهد لسيدنا سليمان، سخر الشاة لتتلق وتُحذر خير خلق الله ﷺ.

فلفظ النبي ﷺ اللقمة قبل أن يبتلعها، لكنه أحس بأثر السم في لَهاته الشريفة. سأل النبي ﷺ المرأة:

«ما حملك على الذي صنعتِ؟» (82).

فقالت: «إن كنت نبياً فسيُخبرك، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك!».

ورغم ذلك، سامحها النبي ﷺ في موقف يُظهر سعة صدره وعظيم حلمه، لكن القدر كان قد مضى لبشرٍ، إذ أكل من الشاة ومات متأثراً بالسم، فلما توفي سيدنا بشر، وكان السم سبباً في قتله، قُتلت المرأة جزاءً لفعلتها.

• الموقف الثاني: حياء البنت الصغيرة

من عادة نساء الأنصار أن يخرجن في الغزوات ليساعدن المجاهدين في الطبخ والتطبيب، وخرجن مع النبي ﷺ في خيبر، وكانت بينهن فتاة صغيرة خرجت مع أمها، وركبت خلف النبي ﷺ على حقيبة الرحل.

وفي طريق العودة، نزلت من على الحقيبة لتجد أثر دم.. كانت أول حيضة لها، ارتبكت ونجست بشدة، وتشبثت بالحقيبة تحاول أن تُخفي الأمر.

لكن النبي ﷺ، الذي كان كالوالد الرحيم، رآها وسألها بركة: «ما لك؟ لعلك نفست؟». قالت: «نعم يا رسول الله». فقال لها:

«أصلي من نفسك، ثم خذي إناء من ماء فاطري فيه ملحاً، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم» (83).

كل هذا دون أن يخرجها، أو يشعر من حوله بما جرى.. قمة الاحتواء والرحمة! وبعد فتح خبير، وقد رزقهم الله من الغنائم، أعطاها النبي ﷺ عقداً، بل ألبسه لها بنفسه، فتقول: «فلا يزال العقد في رقبي لا يفارقي، حتى أوصيت أن يُدفن معي في قبري». أي حنانٍ أعظم من حنان المصطفى ﷺ؟!

الموقف الثالث: صلاة الفجر الفائقة

في طريق العودة من خبير، وبعد أن مشى الصحابة مسافة طويلة، أرادوا أن يستريحوا، فقال النبي ﷺ: «من يوقظنا لصلاة الفجر؟». فقال بلال رضي الله عنه: «أنا يا رسول الله».

يقول بلال: جلست أراقب، لكن غلبني النوم أكثر من تسع مرات! ثم أسندت ظهري على البعير فغفوت، فما أيقظني إلا حر الشمس في الصباح، ورسول الله ﷺ واقف أمامي يقول: «يا بلال، لماذا لم توقظنا؟!».

فقال بلال معذراً: «أخذني الذي أخذك يا رسول الله». أي النوم الذي غلبك، غلبني أنا أيضاً.

فشعر الصحابة بالحزن لأنه فاتهم وقت الصلاة، لكن النبي ﷺ بث فيهم الطمأنينة وقال:

«أما إنه ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى، فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها» (84).

هنا وضع ﷺ لنا حُكماً شرعياً نعيش في نوره إلى يومنا هذا: إذا غلبك النوم رغم نيتك واستعدادك، فلا تفريط عليك.

ويقول ﷺ:

«من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عيناه حتى أصبح، كتبت له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من ربه عز وجل» (85).

ثم قام النبي ﷺ والجيش، وتوضؤوا، وصلّوا الفجر بعد طلوع الشمس، بكل سلاسة ورحمة.. كم أنت عظيم يا رسول الله ﷺ!

نطق الشاة أمام النبي ﷺ
.. معجزة تدهش العقول وتُحيي القلوب

هناك بعض الناس، إذا سمع عن معجزة نطق الشاة المشوية بين يدي النبي ﷺ وهي تحذره بأنها مسمومة، فقد يُصاب بشيء من الاستغراب أو يشعر بعدم الاتساق بين هذا الحدث وبين ما اعتاده من منطق الحياة اليومية أو قوانين الطبيعة. وهنا يأتي دور التوضيح لفهم وتأمل في قدرة الله عز وجل وعظيم حكمته.

بداية، يجب أن ندرك حقيقة أساسية وهي: أن الأنبياء تحدث لهم معجزات، وهذه المعجزات هي أمور خارقة للعادة، لكنها ليست عبثاً ولا خيالاً، بل هي خاضعة لقدرة الله سبحانه وتعالى، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. فحين نسمع أن الله أنطق شاة مذبوحة لتخبر نبيه ﷺ بما فيها من سمٍّ، فإن هذا لا يُعد أمراً مستحيلاً، بل هو معجزة إلهية تؤكد صدق النبوة وتعكس رعاية الله لأنبيائه.

ولكي نقرب الصورة أكثر للعقل الحديث، دعنا نطرح مثلاً بسيطاً من حياتنا اليومية: الإنسان اليوم، وبما آتاه الله من عقل، استطاع أن يُنطق الجمادات! فهذا الهاتف الذي نحمله، المصنوع من البلاستيك والمعادن، يمكنه أن «يتكلم»! أقول له: ترجم لي هذه الجملة... فيفكر! ثم يرد عليّ ويترجم! أطلب منه أن يبحث لي عن معلومة... فيبحث ويعرضها لي! ومع ذلك، نحن ندرك أن هذا الهاتف لا يملك عقلاً ولا لساناً، بل هو مجرد جهاز مبرمج. فكيف بالله عليك نستغرب أن يُنطق الله شاة، وهو الذي يقول للشيء «كن» فيكون؟!!

وإذا كان الإنسان قادراً -بعقله المحدود- أن يُبرمج الجماد لينطق ويرد ويتفاعل، فكيف برب العزة سبحانه وتعالى، الذي خلق الإنسان وعقله، ألا يكون قادراً على أن يُنطق ما شاء من خلقه؟!!

بل إن القرآن الكريم نفسه حدثنا عن مشاهد أعظم من نطق الشاة، وذكر لنا أن الأرض يوم القيامة ستنطق وتشهد على ما جرى فوقها من أعمال الخير والشر، فقال الله تعالى في سورة الزلزلة:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ
أَنْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ
أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5)﴾ [الزلزلة: 1 -

[5]

أي أن الأرض نفسها، وهي الجماد الصامت، ستنطق يوم القيامة، وتُخبر بما حدث فوقها من طاعة أو معصية! فكيف نعجب من نطق الشاة في الدنيا، وهو مشهد من مشاهد المعجزة التي تُجريها يد القدرة الإلهية لحماية نبي الرحمة ﷺ؟! إذن، فالمعجزة ليست خيالاً، ولا هي مناقضة للعقل، بل هي خروج عن المألوف بإرادة الله العليم القدير، لتأييد نبي، أو لحكمة أرادها الله.

وإيماننا بالغيب يشمل الإيمان بأن الله قادر على أن يُنطق من شاء، ويُسكت من شاء، ويُحيي من يشاء، ويميت من يشاء.

فهذه الجزئية العظيمة التي وردت في سيرة النبي ﷺ هي جزء من معجزات الأنبياء، وهي لا تخرج عن قدرة رب العالمين، بل تخضع لها وتدل عليها، وتزيد المؤمن يقيناً، وتملأ قلبه إيماناً وتسليماً بأن رب هذا الكون لا يعجزه شيء أبداً.

حكم من نام عن صلاة أو نسيها

هل تأملت بساطة الموقف الذي فاتت فيه صلاة الفجر النبي ﷺ وأصحابه؟

وكان النبي ﷺ يريد أن يُرينا بلطفه وحنانه على قيمة التوازن.. التوازن بين ألا نُفْرِط في الصلاة أو نتهاون بها، وفي نفس الوقت ألا نحزن حزناً يقطع صلتنا بالله أو يزرع فينا شعوراً بأننا غير مقبولين عنده! في هذا الموقف البسيط والعميق، طلب النبي ﷺ من سيدنا بلال رضي الله عنه أن يُوقظهم لصلاة الفجر. يعني أخذ بالأسباب، وكأننا اليوم نضبط المنبه ونقول: يا رب، (صحيني).

لكن سيدنا بلالاً، مثلهم تماماً، كان منهكاً عائداً من الجهاد في سبيل الله، من معركة خبير، وكانوا كلهم في قمة التعب والإرهاق.. ومع ذلك، لم يصلوا الفجر لا تهاوناً ولا تكاسلاً، وإنما لأن النوم غلبهم، وهو ضعف بشري طبيعي.

هنا يظهر النبي ﷺ في أجمل صوره.. لم يغضب، لم يعاتب، لم يشعرهم بالذنب، بل قال لهم بلطف: إنه ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصل حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى، فليصلها حين يذكرها.

تأمل! النبي ﷺ يُرَبِّت على كتف كل مؤمن استيقظ متأخراً عن صلاة الفجر رغم أنه نوى، وضبط المنبه، وأخذ بالأسباب، لكن التعب كان أكبر منه.

وكانه ﷺ يقول لك: لا تظن أن الله غاضب منك.. بل توضأ، وقف بين يدي ربك، وصل الصلاة بمجرد ما تستيقظ؛ لأن النبي ﷺ نفسه قال:

«مَنْ نَسِيَ صَلَاةً أَوْ نَامَ عَنْهَا، فَإِنَّ كَفَّارَتَهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا» (86).

افعل ما تستطيع:

-اضبط المنبه.

-نم في وقت مناسب.

-هيَّ جَوًّا يساعدك على الاستيقاظ، لكن لو غلبك التعب، فلا تظلم نفسك بالظن أن الله غاضب منك! لا تجعل لحظة نوم تُربك علاقتك مع الله وتملاً قلبك بالانقباض؛ الله أرحم من ذلك بكثير.

هذا المشهد من سيرة النبي ﷺ هو مشهد رحمة وتربية وطمأنينة.. يُعلِّمنا أن الإيمان الحقيقي لا يعني القسوة على النفس، بل الرحمة بها، مع الأخذ بالأسباب والتوكل على الله.

بداية معركة ذات الرقاع

ومع مواصلة السرد في أحداث السنة السابعة من هجرة النبي ﷺ، بلغ رسول الله ﷺ خبرَ خطيرٍ في المدينة المنورة، مفاده أن قبيلة «غطفان» - وهي من أكبر قبائل العرب، وكانت قد شاركت مع قريش واليهود في محاولة اقتحام المدينة خلال غزوة الأحزاب - قد بدأت بالتجهز للهجوم مجدداً على المدينة.

وهنا اتخذ النبي ﷺ قراراً حاسماً مليئاً بالحكمة والحرص على أهل المدينة: لن ننظرهم حتى يصلوا إلينا ويهلكوا بيوت المدينة وأهلها، بل نخرج إليهم ونقطع الطريق عليهم قبل أن يقتربوا، ونأخذ زمام المبادرة.

لكن كانت الرحلة في غاية المشقة.. مسافة تقارب 700 كيلومتر في وسط صحراء حارة وأرضٍ وعرة ممتلئة بالصخور، ولا توجد راحة في الطريق.

عدد المسلمين المهينين وقتها للخروج لم يكن كبيراً بسبب مباغته الموقف؛ إذ تراوح عددهم ما بين 400 إلى 700 فقط.

أما الرواحل - وهي الإبل المعدة للسير في الصحراء لمسافات طويلة، والتي تُشبه في زماننا سيارات الدفع الرباعي - فكانت قليلة جداً، لدرجة أن كل ستة رجال كانوا يتناوبون على راحلة واحدة! أي أن كل واحد منهم يركب فقط سدس المسافة، ويقطع خمسة أسداسها على قدميه تحت الشمس الحارقة.

يصف الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري   هذا المشهد المؤلم فيقول:

«مشينا في الحر، وكانت الأرض وعرة، مليئة بالصخور الحادة، حتى تمزقت نعالنا، وتساقطت أظفار أقدامنا من شدة المشي والتعب، فقطعنا من ثيابنا «رقاعاً» ولففناها حول أقدامنا».

ولهذا سُميت هذه الغزوة بـ «غزوة ذات الرقاع»؛ نسبةً إلى تلك الرقاع التي لفوها على أقدامهم من شدة التعب والحر.

و العجيب أن هذه المعركة لم يحدث فيها قتال، بل وصل النبي إلى حيث تجمعت غطفان فوجدهم قد فروا؛ وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً.

ورغم هذه المشقة، فإن ما كان ينتظرهم في طريق الذهاب والعودة لم يكن مجرد معركة.. بل كان دروساً خالدة، ومواقف تهزُّ القلوب، ونوراً يتدفق من سيرة الحبيب ﷺ. تعالوا نعيش هذه اللحظات معاً.

• الموقف الأول: صلاة الخوف.. عبادة رغم السيوف!

في الطريق، وبينما الجيش يقترب من العدو، دخل وقت الصلاة، وهنا يظهر وجه الإسلام النقي: حتى في أحلك اللحظات، لا تُترك الصلاة، ولا تُغفل صلاة العبد بربه، لكن كيف يصلون والعدو قريب وقد يهجم في أي لحظة؟!

وهنا نزل تشريع جديد من رب العالمين - سبحانه وتعالى - لحماية الصلاة في وقت الحرب، وسُمِّي هذا التشريع بـ «صلاة الخوف».

فأمر الله نبيه ﷺ أن يُقسم الجيش قسمين:

◆ **قسمٌ يقف خلف النبي ﷺ فيصلي معه ركعتين.**

وقسمٌ آخريوجهون وجوههم إلى العدو، ليحرسوا إخوانهم في أثناء الصلاة.

ثم بعد الركعة الثانية (أو التشهد الأوسط)، يتبدل القسمان:

◆ **الذين صلوا أولاً يذهبون للحراسة.**

◆ **والذين حرسوا يصلون مع النبي ﷺ بقية الصلاة.**

وهكذا صلى النبي ﷺ إماماً بهم أربع ركعات، بينما كل مجموعة من الصحابة صلت ركعتين فقط، وحُفظت الصلاة، وحُفظت الأمة، وحُفظت الأرواح!

قال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾

[النساء: 102]

الموقف الثاني: السيف لا يهزم العقيدة

وفي طريق الاستراحة، افترش الصحابة الأرض تحت ظلال الشجر، فنام كل واحد منهم بجانب شجرة، وكان النبي ﷺ أيضاً قد نام بعد أن علق سيفه على غصن شجرة.

فجأة، اقترب منه أحد المشركين خلسة، وأخذ السيف من فوق الشجرة، ووقف فوق رأس النبي ﷺ قائلاً في تهديد: «من يمنعك مني؟». فقال النبي ﷺ بكلمة تهز الجبال:

«اللَّهُ» (87).

نعم، الله وحده.. ليس هناك حارس، ولا جندي، ولا درع.. فقط اليقين الكامل في أن الله هو الحافظ والمعين.

◆ هذه الكلمة خرجت من أعماق قلب النبي ﷺ، فأصاب بها قلب الرجل فسقط السيف من يده! أخذه النبي ﷺ ورفع السيف عليه، وسأله: «ومن يمنعك مني؟». فقال الرجل: «كن خير آخذ، والله ما آذيتك!». فقال له النبي ﷺ:

«أشهد أن لا إله إلا الله؟». قال: «لا، ولكني أعاهدك ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك» (88).

فعفا عنه النبي ﷺ، كما هو شأنه دائماً.. رسول الرحمة والغفران.

الموقف الثالث: أرحم الراحمين

وفي إحدى الليالي أثناء الغزوة، جلس النبي ﷺ مع أصحابه، يحدثهم ويربي أرواحهم بكلماته النورانية، فقال ﷺ:

«إن المؤمنَ إذا أصابه السَّقمُ ثم عافاه اللهُ؛ كان كفارةً لما مضى من ذنوبِهِ، وموعظةً له فيما يَسْتَقْبِلُ، وإن المنافقَ إذا مَرَضَ ثم أُعْفِيَ؛ كان كالبعير، عقَلَهُ أهلهُ ثم أرسلوه؛ فلم يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ؟ ولم أرسلوه؟» (89).

فعناها أن الإنسان المؤمن العارف بالله يعلم أن جسده ملك لله، فعندما يُبتلى بمرض يخرج من ذنوبه ويتطهر كالصفحة البيضاء، فهناك حديث يقول:

«وَحُمِيَ لَيْلَةَ تَكْفُرِ خَطَايَا سَنَةِ مَجْرَمَةٍ» (90).

أما المنافق، فلا يدري لماذا ابتلي، ولا يرى حكمة الله، فيكون كجمل رُبط ثم أُطلق، لا يدري لماذا ولا لم؟

ونجأة، جاء أحد الصحابة إلى النبي ﷺ يحمل قاشة فيها حمامتان صغيرتان وأمهما، وقال له: «يا رسول الله، وجدنا الحمامة الكبيرة تحلق فوق صغارها، فقبضنا على الصغار، فلما رأتهن الأم، نزلت هي أيضاً ولم تفارقهن!».

فتأثر النبي ﷺ بهذا المشهد، وقال:

«فوالذي بعثني بالحق، لله أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها، ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن» (91).

الرحمة التي في قلب الأم هي فقط قطرة من بحر رحمة الله بعباده! فرحمة الله فوق كل تصور.. فلا تئس أبداً مهما قست الظروف.

الجهاد الحقيقي في زماننا

قصة ذات الرقاع.. حينما مشت الأقدام على طريق الجنة..

عجيبة حقاً، ومهيبة تلك القصة التي تروي رحلة الصحابة الكرام في غزوة «ذات الرقاع». رحلة لم تكن قصيرة ولا مريحة، بل ساروا فيها أكثر من 700 كيلومتر، في صحراء حارقة، على أقدامهم المتعبة، وعلى أرضٍ وعرة تمتلئ بالحجارة والصخور.

كل ستة منهم يتعاقبون على جملٍ واحد، لا تكفي الرواحل، فركوبهم كان لسدس المسافة فقط، أما بقية الطريق فكان على الأقدام.

ومع كل خطوة.. كانت النعال تتمزق، والأظافر تتساقط من شدة الحرارة والوعورة، فلم يجدوا بُدّاً من أن يقطعوا من ثيابهم «رقاعاً» يلفونها على أقدامهم؛ لعلها تخفف عنهم لهب الرمال والصخور.

ومن هنا سُمّيت الغزوة باسم «ذات الرقاع».. فكل رقعة قماش كانت شاهدة على إيمان، وعرق، وصبر، وحب للجنة.

فهنا تذكر قول رسول الله ﷺ:

«أَلَا إِنَّ سُلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سُلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ» (92).

نعم، سلعة الله هي الجنة.. وليست رخيصة، ولا تُنال بالأُماني، بل تُنال بالصبر، والعزم، ونصرة القيم والعقيدة.

فليست الجنة جزاءً فقط لمن ضحى بحياته.. بل جزاءً لكل من نصر مبادئه، وثبت على دينه، وسعى في طريق الحياة بإيمانٍ وعفةٍ وكرامة. قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15]

والجهاد اليوم؟

قد لا تحمل سيفاً، ولا تقف على ثغر، لكنك في جهادٍ لا يقل عظمةً ووزناً عند الله، وهو جهاد «بذل المجهود لتحقيق المقصود». فإن كان بلدك آمناً - والحمد لله - ولا يعرف الحروب، فجهادك هو في:

◆ بناء نفسك.

◆ تحصيل رزقك بالحلال.

♦ خدمة وطنك وأمتك دون أن تفقد قيمك.

♦ أن تعمل وتُتقن وتُخلص، دون غش، ولا خيانة، ولا فساد.

فإذا اجتهدت في معركة الحياة لتكون عاملاً نافعاً، وشاركت في معركة الأخلاق لتكون إنساناً صادقاً أميناً. فأنت على ثغر من ثغور هذا الدين، تُجاهد في سبيل الله، وتُقدِّم لله ما افترضه عليك.

وكما أن الله فرض جهاد السيف في صدر الإسلام عند الحاجة، فقد فتح اليوم أمامنا باباً من جهاد البناء، وجهاد إعمار الأرض بالحق والقيم.

ومن وفقَّ بهذا الجهاد، نحسب أن له أجر الشهداء، وبُعْث - بإذن الله - مع سادات المجاهدين من الصحابة والأنبياء؛ لأنه قام بما افترضه الله عليه، وثبت في معركته دون تراجع أو خيانة؛ وذلك لقوله ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء و لو مات على فراشه». فهنيئاً لكل من اختار الطريق الصعب لأنه طريق الحق، وهنيئاً لكل من لبَّى نداء الجنة وأعدَّ لها ما استطاع من جهد وصدق.

قصة جمل جابر مع النبي ﷺ

من أجمل المشاهد التي وقعت في طريق عودة النبي ﷺ من غزوة ذات الرقاع، مشهدٌ لا تُنسى تفاصيله، بطله الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله

عنه.

ولنتذكر أولاً: أن أبا جابر هو عبد الله بن حرام ، من أوائل من استشهدوا في غزوة أحد. كان ممن نالوا الشهادة وتحدث مع الله عز وجل كفاحاً ، فطلب من الله أن يرجعه إلى الدنيا ليُقتل في سبيله مرة أخرى لما وجد من نعيم وكرامة عند الله، لكن الله تعالى قال له:

«إني كتبت عليهم أنهم إليها لا يرجعون» (93).

فقال عبد الله: «بلغ إخواني ما أنا فيه من النعيم!».

فأنزل الله عز وجل آية تُخلد كرامة الشهداء إلى يوم الدين:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ

أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]

بعد وفاة والد جابر، ترك له عدداً كبيراً من الأخوات البنات - يُقال سبع أو تسع بنات - فتحمّل جابر مسؤولية عظيمة في سنٍّ صغيرة، وعاش حياته مجاهداً، عاملاً، قائماً على خدمتهن وسد احتياجاتهن.

وبينما كان الجيش في طريق العودة من الغزوة، كان سيدنا جابر متأخراً عن الصفوف. وكعادة النبي ﷺ - القائد الرحيم - لا يترك أحداً خلف الركب، فكان

يتأخر في السير ليطمئن على كل متأخر؛ مَنْ تعب.. مَنْ تعطل.. مَنْ يحتاج إلى مساعدة، لكنه في المعركة دائماً ما يكون في مقدمة الصفوف.

فلما رأى النبي ﷺ جابراً متأخراً، قال له بلطف: «مالك يا جابر؟». فقال جابر: «أعيا جملي يا رسول الله»، أي تعب جملي وما عاد يستطيع السير.

وهنا تظهر بركة النبي ﷺ ولمسته الرحيمة، فقال له: «أنخه». أي أجلس الجمل، ثم وخزه النبي ﷺ بعصاه الشريفة، فنهض الجمل قوياً نشيطاً يسابق الريح! ببركة لمسة النبي ﷺ.

فمشى معه النبي ﷺ، وسار بجواره، وفتح معه حديثاً فيه من التودد والحنان والتوجيه والدفع ما يشعر قلبك أنك في حضن نبي الرحمة ﷺ.

فقال له النبي ﷺ - وقد لاحظ أن جابراً يُحب جملة - «أتبعيني جملك يا جابر؟». فرد جابر بكل حب: «بل هو لك يا رسول الله.. هدية». فقال له النبي ﷺ: «لا، بل بعنيه».

فقال جابر: «فسمه لي يا رسول الله»، أي حدد لي السعر. قال النبي ﷺ سائلاً وممازحاً له: «قد أخذته بدرهم». وكأنه يقول: أشتري منك سيارتك بعشرة جنيهات! فقال جابر وهو يضحك: «إذن تغبني يا رسول الله!»، يعني أكون قد خسرت بهذا السعر البسيط، فقال النبي: «فبدرهمين». قال جابر: «إذن تغبني!». ومضى الحوار بينهما وكأنهما أب وابنه في نقاش لطيف، حتى وصل الثمن إلى أوقية، وهو ثمن كبير يُدفع في الجمل.

ثم سأل النبي ﷺ جابراً سؤالاً فيه حنو واهتمام: «يا جابر، هل تزوجت بعد؟». قال جابر: «نعم، يا رسول الله.. تزوجت ثيباً». أي امرأة سبق لها الزواج، فتعجب النبي ﷺ برفق، وسأله:

«أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟!» (94).

فقال جابر بكل رجولة ومسئولية: «يا رسول الله، إن أبي مات وترك لي أخوات، فجئت بمن تقوم على شئونهن». فقال النبي ﷺ بإعجاب ودعاء: «بارك الله فيك يا جابر، وإذا رجعنا إلى المدينة.. فكن كيساً يا جابر». أي حكيماً، ذكياً، واعياً في تصرفاتك.

وعندما عادوا إلى المدينة، أوفى النبي ﷺ بوعده، فأرسل سيدنا بلالاً رضي الله عنه إلى جابر بالأوقية ثمناً للجمل. وجاء جابر، وربط جملة عند المسجد، ودخل على النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ:

«خذ جملك ولك ثمنه» (95).

الله أكبر! النبي ﷺ لم يشتِرِ الجمل لنفسه.. بل أراد أن يُعين جابراً مالياً، دون أن يشعره بالعطاء أو الإحراج، فأخذ جابر الجمل والثن معاً، ثم قال له ﷺ: «كن كيساً، واقبل الهدية».

كُنْ حنوناً ونافعاً لغيرك

إذا أمعنت النظر في حياة سيدنا رسول الله ﷺ، فستجدها نوراً يهديك في تفاصيل حياتك، ويكشف لك كيف يكون الإنسان عظيماً في تواضعه، كبيراً في رحمته. تأمل كيف كان ﷺ إذا سار مع أصحابه، لم يكن في المقدمة كما اشتهر عن

العظماء وقتها، بل كان يمشي خلفهم، يطمئن على ضعيفهم، ويعين صاحب الدابة المريضة. لكن حين تبدأ المعركة وتدق طبول الحرب، تجده ﷺ أول من يتقدم الصفوف، ثابتاً شامخاً، لا يهاب الموت، بل يحتمي به أصحابه ويقولون عنه: «إذا بدأت الحرب كان ﷺ أقربنا للعدو فاحتميناه».

ويصفه الصحابة قائلين: «كان النبي ﷺ يعين الضعيف، وكان يسير بسير أضعفهم». تخيل ذلك! لو كنا في سباق، وأحدهم يملك سيارة رباعية الدفع، ثم تُفاجأ به يسير بسرعة السيارة القديمة، حتى لا يترك خلفه من لا يقدر على اللحاق. وكذلك كان ﷺ مع الجمال والدواب، لا يسرع ليصل، بل يسير ببطء خلف الجيش، يتفقد أحوالهم، ويراعي مشاعرهم، ويعطي كل ذي حق حقه.

وبينما هو ﷺ يمشي يوماً، رأى سيدنا جابر بن عبد الله، فبدأ معه حديثاً دافئاً فيه من الإنسانية ما يحيي الأرواح، وفيه من النبل ما يرفع قدر من يكلمه. وكان جابر شاباً بسيطاً، ليس من كبار الصحابة، ولا من الأغنياء، لكنه ابن أحد الأبطال؛ عبد الله بن حرام، الذي نال الشهادة في غزوة أحد، ومع ذلك، يجلس معه النبي ﷺ ويتحدث إليه بكل تواضع، بل خاطبه وكأنه أحد كبار القوم، يُكرمه، يُنصت إليه، ويُشعره بأنه مهم في عينه، عزيز في قلبه.

فالكبير الحقيقي، هو من يُشعرك وأنت بجانبه أنك كبير.. هذا هو معنى العظمة.

في هذا اللقاء الرقيق، سأله ﷺ: «هل تزوجت؟». فأجابه جابر: نعم، تزوجت امرأة كبيرة في السن كي تعتني بأخواتي البنات، وتساعدني في مسؤوليتي نحوهن. فابتسم النبي ﷺ ودعا له أن يتقبل الله منه هذا البرّ الجميل، ثم لاحظ أن جابراً يسير ببطء عن بقية الصحابة، فسأله عن السبب، وهنا بدأ المزاح اللطيف من النبي ﷺ، حيث عرض عليه أن يشتري جملة، وكان الهدف من ذلك أن يمنحه مالا يعينه

ويقويه في حياته، دون أن يشعره بأنه يتصدق عليه. تفاوض معه ﷺ على السعر، لا كمشتري حقيقي، بل كأخ كريم يريد أن يسند صاحبه برفق ومحبة.

فكيف لا نتعلق بمثل هذا النبي العظيم؟! كيف لا يكون فراقه ثقيلاً؟ فلا تستغرب أنه حين انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى، لم يستطع سيدنا أنس بن مالك أن يخفي حزنه فقال: «أظلم من المدينة كل شيء»... كأن النور انطفأ، كأن الروح غابت.

فإذا أردت أن تكون عظيماً، فكن كالنبي ﷺ منيراً في حياة الناس. ازرع النور، وانثر الطيبة، وكن سبباً في راحة القلوب، فإن فعلت، أحبك الناس، وذكروك بالخير، وإن غبت عن الدنيا، تسابقوا في الدعاء لك، ومنهم من يعتمر عنك أو يحج، وتهدى لك الأعمال؛ لأنك كنت نافعاً، حنوناً، وذا أثر طيب في حياة من حولك.

عُمرَةُ القضاء

تمرُّ الأيام، ويحينُ موعدُ شهر ذي القعدة من السنة السابعة بعد هجرة النبي ﷺ، وقد اكتمل عامٌ كاملٌ على صلح الحديبية الذي نصَّ على ألا يباشر المسلمون أداء العمرة في ذلك العام، بل تأجيلها للعام التالي، فهذا هو النبي ﷺ يدعو أصحابه للاستعداد، ليؤدوا ما أُجِّل؛ تلك العمرة التي عُرِفَتْ بـ(عُمرَةِ القضاء) أو (عُمرَةِ القضية)؛ إذ كأنهم يقضون حقَّ هذه العبادة ويُنفذون بنود الصلح التي كتبها و التزم بكل ما فيها.

نخرج رسول الله ﷺ برفقة أصحابه الذين شاركوه في الاتفاق، غير أن منهم من استشهد في غزوة خيبر، ومن مات خلال هذا العام، وحضر إلى جانبه صحابة جدد طلبوا أن يشاركوه أداء هذه العمرة المباركة، فارتفع عدد المجموع من حوالي 1400 صحابي إلى قرابة 2000 صحابي.

وخرج النبي ﷺ معهم، مجهزين بأسلحة المسافر البسيطة، لكنه كان معه مائة فرس، تلك التي تسير مع قافلة المعتمرين، مزودة بالسلاح من أجل الحماية؛ لأن الجزيرة العربية لم تكن منطقة آمنة؛ إذ كانت الأرض مليئة بالأعداء، ولم يكن الجميع متعاهداً مع رسول الله ﷺ، فكان السلاح وقايةً وحمايةً.

واصل النبي ﷺ المشي مع أصحابه حتى اقتربوا من مكة المكرمة، فرأى أهل مكة تلك القافلة المهيبة، يرافقها مائة فرس مزودة بالأسلحة، فأرسلوا إلى النبي ﷺ رسائل عبّروا فيها عن استغرابهم: «يا رسول الله، إننا لم ننقض العهد، فلماذا تغزونا بالسلاح؟ والله ما علمناك صغيراً ولا كبيراً تغدر». فتأمل معي في كلماتهم، رغم أنهم مشركون، ومع ذلك وصفوه بالأمانة والصدق، كأنهم يقرون بعظمة خلقه وكرامته.

فردّ النبي ﷺ عليهم بكلماتٍ تنطق بحكمة وصفاء:

«إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ» (96).

كأنه يؤكد لهم أن ما معهم من سلاح إنما هو لحمايتهم في الطريق من شر الأعداء، وليس له شأن بمكة، التي جاءوها بقلوب صافية ونوايا سلمية.

فدخل النبي ﷺ وأصحابه مكة ليؤدوا العمرة، وفي أثناء سيرهم، بدأ زعماء مكة يحذّرون أهلها من الاقتراب، بحجة وجود وباء الطاعون في المدينة، فابتعد

المشركون عن الصحابة، وامتلأوا لتخويف زعمائهم، فتفرقوا وارتقوا الجبال، خوفاً من العدوى المكذوبة.

فلما رأى النبي ﷺ ذلك، قال:

«رَحِمَ اللَّهُ امْرَأاً أَرَاهِمَ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً» (97).

وأمر أصحابه أن يخرجوا أذرعهم اليمنى من لباس الإحرام، وهو ما يُسمى (الاضطباع)، وأن يسرعوا الركض في أول ثلاثة أشواط، وهو ما يسمى بـ(الرمَل).

وعندما ظهرت أجسادهم الصحيحة المعافاة بلا مرض، نظر إليهم الناس بذهول وقالوا: «والله ما بهم من بأس».

واستمر النبي ﷺ في الطواف مع أصحابه، وفي خضم هذا المشهد المبارك، قام سيدنا عبد الله بن رواحة بالإنشاد قائلاً:

خلوا بني الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقبيله
أعرف حق الله في قبوله

فنهى سيدنا عمر بن الخطاب عبد الله بن رواحة عن الإنشاد أثناء الطواف، فقال له النبي ﷺ:

«خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ، فَلَيْهِ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضِجِ النَّبْلِ» (98).

ثم رفع صوته قائلاً:

«لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده» (99).

فاهتز الحرم الشريف بهذه الكلمات العظيمة، تلك الكلمات التي نردها في عيد الفطر وعيد الأضحى بكل خشوع.

وبعد أن أنهى النبي ﷺ العمرة، ذبح الذبائح التي كان قد أحضرها من المدينة، وشارك أهل مكة فيها بسخاء وكرم، وبقي في مكة يومين، وفي اليوم الثالث أرسل زعماء مكة إليه يخبرونه أن ضيافتهم قد انتهت.

فما إن انتهت الأيام الثلاثة حتى عاد النبي ﷺ إلى المدينة، مستعداً لمرحلة جديدة من الأحداث العظيمة التي ستقع فيما تبقى من عمره الشريف.

خروج الإشاعات وكيفية التعامل الصحيح معها:

عندما دخل النبي ﷺ مع أصحابه مكة لأداء عمرة القضاء، انطلقت إشاعات من قريش تزعم وجود وباء بينهم، فحذروا الناس من الاقتراب منهم، فابتعد المشركون حتى خرجوا على رؤوس الجبال يبتعدون خوفاً وحرصاً. وكان وراء هذه الإشاعات دافع خفي واضح، وهو خوف قريش من أن يختلط أهل مكة بالمسلمين،

فيتأثروا بهم ويسلموا معهم، وهذا دليلٌ على قلة حيلتهم و ضعف حجتهم؛ لأن من يمتلك منطقاً واضحاً لا يلجأ إلى بث الإشاعات، بل يواجه الحق والواقع بصراحة.

فكان موقف النبي ﷺ عظيماً وعميقاً الحكمة؛ إذ لم يطلب من أصحابه الرد بالكلام على تلك الإشاعات، وإنما قال لهم: «رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة». وأمرهم أن يخرجوا أذرعهم اليمنى من ملابس الإحرام، وهو ما يُسمى بـ(الاضطباع)، وأن يجروا بسرعة في أول ثلاثة أشواط من الطواف، فيما يُعرف بـ(الرمل)، وهنا كان رد النبي ﷺ عملياً، كمن يرد في ميدان الأحداث على الإشاعات المغرضة، ليس بالكلام فقط، بل بالفعل القوي الواضح الذي لا يقبل الجدل، فبدت أجسادهم صحيحة معافاة، فذهل الجميع من واقعهم وقالوا: «والله ما بهم من بأس».

وفي هذا الموقف الشريف، نجد عبرة ثمينة لنا جميعاً؛ فكما أن النبي ﷺ جعل عمله وأخلاقه ترد على الإشاعات، علينا نحن أن نرد بأخلاقنا وأفعالنا عندما يُقال فينا من الغيبة والنميمة أو يُساء إلينا بالكلام.

فكم من مجالس وأحاديث تجري فيها الغيبة والنميمة، بل أحياناً حتى بين العائلات والأصدقاء! كما أن بعض بيئات العمل تُسيطر عليها المنافسة المرهقة، التي تنتج عن كثرة الكلام السلبي والتنمر على الزملاء في الملابس أو السلوك أو الأداء.

يقول العقلاء : (العقول الصغيرة تتكلم عن الناس، والعقول المتوسطة تتكلم عن الأشياء، والعقول الكبيرة تتكلم عن القيم والأهداف).

لذلك، لا تخف إذا تكلم أحد بسوء عنك، بل ردّ عليه بأخلاقك العالية وفضلك، واعلم أن الله - سبحانه وتعالى - يرد عنك غيبتك ويدافع عنك، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة الحج: 38]

افعل كما فعل النبي ﷺ، الذي علمنا أن نُظهر أفضل ما فينا، ونُبَيِّن من أنفسنا خيراً؛ لأن أفعالنا وأخلاقنا هي الصوت الأبلغ، والصدى الأقوى الذي يكشف الحق وينفي الباطل، فتكون بذلك قد رددت على كل الإشاعات بأرقى وأسمى الردود.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد، واجعل حياتنا على سُنَّته، وموتنا على ملته، وسدد ألسنتنا بالإجابة في القبر عند السؤال، واجعله يا ربنا يوم القيامة شافعاً لنا من جميع الأهوال.

اللهم وأدخلنا دار ثوابك من غير سابق عذاب ولا امتحان، يا حنان يا منان يا أرحم الراحمين.

اللهم إنا نسألك باسمك الأعظم أن تفيض علينا من الخيرات، وتشملنا بعظيم البركات، وتطهِّر

أَخْلَقْنَا مِنَ الرِّذَائِلِ وَالْعَثَرَاتِ، يَا مَنْ بِيَدِهِ تَفْرِيجُ الْكُرْبَاتِ وَتَنْزِيلُ الرَّحِمَاتِ يَا رَبَّنَا وَيَا مَوْلَانَا.



(82) رواه البخاري.

(83) رواه أبو داود.

(84) رواه مسلم.

(85) رواه النسائي.

(86) رواه البخاري.

(87) رواه البخاري.

(88) رواه أحمد.

(89) رواه أبو داود.

(90) رواه القضاعي.

(91) رواه أبو داود.

(92) رواه الترمذي.

(93) رواه ابن أبي الدنيا.

(94) رواه أحمد.

(95) رواه البخاري.

(96) رواه البخاري.

(97) رواه ابن هشام.

(98) رواه الترمذي.

إسلام خالد بن الوليد وشجاعة الصحابة في معركة مؤتة

وفاة السيدة زينب وإسلام خالد بن الوليد وعمر بن العاص

نكمل معاً رحلتنا المباركة في حياة أشرف الخلق، سيدنا محمد ﷺ، التي تفيض نوراً وهداية، وتمر بنا السنون حتى نصل إلى بداية السنة الثامنة من بعد الهجرة النبوية الشريفة، حيث كان عمرُ النبي ﷺ قد بلغ تقريباً واحداً وستين عاماً.

لقد بدأت هذه السنة بحادثة حزينة صعبة على قلب النبي ﷺ، وهي وفاة السيدة زينب رضي الله عنها الابنة الكبرى للنبي ﷺ، فقد كانت هذه الخسارة موجعة جداً، فسيدنا محمد ﷺ قد تُوِّفِيَ جميع بناته في حياته إلا فاطمة فقط هي من بقيت على قيد الحياة بعده، كما أن كل أولاده الذكور قد تُوِّفُوا قبله، فقد رُزق النبي ﷺ بسبعة أبناء؛ ستة منهم فارقوا الحياة في حياته:

♦ السيدة رقية رضي الله عنها توفيت في السنة الثانية من الهجرة.

♦ والسيدة زينب رضي الله عنها توفيت في السنة الثامنة من الهجرة.

♦ والسيدة أم كلثوم رضي الله عنها فارقت الحياة في السنة التاسعة من الهجرة.

وأما أبناءه الذكور، فهم: عبد الله، والقاسم، وإبراهيم - رحمهم الله جميعاً - وقد رحلوا في حياته.

وعندما حلت وفاة السيدة زينب رضي الله عنها أمر النبي ﷺ السيدة سودة بنت زمعة أن تقوم بتغسيلها، فغسلتها بيدها الطاهرة، ثم أعطاهم النبي ﷺ قطعة من ثيابه وقال لهم:

« أشعرنها إياه (100) ».

أي ضعوا هذا الجزء من ملابسه تحت الكفن، حتى يكون أول ما يلامس جسدها الشريف هو جزء من ملابس النبي ﷺ، ثم لفوا الكفن عليها وغسلوها بماء وسدر.

فكفنوا السيدة زينب رضي الله عنها ودفنوها في المدينة المنورة، حيث المكان الذي شهد كثيراً من نورها وصبرها.

ثم حدث موقف مميز ونبيل في تلك الفترة، كان ذلك أثناء أداء النبي ﷺ لعمرة القضاء، حينما جاء الوليد بن الوليد، أخو سيدنا خالد بن الوليد، و خالد لم يكن قد أسلم بعد، لكنه كان في حالة تردد وإمعان في أمر الإسلام بعدما رأى كثرة أتباع النبي ﷺ.

يقول الوليد بن الوليد أخو خالد : كان النبي ﷺ يسأل دائماً ويقول: «أين خالد؟». فأجيب: يأتي الله به. فقال: «أين خالد؟». فقلت: يأتي الله به. فقال:

«ما مثله جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين كان خيراً له، ولقدّمناه على غيره» (101).

أي أنه أراد أن يخبره أن مكان أخيه خالد لو أسلم هو قيادة الجيش الإسلامي.

فترك الوليد خطاباً لأخيه خالد بن الوليد في مكة قبل عمرة القضاء سنة 7 هجرياً، يشجعه على مراجعة نفسه واللاحق برسول الله ﷺ في المدينة المنورة.

وكان خالد في سفر وقتها، فلما عاد وقرأ الخطاب، وجد أن الله قد ملأ قلبه إيماناً.

وقد كان قبلها يرى في منامه رؤى تدل على فتح واسع في حياته، كان يرى كأنه في صحراء ضيقة وفجأة يفتح له باب يخرج منه إلى حديقة واسعة، فقرر أن

يتوكل على الله ويهاجر إلى النبي ﷺ في المدينة في شهر صفر من السنة الثامنة للهجرة.

فكر أن يأخذ معه أحداً يشاركه الطريق، فذهب إلى صفوان بن أمية وقال له: «ما رأيك أن تأتي معي؟ أنت تعلم أن محمداً على حق، ورغم أننا حاربناه سنين طويلة». فرد صفوان: (لا والله، لو لم يكن في مكة غيري ما اتبعته). أي أنه لن يسلم حتى لو بقي هو وحده في مكة.

ثم ذهب إلى عكرمة بن أبي جهل، فسأله نفس السؤال، فأجابه ردّاً مماثلاً: (لا أسلم، والله لو لم يكن في مكة غيري ما اتبعته). فذهب خالد ثالثاً إلى صديقه المقرب عثمان بن طلحة، وهو الرجل الشهم الذي رغم كونه مشركاً وقتها، فقد ساعد السيدة أم سلمة على الهجرة إلى المدينة خوفاً عليها بعد المشاحنات التي وقعت بينها وبين عائلتها.

فعرض خالد الأمر على عثمان، وكان رده إيجابياً مليئاً بالنور و الهداية، فكلاهما انطلقا معاً.

وما أجمل توفيق الله وعونه! إذ أثناء خروجهما من مكة، التقوا شخصاً عظيماً من أبطال العرب وهو سيدنا عمرو بن العاص، الذي يشبه خالداً في ذكائه وحنكته الحربية.

فقال عمرو لخالد: «إلى أين يا خالد؟». فأجاب: «إلى النبوة، لأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». فقال له عمرو: «وهذا الذي أخرجني». كأن الله يهيئ لهم الطريق ويجبر خواطرهم بصحبته لبعضهم.

وصل الثلاثة إلى المدينة المنورة، فلما سلموا على النبي ﷺ سلموا عليه بالنبوة، أي قالوا: «السلام عليك يا رسول الله». وليس بتحية الجاهلية التي اعتادوا عليها، فأقبل

النبي ﷺ عليهم مستبشراً وقال:

«هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»⁽¹⁰²⁾.

معبراً عن أن أعظم رجال قريش قد جاءوا ليعلموا إيمانهم.

دخل سيدنا خالد بن الوليد وجلس بين يدي النبي ﷺ وقال له: «يا رسول الله، قد حاربتك لسنوات طويلة، فادعُ الله أن يغفر لي». فدعا له النبي ﷺ قائلاً:

«اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوقع فيه من صدٍّ عن سبيلك»⁽¹⁰³⁾.

ثم جاء دور سيدنا عمرو بن العاص الذي سلم على النبي ﷺ، فمد النبي ﷺ يده ، فقبض عمرو يده وقال: «يا رسول الله، أشرت». فسأله النبي ﷺ: «وما تشرت؟». فقال عمرو: «أشرت أن يغفر لي»؛ إذ كان قلبه مضطرباً من سنوات الحرب الطويلة ضد النبي ﷺ والمسلمين، وكان يريد الاطمئنان والسكينة.

فأجابه النبي ﷺ بقلب رحيم:

«أما علمت أن الإسلام يهْدِمُ ما كان قبْلَهُ، وأنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ ما كان قبْلَها، وأنَّ الحجَّ يَهْدِمُ ما كان قبْلَهُ؟»⁽¹⁰⁴⁾.

فاطمأن عمرو وسلم على النبي ﷺ، مستريح القلب وهادئ البال.

وشهد الثلاثة الكبار: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، شهادة التوحيد الخالصة، وأعلنوا بكل صدق: « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»، ففتح الله لهم أبواب رحمته وكرمه، وبدأت صفحات جديدة مشرقة من حياتهم بإذن الله.

قلوبُ العبادِ بين يدي الله

عجيبٌ هو أمر هداية الله - سبحانه وتعالى - كما بين الله في كتابه العزيز:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ

يَشَاءُ ﴿سورة القصص: 56﴾

تخيل عزيزي، عشرون عاماً كاملة، كان فيها سيدنا خالد بن الوليد وسيدنا عمرو بن العاص يحاربان النبي ﷺ أشدَّ الحروب، ظلًّا في عنادهما ومواقفهما هذه المدة الطويلة، يتحدَّيان الحق، ثم فجأة وفي لحظة واحدة، قررا أن يذهبا معاً ليسلما بين يدي رسول الله ﷺ، يعلنان شهادة لا تغير فقط مسار حياتهما، بل قلبت موازين التاريخ.

إنها ليست كلمة واحدة فقط، بل هي تراكم من الإيمان الذي ظل ينو بداخلهم مما شاهدوا من جمال النبي ﷺ الذي رأوه بأعين قلوبهم، من أنوار الحق

التي أضاعت صدورهم رغم شدة العناد، إلى أن جاء ذلك اللقاء الذي انتصرت فيه أنوار النبوة على ظلمات القلوب، وأنارت درب خالد وعمرو بن العاص.

وهذا يعلننا أمرين عميقين:

أولاً: ألا نحكم على أحد بحكم قطعيّ أو نحكم على خواتيم الأعمال؛ لأن الله تعالى هو الأعلّم بما في القلوب، وهو القادر على أن يبدّل أحوال عباده في أي لحظة؛ لذلك، عندما نرى إنساناً يذنب أو يعصي، فلنصمت، ولنرفع أيدينا بالدعاء لأنفسنا ولهؤلاء الناس، بدلاً من إطلاق الأحكام التي لا نملك لها سلطاناً، فالمصير بيد الله وحده كما قال:

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [سورة يوسف: 40]

ثانياً: أن تغير حال الإنسان قد يأتي في أي وقت، في لحظة قد تبدو بسيطة، كما حدث مع الفضيل بن عياض بعد جيل الصحابة، ذلك الرجل الذي كان سارقاً، لكنه في يوم من الأيام، وهو يصعد إلى بيت عشيقته، سمع تلاوة القرآن تردد:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا

نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [سورة الحديد: 16]

فشعر بقلبه يذوب نوراً، وقال: «آن يا رب». هذه اللحظة من النور اخترقت ظلمة قلبه، فاغتسل ، وصلى، وبدأ طريقه الجديد، وعندما سمع الإمام في المسجد بعد ذلك يصلي بتلك الآية، علم أن الله يرسل له رسالة واضحة: لا تيأس من نفسك ولا من غيرك، ولا تتوقف عن الدعاء، ولا تحكم على أحد قبل أن تصل القلوب إلى نور الله.

فها هو سيدنا خالد بن الوليد الذي كان بالأمس مشركاً يحارب رسول الله، يتحول إلى سيف من سيوف الله، يفتح الطرق ويثبت الحق، فتعلم يقيناً أن الله وحده بيده قلوب العباد، وهو الذي يهب الهداية لمن يشاء بفضله ورحمته.

فلتكن هذه القصة النور الذي يضيء دربنا في الصبر على الآخرين، والدعاء لهم، والإيمان بقدرة الله على تغيير القلوب في أي لحظة، فلا تحكم على أحد بما ترى، وكن دائماً من الذين يقولون: «اللهم اهدِ نفوسنا وقلوبنا وقلوب عبادك».

مواقف مهمة في بداية معركة مؤتة

بعث النبي ﷺ رسالةً إلى ملك بُصرى، وكان حاملها رسولاً من أشجع صحابته؛ سيدنا الحارث بن عمير الأسدي، حمل الحارث بين يديه خطاب النبي ﷺ، رسالة سلام ودعوة إلى الإسلام، ومعها أمن وأمان.

وفي طريقه نحو الشام، مر الحارث بمنطقة تُسمى مؤتة، حيث كان هناك رجل يرأس قبيلة الغساسنة يدعى شرحبيل بن عمرو، وهي قبيلة موالية للروم ويبلغ عددها ما يقرب من مائتي ألف مقاتل، سأله شرحبيل: «من أنت؟ وإلى أين تريد أن تذهب؟». فأجابه الحارث بثبات: «أريد الشام». فظن شرحبيل أن الحارث من

رسل محمد، وما كان من شرحبيل إلا أن أقدم على فعل مدان، فقام بقتل الحارث وقطع رأسه. هذه الواقعة كانت كارثة عظيمة على مستوى العلاقات بين الدول، فقد قُتل رسول يحمل رسالة سلام، وهو أمر مهين ومرفوض في عرف الأمم والدول، فلو سكتت الدولة عن مثل هذا التصرف، لُعبَ بها وأُهينت هيبتها. عندما وصل الخبر إلى النبي ﷺ، تألم حزناً شديداً؛ إذ لا يُحتمل أن يُقتل رسول سلام بأيدي أناس غادرين.

فقال النبي ﷺ:

«من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فليلقني في الغداة» (105).

أي يقابلني في الفجر خارج المدينة، فجهّزوا جيشاً قوامه حوالي ثلاثة آلاف مقاتل، من بينهم خالد بن الوليد، وأسماء جديدة من قادة الصحابة: زيد بن حارثة وجعفر ابن أبي طالب و عبد الله بن رواحة، ووضع النبي ﷺ خطة دقيقة بعد أن أسند حمل اللواء والقيادة لزيد بن حارثة قائلاً:

«إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ جَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ» (106).

«اللواء» هو راية الحرب ورمز القيادة في المعركة.

ثم ألقى النبي ﷺ خطبة الجمعة، وبعد الصلاة خرج يودع الجيش ويتفقدهم، فلم يجد عبد الله بن رواحة بين صفوفهم. وبعد قليل جاء عبد الله، فسأله النبي ﷺ: «ما منعك أن تغدو مع أصحابك؟». فأجابه عبد الله: «يا رسول الله، أردت أن أحضر معك صلاة الجمعة ثم ألحق بالقوم». فرد النبي ﷺ بحكمة:

«لو أنفقتَ ما في الأرضِ جميعاً ما أدركتَ غَدوتهم» (107).

أي أن ثواب الذين لبوا نداء النبي ﷺ من الفجر أكبر من كل ثروات الأرض.

ثم سأله عبد الله بن رواحة: «أوصني يا رسول الله». فأوصاه النبي ﷺ بثلاث وصايا غاية في البلاغة والعمق:

(1) «يا عبد الله، إنك تدنو من أرض ليس فيها سجود، فأكثر فيها من السجود» (108).

في إشارة إلى أهمية السجود والاقتراب من الله، خاصة في الأماكن التي تندر فيها العبادة.

(2) «اذكر الله بقدر عونك على ما تطلبه» (109).

أي أن ذكر الله هو القوة التي تقوي القلب وتجعله صامداً في مواجهة التحديات.

(3) «يا عبد الله، لا تعبز إن أسأت عشرًا أن تُحسن واحدة؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات» (110).

فالحسنات تزيل السيئات، وهو وعد من الله بفضله رحمته.

ثم أضاف النبي ﷺ تعليمات الحرب التي تعكس الرحمة والعدل، حيث قال:

«اغزُّوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغزُّوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا» (111).

تأمل معي هذه الوصايا هي وصايا حرب لكنها مملوءة بالرحمة، وبالعدل، وبالحفاظ على الحقوق. هي تعبير صادق عن رحمة الإسلام وروحه السمحة، التي ترفض أن يؤخذ أحد بذنوب آخر، وتبحث على حفظ كرامة الإنسان والحياة في كل الظروف.

هذه القصة العظيمة تعلمنا أن الحق لا ينال بالقسوة والظلم، بل بالرحمة والعدل، وأن ديننا العظيم دين سلام ورحمة، وأن النصر الحقيقي هو أن نكون منصفين وثابتين في مبادئنا، حتى في ساحات القتال.

ليس دائماً الأمتع هو الأنفع

وصايا سيدنا محمد ﷺ لسيدنا عبد الله بن رواحة تحمل في طياتها معاني روحية عظيمة وأسراراً نورانية تتغلغل في القلوب قبل العقول، فتضيء دروب العباد وتُعانق نفوس المحبين.

النور الأول: ينبثق من موقف عبد الله بن رواحة عندما اختار أن يحضر خطبة الجمعة مع النبي ﷺ ويصلي خلفه، بدل أن يخرج مع الصحابة في الفجر كما أمر النبي

ﷺ حين قال: «من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فليلقني في الغداة خارج المدينة». ولعل عبد الله اختار الأمتع بالصلاة خلف النبي و حضور خطبته، ولكن النبي ﷺ علمه درساً عميقاً حين قال له: «لو أنك أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت غدوتهم»! أي أن طاعة الأمر الموجه - حتى وإن بدا في الظاهر أقل متعة - هي الأعلى مقاماً والأثقل في ميزان الأعمال. فالحقيقة أن أمتع اللحظات ليست دائماً الأرفع منزلة، فالامتثال لأمر النبي ﷺ هو نور لا يضاهى وأفضل القربات.

وهذا يفتح لنا باب التأمل في حياتنا اليومية، حين تُطلب منا أشياء قد لا نراها ممتعة؛ كأن ترافق أمك إلى الطبيب، وهذه عبادة عظيمة لكنها للبعض غير ممتعة، أو تساعد أباك في أمر يحتاج إلى حضورك، أو تسند أختك في مشوار بسيط، ورغم أن هذه الأعمال قد تبدو عادية ليس لها متعة أو خشوع بعض العبادات الأخرى، إلا أنها - في حقيقتها - أقرب إلى روح العبادة وأرفع مكانة عند الله؛ لأن فيها طاعة وتقديماً للمصلحة، وهو ما يثقل الميزان ويقرب القلب من الرحمن.

كذلك، عندما تتحول امرأة كانت تحضر دروساً وتحفظ القرآن إلى أم تهتم بأطفالها وتعتني بهم، قد يبدو هذا التغيير انخفاضاً في النشاط الديني، لكن الحقيقة أن تربية الأطفال ورعايتهم هي عبادة عظيمة فرضها الله، وهي أرق وأثقل في ميزان الأعمال من كثير من النوافل، فهي عبادة الوقت بكل معانيه.

النور الثاني: يتجلى في الوصية المباركة التي أعطاها النبي ﷺ لعبد الله بن رواحة قائلاً: «لا تعجز إن أسأت عشرًا أن تحسن واحدة فإن الحسنات يذهبن السيئات». هنا نتعلم كرم الله الرحيم علينا، الذي لا يترصد أخطاء عباده ليعاقبهم، بل هو سبحانه غفور رحيم، يبسط يده بالمغفرة كلما همَّ العبد بالتوبة، هذه الوصية تضع أمامنا صفة الله الحنان الذي يجازي الحسنة بعشر أمثالها، ويعفو عن السيئة أو يجازي عليها بالمثل.

قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[سورة القصص: 84]

وهكذا يُعرِّفنا النبي ﷺ على الله من خلال أنواره، في كلامه، في وصاياه التي تنير لنا دروب التقوى والرحمة، تعلمنا ألا نبتئس من رحمة الله مهما كثرت سيئاتنا، وأن نستمر في فعل الحسنات، ولو كانت واحدة، فهي كفيلة بحو أضعافها من الذنوب.

فاستضيئ بنور هذه الوصايا، واحملها معك في قلبك، فهي مشعلك إلى رحمة الله ورضاه، وسيلك لتحقيق السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة.

بسالة الصحابة واستشهاد القادة

قصة معركة مؤتة من أعظم دروس الثبات والتوكل على الله في التاريخ الإسلامي، وتعكس روح الإيمان والاعتماد على النصرة الإلهية، مع الأخذ بالأسباب المتاحة رغم الفارق الكبير في العدد والعدة.

فعلاً، عندما وصل جيش المسلمين إلى مؤتة، وجدوا أمامهم جيشاً ضخماً يفوقهم بكثير، 200 ألف مقاتل مقابل 3 آلاف فقط، وهذا لو نظرنا إليه بعين العقل فقط

لكان يمكن أن يُسبب إحباطاً؛ لكن كما قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

[سورة البقرة: 249]

فإن النصر يكون بيد الله وليس بالعدد فقط.

و وصل الجيش إلى قرية مؤتة ؛ ليجد هذه القبائل الضخمة في انتظاره، فجلس الصحابة يتشاورون في أمرهم، فكل مرة تكون أعداد جيوش المشركين أكبر و لكن ليس بهذا الفارق المهول.

حينها تدخل سيدنا عبد الله بن رواحة بكلماته التي هي شهادة على قوة الإيمان وعظمة الموقف:

«إن الذي تخافون للذي خرجتم تطلبون، ووالله إنا لا نقاتل أعداءنا بالعدد ولا بالعدة، ولكن نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فاستبشروا فإنما هي إحدى الحُسنيين؛ إما أن نظهر «نتنصر»، وإما الشهادة في سبيل الله».

هذه الكلمات ألهبت حماس الجيش، وأعادت لهم قوة العزيمة والثقة بالله، فعرفوا أن المعركة ليست حرباً تقليدية تُحسم بالأرقام، بل هي جهاد في سبيل الله، والنتيجة بيد الله تعالى.

وبالفعل دخلوا في قرية مؤتة لتكون المعركة في مكان محدود ومغلق، مما قلل من فاعلية العدد الكبير للروم. وبدأت المعركة بثبات عظيم، حتى استشهد أولاً

حامل الراية سيدنا زيد بن حارثة.

فأخذها من بعده سيدنا (جعفر بن أبي طالب) وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقتربها * طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها * كافرة بعيدة أنسابها

فكان يُحَفِّزُ نفسه على الدخول في المعركة بالشعر كعادة العرب وقتها، فدخل وحمل اللواء فَضْرِبَ على يده اليمنى فسقطت، فأخذ اللواء بيده اليسرى فَضْرِبَ على يده اليسرى فقطعت، فأخذ الراية بين عضديه، فأخذوا يطعنونه حتى سقطت منه الراية، ثم بعد ذلك أخذ سيدنا (عبد الله بن رواحة) خطوة حتى يأخذ اللواء وكأنه تلكأ جزءاً من الثانية فشجع نفسه بالشعر وقال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه * لتنزلن أولت

قد أجلب الناس وشدوا الرنة * ما لي أراك تكره

وتقدم وأخذ اللواء وقاتل حتى قُتِلَ، فسقطت الراية فلم يجدوا إلا (خالد بن الوليد)، فأخذ اللواء وأكمل الحرب وهو يقول: (فانكسر في يدي في هذا اليوم 9

أسياف) وهو يحارب بمنتهى القوة، وسيدنا النبي ﷺ كما أخبرنا راوي القصة يقول: رُفعت له أرض مؤتة، فقال:

«أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم» (112).

وينتهي اليوم ولكن عدد الروم كبير جداً، فنحن بحاجة إلى فكرة وخطة حتى نستطيع أن نُكَلِّم الحرب، وعندما وصل الخبر إلى النبي ﷺ بمقتل سيدنا (جعفر) زوج السيدة (أسماء بنت عميس) ذهب لها، وقال لها: «أين عياله؟»، فعندما اقتربوا منه ﷺ قبلهم ومسح على رؤوسهم وهو يقول:

«اصنعوا لأهل جعفر طعاماً ، فإنه قد جاءهم ما يشغلهم» (113).

فقلت أسماء: (أأصيب جعفر؟). قال: «نعم». فصاحت وأتى إليها النساء حتى يواسينها وكان يوماً صعباً في المدينة.

في هذا اليوم كان ثمن الثبات والإيمان غالياً، لكن القلوب كانت متوحدة، والروح عالية، والإيمان قوياً، وهذا كله يؤكد أن معركة مؤتة كانت مقدمة لاختبار إيماني عظيم، ومؤشراً على نصره الله التي ستأتي لاحقاً.

اعرف ما المطلوب منك

قصة استشهاد القادة الثلاثة العظماء في جيش المسلمين، وهم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، تروي لنا يوماً من أيام هذا الجيل المبارك من الصحابة الكرام مع سيدنا رسول الله ﷺ، يوماً يحمل في طياته معاني عظيمة تشعرنا بمدى ثقل وتحمل المسؤولية في بناء الأمة، مسؤولية ليست سهلة أبداً.

فهم في مرحلة تأسيس أمة جديدة، فرضت عليهم معارك وتحديات كثيرة وشاقة ليست مطروحة أمامنا اليوم، ولكننا في رحلة حياتنا الخاصة التي قد تفرض علينا نحن أيضاً تحديات من نوع آخر؛ تحديات فتن الحياة و بناء الذات، وصيانة البيوت، ورعاية العلاقات بيننا وبين من نحب، فكل ذلك جهاد في ميادين الحياة المتنوعة.

فمن يصيبه الكسل أو تتسلل إليه رغبة في الاستسلام أو التراجع، عليه أن يقرأ هذه القصة ليذكر نفسه بأن الثبات والصبر هما مفتاح النصر، وأن التوقف ليس من خيار المؤمن. تخيل كيف لثلاثة آلاف مقاتل فقط أن يثبتوا ويصمدوا أمام مائتي ألف مقاتل! إن هذا كله بتدبير الله، فهو الذي يسرّ الأقدار ويعين العبد الصادق بمدد من عنده لمواجهة وتحمل هذه الأقدار.

الجهاد هو بذل المجهود لتحقيق المقصود

ولنفترض، والله الأمر من قبل ومن بعد، أنك ولدت في زمن مليء بالحروب والصراعات، فماذا تفعل؟ هل تظل جالساً في منزلك متخلياً عن مسؤولياتك؟ هذا هو الجبن والهروب من نصرة الحق، بل الصحيح أن تبذل قصارى جهدك، بما تملك من قوة وعزيمة؛ لأن الله وعد بالنصر، وهذا بالضبط ما نحتاج إلى أن نعيه ونتعلمه في عصورنا الحالية، كل حسب موقعه ودوره؛ سواء كنت فرداً في أسرة، أو رب

أسرة، أو شاباً يدرس، أو أمّاً تربي أولادها، أو عاملاً في مصنع، لا بد أن تبذل من الجهد ما يحقق لك غايتك في الحياة ويقربك من الله ورسوله. هذا هو معنى الجهاد الحقيقي: (بذل المجهود لتحقيق المقصود).. وعندما تقترب منك لحظات الكسل أو الإحباط، تذكر أن هذه الدنيا دار جد واجتهاد، هي دار بذل واختبار لا دار لهو ولعب، وكل أعمالنا في هذه الدنيا هي رصيدنا للآخرة، فكن واعياً لذلك.

وكان من أجمل ما رواه الصحابة عن سيدنا أبي الدرداء ؓ، حين دخل أحد إلى بيته فوجده ينقصه قطعة من أثائه، فسأله عن السبب، فأجابه: (تصدقت بها، فقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن لنا داراً هي خير من هذه الدار، وأنا أرسل لها خير المتاع).

فكانه يرسل هذا المتاع، وهو الخير والصدقة والعمل الصالح، إلى الدار التي لا تزول، فالآخرة خير وأبقى.

فأنت أيضاً مدعوٌّ لأن تبني للآخرة، وأن ترسل لها ما تستطيع من عمل صالح، فإنها دار الخلود، وهي الدار التي لا تبلى ولا تفسى.

شعور لا يوصف

هل توقفت يوماً تتأمل المشهد العظيم المؤلم في آنٍ واحد، حين يبلغ النبي ﷺ أهل الشهيد بأن ابنهم، أو ربّ أسرهم، قد استشهد؟! لحظة مشحونة بالوجع الذي يعصر القلوب، والدموع التي تروي ألم الفراق، لكنها في الوقت نفسه لحظة يعانق فيها الفخر والاعتزاز النفوس، فذلك الشهيد الذي اختاره الله واصطفاه لم يكن فقط

رجلاً في بيته وبين أهله، بل كان فارساً نذر نفسه لله في ميدان الجهاد، فارتقى شهيداً في سبيل الحق.

إنَّ هذا المشهد العميق لا تستطيع الكلمات أن تصفه حقَّ وصفه، فمشاعر الوجد المحتلّط بالفخر، والعزة التي لا توصف، لا يشعر بها إلا من ذاقها بعمق، فتقف العبارات عاجزة أمام حجم المشاعر العظيمة. وفي وسط هذا الحزن الموجد، يرتفع القلب شكراً وحمدًا لله؛ لأن الله سبحانه وتعالى اصطفى شهيدنا ليكون من أصحاب المقام الرفيع، وهو في ميادين الشرف والتضحية حيث ينال أسمى درجات الكرامة.

اللهم احفظ رجالنا وأولادنا وجميع أحبائنا، وارزقنا الثبات والصبر، فهذا الشعور الذي يختلط فيه الوجد بالفخر والكرامة هو شعور لا يدركه إلا من مرَّ به. وكم هو عظيم وعظيم جداً أن الشهيد عند الله له منزلة عظيمة، فقد سبقهم في طريق الجنة، وهناك في الفردوس الأعلى ينتظرهم، مع فضيلة لا يملكها غيره، إذ يُجازى بأن يختار من أهله وأحبائه سبعين نفساً يدخلون الجنة بغير حساب، جزاءً لتفانيه وإخلاصه في خدمة دين الله، فمن المراتب الست للشهيد عند الله كما أخبرنا رسول الله ﷺ: «ويُشَفَّع في سبعين من أهله».

في يوم القيامة، يجبر الله خاطره، ويرفع درجته، ويمنحه شفاعة تفتح بها أبواب الجنة، فتُستجاب دعوته، وتُبارك جهوده، فيكون هو وأهله من أصحاب الفردوس الأعلى، مرفوعي الرأس في دار السلام. يا له من موقف كريم ومنزلة سامية عند الله عز وجل! فسبحان من رفع ذكر الشهداء وجعل لهم من الفخر والكرامة ما لا يُحصى!

خطة عبقرية لحماية الجيش

يحكي لنا سيدنا النبي ﷺ في مشهد ملهم يقول: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم». هذه الكلمات لم تكن مجرد سرد للحادث، بل كانت شهادة من رسول الله ﷺ وهو في المدينة تؤكد أن ما سيحدث بعد ذلك هو فتح من الله وانتصار عظيم.

كان من المفترض أن يستمر الصحابة في القتال حتى حلول الليل، ففي يد سيدنا خالد بن الوليد انكسرت تسعة أسياف وهويقاتل بشدة، كأنه يكفر عما كان بينه وبين النبي ﷺ من عدااء دام أكثر من عشرين سنة قبل أن يفتح الله قلبه للإسلام. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: إلى متى سنظل نحارب ونحن ثلاثة آلاف فقط مقابل مائتي ألف مقاتل؟!

وهنا معلومة هامة للغاية، فقد قُتل في هذه المعركة اثنا عشر رجلاً من المسلمين فقط، وهذا الرقم يدل على أن المعركة كانت انتصاراً بحمد ذاتها؛ لأننا حافظنا على أرواحنا وأرسلنا رسالة واضحة وقوية إلى قبيلة الغساسنة التي ذبحت واحداً منا غدرًا، وهي أننا نريد السلام، لكننا لن نسمح أبداً بأن ينتهك حقنا أو تُهان كرامتنا.

في هذه الظروف، اجتمع سيدنا خالد بن الوليد مع الصحابة وقدم لهم خطة الانسحاب بذكاء وحكمة؛ لأن استمرار القتال لم يكن في مصلحتنا، والرسالة وصلت للمعتدي بالفعل بوضوح وقوة.

قيام سيدنا خالد بأربع خطوات ذكية:

◆ جعل جزءاً من فرسان الجيش يركضون ويشيرون الغبار طوال الليل، حتى استيقظ الصباح والناس وجدوا الصحراء كلها مغطاة بالغبار، وكأن هناك دعماً هائلاً جاء من المدينة لجيش المسلمين.

◆ دهن الرايات المليئة بالتراب لتبدو جديدة، ليخدعوا عدوهم بأن هناك قوات إضافية.

◆ بدّل مواقع جيش الميمنة مع الميسرة، حتى يرى جيش الغساسنة في الصباح وجوهاً جديدة، فيظنوا أن المدد قد وصلهم من المدينة.

◆ وضع بعض الفرسان على تلة بعيدة يركضون في المكان ليثيروا الغبار، ليُوهِّموا العدو أن هناك تعزيزات قادمة أثناء المعركة.

وبدأت المعركة عند الفجر وسيدنا خالد بدأ بعملية الانسحاب التكتيكي، فشرع جيش الغساسنة بأنهم يُجْرُونَ إلى الصحراء حيث كمين محكم بأعداد أكبر وجيش جديد، فتوقفوا عند حدود مؤتة، ثم بدأ الصحابة في التراجع حتى اختفوا في عمق الصحراء وعادوا إلى النبي ﷺ.

لذا يرى كثير من علماء السير أن هذا الانسحاب هو عين الانتصار للأسباب التالية:

■ **الدليل الأول:** قول النبي ﷺ: «أخذ الراية سيف من سيوف الله». وهي إشارة واضحة إلى أن الله كان معهم وأعطاهم النصر.

■ **الدليل الثاني :** الرجوع بالجيش بهذا الإنجاز رغم ظروف المعركة العصبية وغير المتكافئة في العدد و العتاد هو عين النصر.

■ **الدليل الثالث:** وجود بعض الروايات الضعيفة التي تفيد أن أهل المدينة استقبلوا الجيش بعبارات (يا فُرَّار.. يا فُرَّار)، فرد النبي ﷺ عليهم قائلاً:

«لَيْسُوا بِالْفُرَّارِ، وَلَكِنَّهُمْ الْكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» (114).

أي أنهم ليسوا جناء هارين، بل هم المحاربون الذين يعودون للقتال.

وعندما عاد الجيش إلى المدينة، استقبلهم النبي ﷺ بحزن عميق على فقدان ثلاثة من أعز أصحابه: سيدنا زيد بن حارثة، وسيدنا جعفر بن أبي طالب، وسيدنا عبد الله بن رواحة.

زيد بن حارثة الذي كان يُلقب قديماً بـ «زيد بن محمد»، لأن النبي ﷺ قد تبناه قبل تحريم التبني، وكان قد نشأ في بيت النبي جنباً إلى جنب معه سنوات طويلة.

وجعفر بن أبي طالب الذي ضحى كثيراً، وهاجر إلى الحبشة، وابن عم النبي ﷺ من أبي طالب، الرجل الذي كان له فضل عظيم في نصرته النبي وكان صاحبه المخلص.

أما عبد الله بن رواحة، فهو الصحابي الذي أحبه النبي ﷺ حباً شديداً، فبكى النبي ﷺ حين ذكره، فقال له الصحابة: (أتبكي؟) فأجاب:

«شوق الحبيب إلى حبيبه» (115).

هنا يُظهر لنا النبي ﷺ مشاعر الرجل الكامل، المليء بالقوة والرحمة في آنٍ واحد، عندما يفتقد أعز الناس إليه.

وهكذا انتهت غزوة مؤتة، ولكن رحلتنا مع سيدنا محمد ﷺ لم تتوقف، فسنواصل استكشاف أنواره التي تضيء لنا دروب الحياة، فتظل قصص الصحابة والبطولات التي قدموها لنا في سبيل الله نبراساً وهدايةً تملأ القلوب إيماناً وعزيمة.

صدق النية من أعظم أسباب النصر

حدث في غزوة مؤتة التي كانت بين ثلاثة آلاف مقاتل من جيش المسلمين مقابل مائتي ألف من جيش الغساسنة، أن استشهد فقط اثنا عشر رجلاً من الصحابة الكرام، وهذا العدد يُعدُّ شيئاً عجبياً وعظيماً، خصوصاً إذا تأملنا الفرق الكبير في الأعداد. وكانت خطة الانسحاب التي وضعها سيدنا خالد بن الوليد خطة موفقة ومؤيدة من الله سبحانه وتعالى، ولذلك يعتبرها أغلب الخبراء العسكريين انتصاراً، فهذه الخطة التي سُميت بـ(الانسحاب = انتصار) جاءت من حرصه الشديد على حفظ أرواح المسلمين وحمايتهم.

وهذا الأمر عجيب جداً وعظيم؛ أن نجد سيدنا خالداً، الذي كان في الماضي يقاتل النبي ﷺ في الجاهلية، قد سخر كل علمه القتالي وكل ما تعلّمه في الحروب لخدمة النبي ﷺ ولدعمه، فانقلب من عدوّ إلى واحد من أعظم قادة الإسلام.

وهنا تظهر لنا حكمة عظيمة، أن الخطط والأفكار النيرة التي ندرسها عبر العصور ليست إلا رزقاً من الله تعالى يحمي به الناس ويهديهم إلى الخير، فهي من العطايا الربانية التي يجب أن نشكره عليها.

لكن، يبقى هناك شرط مهم لاستجلاب هذه العطايا، وهو مطلوب منا؛ أن نمتلك شيئاً معيناً حتى نستفيد من هذه النعم، فما هو؟

هو أن يكون لدينا سعة العلم و الاطلاع؛ وهذا يعني أن نقرأ كثيراً، ونشاهد ونتعلم من تجارب الآخرين، نستمع إلى الحكمة والخبرات، لا نتوقف عن التعلّم.

وبجانب سعة الاطلاع، مطلوب أن نمتلك صدق النية في الخدمة، كما كان يفعل سيدنا خالد رضي الله عنه؛ كانت نيته صادقة ومخلصة في حماية الناس وخدمتهم.

فالصدق هو السبب الأكبر والأسمى الذي يجعل الله ينزل علينا المدد ويعيننا على تحقيق النجاح والازدهار.

وليس هذا فقط، بل مطلوب منا أيضاً التواضع، والإيمان بأن كل عمل نقوم به هو ستر وتوفيق ربنا وحده، كما قال الله تعالى:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

[سورة التكويد: 29]

فهو سبحانه الذي يرزق ويمنح النصر والتمكين؛ لذلك فإن الإنسان المتواضع الذي ينسب كل فعل خير إلى الله - سبحانه وتعالى - يرزقه الله رزقاً واسعاً، لأنه قد شكر نعمة الرزق بنسبتها إلى مصدرها الحقيقي.

فبدل أن أقول «أنا فعلت»، أقول «رب العالمين»، وهذا الاعتراف وعد الله أن يحفظ على صاحبه رزقه ويرزقه من حيث لا يحتسب.

ففي هذه القصة دروس عظيمة لنا جميعاً: في التوكل على الله، وفي الاجتهاد والأخذ بالأسباب، وفي صدق النية، وفي التواضع والشكر، لكي نحصل على مدد الله ورزقه في كل ما نقوم به في حياتنا.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد معدن
الجود، وأعظم مَنْ في الوجود، اللهم متّعنا بقُربه
في الدارين، واجعله أنيساً لنا في الكونين، واجعلنا
عنده من أهل العناية في البداية وفي النهاية،
وارض عن أصحابه وآله ومن والاه يا ربنا، واسترنا
بسترِكَ، واغفر لنا ذنوبنا بعفوك، واكتب لنا النجاة
يا ربنا فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض
عليك، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا يا
مولانا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.



(100) رواه الذهبي.

(101) رواه السيوطي.

(102) رواه ابن إسحاق.

(103) رواه البيهقي.

(104) رواه مسلم.

(105) ورد في الأثر الشريف.

(106) رواه البخاري.

(107) رواه أحمد.

(108) ورد في الأثر.

(109) رواه الحاكم.

(110) ورد في الأثر.

(111) رواه مسلم.

(112) رواه البخاري.

(113) رواه الترمذي.

(114) رواه ابن إسحاق.

(115) رواه الذهبي.

نقض صلح الحديبية وبدايات فتح مكة

نقض قُريش للصلح

وصل بنا السير المبارك في دروب السيرة العطرة لحبيبنا سيدنا محمد ﷺ إلى السنة الثامنة من الهجرة النبوية، وتحديدًا بعد مرور اثنين وعشرين شهرًا على صلح الحديبية؛ ذلك الصلح الذي عُقد في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة.

وكان من بنود هذا الصلح الشريف أن تُعقد هدنة كاملة، لا حرب فيها بين قريش ورسول الله ﷺ، وقد قبل النبي ﷺ بهذه الشروط، رغم ما فيها من شدة وعدم إنصاف ظاهري رآه الصحابة، لكنه قبلها بعين الحكمة، وروح السلام، وقلب المحبة، من أجل حقن دماء أهل الجزيرة، وحتى تعم السكينة أرضًا طالما مزقتها الحروب، ونالت منها الجاهلية. نعم، قبل النبي ﷺ بهذه الشروط لسببين نبيلين:

أولاً: حماية للأرواح، ورحمةً بالبشر.

وثانيًا: حتى ينتشر نور الإسلام في أجواء من السلم، لا يعكرها صوت السيوف ولا يشتتها وهج المعارك.

وكان مما كُتب في وثيقة الصلح أن: «من أحب أن يدخل في حلف محمد فليدخل، ومن أحب أن يدخل في حلف قريش فليدخل». وهكذا دخلت قبيلة خُزاعة في حلف النبي ﷺ، بينما دخلت بنو بكر في حلف قريش، وبهذا أصبحت المعاهدة تشمل النبي ﷺ ومن حالفه، وكذلك قريش ومن حالفها.

لكن ما كان في النفوس من أحقاد قديمة لم يُحَ تمامًا... فقد كانت هناك عداوة وثأر قديم بين خُزاعة وبنو بكر، وظلت نار الثأر كامنة، تنتظر لحظة ضعف لتشتعل.

وبعد مرور 22 شهراً من الصلح؛ أي ما يقرب من عامين، وبينما الهدنة ممتدة لمدة عشر سنوات، خرجت قبيلة خُزاعة إلى مكة لأداء العمرة، وبينما هم في سَكينة وسجود لله، دخل عليهم رجال ملثمون، لا يُعرف لهم وجه، فقتلوا منهم عشرين رجلاً وهم رُكَّع وسُجَّد، لا يحملون سلاحاً، ولا يتوقعون حرباً... فمن هؤلاء القتلة؟!

إنها قبيلة بني بكر، رأت فرصة للثأر، فلبَّأت إلى أشراف مكة، وعلى رأسهم صفوان ابن أمية، وطلبوا منهم الدعم والتستر، كي يهاجموا خُزاعة ليلاً وهم ملثمون. فقامت قريش بدعمهم، لا بالسلاح فحسب، بل أمدوهم برجالهم وسادتهم، واشتركوا معهم في الغدر، فكانت مجزرة في حق العهد، وخيانة في حق الإنسانية، وقتلاً لمسلمين وهم في بيوت الله.

وبعدما هدأت نار الغدر، شعرت قريش بندم عظيم، أدركت أنها قد نقضت عهداً مع رسول الله ﷺ، فأرسلت على الفور أبا سفيان إلى المدينة المنورة، لعلَّ يُجَدِّد العهد مع النبي ﷺ قبل أن تصل إليه الأخبار.

ولكن سبقهم رجل من خُزاعة اسمه عمرو بن سالم، دخل على النبي ﷺ، وقلبه مليء بالوجع، وصوته يشكو الغدر والخيانة، فأنشد أبياتاً من الشعر، كلها نداء

واستغاثة وذكر للوفاء بالعهود:

حَلَفَ أَيْبُنَا وَأَيُّهُ الْ

*

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا

ثُمَّ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ

*

قَدْ كُنْتُمْ وَلَدًا وَكُنَّا وَالِدًا

وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُو

*

فَانْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا

وَقَتَّلُونَا رُكَّعًا وَسُ

*

هُمْ بَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجْدًا

فلما سمع النبي ﷺ هذه الكلمات، قال كما في بعض الروايات:

«نُصِرْتُ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ» (116).

وهنا بدأ رسول الله ﷺ يُفكر ويتأمل في الموقف، فقد تم نقض العهد وخيانة الصلح.

وفي ذات الوقت، كان بديل بن ورقاء من خزاعة قد زار النبي ﷺ أيضًا، وحكى له القصة بالتفصيل، ثم انصرف عائداً من المدينة. وأثناء عودته، قابله أبو سفيان على مشارف المدينة، فسأله: «من أين تأتي في هذا الاتجاه؟». فقال بديل: «كنت في اتجاه الساحل بتجارة». فسأله: «هل جئت من عند محمد؟». فقال: «لا».

لكن أبا سفيان لم يطمئن، وكان من عادة العرب أن يتتبعوا الآثار ويتفحصوا حتى روث البعير في الطرقات، فذهب أبو سفيان إلى موضع نزول بديل خارج المدينة، وأخذ يفرك الروث بيده، فوجد فيه نوى المدينة، فعرف أن بديلاً كان عند رسول الله ﷺ، وأن الخبر قد وصله! فتوجه أبو سفيان مباشرة إلى النبي ﷺ، وقال: «يا محمد، أريد أن أجدد العهد». لكن النبي ﷺ لم يجبه بكلمة واحدة.

فذهب أبو سفيان إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وطلب منه أن يكلم رسول الله ﷺ ليجدد العهد، فقال له: «أنا على عهد رسول الله».

فذهب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له: «أما وجدت غيري؟ والله لو لم أجد إلا الذر لقاتلتكم به» (أي لو لم يكن معي إلا صغار النمل، لقاتلتكم به)! ثم ذهب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان جالساً ومعه زوجته فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ومعهما ابنهما الصغير الحسن وهو يلعب، فقال له: «يا علي، أنت أقرب الناس إلي، فقل لمحمد أن يجدد العهد». فقال له علي: «أنا على عهد النبي ﷺ». فقال أبو سفيان لفاطمة: «كلبي أباك». فقالت: «أنا امرأة، ولا أستطيع ذلك». فقال: «اجعلوا الحسن يكلم جده». فقالوا: «هو طفل، ولا يؤخذ قوله». فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا أبا سفيان، أنت سيد بني كنانة، فقم بين الناس، وقل: قد أجرت بين الناس». فقال له أبو سفيان: «أتظن أن ذلك يغني عني شيئاً؟». قال: «لا، ولكن لا أرى لك غير ذلك». فقام أبو سفيان بين الناس، وقال بصوت مرتجف: «قد أجرت بين الناس». فقال له رسول الله ﷺ:

«أنت تقول ذلك يا أبا سفيان؟!» (117).

وكان في قوله ﷺ ما فيه معنى أن الوقت قد فات، والعهد قد نقض، والغدر لا يُجبر بكلمات فارغة.

احذر زلات الشيطان التي تُسقطك من العيون والقلوب

زلة شيطان... كانت كفيلة أن تُكلف قريشاً ثمناً باهظاً، لا لأنهم فقط أخطئوا، بل لأنهم خانوا العهد مع أطهر خلق الله ﷺ.

ففي لحظة غضب، أو ربما شهوة انتقام، أو غريزة جاهلية قديمة، اختارت قريش أن تُناصر بني بكر على خزاعة، وتخوض معهم جريمة نقض العهد الذي لم يكن عقداً سياسياً فحسب، بل كان عهداً بينهم وبين رسول الله ﷺ، نبي هذه الأمة.

نعم، كل شيء بقدر الله، ولا يحدث شيء في هذا الكون خارج علمه وحكمته، ولكن هذا لا يمنع أن قريشاً ندمت ندماً عظيماً على فعلتها، حين أدركت بشاعة ما اقترفته.

وتجلى هذا الندم في صورة الذل والانكسار في شخصية أبي سفيان، الرجل الذي كان من سادة قريش وقادتها... ها هو اليوم يذل نفسه أمام الناس، في محاولات بائسة لإصلاح ما لا يصلح، ولسد شرخ لم يكن يجب أن يقع.

أحياناً يا صاحبي، يُخطئ الإنسان في لحظة طيش..

لحظة شهوة..

لحظة غضب..

لحظة هروب من مسؤولية..

ثم يجد نفسه فجأة قد سقط من عيون من حوله، وأبتلي بذلِّ الاعتذار، وخيبة الرجاء، والخذلان.

تماماً كما فعل أبو سفيان، حين ذهب إلى النبي ﷺ، يطلب منه تجديد العهد، فلم يُجبه النبي ﷺ بكلمة.

فما كان منه إلا أن لجأ إلى أبي بكر الصديق، ثم إلى عمر بن الخطاب، ثم إلى علي ابن أبي طالب، وحتى فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ومعها ابنها الصغير الحسن، رجاء أن يقول كلمة لجده رسول الله ﷺ...

لكن لم يجبه أحد.

كل الأبواب أُغلقت، وكل الوجوه نظرت إليه بلا ترحيب.

فلم يجد إلا أن يقف أمام الناس، ويقول بصوتٍ فيه انكسار: «أنا أُجرتُ بين الناس» لكن داخله كان يعلم أنه قليل في هذا المقام، وأن العيون التي كانت يوماً تنظر إليه بإجلال، اليوم تمر عليه كأنها لا تراه.

وهذه ليست قصة أبي سفيان فقط.. بل قصة كثير من الناس! ناس خانوا كلمة، أو أخلفوا وعداً، أو كذبوا كذبة بلا سبب، ثم وجدوا أنفسهم صغاراً في أعين الناس، عاجزين عن استرجاع الهيبة التي كانوا يظنونها ثابتة.

قالوا في الحكمة عن اليد التي تسرق: «لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت».

أي شيء، أي قيمة، أي شخص، ما دام يحافظ على أمانته، فهو غالٍ وثمان، لكن إذا خان، أو كذب، أو غش، أو نكث وعده، هان على الناس، وربما على نفسه أولاً.

فانتبه..

خصوصاً في الكلمة، والعهد، والوعد، لأنها ليست فقط مفاتيح العلاقات.. بل هي مفاتيح القلوب، وموازن الكرامة.

خطة نبوية لحقن الدماء

بعدما وصل إلى مسامع النبي ﷺ أن قريشاً قد نقضت عهد صلح الحديبية، كان لا بد أن يُتخذ موقف... ولكن، كعادة الحبيب ﷺ، لا يُريد دماءً، ولا يُحبّ الحروب، بل يرجو الهداية للناس قبل الهيمنة.

فرغم أن جيش المسلمين أصبح أقوى من أي وقتٍ مضى، وبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل، فإن رسول الله ﷺ كان يريد أن يدخل مكة بسلام، من غير قتال، من غير دماء، وبدون أن تشعر قريش بجيئته، حتى لا تُعدّ العدة وتنشب الحرب.

لهذا السبب، أخفى نية الخروج عن كل الناس، حتى عن أحب الناس إليه، حتى عن عائشة رضي الله عنها، فدخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على ابنته عائشة، وقال لها: «يا عائشة، إلى أين يذهب رسول الله؟». فقالت له: «لا أعلم». نعم، حتى عائشة لم تكن تدري!

لكن وسط هذه السرية، قام أحد الصحابة الكرام باجتهاد شخصي خطير.. اسمه حاطب بن أبي بلتعة، وكان من المهاجرين، لكنه لم يكن من قبائل قريش الأصيلة، فلم يكن له أهل ولا عشيرة تحمي أهله في مكة، فخشي عليهم، حتى لو لم يكونوا مسلمين، فتوقع أن النبي ﷺ سيتوجه إلى قريش، فكتب لهم رسالة سرية يخبرهم فيها

أن محمدًا قادم إليكم، وأعطائها لامرأة، وطلب منها أن تخرج من المدينة وتوصل الرسالة إلى أهل مكة.

لكن الوحي لا يخفى عليه شيء. فنزل جبريل ﷺ على النبي ﷺ، وأخبره بكل ما فعله حاطب، بوحى من الله عز وجل.

فأرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومعه صحابي آخر، وأمرهما أن يخرجوا خارج المدينة ويبحثا عن هذه المرأة. وبالفعل، خرجا، حتى لحقا بها، وقالوا لها: «أخرجي الكتاب». فقالت: «ما معي كتاب». فقالوا: «والله لتُخرجنَّ الكتاب أو لنقلبنَّ الثياب!». فطلبت منهما أن يستديرا عنها، ثم أخرجت الكتاب من ضفيرة شعرها!

فلما عادا بالكتاب إلى النبي ﷺ، ونظر فيه، وجد المكتوب: «من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش...».

فأحضره النبي ﷺ، وسأله: «يا حاطب، ما هذا؟».

فقال حاطب بهدوء وتوسل: «مهلاً يا رسول الله... قد كنت في مكة حليفاً لها، ولم أكن من أنفسها، فأردت أن يكون لي عندهم يدٌ يحمون بها قرابتي». يعني أنه ليس من قبائل مكة، وكل مسلم له هناك أهل يحمونه، أما هو... فلا أحد له.

وكان يريد أن يؤمن أهله، لا خيانة للإسلام، ولا نفاقاً... بل هو ضعف بشري، وخوف فطري.

وهنا سكت النبي ﷺ، وكأنه تأمل حال حاطب، ورأى في ضعفه صدقاً، ودمعاً في قلبه، ولم ينكر عليه أكثر من سؤاله.

لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال فوراً: «يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق!». فقال له النبي ﷺ بحكمة القائد العارف:

«إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» (118).

هنا تتجلى الرحمة، ويظهر الوفاء للماضي الجميل، فالرجل له سابقة عظيمة في الإسلام، وكان من أهل موقعة بدر الذين غفر الله لهم ذنوبهم.

وبعد هذا الموقف، بدأ رسول الله ﷺ تجهيز الجيش للمسير نحو مكة، وكان ذلك في العاشر من رمضان، سنة 8 للهجرة.

خرج الجيش، وبدأ السير، وكان بعض الصحابة صائماً، وبعضهم مفطراً، ومع هذا لم يعِب أحد على أحد، فلم يُنكر الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم، بل كانت روح المحبة والرحمة فوق كل شيء، بعيداً عن الجدل الذي اعتدنا عليه نحن اليوم في اختلاف الرأي.

وصل النبي ﷺ إلى منطقة اسمها «مر الظهران»، وهناك عسكر الجيش، وأوقدوا ناراً ضخمة، حتى ظهرت من بعيد، فكان منظراً مهيباً، لجيش لم ير مثله من قبل.

ففي غزوة مؤتة من فترة قصيرة، كنا ثلاثة آلاف مقاتل، وقبلها في صلح الحديبية، كنا فقط 1400... أما الآن، فبفضل الله، الناس دخلوا في دين الله أفواجا، وأصبح المسلمون عشرة آلاف فارس على قلب رجل واحد.

وبينما كان الجيش يعسكر في الليل، خرج أبو سفيان من مكة ليستطلع الأخبار، فرأى تلك النار الهائلة، فقال: «لن هذه النار؟ أهى لخزاعة؟» فقال له أحدهم: «خزاعة أذل من أن يكون لها هذه النار!» فما كان من العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ، إلا أن اقترب من أبي سفيان، وكان راكباً على بغلة النبي البيضاء التي أُهديت له من المقوقس ملك مصر، وقال له: «يا أبا سفيان!» قال: «نعم... يا أبا الفضل!» فقال له: «تعال، اركب معي على البغلة، واذهب إلى رسول الله ﷺ، واطلب منه الأمان، فهو سيدخل مكة لا محالة!».

الفرق بين موقف النبي ﷺ وموقف أبي جهل

أتذكّر حين حدثت غزوة بدر؟

وقتها، عندما وصلت الأخبار إلى أبي جهل - وكان يقود جيش قريش - بأن القافلة قد نجت وهربت، كان من الممكن أن يعود الجيش وينتهي كل شيء، لكن أبا جهل لم يكن يُحرّكه عقل، ولا حكمة، ولا شفقة.

قال في عنجهية جاهلية: «نقيم ثلاثاً، نطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتغني لنا القينات، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابونا أبداً!». فهو ما خرج للهداية، ولا للحق، بل خرج بغرورٍ ونية استعراضٍ أمام الناس، ليفتخر، ويظهر جبروته! وكانت النتيجة... هزيمة مدوية في بدر، ضرب فيها الكبر، وسُحقت فيها راية التفاخر.

وانظر الآن إلى النور المقابل... إلى نبي الرحمة ﷺ.

لما علم أن قريشاً قد نقضت صلح الحديبية، وهاجمت حلفاءه من خزاعة، لم يشر، ولم يرفع راية الانتقام، بل قرّر أن يُجهّز الجيش لفتح مكة، ولكن بقلبٍ يخفق رحمة

لا حرباً.

لم يُرد ﷺ أن تعرف مكة بقدومه، ليس خوفاً، ولكن حتى لا تستعد للقتال، فتُسفك دماء، وتضيع أرواح، وتُفتح جراح، فهو لا يُريد إلا أن يهتدي الناس، ويسكنوا، ويعيشوا في سلام.

فالهداية هي الهدف الأكبر، وسلامة النفوس، وطمأنينة القلوب، هي الأولوية في كل خطوة من خطواته.

ما أعظم أنوارك يا رسول الله!

ولهذا... كتم الأمر عن الناس، حتى إن أقرب الناس إليه، كعائشة رضي الله عنها، لم تكن تعرف وجهة النبي ﷺ.

بل إن أبا بكر الصديق دخل عليها وسألها: «يا عائشة، إلى أين يذهب رسول الله؟». فقالت: «لا أعلم». ولكن ما حدث بعدها، كان لحظة دقيقة في الميزان.

حاطب بن أبي بلتعة، صحابي جليل من أهل بدر، اجتهد اجتهداً شخصياً، فكتب رسالة لقريش يخبرهم فيها أن النبي ﷺ قادم، وأعطائها لامرأة وطلب منها إيصالها.

ظنَّ حاطب أنه بذلك يحمي أهله في مكة، لأنه لم يكن من كبار قبائل قريش، وليس له من يحمي أقاربه، نخاف عليهم.

ولكن الله تعالى لا يخفي عليه شيء... فنزل جبريل عليه السلام يخبر النبي ﷺ، فأرسل علي بن أبي طالب وأحد الصحابة، ووجدا المرأة، وأخرجها منها الرسالة.

ولما قرأها النبي ﷺ، نادى حاطباً وسأله: «ما هذا يا حاطب؟». فقال: «يا رسول الله، مهلاً... قد كنت في مكة حليفاً لها، ولم أكن من أنفسها،

فأردت أن يكون لي عندهم يدٌ يحمون بها قرايتي».

كلمات تقطر صدقاً، وإن كانت في ظاهرها سقطة كبيرة.. فهذا التصرف في أعراف الدول يُسمى «خيانة عظمى»، وكان من الممكن أن يُسبب حرباً مدمرة لو وصلت المعلومة لقريش.

لكن النبي ﷺ لم يضع السيف مكان القلب... بل تفهّم بشريته، وضعفه، وخوفه على أهله، ثم قال قولاً يفيض حكمة ورحمة، حين ردّ على عمر بن الخطاب، الذي قال: «يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق!». فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك يا عمر لعلّ الله أطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم». يا الله... كأن النبي ﷺ في هذا الموقف يُجسّد قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [سورة هود: 114]

فأحسن حاطب في الماضي، فغُفرت له زلّة الحاضر.

وهكذا... إذا تأملت خطوات النبي ﷺ في فتح مكة، فستجدها كلها أنواراً وقلوباً ورفقاً. فمثلاً، خرج النبي ﷺ لفتح مكة في شهر رمضان، ومع أنه كان صائماً، فقد أفطر لأنه على سفر، وكان في حال من الجهد والتعب والحرب.

فبعض الصحابة أفطر اتباعاً للنبي، والبعض الآخر صام.. لكن الالفت للنظر أنه لم يعِب أحد على أحد.

لا الصائم قال للمفطر أنت ضعيف، ولا المفطر قال للصائم أنت متشدد... بل ساد الأدب، والرحمة، والاحترام.

أولاً: لأن الكبير موجود، وحاضر، وهو النبي ﷺ، وحين يكون العالم والمعلم حاضراً، يجب أن يسكت طلبة العلم، ويكفوا عن الجدل.

ثانياً: لأن وقتها ليس وقت تنظير، ولا وقت كثرة كلام وجدال... فعندما تكون هناك سعة في الدين، فقبول الرأي الآخر يقوي المجتمع، ويعلم الناس أن اختلافك مع أخيك لا يعني خطأه، فقد يكون له دليله، ونية تقربه إلى الله.

وهكذا كانت نفسية الصحابة... جميلة، سمحة، منيرة، أنارتها سنة النبي ﷺ، ونوره، ومحبته.

أبو سفيان يرى عظمة رسول الله ﷺ

وبالفعل، ركب أبو سفيان خلف العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، بغلة رسول الله ﷺ، متوجهين نحو معسكر المسلمين، وذلك ليطلب أبو سفيان الأمان لقريش من رسول الله ﷺ، بعدما خانوا العهد ونقضوا صلح الحديبية.

وفي أثناء دخولهما المعسكر، على تلك البغلة المباركة، لمحهما سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فصاح من بعيد وقد اشتعل قلبه غيرةً لله ورسوله: «أبو سفيان! عدو الله! أمكننا الله منك بلا عهد ولا ذمة!» ثم انطلق يعدو خلف البغلة يريد أن يمسك بأبي سفيان، ولكن العباس أسرع بالبغلة، وقال بعدها مازحاً: «سبقت عمر ابن الخطاب بالبغلة كما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء». فسبقتهم البغلة، ونجا بها أبو سفيان.

وعندما وصل العباس بأبي سفيان إلى رسول الله ﷺ، قال عمر: «يا رسول الله، دعني أضرب عنق أبي سفيان، فليس بيننا وبينه عهد!». لكن الحبيب ﷺ، النبي الذي لا يطلب إلا الهداية لا الدم، قال له بلطفٍ ووقار: «مهلاً يا عمر!». ثم التفت إلى أبي سفيان بنظرة تنبض بالدعوة لا بالعداوة، وقال له ﷺ:

«ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله؟» (119).

هنا... ظهرت لحظة من الانكسار على أبي سفيان فقال: «والله ما أكرمك! وما أحلمك! وما أصبرك عليّ! والله، لو كان في الدنيا إله مع إهلك لأغني عنا ما نحن فيه.. فيبدو أن إهلك هو الحق وهو الناصر، سبحانه وتعالى... ولكن يا محمد، هذه - يعني (لا إله إلا الله محمد رسول الله) - في القلب منها شيء...» فهو لم يستطع وقتها أن يسلم بقلبه بالكامل.

فقال له العباس رضي الله عنه: «يا أبا سفيان، أسلم قبل أن يضرب عنقك!». يعني بعد خيانتكم للعهد و قتلكم للمسلمين و هم سجدوا، فقال أبو سفيان الشهادة: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله». ولكن من سياق الأحداث بعد ذلك، يتبين أن الشهادة خرجت من لسانه، لا من أعماق قلبه؛ إذ كان الإسلام في تلك اللحظة رهبة لا رغبة.

ثم قال العباس للنبي ﷺ: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فأعطه شيئاً يفتخر به». فأراد النبي ﷺ أن يدخله مكة بكلمة لها قيمة وأثر، فقال:

«مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ» (120).

في لحظة! كان من الممكن أن ينتقم النبي ﷺ من قريش، لكنه ساوى بين كل البيوت، ورفع راية الأمان فوقها جميعاً، حتى بيت أبي سفيان؛ عدو الأمس، أصبح له حرمة اليوم، في أعظم تجلٍ للرحمة والعدل النبوي.

وبعد لحظات، أُذِن للصلاة... فبدأ الصحابة يتوضئون، وبدأ النبي ﷺ يتوضأ، وكان إذا توضأ لم تسقط من وضوئه قطرة على الأرض، بل يتسابق الصحابة لأخذ الماء، ويدلّكون به وجوههم وأجسادهم... من حبهم له ﷺ! «فمن ذاق عرف، ومن عرف اعترف».

وأثناء هذه اللحظة الروحية العجيبة، نظر أبو سفيان إلى هذا المشهد العجيب، وقال للعباس متعجباً: «لقد ظهر مُلك ابن أخيك يا عباس!». فقال له العباس: «يا أبا سفيان، ليس مُلكاً.. إنها النبوة».

وبعدها دخل على النبي ﷺ بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام، وكانا لا يزالان على الشرك، ولكن في تلك اللحظة، انكشفت الحُجُب، وتجلّى لهما الحق، فأسلما، وبايعا النبي ﷺ.

حكيم بن حزام، ابن عم السيدة خديجة، من سادات قريش، كان يعلم منذ زمن من هو محمد ﷺ، لكن العناد والكبر الشريكانا يمنعا. أما الآن.. فلا مجال إلا للحق، فأسلما، وكان إسلامهما نقيّاً.

ثم أُقيمت الصلاة، وقام النبي ﷺ يصلي، فسمع أبو سفيان التكبير: «الله أكبر»، ورأى الصحابة كلهم يركعون خلفه، ثم قال النبي ﷺ: «سمع الله لمن حمده»، فرفعوا رءوسهم، ثم قال: «الله أكبر»، فسجدوا كلهم بلا استثناء!

فقال أبو سفيان مندهشاً: «إنهم يطيعونه في كل ما يقول!». فردّ عليه العباس بثقة: «فوالله، لو أمرهم أن يتركوا الطعام والشراب لأطاعوه!». هكذا كان حبهم له

ﷺ... حب طاعة، لا مجاملة.

وبعد انتهاء الصلاة، أمر النبي ﷺ العباس، فقال:

«يا عباس ، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل»⁽¹²¹⁾.

يعني اجعل أبا سفيان يقف عند المضيق لا يتحرك. فوقف أبو سفيان يشاهد جيش المسلمين يمر أمامه، عشرة آلاف مقاتل... كالسيل الجارف... فسأل العباس بدهشة وهو يرى الأولوية تتوالى: «من هؤلاء؟». قال: «هذه قبيلة مزينة». فقال: «وما لي ولمزينة؟!». ثم قال: «وهؤلاء؟». قال: «قبيلة سليم». قال: «وما لي ولسليم؟!». ومع كل قبيلة، يقول: «وما لي وقبيلة كذا...؟» حتى جاءت الكتيبة الخضراء... كتيبة النبي ﷺ يرتدون الحديد، لا يرى منهم إلا عيونهم! مشهد مهيب... كأنهم أمواج تتحرك.

فقال أبو سفيان في رهبة: «من هؤلاء يا عباس؟! هؤلاء وحدهم لا طاقة لنا بهم!». قال العباس: «هذا رسول الله ﷺ، في المهاجرين والأنصار».

وهنا تكررت كلمات أبي سفيان: «لقد صار ملك ابن أخيك عظيماً». فقال العباس، وهو يكرر الحقيقة: «يا أبا سفيان، ليس ملكاً.. إنها النبوة».

معنى الملك الحقيقي

لا يزال أبو سفيان، برغم كل ما رأى، غير مدرك حقيقة النبوة، ولم يتذوق معناها الحقيقي.. فكلما رأى مشهداً يهز قلبه ويأخذ بصره، قال للعباس بن عبد

المطلب رضي الله عنه: «لقد صار ملك ابن أخيك عظيماً!» فيجيبه العباس بثبات النور والبصيرة: «يا أبا سفيان، إنها النبوة». فهو لا يرى بعدُ إلا المظاهر، الأعداد، الانضباط، الهيبة.. لكنه لم يدرك بعد أن الملك الحقيقي هو «ملك القلوب»، وليس العروش.

فلما رأى أبو سفيان النبي ﷺ يتوضأ، ورأى الصحابة يتسابقون لالتقاط قطرات الوضوء من يديه الشريفتين، فلا يدعون قطرة تسقط على الأرض... ثم رأى النبي ﷺ يُصلي، فيقول: «الله أكبر»، فيكبرون معه، ويركع فيركعون، ويرفع فيرفعون، ويسجد فيسجدون.. كلهم، بلا استثناء، يُطيعونه طاعة المحبة، لا طاعة الإكبار.

هنا تعجب أبو سفيان، فقال له العباس قولاً يهزُّ الوجدان: «يا أبا سفيان، لو نهامهم عن الطعام والشراب لأطاعوه!». فهذا هو الحب... الحب طاعة، الحب امتثال، الحب احترام وتقدير، فكيف أقول إني أحب رسول الله ﷺ، ولا أسمع كلامه، ولا أبذل جهداً في طاعته؟

فالنبي ﷺ ما كان ملكاً يطلب بيعة الناس، ولا قائداً يتباهى بجيوشه... بل كان هو ﷺ من عرّفهم إلى ربهم، ومن أخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان.

إذا تأملت في سيرته ﷺ، فستجد أنه ﷺ خدم أصحابه أكثر مما خدموه. كان سنداً، وحناناً، وملاذاً، ومصدر أمان للجميع. كان إذا أُوذي أحد كان أول من يُداويه، وإذا جاعوا كان أول من يُطعمهم، وإذا خافوا كان أول من يحميمهم و يُطمئنهم. كان يضحي بنفسه وماله، قبل أن يطلب شيئاً من أحد!

فهل بعد هذا الكمال كمال؟!

لهذا أحبوه.. لأنهم وجدوا فيه كل ما يتمنونه من رحمة وعدل وصدق ووفاء؛
أحبوه لأن كل شيء حوله كان مُنيراً، ليس فيه ظلمة رغبة، ولا شهوة سلطة، بل
نور يقود الأرواح إلى ربها.

وحين نظر أبو سفيان إلى هذا المشهد العجيب من الطاعة، والمحبة، والإيمان،
عرف أن الأمر ليس مجرد جيش... بل هؤلاء قوم آمنوا، وأحبوا، وذابت قلوبهم
في طاعة النبي ﷺ، لأنهم علموا أن النجاة معه، لا بعيداً عنه.

تأمل هذه الآية التي تلخص المشهد كله، وكأنها نزلت عليه مباشرة:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: 31]

نعم.. هكذا فهم الصحابة أن المحبة ليست كلمات، بل اتباع؛ ولهذا صار النبي
ﷺ يملك القلوب، لا بالسيوف بل بالمواقف، لا بالإجبار بل بالإلهام، لا بالذهب
بل بالرحمة.

وهذا هو الملك الحقيقي.. الملك الذي لا يُنتزع ولا يُشتري، بل يُغرس في
القلوب، ويروى بالحب، ويثمر طاعة إلى يوم نلقاه.

دخول النبي ﷺ بالرحمة لمكة

فما إن رأى أبو سفيان عظمة جيش المسلمين، ووقف أمام سيلٍ بشري من عشرة آلاف مؤمن قلوبهم أقوى من سيوفهم، حتى أدرك الحقيقة الكبرى التي لم يعد ينكرها، فقال بكل يقين: «لا طاقة لقريش بهذا الجيش».

فأسرع أبو سفيان إلى مكة، وقلبه يمتلئ بالهيبه لهذا الجيش، لكنه أيضاً مطمئن لعهد رسول الله ﷺ، يحمل خبراً ليس كغيره من الأخبار، يبشّرهم بالأمان، وبأن محمداً ﷺ لم يأت غازياً، بل هادياً، لم يأت لينتقم، بل ليؤمن الناس ويفتح القلوب قبل الأبواب، برغم الغدر، وبرغم خيانتهم لعهد الحديبية.

فدخل أبو سفيان مكة مسرعاً، وصرخ في الناس: «يا أهل مكة، لا طاقة لكم بمحمد هذا اليوم! من دخل داري فهو آمن!».

لكن فجأة.. ارتفع صوت هند بنت عتبة، زوجته، والتي كانت حينها لا تزال مشركة شديدة العناد، فقالت بازدياء: «اقتلوا هذا الحميث الدسم!» (يعني: هذا السمين الذي لا فائدة منه)! فردّ عليها أبو سفيان بحكمة الموقف: «لا تغرنكم هذه! ابتعدي! فإنك لا تدريين!». ثم راح يُردّد بأعلى صوته: «من دخل داري فهو آمن! من دخل بيته فهو آمن! من دخل المسجد الحرام فهو آمن!». فتفرّق الناس:

♦ منهم من دخل بيته وأغلق بابه.

♦ ومنهم من لجأ إلى بيت الله الحرام.

♦ ومنهم من دخل دار أبي سفيان نفسه!

وفي الوقت ذاته، كان رسول الله ﷺ يقسم القادة استعداداً للدخول من مداخل مختلفة، دون قتال، وقال:

«لا تقاتلوا أحداً إلا من قاتلكم» (122).

أي إلا إذا بدأ أحدهم بالقتال. تنفيذاً لوصية القرآن:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ

اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: 190]

فجعل سيدنا خالد بن الوليد يدخل من جهة، والزبير بن العوام من جهة، وسعد ابن عباد من جهة ثالثة. لكن هنا وقع موقف حساس. على مشارف مكة.. حين قال سعد بن عباد، سيد الخزرج، وأحد القادة، متأثراً بما فعلته قريش بالمسلمين طيلة أكثر من عشرين عاماً من تعذيب وتشريد: «اليوم يوم الملحمة.. اليوم تُستحلُّ الحرمَةُ!».

فلما وصل هذا الكلام إلى رسول الله ﷺ، علمه كيف تُدار الفتوح، لا بالغلظة، بل بالإحسان، فقال له ﷺ:

«هذا يوم يُعظَّم الله فيه الكعبة، ويوم تُكسى فيه الكعبة» (123).

ثم، برحمة القائد الذي يربي ولا يكسر، طلب من سعد أن يتنازل عن قيادة الكتيبة، لكنه لم يقصه، بل ولى القيادة لابنه قيس بن سعد بن عباد، حتى يجبر

خاطره.

النبي ﷺ لم يُرد دخول مكة بروح الغضب، بل بروح الفتح النوراني، المليء بالعفو، والعزة المتواضعة.

ودخل النبي ﷺ مكة غير مُحرم، مرتدياً لباس الحرب، وليس لباس الإحرام، ليعلمها فتحاً لا عمرة.

وكان يقرأ وهو داخل:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [سورة الفتح: 1]

وصف الصحابة المشهد فقالوا: «رأينا رسول الله ﷺ يطأ طئ رأسه تواضعاً، حتى كادت لحيته أن تمس عنق ناقته!». الله أكبر... في يوم النصر، الكبراء يرفعون رءوسهم، لكن سيدنا محمداً ﷺ خفض رأسه لله شكراً.

وكان إلى جواره جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فقال له النبي ﷺ وهو يشير إلى مكان محدد في مكة:

«هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسمت قريش علينا في كفرها» (124).

يقصد المكان الذي تأمرت فيه قريش لقتل النبي ﷺ، حيث قالوا: «نضربه ضربة رجل واحد!».

فتخيّل هذا المشهد.. النبي ﷺ داخل مكة التي أخرجته، يعبر أمام نفس المكان الذي أرادوا فيه قتله، لكن لا ينتقم.. بل بتمام الوقار يبتسم، ويُذَكِّر جابراً بتلك اللحظة، لا حقداً، بل كدرسٍ، وكأنّ الماضي صار نقطة ضوء في طريق النبوة.

فابتسم جابر بن عبد الله، وشهد واحدة من أعظم لحظات الفتح.. فتح بمفتاح الرحمة.

السّر في البساطة والتواضع

دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً، في مشهدٍ ما زالت تتردد أصدائه في الزمان والمكان.. وفي أثناء دخول الجيش، صاح سيدنا سعد بن عبادَة - سيد الخزرج - من حرقَة قلبه، مما فعلته قريش في سنين طويلة من إيذاء النبي ﷺ وأصحابه، فقال بصوت يملؤه الغضب: «اليوم يوم الملحمة!» (أي: اليوم يوم الانتقام، يوم يُسترد فيه الحق بالقوة)، لكن ما إن وصلت هذه الكلمة إلى مسامع رسول الله ﷺ، حتى رد عليه بكل رقة وثبات:

«لا.. اليوم يوم الرحمة (125)».

نعم، النبي ﷺ يعلم جيداً لماذا أتى... فهو ليس قائداً منتصراً يدخل ليأخذ بثأره، بل نبي رحيم أرسله الله رحمة للعالمين؛ ليُخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى الإيمان، ومن الكبر إلى السجود.

فكان النبي ﷺ خاطب سعداً وقال له: «يا سعد، أنا أعلم مشاعرك.. أعلم كم قاسينا من قريش! أعلم أنهم أرادوا قتلي، وأعلم كم آذوا أصحابي، وأعلم أنك وأهلك من الأنصار فتحتم بيوتكم لنا، وأنت الآن تريد أن تكمل نصرتك للحق بعد كل هذه المعاناة.. لكن تذكر، يا سعد.. هي مرحلة لا ملحمة. هي دعوة لا معركة، هي فتح بالقلوب لا بالسيوف».

ثم طلب النبي ﷺ من سعد أن ينزل من قيادة الجيش؛ لأنه لا يريد دخول مكة بروح الغضب، بل بروح النور. لكنه، كعادته ﷺ، لم يجرح سعداً، بل جبر خاطره، فقال له بلطف وعزة: «أعطني الراية، وأعطها لابنك (قيس بن سعد بن عباد)؛ ليكون لك فيها نصيب، وتفرح به، فهو قائد شجاع يستحقها أيضاً». هذه هي القيادة النبوية.. قوة وحنان، حزم وجبر خواطر، عدل ورحمة.

النبي ﷺ دخل مكة وهو قوي جداً، لكن شكر القوة ليس بالكبرياء، بل بالتواضع. وشكر النصر ليس برفع الرأس، بل بخفضه لله.

حتى قال الصحابة: «رأينا رسول الله ﷺ يطأ طئ رأسه تواضعاً، حتى كادت لحيته أن تمس عنق ناقته».

تخيل! في هذا اليوم، بعد كل سنوات الظلم، والتشريد، والحصار، والدعاء، والتعب... يدخل مكة وهو يتذكر:

♦ يوم أرادت قريش أن تضربه ضربة رجل واحد ليُقتل.

♦ ويوم أن لم يكن يستطيع أن يطوف بالكعبة بأمان.

♦ ويوم ألقوا على ظهره أمعاء الجمل وهو ساجد.

♦ ويوم رموا على رأسه الشريف التراب.

لكن اليوم... ها هو يدخل مكة والناس يفرون، كل يبحث عن أمان! منهم من يختبئ في داره، ومنهم من يدخل دار أبي سفيان، ومنهم من يدخل البيت الحرام، وأبواب الرحمة كلها مفتوحة، والنبي ﷺ هو من فتحها.

يدخل مكة بحال القوي الرحيم، القوي المتواضع، القوي الذي لا يظلم، بل يحني رأسه لله، القوي الذي لا يُذل، بل يُكرم! فيا من أنعم الله عليك بأي نوع من القوة؛ علم، مال، منصب، تأثير، شهرة.. تعلم من نبيك ﷺ أن شكر القوة هو البساطة، وأن شكر النعمة هو أن تكون قريباً من الناس وأن تكون متواضعاً، ليناً، رحيماً، فكلما اقتربت من تواضع النبي ﷺ، ازدادت نوراً ورفعة.

لأن فتح مكة لم يكن مجرد نصر عسكري.. بل كان فتحاً للقلوب، وللرحمة، وللنور، وكانت كل خطوة، كل كلمة، كل نظرة من النبي ﷺ مليئة بالأنوار

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على نبينا محمد صاحب
الخلق العظيم، والهدي القويم، والثوب الأنقى،
والقلب الأتقى، الرحمة الشاملة، والنعمة الكاملة،
مُطمئن القلوب، وهادي النفوس، ومُنور الأرواح
وداعيا إلى حضرة الملك القدوس، وعلى آله
وصحبه وسلِّم تسليماً كثيراً.

اللهم لا ترفع عنا غطاء سترك، ولا تنسنا شكري،
ولا تجعلنا من القوم الغافلين.

اللهم أزل عنا هم الدنيا، وأنزلنا طريق السعادة،
واصرف عنا كل ذي شر، وأدم علينا نعمة
الصحة والعافية يا ربنا ويا مولانا.

(116) رواه ابن إسحاق.

(117) ورد في الأثر.

(118) رواه البخاري.

(119) رواه البخاري.

(120) رواه أبو داود.

(121) رواه أبو داود.

(122) ورد في الأثر.

(123) رواه البخاري.

(124) رواه المقدسي.

(125) رواه البخاري.

أحداث هامة في فتح مكة

هدم الأصنام وصلاة النبي ﷺ داخل الكعبة

مُستمرون في رحلة حياة سيدنا محمد ﷺ، ومُستمرون أيضًا في أحداث فتح مكة العظيم.. بعد أن دخل النبي ﷺ مكة المكرمة، أشار إلى سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري، معلمًا إياه بيته الذي كان في مكة؛ ذلك البيت الذي كاد كفار قريش أن يقتلوه فيه قبل الهجرة إلى المدينة المنورة. وبعدما دخل النبي ﷺ مكة، وقعت عيناه على الكعبة المشرفة، فنطق بكلمات تُحرك القلوب وتثير النفوس قائلاً:

«ما أطيبَ ريحِك! ما أعظمَ وأعظمَ حرمتَك! والذي نفسُ محمدٍ بيده
لحرمةُ المؤمنِ أعظمُ حرمةً عندَ اللهِ مِنك؛ مالهُ ودمه وأنَّ يُظنَّ بهِ إلا
خيرًا» (126).

ويَقْصِدُ بذلك الحرم الشريف؛ الكعبة التي هي محور قلوب المؤمنين ومحراهم
الذي يَقْرَبُهُمْ إلى ربهم.

كل كلمة ينطق بها النبي ﷺ في هذا المشهد ليست مجرد كلمات، بل هي بداية
لصرح عظيم من الحضارة، وتأسيس لقيم القرب من الله سبحانه، وتحديد لأولويات
التمسك بالدين وإدامته، خصوصاً في تلك اللحظة الفارقة من فتح مكة.

ثم اقترب النبي ﷺ على ناقته، وبدأ يطوف حول الكعبة ممسكاً في يده عصاً
قصيرة تُسمى «قضيب»، وكان يدفع بها الأصنام التي كانت أمامه، فإذا أشار إليها
من الأمام سقطت على ظهرها، وإذا أشار إليها من الخلف وقعت على وجهها،
وظل النبي ﷺ يقول بكلمات ربانية بليغة:

﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

[سورة الإسراء: 81]

﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سورة سبأ: 49]

فوقع حوالي 360 صنماً من حول الكعبة، تلك الأصنام التي طالما كانت سبباً
في الشرك وعبادة غير الله، وكان أهل الجزيرة العربية طوال سنين يدورون حولها

حباً وولعاً، بدلاً من أن يتقربوا إلى الله الواحد الأحد.

ثم اقترب النبي ﷺ من الكعبة طالباً مفاتيحها من أم عثمان بن طلحة، حيث كانت هذه المفاتيح محفوظة لدى عائلة عثمان، وأود هنا أن أروي لكم قصة عميقة ومؤثرة من حياة النبي ﷺ، وهي قصة (عثمان بن طلحة) الذي ناصر النبي ﷺ بعد إسلامه، فكان قد أسلم قبيل فتح مكة مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، لكن المفاتيح كانت مع أمه، وكانت أمه مشركة، وعندما طلب النبي ﷺ منها المفاتيح رفضت إعطاءها.

فقال عثمان للنبي ﷺ: «يا رسول الله، دعني أذهب إلى أمي لآخذ المفتاح». فوافق النبي ﷺ.

وهنا تذكرت حادثة قديمة قبل الهجرة، حين كان النبي ﷺ يطوف حول الكعبة وطلب من عثمان فتح باب الكعبة له كي يصلي بداخلها، لكنه رفض في ذلك الوقت، فقال له النبي ﷺ:

«يا عثمان، لعلك ستري هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت» (127).

فرد عثمان: «والله لو حصل ذلك لخابت قريش وذلت». ومرت السنوات، وبعد إسلام عثمان بن طلحة، ذهب هو بنفسه إلى أمه وقال لها: «يا أمي، أعطيني المفتاح؛ فقد حدث ما لم يكن يحدث سابقاً». أي أن حال المسلمين قد تغير، فقد جاء النبي ﷺ لفتح مكة بجيش عظيم يضم عشرة آلاف مقاتل.

فأعطته المفتاح، لكنه من شدة فرحته وسرعته، سقط المفتاح من يده على الأرض قبل أن يسلمه للنبي ﷺ، فنزل النبي ﷺ، وأخذ المفتاح ونظفه بثوبه، ثم

فتح باب الكعبة ودخلها. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها عن هذا المشهد: «دخل مطأطأاً رأسه، لا ينظر إلى السماء حياءً وتعظيماً لله».

دخل النبي ﷺ إلى الكعبة، وأزال منها الأصنام والتماثيل التي كانوا يضعونها، حتى صورة سيدنا إبراهيم رضي الله عنه التي وضعت بين هذه التماثيل أزالها، ثم اتجه ﷺ نحو الجدار المقابل لباب الكعبة؛ أي وضع الباب في ظهره ونظر إلى ذلك الجدار، وكان بينه وبين الجدار ثلاثة أذرع تقريباً.

والمؤمنون الذين شرفهم الله بدخول الكعبة بعد ذلك، يعلمون مكان صلاة النبي ﷺ هناك. فصلى ركعتين، ثم وقف عند باب الكعبة ليخطب خطبة عظيمة تفيض إنسانية وحضارة، فقال وهو يخاطب الناس جميعاً، والجميع يحدقون إليه في مشهد مهيب لا ينسى:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاضَمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنَ التُّرَابِ، قَالَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (128)». [الحجرات: 13]

وعبر النبي ﷺ هنا عن مفهوم «عُبْيَةُ الْجَاهِلِيَّةِ»، وهي التكبر والتعالي المذموم بسبب النسب أو الأصل، حيث كان الناس يتفاخرون وينقسمون بناءً على الأنساب والعشائر. فجاء النبي ﷺ ليضع قاعدة قوية وسامية: يكفي تقسيم الناس إلى عبدٍ تقيٍّ ورجل صالحٍ مقربٍ إلى الله، أو إلى فاجرٍ شقيٍّ بعيدٍ عن الله. هذا هو التقسيم الحق والوحيد الذي يجب أن يصدق العقل ويؤمن به القلب، لا فرق بين

غني وفقير، كبير وصغير، سيد وعبد، وإنما التقوى هي المقياس الحقيقي للكرامة والفضل عند الله سبحانه وتعالى.

هذه هي كلمات النبي ﷺ التي ترسم لنا الطريق، والتي تنير قلوبنا حتى يومنا هذا.

الباطل عُمره قصير

وسيدنا محمد ﷺ يشير بعصاه الصغيرة إلى الأصنام ويقول بتؤدة وجلال:

﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

[سورة الإسراء: 81]

قد يكون الكثير منا يألّفون هذه الآية ويتلونّها بين حين وآخر، لكنني أدعوك لأن تتأمل معنا في معناها العميق الذي يؤكد بكل وضوح أن الخطأ لا يدوم ولا يثبت، مهما بدت له فرص مؤقتة للنجاح. سواء كان هذا الخطأ كذباً أو غشاً أو خيانة، أو أي سلوك مكروه، لا يرضي الله تعالى، فإن هذا الفعل الشرير قد يمنح صاحبه مكسباً لفترة وجيزة، لكنه حتماً لن يستمر، وسيأتي عليه يوم يسقط فيه ويفضح أمره.

فثلاً، من يداري على خيانة أو كذب، ويخشى أن يكشف أمره، يعيش طوال حياته في حالة هروب مستمر، هارب من مواجهة الحقيقة التي سطرها بيده، ويجد نفسه رغم استمتاعه المؤقت بفعلته، لا يكاد يهنأ؛ إذ يعيش في قلق دائم من أن يكشف سره.

هذا هو الباطل الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية الكريمة: إنه زهوق؛ أي زائل وفانٍ لا ثبات له، مهما طال الزمن أو كثرت المحاولات، فلا بد أن يحل الحق ويزول الباطل، ويرفع نجم الصدق والعدل ويهوي الظلم والباطل في مهاوي الزوال.

فلنتذكر هذا الدرس العظيم، ونسعى لأن تكون حياتنا قائمة على الحق، وعلى القيم التي يرضاها الله عز وجل، فلا نغتر بما هو زائل، ولا نرتضي لنفسنا حياة من الهروب والخوف من كشف المستور، بل نعيش بقلوب مطمئنة وصدور صافية، معتمدين على الحق الذي لا يزول.

الإِنسان أولاً..

هل تأملت يوماً في خطبة النبي ﷺ التي ألقاها من داخل الكعبة وهو ينادي المشركين الذين كانوا يستمعون إليه؟ لقد وضع النبي ﷺ في تلك اللحظة المباركة حجر الأساس لأهم قيمة في ديننا الحنيف، وهي الإنسان بحد ذاته، دون أن تُميز بين غني وفقير، أو سيد وعبد، فقال لهم بكل حزم وصدق:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات: 13]

وهذا الأمر ليس مجرد كلمات تُقال، بل هو جوهر الإيمان والتقوى التي جاء النبي ﷺ ليُحييها في قلوب الناس. وقد جاء في حديث شريف يقول:

«التَّقْوَى هَاهُنَا» (129).

وأشار إلى صدره؛ أي أن مكان التقوى الحقيقي هو القلب، والذين هم أقرب إلى الله؛ هم أكثرهم تقوى وورعاً.

كأن النبي ﷺ وهو يقف في مكة يُرسل رسالة صادقة وواضحة: حان الوقت لكي يرحم الناس بعضهم بعضاً. ففي زمانهم، كانوا يُعلِّموننا أن «الحب غير المشروط» لا وجود له إلا عند الله تعالى وحده، وربما يقترب منه - والله المثل الأعلى - ما يكون عند الأمهات في حبن لأبنائهن، أما العلاقات البشرية الأخرى، فإنها غالباً ما تُبنى على مصالح واحتياجات متبادلة: من يعطك ما تريد تحبه، ومن يؤذك يغضبك، حتى لو أرغمت قلبك على الصبر، يظل الوجدان يتغير تجاه من يؤذيك.

لكن ما لا بد أن يكون راسخاً بيننا هو الاحترام غير المشروط، مهما اختلفنا واختلفت معتقداتنا، بل حتى لو كان الاختلاف في أعظم أمر في حياتنا، وهو عقيدتنا وإيماننا بإلهنا الواحد، فإن الإنسان - كل إنسان - يستحق أن يُحترم، وأن تُحفظ كرامته.

وكلما ثبت في قلبك هذا الاحترام والتقدير للآخر، شعرت بقربك الحقيقي من الله عز وجل، فطريق التقرب إلى الله يبدأ بأن تخرج من الدنيا وقلبك لا يحمل ذرة إهانة لأي بني آدم.

وهذا هو جوهر وملخص خطبة النبي ﷺ في يوم فتح مكة وهو واقف على باب الكعبة، رسالة خالدة، تبقى إلى الأبد، تذكرنا أن الإنسان هو الأصل، والتقوى هي مقياس الكرامة الحقيقية، والاحترام هو جسر المحبة والسلام بين القلوب مهما اختلفت الظروف والمواقف.

عفو النبي ﷺ عن أهل مكة

بعد أن وقف النبي ﷺ على باب الكعبة، وخاطب الناس بخطبة تأسر القلوب، معلناً لهم تساوي البشر عند الله، مؤكداً:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات: 13]

طرح عليهم سؤالاً من أشهر الأسئلة التي تُذكر عند فتح مكة، وهو سؤال يحمل في طياته حكمة ورحمة عظيمة؛ إذ قال لهم:

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟» (130).

أي: عندما تفكرون في موقفي الآن بعد فتح مكة، ما هو تصوركم عني؟ وما هو رد فعلي المتوقع تجاهكم بعد كل هذه السنوات التي تحملت فيها منكم الأذى؟

فأجابوه بصدق معرفتهم به: «أخ كريم وابن أخ كريم». يعني أنهم يعرفون النبي ﷺ كريماً ونبياً، لا يظنون منه إلا خيراً وعطاءً ورحمة.

فرد عليهم النبي ﷺ بكل عفو وكرم: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ» أي: اذهبوا، أنتم أحرار، لا عقاب ولا محاسبة، قد ساحتكم وأسقطت عنكم كل ما مضى.

فقال سيدنا عمر رضي الله عنه متعجباً: «يا رسول الله، هذا أبو سفيان وهذا صفوان بن أمية، إنهما من أعظم رجال قريش الذين ظلوا يماربونك أكثر من عشرين سنة». قال:

«يا عمر، مثلهم ومثلي كمثل يوسف مع إخوته عندما قالوا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (131)». [يوسف: 91 ، 92]

أي: لا لوم ولا عتاب اليوم عليكم، والله يغفر لكم، وهو أرحم الراحمين.

وانفضَّ الناس من حول النبي ﷺ بعد هذه الكلمة الكريمة وهم يملؤهم شعور بالأمان والسلام، لقد لمسوا في معاملته نبلاً ورحمةً لم يعرفوه في عصر الجاهلية، فقد كان نوره كالشمس التي تبعث الدفء في القلوب، ويحتضنهم بعطفٍ ورحمة، محققاً أعظم معاني التسامح والعفو.

أذان بلال

ثم يأتي وقت الصلاة، ويمنح النبي ﷺ الإذن لسيدنا بلال رضي الله عنه ليؤذن للصلاة، ويصعد على ظهر الكعبة المشرفة، فهذا يوم تشریف ورفعة، ويرفع بلال صوته العذب بالأذان: «الله أكبر.. الله أكبر»، تخيل معي تلك اللحظة العظيمة، هذا هو بلال، الذي عانى عذابات لا توصف من أجل الإيمان بالله وحده، كانت توضع عليه الصخرة الثقيلة على صدره ليُرغم على ترك دينه، وكان يصرخ في صموده: «أحد أحد»، حتى إن (أمية بن خلف) كان يربطه من قدميه بالحصان ويجره على ظهره على رمال الصحراء الملتبة، وهو عاري الظهر، لكنه ظل ثابتاً على دينه لا يبرح، ولا يركع إلا لله وحده.

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول عنه بكل إعجاب: «أما بلال فهانت عليه نفسه في الله». أي ضحى بنفسه وتحمل هذه الآلام الشديدة في سبيل رضى الله.

وها هو الآن، يعلو صوته على سطح الكعبة، ينادي بالتوحيد، والصلاة، بأجمل وأعذب صوت، فاللهم اجعلنا من الذين يستمعون إلى هذا الصوت الجميل يوم القيامة في جنتك يا رب العالمين.

وفي تلك الأثناء، كان أحد المشركين جالساً مع صاحبه بقرب أبي سفيان، فقال هذا الرجل: «الحمد لله الذي قبض أبي قبل أن يسمع ما يؤذيه»، فردّ أبو سفيان قائلاً: «والله لا أتكلم حتى لا يخبره الوحي». وحينها جاء النبي ﷺ وقال لهم:

«قد علمت الذي قلتم» (132).

برغم أنه كان بعيداً، إلا أن الله أوحى إليه بما دار في كلامهم، وكان هذا اليوم كله قد أُعدَّ له ليكون يوم هداية ورحمة، فقال أحد المشركين وهو موقن بحقيقة الرسالة: «أشهد أنك رسول الله.. فوالله ما سمعني إلا صاحبي وأبو سفيان».

بعد هذا المشهد المهيّب، تحرك النبي ﷺ ودخل إلى بيت أم هانئ بنت عمه (أبي طالب)؛ لأن بيت النبي ﷺ قد استلمه (عقيل) بعد الهجرة، ولم يعد للنبي ﷺ بيت خاص به في مكة، فجلس عند ابنة عمه وأخت سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وصل النبي ﷺ بعد رحلة طويلة تقارب 480 كيلومتراً، والله أعلم كم من الوقت استغرق في مشاهد هدم الأصنام والخطبة أمام الكعبة، لكن المؤكد أنه كان جائعاً جداً بعد هذا المجهود العظيم.

فسأل السيدة أم هانئ عن الطعام، فأجابت: «والله يا رسول الله ليس عندنا إلا الخل وبعض كسرات من الخبز». فقال النبي ﷺ بابتسامة وقناعة:

«نَعَمْ الْأُذْمُ - أَوْ الْإِدَامُ - الْخَلُّ» (133).

أي الغموس - الخل.

فالنبي ﷺ يشكر الله على أبسط ما يوجد، فاخلل يؤكل كفاتح للشهية، وكأنه يقول: هذا رزق الله لي في هذه اللحظة، وما دام هذا هو الموجود فهو أحلى وأفضل ما لدي، كما يقول المثل: «الجود بالموجود».

فجلس النبي ﷺ يأكل الخل مع كسرات الخبز المتبقية، وهو في أبهى لحظاته كفاتح منتصر، يملؤه الفخر والإيمان بأن الله هو المعين، وأن النصر قادم لمن تمسك

تَعَلَّمْ الامتنان لمن يهديك شيئاً

كلما خالطت سيدنا رسول الله ﷺ، شعرت بفيض من العظمة والكرامة ينبعث من قلبك، ويزيد ثقتك بنفسك، فهو ﷺ لا يقتصر على بناء العقيدة فقط، بل يبني شخصياتنا وقيمنا الإنسانية أيضاً. حين دخل إلى بيت السيدة أم هانئ رضي الله عنها، وقدمت له بعض الخبز والخل، قال لها مبتسماً: «نعم الإدام الخل» هنا نتعلم درساً عميقاً: عندما يُقدم لك أحد شيئاً بسيطاً، فإن طريقة استقبالك له هي تعبير صادق عن إكرامك وتقديرك لصاحب العطاء. فلو أعطاك شخص كيس بسكويت، وأنت قبلته بامتنان، وأخبرته كم أنت ممتن لعطائه، فهذا يعني أنك تعترف بحاجتك التي سدّها، وتشعر بالامتنان الحقيقي لما قدمه لك، حتى وإن كان بسيطاً.

وهذا السلوك هو من صفات الله تعالى العظيمة، صفة الشُّكْرِ، فالله يُسرُّ لما نقدمه له مهما كان صغيراً، ويرحب به محبباً فرحاً، كما قال النبي ﷺ:

«مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ ، غُرِسَتْ لَهُ نُخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ» (134).

والنخلة في الدنيا ليست زهيدة الثمن، فتخيل أن كلمة واحدة منك تُزرع لك فيها نخلة في الجنة، كيف يكون جزاء الله لك على هذا الذكر؟!

وفي الحديث القدسي:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَ بِي شَفْتَاهُ» (135).

أي إن مجرد تحريك شفتيك بذكر الله، ولو لم يكن القلب حاضراً بالكامل كما يشرح العلماء، كافٍ لأن يستقبلك الله بحبة ويحييك بذكره.

وفي الصيام تتجلى هذه الصفة الربانية بصورة أبلغ، فقد قال الله سبحانه في الحديث الشريف:

«قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» (136).

أي أن لكل عمل أجراً يمكن أن تقدره وتعرف ثوابه، إلا الصيام فهو لله وحده، وجزاؤه عظيم لا يُحصى، ويكمل الله تعالى: (يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي) فأنت تترك كل شهواتك ومباحاتك طاعةً لله، وهذا دليل واضح على شكر الله وتقدير طاعته.

وبينما النبي ﷺ منتصر في فتح مكة، وكان أبو سفيان يسميه «ملكاً»، نجده جالساً متواضعاً يأكل الخبز مع الخل، ويقول بابتسامة راضية: «نِعَمُ الْإِدَامُ الْخَلُّ» في مشهد إكرام رقيق لابنة عمه أم هانئ رضي الله عنها، وفي هذا الموقف العظيم تتجلى عظمة النبي ﷺ التي تجمع بين التواضع والكرامة، بين القوة والرحمة، بين الفتح والامتنان.

إسلام (عكرمة بن أبي جهل) ثقة في عفو رسول الله ﷺ

بعد أن أكل النبي ﷺ عند أم هانئ، جاء وقت تطبيق العدالة، وكان عليه أن يطبق القصاص الحق على أربعة أشخاص كانت عليهم أحكام صارمة، قديماً كان يُقال: «أهدر النبي دمه». وهم من أكثر الناس عداً واعتداً على المسلمين، وهم: عكرمة ابن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابه، وعبد الله بن أبي السرح. كان معهم امرأتان، ولكن سيرتهما لا تدخل في هذا السياق الآن.

وقد أدرك مقيس بن صبابه وعبد الله بن خطل في السوق عند الكعبة، فطبق عليهما الحكم وقتلاً، أما عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن أبي السرح، فكانا مختلفين في مصيرهما.

فعبد الله بن أبي السرح جاء مع سيدنا عثمان بن عفان، ووقف وراءه يتلمس العفو من رسول الله ﷺ، وسيدنا عثمان يلح عليه قائلاً: «اعفُ عنه يا رسول الله.. اعفُ عنه يا رسول الله.. اعفُ عنه يا رسول الله». فسكت النبي لحظات و عثمان يلحُ ثم عفا عنه النبي ﷺ، ولما تأخر النبي ﷺ في العفو عنه، قال له أصحابه: «لو أشرت لنا بعينك يا رسول الله لكنا قتلناه». فأجابهم:

«إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَنِيَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ» (137).

وعفا عنه النبي ﷺ إكراماً لعثمان.

أما عكرمة بن أبي جهل الذي كان من أكثر الناس إيذاءً للنبي ﷺ والمسلمين، فقد هرب وركب البحر في سفينة، وحينما هبت ريح شديدة هوجاء، وقف قبطان السفينة وقال: «أيها الناس، قد حضر ما نخاف، وإن آلهتكم لن تنفعكم هاهنا، فاطلبوا الغوث من رب السماء». أي أن الآلهة التي كانوا يعبدونها مثل هبل ومناة واللات والعزى لا تنفع في هذا الموقف ولا تقدر على نجاتهم.

فقال عكرمة بن أبي جهل: «لئن لم ينجني في البحر إلا رب محمد فلن ينجيني في البر إلا هو.. والله لأعودن لمحمد فلاجدنه برا كريماً». فعاد وأعلن إسلامه بين يدي النبي ﷺ، فغفر له النبي ﷺ وعفا عنه.

أما هبار بن الأسود، فهو الرجل الذي تسبب في حادث مؤلم، عندما أرادت السيدة زينب بنت النبي ﷺ الهجرة من مكة إلى المدينة بعدما فرق الإسلام بينها وبين زوجها أبي العاص بن الربيع، وحدث أثناء سفرها أنها كانت حاملاً، وخرج وراءها هبار بن الأسود وطعن بالرمح في الجمل الذي كانت تركبه؛ مما أثار الجمل وأوقعها، فسالت دماؤها وسقط الحمل. كان هذا الفعل من أشد الأعمال دناءة وإيذاءً، خاصة وأنها كانت بنت النبي ﷺ.

فلما جاء هبار بن الأسود بين يدي النبي ﷺ وقال: «يا محمد، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، اعفُ عني». بينما كانت إحدى الصحابيات جالسة وقالت: «لا بارك الله فيك». وظلت تسبه، فأمر النبي ﷺ ألا يتعرض له أحد بأي أذى وقبل إسلامه وعفا عنه.

ولكن المشهد الأعظم الذي يُظهر عظمة صبر الله على عباده، هو ما حدث مع أبي سفيان، فقد كان جالساً عند الكعبة، يفكر في نفسه قائلاً: «لو جمعت لمحمد جمعاً فقتلناه». أي أنه كان يفكر في جمع أربعة أو خمسة رجال ليلحقوا بالنبي ﷺ ويقتلوه غيلةً، وفي نفس اللحظة، وجد النبي ﷺ يضع يده على كتفه ويقول له:

«إِذَا، يَخْزِيكَ اللَّهُ» (138).

فشعر أبو سفيان بهزة في قلبه وقال: «أشهد أنك رسول الله، والله ما تيقنت أنك نبي إلا في هذه الساعة».

هذا المشهد يجسد أعظم معاني الرحمة الإلهية التي تجلت في شخصية النبي ﷺ، حيث إنه بالرغم من كل الأذى والعداء الذي تعرض له، كان يفيض بالرحمة والعفو، ويغفر لمن تاب منهم، ويشفق على القلوب حتى تذوب وتقبل الحق. فهذه الرحمة والصبر ليست فقط صفات إنسانية راقية، بل هي انعكاس للرحمة الإلهية التي تنبع من الله سبحانه وتعالى.

ومن خلال هذا الدرس العظيم، نرى كيف أن فتح مكة لم يكن مجرد انتصار سياسي أو عسكري، بل كان رسالة سامية إلى البشرية كلها، رسالة تدعو إلى الرحمة، العفو، والإنسانية، رسالة تبني مجتمعاً يسوده التسامح والعدل، بعيداً عن الضغائن والانتقام.

ففي هذه القصة، نتعلم أن العفو أبلغ من الانتقام، وأن الرحمة هي أعظم سلاح في بناء السلام والأمن في القلوب والمجتمعات، وهي طريق التقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

تعلم التسامح من رسول الله ﷺ
واجعله رمزاً لك بين الناس

هل تأملت حقًا في هداية الله لعكرمة بن أبي جهل؟ فالله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بعد نزول سيدنا آدم رضي الله عنه من الجنة بقوله تعالى:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [سورة البقرة: 38]

كأنَّ الهداية هي التي تبحث عن الإنسان، تقتفي أثره، تطرق باب قلبه، فلا يقدر أحد أن ينالها إلا بإذن الله.

عكرمة بن أبي جهل، هذا الرجل الذي كان من أشد أعداء النبي ﷺ، هرب منه، وركب البحر هاربًا، ثم إذا به يجد نفسه في مواجهة الخطر الحقيقي حين اشتدت الرياح وكادت السفينة تغرق. هنا وقف قبطان السفينة ليصرخ في الناس: «اعلموا أن آلهتكم لن تنفعكم هاهنا». أي أن الآلهة التي كانوا يعبدونها، التي جعلوها شركاء مع الله، عاجزة تمامًا عن حمايتهم، فهي في هذا الموقف صفر لا قيمة لها. وأضاف: «لن ينجيكم إلا رب السماء»، فتكشفت أمامهم الحقيقة البسيطة في أن: لا نجاة إلا بالله وحده.

وهنا في أعماق نفسه، قال عكرمة: «إذا لم ينجني في البحر إلا رب محمد فلن ينجيني في البر إلا هو، لأرجعن إلى محمد فلاأجدنه عفوًا كريمًا». فكان هناك يقين في قلبه بأن الله هو النافع والضار، ومع ذلك كان قد أضل نفسه بالشرك مع آلهة أخرى، لكنه لم يفقد الأمل في رحمة الله ورحابة صدر رسول الله ﷺ.

هذا الرجل، رغم ماضيه الحافل بالعداء، كان يعرف أن عودة قلبه إلى الله، واعتذاره للنبي ﷺ، وإسلامه بين يديه، سيقابله ﷺ بالقبول والسماح. فهل تأملت

معي هذه السمعة الطيبة التي يمتلكها رسول الله ﷺ؟ تلك السمعة التي يحتاج إليها كل من يحب الله ورسوله؛ أن يكون من أهل السماحة والرحمة، من أهل الأمانة والجديّة وتحمل المسؤولية، حتى يطمئن من حوله إليه، ويثقوا في خلقه وسيرته.

قال تعالى:

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

[سورة آل عمران: 104]



ويقول:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: 110]

فلنتخذ من رسول الله ﷺ قدوة، ولنجعل أخلاقه النور الذي يضيء دروبنا، ولكي يكون تعاملنا مع الناس سبباً في قربهم إلى الله، لا سبباً في نفورهم وبعدهم عن طريق الحق. لنظهر للعالم من نكون؛ من خلال أعمالنا وأخلاقنا، وأنا فعلاً أمة الرحمة، أمة الحب، وأمة التيسير والعفو.

أراد قتل النبي ﷺ فأسلم

من أجمل المشاهد التي تكشف عن نور سيدنا محمد ﷺ وهو يتسلل إلى قلوب المشركين، مشهد مع رجل اسمه فضالة بن عمير، رجل من المشركين قد لا يعرفه كثير منا. كان فضالة يسير خلف النبي ﷺ وهو يحمل في يده خنجرًا مخبأً بين ثيابه، ينوي به قتل النبي ﷺ، رغم كل الفتح العظيم الذي تحقق، ودخول الناس في الإسلام، وسلامة الناس بعد سنوات من القتل والظلم.

بينما هو يطوف خلف النبي ﷺ، نظر إليه النبي ﷺ وسأله:

«ماذا كنت تحدث نفسك؟». فأجابه فضالة: «أذكر الله تعالى». فتبسم النبي ﷺ، ثم قال: «استغفر الله». ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه (139)، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن قلبي حتى صار أحب الناس إليّ»، ثم أعلن إسلامه قائلاً: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله».

عاد فضالة إلى بيته، وكان له رفيقة في الجاهلية، كما جاء في القرآن الكريم:

﴿وَلَا تُتَّخَذِ الْكُفْرَانُ أَلْفًا﴾ [سورة المائدة: 5]

حيث «الخدن» يعني المترافقين أو المرافقين المتحابين كما الأزواج، وكانت تلك رفيقته. حين قابلها في طريقه، وكأنها تدعوه إلى بيتها، قال لها فضالة إنه قد أسلم، لكنه عبر عن ذلك بشعر يقول فيه:

يَأْبَىٰ عَلَيْكَ اللَّهُ وَالْ

*

قَالَتِ هَلُمَّ إِلَى الْحَدِيثِ فَقُلْتُ لَا

بِالْفَتْحِ يَوْمَ تَكْسُ

*

لَوْ مَا رَأَيْتِ مُحَمَّدًا وَقَبِيلَهُ

وَالشَّرْكَ يَغْشَىٰ وَجْهَهُ

*

لَرَأَيْتِ دِينَ اللَّهِ أَضْحَىٰ بَيْنَنَا

أي أن الإسلام هو النور والحق، والكفر هو الظلام والضلال، رغم إسلامه في ذلك اليوم نفسه، فقد أدرك بقلوب الناس ونور الفتح عظمة الحق ونور الدين.

هذا المشهد يلمس القلب ويظهر مدى تأثير نور النبي ﷺ، الذي لا يقتصر على القلوب القريبة فقط، بل يمتد ليصل حتى إلى أعتى الأعداء، فيُذِيبُ الحقد ويبدد الظلام، ليولد نور الإسلام في أعماقهم.

حُبُّ النَّبِيِّ ﷺ الْهُدَايَةُ لِلْجَمِيعِ

ثم بعد ذلك، سأل النبي ﷺ عن حال (عتبة ومعتب)، وهما ابنا أبي لهب اللذان تزوجا بنتي النبي ﷺ الحبيبتين رقية وأم كلثوم، وفي بداية الدعوة، طلقاهما طلاقاً جائراً، ليس فقط لإبعادهما عنه بل لثقلها على قلبه حزناً وألماً، فكان هذا الطلاق ذلاً لهما وكرامة لبنتيه الطاهرتين. وعندما سأل النبي ﷺ عن أخبارهما، أخبره أصحابه بأنهما قد غادرا مكة هارين منه، خوفاً من تأثير دعوته ونور رسالته، ولكن النبي ﷺ لم يحمل في قلبه عليهما غلاً أو ضغينة، بل دعا لهما بكل رحمة ومحبة، ورفع يديه إلى الله في دعاء خالص، فاستجاب الله لدعائه، وجاءا إليه مستسلمين، فأخذ النبي ﷺ بأيديهما، وطاف بهما حول الكعبة، ودعا لهما عند باب الملتزم؛ ذلك الركن القريب من الحجر الأسود، وهناك شهدا شهادة الإسلام وقالوا: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». فامتأ قلب النبي ﷺ فرحاً بهذا النصر الروحي العظيم، وقال بكل صدق وإيمان:

«هذان أخواي وابنا عمي - فرحاً بإسلامهما - استوهبتهما من الله فوهبهما لي» (140).

أي أن الله أكرمهما بالهداية فرحاً به وبقبولهما، فكانت هدايتهما جبراً لخاطر النبي ﷺ، وتعبيراً عن رحمة الله ومغفرته.

ومن بين الذين أسلموا يوم فتح مكة، وكان هذا سبباً كبيراً لفرح النبي ﷺ، (أبو قحافة) والد سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان اسم أبي بكر الحقيقي عبد الله بن أبي قحافة. كان هذا الرجل شيخاً كبير السن، أبيض الشعر، ضعيف البدن، ولم يكن قد أسلم حتى ذلك الوقت، رغم أن ابنه أبا بكر كان من أوائل المؤمنين وأعظم الصحابة، فناء أبو بكر ممسكاً بيد أبيه ليؤمن بين يدي النبي ﷺ، ولما رآه النبي ﷺ قال لصاحبه:

«لو أَقَرَّرَتِ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ لِأَتَيْنَاهُ» (141).

في إشارة إلى أن كبار السن قد يواجهون صعوبة في المشي أو السفر، فرد أبو بكر بثقة ومحبة: «يا رسول الله، بل هو أحق أن يأتي إليك». فابتسم النبي ﷺ، وامتلأ قلبه فرحاً، وكانت لحظة إسلام أبي قحافة من أجمل اللحظات التي أبكت قلوب المحبين؛ لأنه عرف أن هذا الشيخ الضعيف قد وجد النور بعد طول انتظار.

وأما آخر من أسلم في ذلك اليوم العظيم فهو (صفوان بن أمية بن خلف)؛ ابن (أمية بن خلف) الذي كان من أشرس معذبي الصحابة و منهم سيدنا بلال رضي الله عنه، وكان أبو صفوان قد قُتل في غزوة بدر، وكان صفوان نفسه من أكثر الناس شدة على النبي ﷺ، وكان يعاني من عميق الكفر والعداء للدعوة الإسلامية. هرب صفوان خارج مكة، فأمر النبي ﷺ رجلاً يدعى عميراً أن يبلغه أن عودته إلى مكة ستكون في أمان. وعندما أخبر عمير النبي ﷺ أن صفوان لن يصدقه بسهولة، وطلب منه آية تميزه عن غيره، وقال له: «يا رسول الله، فأعطني آية أعرف بها أمانك». فأعطاه النبي ﷺ العمامة، و العمامة كانت رمزاً للشرف والكرامة بين العرب، وأوصاه أن يقول لصفوان إن هذا هو ضمان أمانه.

عاد عمير بها إلى صفوان، وكان صفوان متشككاً لكنه بعد أن رأى العمامة قال: «أرجع، فوالله ما رأيته إلا كريماً». فقرر أن يعود، وعندما وصل إلى النبي ﷺ قال له: «إن هذا يزعم أنك أمنتني». فقال له النبي ﷺ: «صدق». قال: (فاجعني في الخيار شهرين).

قال: «أنت في الخيار أربعة أشهر» (142).

أي أعطني مهلة شهرين أفكر وأتأمل في إسلامي، فقال له النبي ﷺ: «أنت في الخيار أربعة أشهر». أي أنه أمدّه بمزيد من الوقت؛ ليبين مدى صبر الله ورحمته وصبر النبي ﷺ على أعدائه، وكرمه معهم.

وهكذا، ينتهي هذا المشهد العظيم في حياة النبي ﷺ، الذي تجلّت فيه أنوار الرحمة والعفو، ويبرز هذا المشهد أحد أهم دروس السيرة العطرة: أن نور النبي ﷺ يُضيء القلوب حتى في أشد اللحظات، وأن الصبر والرحمة هما مفتاح الهداية. وهذا المشهد ليس النهاية، فحياة النبي ﷺ مليئة بالأحداث الدالة على عظمة هذه الشخصية التي غيرت مسار البشرية كلها، ومهما كتبنا فلن نبلغ حق قدره.

مشاهد من نور

في عالم اليوم، حيث تكثر الصراعات وتضاعف الخلافات، تتجلى لنا دروس عظيمة من سيرة النبي ﷺ في قصتين تفيضان بنور الرحمة والعفو، وهما قصتان لا غنى لنا عن هديهما.

الأولى: قصة (فضالة بن عمير)

وهو من أراد أن يقتل النبي ﷺ ثم دعا له النبي ﷺ فأسلم وتغير قلبه، وعندما عاد ونادته صاحبتة في الجاهلية فقالت له: (هلمّ إلى الحديث) .. لم يخرج معها ولم يحك لها ما حدث له مع النبي ﷺ، ولكنه أخبرها أنه لن يستطيع أن يكمل معها هذه العلاقة الآثمة؛ لأنها كانت في الحرام، فلم يترك نفسه لضعفها؛ لأن الحب شعور

جميل، والغرائز موجودة، ولكنه أخبرها بأنه أسلم لله وتقرّب من الله ولن يستطيع أن يُكلّ معها، فقال: (يأبى عليك الله والإسلام). فهناك أوقات كثيرة عندما يُسوِّف الإنسان في التوبة يضعف مرة أخرى ويغلبه شيطانه.

• أما القصة الثانية

فهي قصة أولاد أبي لهب، الذين كانوا من ألد أعداء النبي ﷺ، وقد آذوه وآذوا أصحابه بكل الوسائل، حتى أمهم «حمالة الخطب» كانت معادية له، ومع ذلك، لم يحمل النبي ﷺ قلبه على عداوتهم، بل طبق قوله ووصيته النبوية:

«اعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَصِلْ مَنْ قَطَعَكَ» (143).

فقد دعا الله لهما بالهداية والإسلام، وعندما استجاب الله لدعائه وأصبحا مسلمين، قال ﷺ ببهجة: «استوهبتهما من الله فوهبهما لي» معبراً عن فرحته بأن الله قد وهب لهما النور بعد ظلمة العدا. يا له من صدر رحب لا يحمل ضغينة، كأنك ترى في حياتنا إنساناً يحمل على أكفاه أثقال الألم والخذلان، لكنه لا يتوقف عن المشي، لا يسمح لجراحه أن تسحب روحه إلى الأسفل، بل يمضي متسامحاً، متحلياً بالقوة والكبرياء: «الكريم إذا قدر غفر».

هذه الأنوار من العفو، ومن القوة في التسامح، ومن الرحمة التي تمتلئ بها قلوب الأنبياء، هي التي نحتاج إليها بشدة في زمننا هذا؛ في علاقاتنا الإنسانية، وفي صداقاتنا، وفي أسرنا. فكم من علاقات قطعت بسبب الجراح والأحقاد، والتي كان يمكن أن تداوى بقلب رحيم، أو كلمة عفو سائحة، كما كان حال النبي ﷺ مع

أولاد أبي لهب وفضالة بن عَمير! إنا بحاجة إلى أن نستلهم من هذا النور العظيم الذي أضاء به النبي ﷺ طريق التسامح والمحبة، لنصلح ما انكسر، ونبني جسور الرحمة بين القلوب.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم، فإننا يا مولانا لا نقدر قدره العظيم، ولا نُدرِكُ بعقولنا ما يليق به من التقدير والتعظيم، صلِّ وسلم وبارك على سرك الجامع لكل الأسرار ونورك الواسع لجميع الأنوار. اللهم زَيِّنْ أيماننا بالتوبة والغفران، وتجاوز عن سيئاتنا قبل العرض والميزان، واجزنا بالفردوس الأعلى، وثبتنا بالتقوى والإحسان يا كريم يا منان يا واسع الغفران!



(126) رواه ابن ماجه.

(127) رواه الطبراني.

(128) رواه الترمذي.

(129) رواه مسلم.

(130) رواه ابن إسحاق.

(131) ورد في الأثر.

(132) رواه البيهقي.

(133) رواه مسلم.

(134) رواه الترمذي.

(135) رواه ابن ماجه.

(136) رواه مسلم.

(137) رواه أبو داود.

(138) رواه ابن سعد.

(139) رواه ابن هشام.

(140) رواه ابن سعد.

(141) رواه ابن حبان.

(142) رواه البيهقي.

(143) رواه المنذري.

غدر قبيلة هوازن وبداية معركة حُنين

بداية معركة حُنين وسببها

وصل بنا الركب المبارك في سيرة سيد الخلق ﷺ إلى لحظة عظيمة ومهيبة... لحظة فتح مكة! ذلك الفتح الذي كان إيذاناً بأن راية الإسلام قد رُفعت عاليةً خفّاقة في أقدس بقاع الأرض، وأن كفاح الحبيب المصطفى ﷺ بدأ يؤتي ثماره في أرجاء جزيرة العرب.

ولكن.. هل كان فتح مكة هو الختام؟ هل انتهى الكفاح عند حدود البيت الحرام؟ كلا، فالمسيرة النبوية لم تكن مجرد انتصار عسكري، بل كانت رحلة ممتدة من الصبر والجهد والدعوة، وكانت هناك قبائل لم تُسلم بعد، ولم تستسلم بعد، ولم تُسلم الراية للحق بعد، رغم عظم الحدث.

نعم، مكة كانت أعظم مكان؛ فهي موطن الكعبة المشرفة، وفيها قريش، سيدة القبائل، ولكن في عمق الجزيرة، في الطائف تحديداً، كانت هناك قبائل ضخمة، هوازن وثقيف، لا يقلون في القوة ولا في العزة عن قريش. وكانت لهم أصنام تُعبد من دون الله، أشهرها اللات والعزى، اللذان قال فيهما الله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ [سورة النجم: 19]

وكان المشركون يُقسِمون بهذين الصنمين، رغم أنهما لم يكونا في مكة، بل في أرض هوازن، عند ثقيف، في الطائف.

وكانت هذه القبائل ترى نفسها ندًا لقريش، بل كانوا أشد قسوةً على رسول الله ﷺ. أتذكر تلك اللحظة الأليمة التي مضى فيها الحبيب ﷺ إلى الطائف قبل الهجرة، ومعه زيد بن حارثة، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فلم يجدا إلا الحجارة تُقذف، والسفهاء يُغرون، والقلب يُكسر؟!

وفي وسط الألم، رفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء وقال دعاءً لا تنساه القلوب المؤمنة:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ» (144).

فنزل ملك الجبال يعرض عليه أن يطبق عليهم الأخشبين، لكنه ﷺ قال كلماته الخالدة المضيئة:

«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» (145).

ما أعظم صبرك يا رسول الله! وما أوسع رحمتك!

ومضت السنوات، وجاء يوم فتح مكة، فاهتزت القبائل، وشعرت هوازن وثقيف بأن ميزان القوى قد مال نحو الإسلام، وأن الخطر اقترب... لكن بدلاً من التسليم، قرروا المواجهة! نعم، قرروا أن يذهبوا هم للنبي ﷺ في مكة، قبل أن يأتيهم.

وتولى مالك بن عوف قيادة جيوشهم، وقرر قراراً غريباً: أن يجمع الرجال والنساء والأطفال والماشية وكل الثروات! أراد أن يجعل الجيش في وضع لا يفر، كأنه يقول: إن تركوا المعركة، تركوا أهلهم وأموالهم خلفهم! فكان جيشاً قوامه 30 ألف مقاتل، لكن بمن معهم من النساء والأطفال والأنعام، بدوا كأنهم 80 ألفاً كما وصف الصحابة ذلك المشهد.

وهنا يظهر رجل حكيم يدعى دُرَيْدُ بن الصِّمَّة؛ شيخ كبير ذو حكمة وتجربة، قال للمالك:

«كيف تخرج بالنساء والصبيان والثروات؟! إنك بهذا تعرض القوم للهلاك!». لكن مالكا رد عليه بأن هذا ما سيمنع الجنود من الفرار، فقال له دُرَيْدُ قولته العظيمة: «وهل ينفع المهزوم إلا الفرار؟!». كلمات تحمل من الحكمة ما لا يُقدَّر بثمن، ولكن مالكا لم يستجب، بل أراد أن يُجبر قومه على طاعته، ففعل ما وصفه أهل السيرة بأنه مشهد تمثيلي؛ حيث وضع نصل سيفه على بطنه وقال إنه سيقتل نفسه إن لم يطيعوه! نخاف القوم من أن يقال إنهم قتلوا قائدهم فاستجابوا له، رغم شكهم.

وفي المقابل، كان النبي ﷺ في مكة حين جاءه خبر تحرك هوازن، وعلم أنهم قادمون في جيش ضخم، فاستعد لهم، ولكن كان بحاجة إلى سلاح، فذهب إلى صفوان بن أمية - وكان حديث عهد بالإسلام - وطلب منه دروعاً، فقال صفوان:

«أَغْصَبَ يَا مُحَمَّد؟». فقال النبي ﷺ:

«لا، بل عارية مضمونة»⁽¹⁴⁶⁾.

فأعطاه صفوان 100 درع، ثم انطلق النبي ﷺ من مكة بجيش قوامه 12 ألف مقاتل: 10 آلاف من الفاتحين، و2000 من حديثي العهد بالإسلام. ولأول مرة في تاريخ الدعوة يكون مع النبي ﷺ هذا العدد، فانطلقوا لملاقاة العدو في وادٍ يدعى حُنينًا، على بُعد 3 أميال من مكة. وفي الطريق، لاحظ الصحابة أن رسول الله ﷺ يُحِرُّكَ شفتيه بدعاء خاشع، فسألوه عنه، فقال:

«اللَّهُمَّ أَنْتَ عِزُّي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ وَبِكَ أَصُولُ وَبِكَ أَقَاتِلُ»⁽¹⁴⁷⁾.

كم هو جميل هذا الدعاء، حيث يعكس التوكل الحقيقي!

◆ «بك أحول»: أي أدافع وأتحرك.

◆ «بك أصول»: أي أهجم وأقاتل.

فالنبي ﷺ رغم العدد الكبير، يعلم أن النصر ليس بالعدد، بل بالله! فها نحن على أعتاب معركة حنين، لحظة من لحظات الفرقان في تاريخ الإسلام، حيث يثبت أن النصر لا يكون بالقوة وحدها، بل بالتوكل والإيمان واليقين بالله.

كيف تحمي نفسك من العُجب؟

« بِكَ أَحُولُ وَبِكَ أَصُولُ وَبِكَ أَقَاتِلُ » (148).

دعاءً منيراً، قاله الحبيب ﷺ في لحظة فارقة من لحظات السيرة، يوم غزوة حُنين، حين رأى الألوف من المؤمنين يخرجون معه صفّاً واحداً.

الصحابه رضي الله عنهم ربما فكروا لو هلة: نحن اليوم لسنا قليلين! لكن النبي ﷺ، الذي علمه ربه، لم يشغله العدد، بل أراد أن يُعلِّمنا كيف نتصرف عندما نُرزق بقوة أو يُفتح علينا بنعمة أو إنجاز. فعندما ترى نعم الله تتوالى عليك - من صحة، أو مال، أو سيارة جديدة، أو بيت، أو شهادة، أو تكريم - تذكّر كلمات الحبيب ﷺ: «بك أحول».. أي: يا رب، أنت وحدك من يحول بيني وبين كل شر وأذى، لا قوتي ولا حولي.

«وبك أصول».. أي: يا رب، إن تقدمي، وانتصاري، ومواجهتي لكل أمر صعب لا تكون إلا بك وبعونك ومددك. «وبك أقاتل».. فأنت المعين، وأنت الناصر، وأنت الممدد. الإنسان إذا أدرك أن أنفاسه بمدد من الله، يستحيل أن يتسلل إلى قلبه العُجب أو الغرور؛ لأن كل نفسٍ هو أمانة بعدد محسوب.

تدبر قول الله تعالى:

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُ لَهُمْ عَذَابًا﴾ [سورة مريم: 84]

قال الحسن البصري رحمه الله: «العد» هو عدد الأنفاس. كل إنسان له عدد أنفاس مُقدَّر، فإذا انتهت، انتهت حياته ورحل.

ولذلك كان سيدنا محمد ﷺ يُعلِّمنا أن نستغفر الله حتى بعد الطاعة! الكثير من الناس يتساءلون: لماذا نستغفر بعد ما صلينا أو قرأنا أو دعونا؟

والإجابة: لأننا لا نعبد الله كما ينبغي لعظمته! نعبد أحياناً ونحن مشغولو البال.. أو نُقَصِّر في الخشوع.. فنستغفر، كأننا نقول: «يا رب.. الحمد لك أن وفَّقْتَنِي، والمغفرة منك إن قَصَرْتُ». بعد الصلاة، يقول النبي ﷺ: «استغفروا الله ثلاثاً». وعند الحج، تأمل قول الله تعالى:

ج
﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: 199]

حتى بعد عرفات، ومغفرة الذنوب، يُؤمر الحاج بالاستغفار!

لماذا؟ لأن العبد الصادق يعلم دائماً أنه مقصّر مهما فعل، وأن الكمال لا ينال إلا برحمة الله.

والخطير في العجب أنه يُولّد الكبر، ومن تكبّر على الناس تكبّر على الله، وكأنه يقول: أنا أستحق على عبادتي! وهنا يأتي المن، وهو أن تمنّ على الله بطاعتك، والمنّة تُطفئ نور القلب وتُذهب الإخلاص.

لذلك، كانت كلمات النبي ﷺ: «اللهم بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل» هي قاعدة نورانية لحياتنا، تذكّرنا دوماً أن كل خطوة نخطوها، وكل نفس نأخذها، هو بفضل الله وكرمه ومدّده وحده لا شريك له.

سبب انكسار الجيش

بعد أن خرج رسول الله ﷺ بجيشه العظيم المتكوّن من 12 ألف مقاتل، تحرّك الجيش المبارك نحو وادي حنين لملاقاة قبائل هوازن وثقيف، والذين كانوا متجهين من الطائف بهدف الهجوم على مكة.

وفي الطريق، مرّ الجيش بشجرة كان المشركون في الجاهلية يُعظّمونها ويعلّقون عليها أسلحتهم، وكانوا يجلسون تحت ظلها ويتبركون بها، بل يعبدونها!

فبعض الناس من حديثي العهد بالإسلام (حوالي ألفي مقاتل) قالوا لرسول الله ﷺ براءة من لم يتعلم: «يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط». أي: نريد شجرة نتبرك بها مثلهم. فرد النبي ﷺ بقوة وعظمة تنبيهاً لهم، فقال:

«الله أكبر! قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون، إنها السنن!» (149).

وهنا كانت تربية إيمانية مباشرة من النبي ﷺ لهم ولنا جميعاً: لا يُعظّم إلا الله، ولا تُطلب البركة إلا من الله سبحانه وتعالى، ولا يُرفع شيء فوق قدره، ولا تُكرّر

أخطاء الأمم السابقة! وبعدها تحرك الجيش حتى وصلوا لمكان مرتفع يقابل وادي حُنين، وكان المنظر من فوق التل يسمح برؤية واسعة للمنطقة، فالنبي ﷺ أراد التأكد أنه لا يوجد كمائن محتبئة تحت الأشجار أو بين الصخور.

فسأل النبي ﷺ: «من يحرسنا الليلة؟». فقال الصحابي الجليل أنس بن أبي مرثد الغنوي: «أنا يا رسول الله». فطلب منه النبي ﷺ أن يصعد على فرسه، ويقف فوق التل، طوال الليل، لا ينزل من عليه إلا للصلاة أو لقضاء حاجة، فقبل الصحابي الأمانة وقال: «نعم يا رسول الله». وقضى ليلته ساهراً، راجباً فرسه لا ينام، يراقب الوادي الموحش المليء بالأشجار والمخاوف، يفتش بعينه كل زاوية حتى طلوع الفجر، ثم عاد إلى النبي ﷺ وأخبره أنه لم ير أي حركة في المكان.

فسأله النبي ﷺ: «هل نزلت من فرسك؟». قال: لا، إلا للصلاة أو قضاء الحاجة.

فقال له النبي ﷺ جملة تنور القلب وتبهج الروح:

«قد أوجبت؛ فلا عليك ألا تعمل بعدها» (150).

أي أن الله أوجب لك الجنة... لأنك سهرت لتحرس المسلمين بهذا التفاني، وسهرت هذا عمل عظيم نقي خالص لله.

ثم بدأ النبي ﷺ يصفُ الجيش استعداداً للنزول إلى وادي حُنين، وبينما الجميع يستعدون، وإذا بأحد المسلمين يقول كلمة.. قالها وهو ينظر إلى عظمة الجيش وعدده: «لن نهزم اليوم من قلة!».

وكأنها كانت شرارة العُجب بالكثرة ! نعم، لأول مرة يكون للمسلمين هذا العدد الضخم! في بدر كانوا 314، وفي أُحُد كانوا 700، وفي الخندق 3,000، والآن 12,000! فبعضهم دخل في أنفسهم شيء من الإعجاب بالكثرة. لكن هذا لم يُرضِ رب العالمين، فنزل قوله تعالى مباشرة:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ

شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ

مَدْيَنَ ﴿سورة التوبة: 25﴾

وكان هذا المشهد تربية ربانية حاسمة! كما يروي أهل السيرة: هذه الكلمة انتشرت كالنار في الهشيم بين الناس، حتى إن الشعور بها تسرب إلى قلوب الجميع، من حديثي العهد بالإسلام وقدامى الصحابة على السواء.

وفعلاً، بدأ الجيش في النزول إلى الوادي، وإذا بالمفاجأة!! الكائن تنقض عليهم من كل الجهات! السهام تنهال كالطرر، كالجراد المنتشر، من الجبال والشعاب، ومن فوق الأشجار، فبدأ بعض الجنود يتراجعون، بل يرتطم بعضهم ببعض في الوادي الضيق، وحدث ارتباك شديد جداً!

وفي وسط الفوضى، كان رسول الله ﷺ ثابتاً على بغلته «جُلجُل»، التي أهداها له المقوقس حاكم مصر، يتقدم وحده باتجاه العدو! والصحابة -من شدة هجوم السهام- تراجعوا، كما وصفهم الله تعالى:

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ

مُذْبِرِينَ﴾ [سورة التوبة: 25]

وما بقي حول النبي ﷺ في أرض المعركة باتجاه هوازن إلا مائة صحابي فقط... مائة رجل وقفوا كالجبال بينما الآلاف تراجعوا! يا الله! أيُّ دروس في الثبات والإيمان تُعلِّمنا إياها هذه اللحظة؟! ولم من مرة نظن أن «الكثرة» تكفينا.. فُيرينا الله على أن النصر لا يكون بالكثرة بل بالإيمان واليقين والتوكل!

علامات العجب بالنفس

حين قال بعض الصحابة في غزوة حُنين:

«لن نُهزم اليوم من قلة!» لم يكن ذلك مجرد تعبير عن الحماسة، بل كما أثبت القرآن الكريم نفسه، كان ذلك «عُجْباً» خفياً تسلل إلى القلوب.

قال تعالى في وصف تلك اللحظة:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [سورة التوبة: 25]

هذا التحليل ليس اجتهاداً من المفسرين، بل هو تصريح واضح من كلام الله تعالى نفسه: العُجب تسلل إلى القلوب.. حتى قلوب الصحابة الذين سبق لهم الجهاد والصدق والصحبة! وهنا تظهر رحمة الله.. فحتى خطأ الصحابة كان بمثابة درس لهم ولنا، ورحمة للأمة من بعدهم، حيث نزل القرآن يُريهم، ويُهذِّبهم، ويُعلِّمهم كما يُعلِّمنا نحن.

فمن نحن إذا كنا نرى أنفسنا في طريق الاستقامة، ولا نراجع قلوبنا من العُجب؟! نعم.. العُجب ممكن أن يصيب أي إنسان، حتى لو كان قديماً في طريق الطاعة!

وهنا لابد أن نقف وقفة صادقة مع أنفسنا.. هل أنا مُعجب بعلمي؟ بصلاتي؟ بخيري؟ بإنجازي؟ هل أشعر أن ما أنا فيه هو «بجهدي» وليس «بفضل الله»؟

تعريف العُجب باختصار: هو أن تنسب الفضل إلى نفسك لا إلى الله. إذا كنت ترى أن الخير الذي أنت فيه هو من «عندك» فأنت واقع في العُجب.. أما إذا كنت تنسب كل شيء لله فأنت على خير.

وللعُجب علامات خفية في حياتنا، تُنبئك عن حال قلبك، وسأذكر لك أربع علامات مهمة:

1 كثرة السُخرية والاستهزاء بالناس

وترديدك دائماً فيما معناه أنهم كيف يخطئون مثل هذه الأخطاء! وكأنك في منأى عن الوقوع في مثل هذه الأخطاء، فعندما أتكلم أنظر إليهم بسخرية لأنني أرى نفسي في موقع الأستاذ وهم المخطئون.

2 النصح بغلظة

كأن ينصح الإنسان بطريقة فيها غلظة أو بسخرية وكأنه في منأى عن الوقوع في مثل هذه الأخطاء.. فينصح أحداً وكأنه يقول له.. هل ما زلت تقع في مثل هذا الخطأ؟! باندهاش وتهكم.

3 فضح المخطئ

فربّ شخص ستره الله فأفضحه أنا، وكأني يستحيل أن أقع في هذا الخطأ فأنا لست خائفاً من الفضيحة!

4 العتاب على الله

وهي من أكبر علامات العُجب، وهي أن أكون إنساناً صالحاً وهناك نعمة أحتاج إليها ولكنها ليست عندي، وأنا أرى أن هناك إنساناً عاصياً وليس قريباً من الله «تقييمه عندي كذلك» ولديه هذه النعمة، وكأني أعتب على الله أنه أعطى العاصي وتركني.. فهذه علامة على نسبة الفضل إلى نفسي، وكأني أطلب رب العالمين بأن يرد إليّ المعروف الذي أفعله عندما يكتب أحد إلى العلماء ويسألهم أنه يقوم بعمل خيري (توزيع طعام- بطاطين- بناء أسقف...) فيسأل الشخص: ما جزاء الله لنا ونحن نقوم بمثل هذه الأعمال الخيرية؟ فيرد العلماء ويقولون: (إن الجزاء أن الله أكرمك بهذا العمل وجعل عُمرُك في خدمة الخلق، فتقل ميزان حسناتك، وحفظ وقتك من أن تكون فارغاً فتعصيه، فأكرمك بالشغل عنده - سبحانه وتعالى- وكفى به).

فوالله.. أن يكرمك الله بالعمل عنده، فهذه أرفع من أي جزاء دنيوي.

وفي النهاية، تذكّر كلمات النبي ﷺ في وادي حُنين وهو يواجه الجموع:

«اللهم بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل». ما أجمل هذا الذكر! فيه التواضع، وفيه الفهم العميق لمعنى النعمة. أي شيء تفعله.. افعله بالله، لا بنفسك.

انقلاب الهزيمة إلى نصر في حُنين

في خضم الفوضى والارتباك الشديد الذي أصاب جيش المسلمين في غزوة حُنين، حين كان عددهم كبيراً، حيث بلغ اثني عشر ألف مقاتل، لم يبقَ مع النبي ﷺ حين تراجع الجيش كله إلا مائة فقط من الصحابة الكرام الذين ثبتت أقدامهم وثقل إيمانهم، ووقفوا إلى جانب الحبيب ﷺ في وقت الشدة.

من بين هؤلاء الذين ثبتوا: سيدنا علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث - وهو ليس «أبا سفيان بن حرب» زوج السيدة هند بنت عتبة، بل هو ابن عم النبي ﷺ - وغيرهم من الصحابة الذين اختارهم الله لتكون لهم هذه الوقفة العظيمة بجانب رسول الله ﷺ في أحد أعظم مواقف النصر والتربية.

هؤلاء هم من بقي، بعد أن قال الناس - وهم في طريقهم إلى المعركة - بكل ثقة ظاهرها الحماسة وباطنها العُجب: «لن نهزم اليوم من قلة!». فجاءهم الرد من السماء في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حيث قال الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ
شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ

مُدْبِرِينَ ﴿ [سورة التوبة: 25]

وفي تلك اللحظة، كان رسول الله ﷺ راجئاً بغلته، وهي دابة أبطأ من الحصان، ولكنه ﷺ ثابت شجاع لا يهتز، ينادي بكل قوة وإيمان: «إيَّ عباد الله! أنا رسول الله.. أنا النبي لا كذب.. أنا ابن عبد المطلب» يستنهض همم القلوب التي تفرقت، ويجمع الأرواح التي اضطربت.

ثم طلب من عمه العباس - وكان صاحب صوت جهوري قوي - أن ينادي على الناس بأسمائهم ويجمعهم، فقال له:

«أين الأنصار؟! أين أصحاب السمرة؟! أين أصحاب سورة البقرة؟!» (151).

«يا أصحاب سورة البقرة»، أي من حفظوا السورة الكاملة، 286 آية، و«أصحاب السمرة» هم من بايعوا تحت الشجرة في الحديبية، تلك البيعة التي رضي الله عنهم فيها، وقال:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

الشَّجَرَةِ﴾ [سورة الفتح: 18]

بدأ الصحابة يسمعون النداء، وتهتز قلوبهم، وتفيق أرواحهم، ويتحرك الإيمان في صدورهم، ويعودون بسرعة حول رسول الله ﷺ. وفي تلك اللحظة، نزل النبي ﷺ من على بغلته، وأخذ حفنة من التراب في يده الشريفة، وقال:

«شَاهَتِ الْوُجُوهُ» (152).

ثم رماها في وجوه الكافرين، فما من أحد منهم إلا دخل التراب في عينيه، فشلت حركتهم، ولشتت صفوفهم.

ثم رفع ﷺ يديه إلى السماء وقال في تضرع وانكسار وخشوع:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْشِدُكَ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْنَا» (153).

أي: يا رب، أسألك وعدك الذي وعدتني به، يا رب، لا تجعلهم يغلِبُونَنَا، ولا تُمَكِّنْ لَهُمْ عَلَيْنَا.

وفي تلك اللحظة المباركة، بدأ المسلمون يتجمعون من جديد حول نبيهم ﷺ، وبدأت الملائكة تنزل من السماء لتقاتل معهم.

وكانت رؤية المؤمنين للملائكة على هيئة ذر (نمل)، وأما المشركون فكانوا يرونهم على هيئة فرسان مدججين بالسلاح، فأصابهم الرعب.

وهنا ينزل الله آياته من فوق سبع سموات تأكيداً لما حدث:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ
أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْيَنَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ
اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ
تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

[سورة التوبة: 25 ، 26]

نزلت السكينة على قلب رسول الله ﷺ، وعلى قلوب المؤمنين، وبدأت جنود السماء تحارب مع جنود الأرض، وانقلبت الهزيمة إلى نصر، وتحول الخوف إلى طمأنينة.

وتنزل الجنود من الملائكة يحاربون مع سيدنا النبي ﷺ، ويلتف الصحابة مرة ثانية حول النبي ﷺ، ويفر جنود (هوازن) ويتركون عشرات الآلاف بل مئات

الآلاف من رؤوس الأغنام والأبقار والماشية والطعام والسلاح..
غنائم لا تُعد ولا تُحصى:

♦ مئات الآلاف من الأغنام.

♦ الأبقار.

♦ الإبل.

♦ الطعام.

♦ السلاح.

فأصبح وادي حُنين ممتلئاً بالغنائم التي لم يرَ الصحابة مثلها من قبل.

لكن بعد انتهاء القتال، بدأت تحديات النفوس، حيث إن حديثي الإسلام -
وكانوا قرابة 2000 - بدءوا يطلبون من النبي ﷺ أن يوزع الغنائم، وضغطوا عليه
حتى تراجع إلى الوراء، وتعلق رداؤه بشجرة فانخطف منه.

فقال ﷺ بكل صدق وكرم:

«لو أن لي مثل جبال تهامة ذهباً لقسمته بينكم ، ثم لا تجدوني كذوباً ولا
بخیلاً» (154).

(تهامة): مكان مشهور بكثافة الأشجار وكثرة الذهب.

ثم أتى إليه حكيم بن حزام - وكان لا يزال حديث عهد بالإسلام - فقال: «يا رسول الله، أعطني». فأعطاه.. ثم قال: «أعطني». فأعطاه.. فقالها للمرة الثالثة، فأعطاه ﷺ، ثم قال له:

«يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَصْرَةٌ حُلُوءٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ،
وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ» (155).

(سخاوة نفس): أي من غير طمع ولا تلهف. (إشراف نفس): أي من طلبه
بنهم وجشع.

وكان النبي ﷺ يُرَبِّيْ النفوس حتى في لحظات الفرح والغنيمة.

ثم أتى إليه أبو سفيان بن حرب، فقال: «أريد من هذه الأغنام». فأعطاه ﷺ
100 بعير، ثم طلب المزيد، فأعطاه 100 أوقية من الفضة، ثم طلب عطاءً لابنه
معاوية، فأعطاه 100 أوقية أخرى، ثم قال: «ابعث معي أحداً يحملها». فرد عليه
النبي ﷺ بقوله:

«بل احملها أنت يا أبا سفيان» (156).

وكانها دعوة لتحمل المسؤولية بنفسه. وفي موقف مذهش:

«أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ» (157).

فانطلق الرجل إلى قومه وهو يلتفت وراءه، يظن أن الناس ستلحقه لتتقاسم معه، لكن لم يلحقه أحد.

فأسرع إليهم قائلاً: «أي قوم، أسلموها! فوالله إن محمداً ليعطي عطاءً من لا يخاف الفقر!». وهنا يقول العلماء: من الذي لا يخاف الفقر أبداً؟ الله سبحانه وتعالى! فرسول الله ﷺ كان يعطي عطاءً من يعلم أن خزائن الله لا تنفد، وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، فكان يُنفق وهو على يقين أن ما عند الله لا ينقص.

كيف ينبغي أن تكون علاقتنا بالمال؟

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [سورة الفجر: 20]

وهنا نُخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن حقيقة أصيلة في النفس البشرية؛ وهي أن حب المال حباً شديداً أمرٌ غريزيٌّ فطريٌّ.

فالإنسان بطبعه يميل إلى المال؛ لأنه يرى فيه وسيلة الإنجاز، وتحقيق الاحتياجات، ويظن أن في المال أماناً وسنداً... وهذا لا يُلام عليه الإنسان؛ لأنه من طبيعته التي خلقه الله عليها.

لكن! حين تسير في طريق الله، وتعرف الله حق المعرفة، تتغير نظرتك للمال، وتتحول من «تعلق مضطرب» إلى «تعلق آمن».

ماذا يعني «تعلق آمن»؟

يعني أنك تسعى وتجتهد وتكسب، ولكن قلبك مرتبط بالله لا بالمال. تعرف أن خزنتك الحقيقية ليست في البنك... بل في السماء، عند الله. تعرف أن الرزق منه، وإن ضاق عليك الحال، فالله هو الكفيل بك، المدير لشأنك، القادر على أن يُبدلك خيراً في طرفة عين. وإن أُغدق عليك المال... فلا تغتر، بل تقول:

«اللهم اجعلني عبداً شاكراً لهذا الفضل، ولا تجعلني عبداً للمال».

أما من لم يتعلم هذا «التعلق الآمن»، فإنه يقع في «التعلق غير الآمن»، وهو التعلق المَرَضِي بالمال، ويصبح إنساناً طماعاً، جشعاً، قلقاً دائماً، حتى وإن كان في جيبه ملايين. لماذا؟ لأنه يخاف من زوالها، أو نقصانها، أو أن تؤخذ منه بأي وسيلة. وقد يسعى لجمع المال من أي طريق: من شخص غني، أو من مصلحة، أو من تملق... ثم بعد أن يجمع المال، يظل في قلق وخوف، فيتحول إلى إنسان بخيل، مغلق، لا يعطي، ولا يطمئن!

وهنا وصفه الله في القرآن: « جموع منوع » في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [سورة المعارج: 21]

يجب جمع المال، ويمنع العطاء، فلا بركة في ماله، ولا راحة في قلبه. ولأن النبي ﷺ هو أعظم مربٍّ عرفته البشرية، أراد أن يُنير الطريق لأصحابه في علاقتهم بالمال، ويضع لهم قاعدة تُنقذهم من هذا التعلق القاتل.

فقال في كلماته النورانية التي تُشعُّ فهماً وطمأنينة:

«إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُوْرِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ» (158).

وسخاوة النفس معناها: أنك تأخذ المال وأنت مطمئن بالله، لا جشع في قلبك، ولا فزع إن لم تأخذ أكثر. تأخذ وتقول: «الحمد لله، هذا رزقي، وإن زاد فبفضل الله، وإن لم يأت أكثر، فالحمد لله على الكفاية». أما إشراف النفس، فهو الجشع، والنظر إلى المال كأنه «كل شيء»، وتأخذه وأنت قلق ألا يكفيك، أو ألا يتكرر، أو ألا يزيد... وهنا لا بركة، حتى لو كثر المال بين يديك. فالنبي ﷺ علمهم - ويعلمنا - كيف تتعامل مع المال بمنظور إيماني:

أن نسعى... نعم..

أن نكسب... نعم

لكننا لا نَعْلَقُ أماننا وأرواحنا به، بل بالله سبحانه وتعالى، الذي خزائنه لا تنفد أبداً.

جبر النبي ﷺ للأنصار

عندما عاد رسول الله ﷺ بعد المعركة، أعاد إلى صفوان بن أمية الدروع التي أخذها منه قبل القتال، وكانت تنقص نحو عشرين درعاً. ومع ذلك، أغدق النبي ﷺ عليه من الغنائم عطاءً عظيماً، حتى قال صفوان كلمة خالدة صادقة من قلبه:

«رجع محمد وهو أبغض الناس إلى قلبي، فما زال يعطيني ويعطيني، حتى صار أحب الناس إلى قلبي».

وفي موقف مؤثر آخر، كان النبي ﷺ يسير وسط الغنائم التي ملأت الأرض، وكانت أنعاماً وأغناماً ورعاة ينتشرون في الأودية، وكان صفوان يسير إلى جانبه، فنظر إلى أحد الشعاب وقد امتلأ بالخيرات... نظر مطولاً، والنبي ﷺ يراقبه بعينه الرحيمة، فقال له:

«أبا وهب، يعجبك هذا؟ قال: نعم. قال: هو لك. فقال: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله» (159).

أسلم صفوان في تلك اللحظة؛ لأنه أيقن أن هذا ليس عطاء بشر... بل عطاء نبي يوحى إليه الرحمن. وفي موقف إنساني آخر عظيم، كان هناك رجل يدعى أبا درهم

الغفاري، وأثناء سيره بجوار النبي ﷺ وسط الزحام، داس على قدمه الشريفة، وكان ينتعل نعلًا خشبًا صلبًا، فتألم النبي ﷺ من وطأته، وليذّبه، خبطه النبي ﷺ بعضًا صغيرة في يده، وقال:

« بسم الله، أوجعتني » (160).

رجع أبو درهم تلك الليلة وهو مهموم، يلوم نفسه بشدة، ويقول: « كيف أوجعت رسول الله ﷺ؟ ». فلما طلع الصباح، سمع أن النبي ﷺ يسأل عنه، فازداد خوفًا وظن أنه سيعاقبه. لكنه فوجئ عندما رآه، أن النبي ﷺ يعطيه ثمانين نعمة، ويقول له بلطف عظيم:

«إنك وطئت بنعلك على رجلي بالأمس فأوجعتني، فنفحتك نفحة بالسوط فهذه ثمانون نعمة نخذها بها» (161).

فقال أبو درهم بكلمات تقطر حبًا ونجلاً: «فوالله، رضاه عني أحب إليّ من النعاج». ما أعظمك يا رسول الله! رضاك عندي أغلى من الدنيا وما فيها.

لكن وسط كل هذا الكرم، كان هناك من تألم... الأنصار، أهل المدينة المنورة، رأوا النبي ﷺ يوزع الغنائم على من دخلوا في الإسلام حديثاً من قريش وغيرها، فقال بعضهم في غصة: «وجد رسول الله ﷺ أهله!». يعني: لقد عاد إلى قومه وأهله، وأغدق عليهم وتركنا. وبلغت هذه المقولة رسول الله ﷺ، فطلب سعد بن عبادة، سيد الخزرج، وسأله بحنان وصدق:

« فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ » (162).

قال سعد: «يا رسول الله، إنما أنا رجل من قومي». أي: ما يشعرون به أشعر به أيضاً، فأنا منهم.

فطلب منه النبي ﷺ أن يجمع له الأنصار، فجمعهم له في مكان لا يراه فيه أحد، ثم دخل عليهم ﷺ، وقال بحزن ممزوج بالحكمة:

«يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَذَا كُمُ اللَّهِ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَا كُمُ اللَّهِ؟ وَأَعْدَاءُ فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟» (163).

فقالوا بصوت خافت باكٍ: «المنة لله ولرسوله».

فقال لهم النبي ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم وصدقتكم!»!

قالوا: «وما نقول يا رسول الله؟!».

قال: «جئنا طريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك، وخائفاً فأمنَّاك، ومخذولاً فنصرناك». فبكى الأنصار عند سماع ذلك، وقالوا بإخلاص: «لله المنة ولرسوله».

فقال لهم النبي ﷺ من أعماق قلبه: «أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَّلْتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟».

أي: هل حزنتم على بعض الأغنام والمال التي أعطيتها لقوم حتى يستقر إسلامهم، بينما أنا واثق في قلوبكم التي امتلأت إيماناً؟!

ثم قال لهم كلمته التي هزت القلوب: «أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ إِلَى رِحَالِهِم بِالشَّاءِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ؟!»،

الناس ترجع بالغنائم... وأنتم ترجعون بحمد ﷺ! ثم أقسم وقال:

«فوالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ» (164).

ثم قال لهم كلاماً يُقال في الحب الصادق:

«الأنصار شعار، والناس دثار». (الشعار: الثوب الملاصق للجسد، والدثار: ما فوقه). أي: أنتم الأقرب إلى قلبي، أنتم أهلي وروحي. ورفع يديه الشريفتين إلى السماء وقال:

«اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ!».

فبكى الأنصار، واخضلت لحاهم بالدموع - أي ابتلت - وقالوا في خضوع وفرح: «رضينا برسول الله قسماً وحظاً».

اسمح لمن أمامك أن يشرح سبب غضبه

موقف مراعاة النبي ﷺ للأنصار بعد أن غضبوا من تقسيم الغنائم، موقف مليء بالنور والرحمة والرفق... درس عظيم من دروس النبوة في فن الاحتواء وفهم النفوس.

فالإنسان عندما يغضب وهو يشعر أنه ليس من حقه أن يغضب، يصاب بشعور قاس جداً... يشعر بالذنب، بالإحباط، بالضعف، وتبدأ (الزعة) تكبر داخله، وتتحوّل ببطء إلى كتمان، ثم عصبية، ثم انفجار في لحظة لا يتوقعها أحد!

والأنصار رضي الله عنهم لم يكن لهم حق شرعي في غضبهم، فالنبي ﷺ لم يقصّر معهم، ولم يفضل عليهم أحداً ظلماً. لكن الله، برحمته الواسعة، أعطاهم حقهم في أن يعبروا عن مشاعرهم، أن يخرجوا ما في قلوبهم... لأن الحزن الصادق، حتى لو لم يكن في محله، يحتاج إلى من يسمعه ويقدره.

فلما قالوا: «وجد رسول الله أهله» يعني: رجع إلى قومه وأعطاهم، وتركنا نحن... قالوها بوجع داخلي، مع أنهم يعرفون أن النبي ﷺ لا يخطئ في العدل، لكنه ﷺ أعطى الغنائم لكسب قلوب حديثي الإسلام - الذين أسلموا بالأمس، وخاضوا معركة اليوم - فأراد أن يثبتهم ويحببهم في الإسلام بالعتاء.

فلما سمع النبي ﷺ ذلك، ما غضب ولا لامهم ولا أنكر عليهم... بل طلب أن يجتمعوا له، وقال قولته النورانية التي غيرت كل شيء:

« أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ
رَسُولَ اللَّهِ فِي رِحَالِكُمْ؟! » (165).

وهنا حدثت إعادة إدراك داخلية عند الأنصار... كيف نتكلم نحن في هذا الأمر، والنبي ﷺ بيننا؟! ولكنه ﷺ لم يوقفهم، لم يسكتهم، بل جلس معهم، وبدأ يشرح، ويوضح، ويبين القصد. يا الله!

النبي يشرح لمن وجد شيئاً في نفسه منه ﷺ! رغم أنه الأعلى مقاماً، وهو الموجع من كلامهم، لكنه لم يغلق الباب... بل فتح قلبه، واحتوى قلوبهم.

وهذه هي العظمة النبوية... أن تُشعر الغاضب أو الحزين بأن له مكاناً، بأن له احتراماً، حتى لو أخطأ. أن تستمع إليه، وتطلب منه أن يشرح، وترد عليه برحمة... وهنا، بكى الأنصار. بكوا لأنهم شعروا بأن مشاعرهم مسموعة ومقدّرة، وبأن حبيبهم النبي ﷺ لم يغضب، بل تفهم حزنهم وقدره.

وهذه هي الحقيقة: أن الحزن، حتى لو لم يكن له مبرر كبير، هو شعور يستحق الاحتواء لا الرفض. فكثير من الحزن يكون سببه:

◆ فهمًا خاطئًا.

◆ حساسية زائدة.

◆ تعجلاً في التفسير.

◆ أو تراكمات نفسية لم تُقل.

لكن من يكبر في داخله بحق، هو من يوسّع صدره، ويحتوي الطرف الآخر.

كم من علاقات كانت ستحيا وتستمر، لو كان أحدهم قال للآخر:

«افهمني... احك لي زعلك... قل لي لماذا شعرت بذلك؟!».

لأن التعبير عن «الزعل»، ليس ضعفاً، بل هو دليل اهتمام. من يُخبرك أنه متألم منك، فهو لا يزال يهتمه أمرك، ولو لم يكن كذلك لصمت وابتعد.

فلا تقل: «ليس من حقك أن تزعل»، بل قل: «أشرح لي... وفهمني... وأنا أشرح لك وجهة نظري».

والنتيجة؟ يخرج الطرف الآخر، وهو أقرب إليك مما كان، وأكثر حبا وثقة بك.

وهكذا كان النبي ﷺ

في كل موقف... نور. في كل كلمة... رحمة. في كل تصرف... قدوة.
اللهم اجعل في بيوتنا من نور النبي ﷺ، ومن حكمته، ومن حلمه ورحمته.

اللهم صلِّ صلاةً كاملةً وسلِّم سلاماً تاماً على نبي
تخل به العُقد، وتنفرج به الكرب، وتقضى به
الحوائج، وتنال به الرغائب وحسن الخواتيم،
ويُستسقى الغمام بوجهه الكريم، وعلى آله.

اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت،
وتولنا يا ربنا فيمن توليت، وبارك لنا بعطائك فيما
أعطيت، وقنا واصرف عنا يا كريم شر ما قضيت
يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين.



(144) رواه الطبراني.

(145) رواه البخاري.

(146) رواه أبو داود.

(147) رواه أبو داود.

(148) رواه أبو داود.

(149) رواه الترمذي.

(150) رواه الحاكم.

(151) رواه مسلم.

(152) رواه أحمد.

(153) رواه البيهقي.

(154) رواه الطبراني.

(155) رواه البخاري.

(156) ورد في الأثر.

(157) رواه مسلم.

(158) رواه البخاري.

(159) رواه الذهبي.

(160) رواه الدارمي.

(161) رواه الدارمي.

(162) رواه أحمد.

(163) رواه أحمد.

(164) رواه أحمد.

أحداث صعبة في بيت رسول الله ﷺ

ميلاد إبراهيم ابن النبي ﷺ وخوف النبي ﷺ على أهله من الدنيا

لقد وصلنا الآن إلى السنة التاسعة بعد هجرة النبي ﷺ، حيث بلغ عمره الشريف اثنين وستين عاماً، وكانت هذه السنة مليئة بالأحداث الهامة التي تركت بصمات خالدة في تاريخ الإسلام.

أول تلك الأحداث كان مجيء مالك بن عوف، وهو زعيم قبيلة هوازن، الذي خرج بجيوشه في معركة حنين بنية غزو مكة بعدما فتحها النبي ﷺ. وبعد أن بعث له النبي ﷺ برسالة واضحة تقول:

«أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله» (166).

أي أن النبي ﷺ وعده بأنه إذا جاءه مسلماً فإنه سيعيد له كل أمواله التي خسرها في الحرب، وأفراد قبيلته الذين أخذوا أسرى، وقد خرج مالك بكل ما يملك من رجال وعتاد حتى يخيف المسلمين ويكبر حجم الجيش في نظرهم. وبالفعل، عندما جاء مالك وأسلم بين يدي النبي ﷺ، رد عليه النبي ﷺ أمواله وأهله وأهداه مائة ناقة هدية كرم وودٍّ ورحمة، فكان ذلك دليلاً جلياً على أن النبي ﷺ هو هادٍ وداعٍ إلى الله، فلا يهيمه العداة أو القتال إذا كان الخصم قد تاب وارتدع عن الباطل و الاعتداء، بل كأنما كان يقول له بلسان حاله: خذ كل ما في الدنيا، ولكن اجتهد في طريق الله وقل له: يا رب، أنا تائب إليك.

وفي هذه السنة المباركة، أنجبت السيدة مارية القبطية، زوجة النبي ﷺ التي أهداه إياها المقوقس عظيم مصر، ابنه إبراهيم، وهو آخر أبناء النبي ﷺ، فغمرت الفرحة قلب النبي ﷺ وملأته سروراً لا يوصف، وقد رتب النبي ﷺ لإسكان السيدة مارية في مكان بالمدينة يُعرف باسم «العالية»، وهو موقع مليء بالخضرة النضرة، مناسب لها وليئتها التي جاءت منها في مصر؛ بلد الخصب والزرع.

ومن بين الأحداث الجوهريّة في السنة التاسعة من الهجرة: بدأ المسلمون من القبائل المختلفة التي أسلمت بإرسال زكاة أموالهم إلى النبي ﷺ ليديرها ويُقسمها وفقاً لمقاصد إقامة الدولة الإسلامية وعنايةً بأهلها. وكان النبي ﷺ يرسل عمالاً وموظفين مثل الرسل لجمع هذه الزكوات، ومن هؤلاء الصحابة كان رجلاً يدعى ابن اللثبية، الذي ذهب ليجمع الزكاة وأعطوه مع الزكاة هدايا شخصية، وعندما رجع إلى النبي ﷺ قال له: «يا رسول الله، هذه أموالكم وهذه لي». فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً، لأنه كان يدرك حساسية هذه الوظيفة التي تتعلق بالمال العام والتي قد تحمل في طياتها شبهة الفساد والاختلاس. فقال له النبي ﷺ:

«فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَيْكَ وَأُمِّكَ، حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ» (167).

أي لو كنت غير موظف في الشأن العام وجالساً في بيت والديك لما جاءت إليك هذه الهدايا التي تبعث الشكوك!

ثم ارتقى النبي ﷺ المنبر وقال كلمات لا تنسى: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّيَنِي اللَّهُ، فَيَأْتِيَنِي فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ، وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئاً بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا عَرَفَنَّا أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيراً لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةً تَعِيرُ. ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ بَصَرَ عَيْنِي وَسَمِعْتُ أُذُنِي). أي أن كل مال يؤخذ بغير حق، سيأتي صاحبه يوم القيامة حاملاً إياه على كتفيه، وهكذا ترك النبي ﷺ وصية عظيمة لكل من يود أن يخدم وطنه وأُمته الحبيبة.

وفي نفس السنة، وصل إلى النبي ﷺ عن طريق الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح أموال كثيرة من البحرين. وعندما شاهدها الصحابة بعد صلاة الفجر، تملّكهم الحماس وطلبوا من النبي ﷺ أن يقسم عليهم هذه الأموال على الفور، لكن النبي ﷺ ابتسم لهم، وقال لهم بكل حكمة:

«فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تَبْسُطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بَسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ» (168).

يعني أنه لا يخاف عليهم من ضيق في الرزق أو نقص، لكنه يخشى عليهم فتنة الدنيا وغرورها التي قد تلهيهم وتفرق قلوبهم، كما حدث لأُمم سابقة أفسدها التنافس على المال والسلطة.

وكان النبي ﷺ على علم بأن رحيله عن هذه الدنيا بات قريباً، بعد عام وعدة شهور، لكنه كان حريصاً على أن يترك لنا قواعد صلبة لنعيش بها حياة متماسكة، وأن الأزمات المالية ليست دائماً سبب الشقاق والضعف، فقد تكون الأوقات الصعبة هي التي تُعمّق أواصر المحبة والتكاتف بين الناس، بينما في أوقات اليسر والرخاء قد تتدلع الخلافات في حياتنا حول النعم وتفصيل تافهة لا تسمن ولا تغني من جوع.

فكان تحذير النبي ﷺ عميقاً ورقيقاً في أن ينهنا إلى أن خطورة الدنيا ليست في قلة المال، بل في انشغال القلب بها.

كيف تتعامل مع المال في ضوء الهدي النبوي؟

موقفان لهما علاقة بـ(المال)

الموقف الأول: ابن اللّتيبة وجمع الزكوات والصدقات

في هذا الموقف، نرى الرجل المسئول عن جمع الزكوات والصدقات، وهو الصحابي ابن اللّتيبة، الذي واجه اختباراً بالغ الصعوبة، فحين أئته هدايا ورجح من وظيفته، لم يكن هذا ربحاً مشروعاً، وإنما كان مكسباً بغير حقٍّ، لا يستند إلى

الاجتهاد ولا إلى حقّ الناس الذي هو من صميم عمله. وهذا الموقف يمثل امتحاناً لكل من يعمل في مواقع تتعلّق بأموال الناس؛ حيث يُختبر الإنسان في مدى أمانته ونزاهته، وهل يلتزم بحقوق الآخرين ويتعدى عن التبرّح بغير وجه حقّ.

وأنا أذكر نفسي وكل من يقرأ هذه الكلمات بأن الأرزاق مكتوبة عند الله تعالى، فالذي قدره الله لك سيأتيك مهما كانت ظروفك ضعيفة، ولن تأخذ شيئاً ليس لك مهما بلغت من قوة أو جاه؛ لذا فلتكن طاعتك وصدقك في العمل، ولا تغتر بأن تكتسب من وظيفتك على حساب الحقوق؛ لأن النبي محمدًا ﷺ قد حذّر ابن التّبيّة وأعطاه نصيحة عظيمة، وأوضح له أن هذه المكاسب غير المشروعة طريق إلى الخطيئة والعذاب.

الموقف الثاني: مال البحرين وأثر الثراء على القلوب

أما الموقف الثاني فهو المال الذي وصل إلى النبي ﷺ عن طريق الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح، من منطقة البحرين، وهنا نجد كلمات النبي ﷺ الحكيمة التي قال فيها: «ما الفقر أخشى عليكم»، فهذه الكلمات تعبر عن حقيقة قد نغفلها كثيراً في حياتنا، فالفقر، رغم ما يعاينيه، قد يكون فقره في كثير من الأحيان سبباً للتآلف والوحدة بين أفراد الأسرة، حيث يتقاسمون لقمة واحدة، ويشترون في كل شيء بحب وتضامن.

لكن النبي ﷺ حذرنا بقوله: «إنما أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا»، بمعنى أن الخطر الحقيقي لا يكمن في الفقر، بل في الوفرة والرخاء، حيث تبدأ النفوس تتغير، وتظهر الخلافات حول تفاصيل ومقتنيات الدنيا أو الميراث، والتنافس على المراكات والسيارات، وتفقد العائلات ترابطها ومودتها.

لذلك، عندما يوسع الله علينا ويرزقنا بسعة، علينا أن ننتبه لقلبنا، ذلك القلب الذي قد يميل إلى الطمع والغيرة، ويبحث عن المزيد، وربما يغفل عن شكر المنعم الحقيقي. فالنعمة إذا لم تُحافظ عليها بحرص، قد تكون سبباً في التفرقة والخصام، لا في الوحدة والمحبة. وقد رأينا كثيراً من العائلات، والزوجات، والأصدقاء الذين فرقت بينهم الوفرة، لا الفقر.

فاحذري يا من رزقك الله رزقاً واسعاً أن تترك قلبك ينشغل بالمال والنعمة، وحافظ على علاقتك بمن أنعم عليك، وذكر نفسك دائماً بأن السر في السعادة والترابط والأخوة ليس في كثرة المال، بل في توحيد القلوب والمحبة التي لا تهتز مهما كثرت النعم.

وفود مهمة لرسول الله ﷺ

في السنة التاسعة من الهجرة، وقعت قصة جميلة وعظيمة تعبّر عن رحمة الله وفضله وكرمه، وهي قصة الصحابي الجليل صعصعة بن ناجية المجاشعي رجل من العرب كان قبل الإسلام معروفاً بخيره وأعماله الطيبة رغم أنه كان في الجاهلية، فهل يُحتسب له هذا الخير ويُضاف إلى حسناته بعد إسلامه؟

حين جاء صعصعة إلى النبي ﷺ، وسأله النبي عن الخير الذي كان يفعله في الجاهلية، أجابه: «يا رسول الله، أضللتُ ناقتين لي عشراوين»، أي ناقتين ضخمتين جداً وحاملتين، لكنهما ضلّتا في الصحراء. فظل يتتبع أثرهما حتى وصل إلى بيت في الصحراء، فسأل أهل البيت: «هل أحسستم ناقتين عشراوين؟». فأجابه صاحب البيت: «نعم وجدنا الجملين، ولكننا بغناهما؛ لأننا لم نكن نعلم صاحبهما، وعندما وصلنا المال أنقذتنا هاتان الناقتان من المجاعة؛ فقد كنا في ضيق شديد».

وأثناء حديثهم، جاءت امرأة لصاحب البيت تقول له: «أبشر؛ فقد وُلد لك مولودٌ». فكان رده قاسياً، قال: «إن كان ولداً فأكرميهِ، وإن كانت بنتاً فادفنيها». فقد كانت تلك العادة السيئة تُمارس في الجاهلية، حيث تُقتل البنات في ظل الجهل والقسوة. فوقف صعصعة وقال له: «انتظر، هل تسمح لي أن أشتري ابنتك؟». فرد الرجل: «لا، حتى لا يتحدث العرب بأنني أبيع ابنتي». فقال له: «لن أشتريها، ولكنني أفدي روحها، فلا تقتلها». فسأله: «بكم؟». فأجابه: «بثمن الجملين اللذين بعتهما». فطالبه الرجل بثن الجمل الذي يركبه أيضاً طمعاً فيه، فأكد له صعصعة: «هل ترسل معي أحداً إلى بيتي وسأبعث له هذا الجمل أيضاً؟». وتم الاتفاق فعلاً.

فقال صعصعة للنبي ﷺ: «والله يا رسول الله، لقد أعتقت ثلاثمائة روح موءودة بثلاثمائة ناقة، فهل أُؤجر على ذلك؟». فأجابه النبي ﷺ بخنان ورحمة:

«هذا باب من البر ولك أجر إذا منَّ الله عليك بالإسلام» (169).

وهكذا أصبح الرجل مسلماً، والنبي ﷺ يضع لنا قاعدة عظيمة أن كل خير كان للإنسان في الجاهلية يُحسب له بعد الإسلام، كما قال ﷺ:

«نَحْيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا» (170).

أما الموقف الآخر في هذه السنة، فقد جاء وفدٌ من قبيلة بني أسد إلى النبي ﷺ بكامل قبيلتهم، وقالوا له: «يا محمد، جئناك نبايعك ولم تُرسل إلينا جيشاً». وكانهم يتباهون بأنهم أسلموا دون قتال، مقارنةً بقريش وغيرها من القبائل التي قاتلت. فنزل القرآن يرد عليهم بقوله تعالى:

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا مَعَكُمْ
بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿ [الحجرات: 17]

وهذا تذكير واضح أن الإسلام هو نعمة عظيمة وهبة من الله سبحانه وتعالى، أن يهدي قلوب الناس له بدون قتال أو عناء، فقط؛ لأنهم سمعوا وصدقوا برسالة النبي ﷺ، وهذه الآية تُذكر كل من وجد قلبه مع الله تعالى أن يقف بين يدي هذه النعمة ويشكرها بصدق وإخلاص.

قصة صمصعة بن ناجية المجاشعي

صمصعة بن ناجية المجاشعي، قد يكون اسمه غير مألوف للكثيرين، لكنه كان من أعظم الصالحين، ومن الأشخاص الذين كانت لهم مكانة رفيعة عند الله، رغم أنه كان في الجاهلية مشركاً، وقبل إسلامه، كان يقوم بأعمال خير عظيمة، ومن أشهر تلك الأعمال أنه كان يشتري أرواح البنات الموءودة؛ أي ينقذ البنات اللاتي كانت عادات الجاهلية تُجبر على دفنهن أحياء بسبب الجهل والقسوة ورفض خلفه البنات.

تذكر القصة كيف أن الرجل الذي كان يسأل أهله بعد الولادة: «إن كان ولداً فأبقوه، وإن كانت أنثى فإدوها» أي «ادفوها حية» بهذه السهولة والقسوة التي كانت سائدة. وعندما تدخل صعصعة، عرض أن يشتري الجملين اللذين باعهما الرجل مقابل ألا يقتل ابنته، ولم يكتف بذلك، بل دفع أيضاً الجمل الذي كان يركبه الرجل، فوافق الأخير على ذلك. وما زاد الأمر عظمة هو أن صعصعة كرر هذا الفعل ثلاثاً مرّة، محرراً بذلك ثلاثاً روح كانت مهددة بالموت.

وعندما أسلم، ذهب ليسأل سيدنا محمداً ﷺ عن هذه الأعمال التي كان يفعلها قبل الإسلام، وهل سيكافئه الله عليها؟ فأجابه النبي ﷺ بما يحمل أعظم معاني الرحمة والعدل:

«أَسَلِّتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ» (171) .

أي إن الله يضيف الحسنات التي فعلها في الجاهلية إلى ميزان حسناته بعد إسلامه، ويغفر له سيئاته. وكان يقول ﷺ أيضاً: «نَحْيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَتُّهُوا»، دلالة على أن من كان صالحاً في الجاهلية، إذا فهم الإسلام وأدركه، سيظل خيراً وله منزلة عظيمة في دينه الجديد.

هذا يعلمنا أن الله لا يضع أجر من أحسن عملاً ولو كان في حالة الجهل أو قبل الإسلام، فليطمئن قلبك مهما كانت ظروفك، فكل لحظة تعمل فيها خيراً، الله يراك ويحسبها لك، ويُجازيك عليها.

• وفد بني أسد والآية الكريمة

أما بالنسبة للوفد الذي جاء إلى النبي ﷺ من قبيلة بني أسد، وكأنه يطلب شكر النبي لهم على أنهم أسلموا دون أن يحاربهم، فجاء الرد الرباني في كتاب الله سبحانه:

﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: 17]

وهذه التذكرة العميقة التي تدعونا لتأملها: المَنُّ على الله هو ظلم لقلب الإنسان، كما يقول ابن عطاء الله: (كفى في جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً). أي أنه يكفيك أن الله ارتضاك عبداً له.. هذا فضل كبير من الله، فهل فكرت يوماً ما جزاء الله لك على صلاتك؟ الجزاء أن الله قد سمح لك أن تقوم له ، وتقف بين يديه، على كل ما في قلبك من ضعف وخطايا، ومع ذلك يقبل عليك بوجهه الكريم، يغفر لك، ويرحمك. وعندما تتصدق، فالله سبحانه هو الذي مَنَّ عليك بأن تستعمل مالك في خدمة عباده، فتكرم الضعفاء، وتزرع الخير في الأرض ثم يخلف عليك هو من كرمه عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف.

وهذه هي الجائزة الحقيقية، ليست في المال أو المنصب، بل في أن الله استعملنا فيما يرضيه، وأعطانا فرصة أن نكون من عباده الصالحين. فهذه النعمة الكبرى التي تستحق أن نحمد الله عليها كل يوم، ونتذكر أننا نعيش تحت ستر رحمته وحكمته.

موقف هجر النبي ﷺ لزوجاته

في سنة تسع من الهجرة، حدث موقف عميق يحمل في طياته إنسانية عظيمة من حياة نبينا محمد ﷺ، إذ أصابه ضيق وحزن من زوجاته، فابتعد عن بيته مدة الشهر تقريباً، لأسباب متعددة مذكورة في كتب السير والتفسير. ومن أهم تلك الأسباب، أن زوجاته اجتمعن عليه لزيادة النفقة على البيت، وهو أمر لم يكن النبي ﷺ قادراً على تلبية في ذلك الوقت؛ إذ كان يُنفق على المحتاجين من الناس قبل أن يطلب شيئاً من أصحابه، وكان المجتمع لا يزال في طور التأسيس وبناء الدولة، وهناك الكثير من الفقراء والمحتاجين الذين كانوا يتوافدون ليعيشوا حول النبي ﷺ، يتعلمون منه ويشاركون في بناء هذا المجتمع الجديد، وكانوا يُعرفون بـ(أهل الصفة). كان عدد هؤلاء في أحيان كثيرة يصل إلى سبعين، وأحياناً يتجاوز الأربعمائة، وكانوا يجلسون في منطقة قرية من بيت النبي ﷺ داخل المسجد النبوي الشريف، تُعرف بمنطقة أهل الصفة، على سُلّم صغير هناك.

ويحكى لنا سيدنا عمر رضي الله عنه موقفاً يفيض بالحبّة والاحترام للنبي ﷺ، حيث يقول: (كنت أنا وجاري من الأنصار نتناوب على خدمة النبي ﷺ، يوماً أنزل أنا للنبي ويغطي هو عملي في البستان، ويوماً ينزل هو ويجلس مع النبي ﷺ في المسجد يطلع على أخبار الوحي ويخبرني بها وأنا أعمل في البستان مكانه). لم أترك عملي، بل حافظت على دوام الحياة وبناء الأوطان، وظللت متابعاً لما ينزل على رسول الله ﷺ، وهذا ما أقرّه النبي ﷺ بنفسه بأن يبقى كما هو في عمله (يوم ويوم) حتى لا تتوقف عجلة الحياة وبناء الأوطان.

ثم يكمل سيدنا عمر كلامه عن تغير كبير حصل في المجتمع، فيقول: (وكنا ونحن في مكة قوم نغلب نساءنا، فإذا جئنا إلى المدينة إذا هم قوم تغلبهم نساءهم). كما في مكة نغلب نساءنا، ونهيمن عليهن، لكن بعد الهجرة إلى المدينة صار للمرأة رأي، وصار لها حق في التعبير والرد، وصارت تراجع الرجل، حتى نساء النبي ﷺ كن كذلك، يراجعنه ويناقشنه، ويخاصمنه أحياناً.

ويستطرد فيقول: «صحت على امرأتي في يوم، فردت علي، ففزعت من هذا، وقلت لها أتراجعيني؟ ولكنها قالت لي: (أتكر أني أرد عليك؟! إن أزواج النبي يراجعنه، وإن إحداهن تهجره اليوم حتى الليل). ففزع سيدنا عمر وقال: (خابت وخسرت من فعلت هذا). فانطلق عمر رضي الله عنه مسرعاً إلى حفصة بنته و زوجة رسول الله ﷺ يعاتبها قائلاً: (يا حفصة، أتراجعين رسول الله وتهجرينه من الصباح حتى الليل؟). قالت: (نعم).

قال: (يا حفصة، لا تفعلي ولا تكثري على رسول الله، ألا تخافين أن يغضب الله لغضب رسول الله؟ يا بنيتي، إن احتجت شيئاً لا تكثري على رسول الله فاسأليني)..
و وقتها كانوا جميعاً في توتر وانتظار، وكانت الأخبار تتردد عن استعداد قبيلة غسان الكبيرة لغزو المدينة، حيث ارتدى مقاتلوها لباس القتال، ولم يبقَ لهم إلا أن يلبسوا النعال ويأتوا لمحاربة المسلمين.

و ذات يوم، جاء شريك سيدنا عمر إلى منزله يطرق الباب بشدة، فخرج عمر مفزوعاً، سائلاً: «هل جاءت غسان؟». فأجابه: «لا، الأمر أشد». فسأله عمر: «ما هو؟». فقال: «طلق رسول الله ﷺ زوجاته!».

شعر عمر - بسبب حبه لرسول الله - أن هذه الكلمات كانت أشد من خطر الغزو، وذهب سريعاً إلى حفصة معاتباً إياها على ذلك و سألها: هل طلقك رسول الله؟ فردت عليه: «والله لا أعلم».

ثم توجه عمر إلى المسجد، حيث وجد رجالاً يكون عند المنبر، ورأى النبي ﷺ جالساً في غرفة صغيرة منع دخولها على أحد، فطلب الإذن بالدخول، فأذن له النبي ﷺ بعد عدة محاولات.

دخل عمر فرأى النبي ﷺ متكاً على حصير قد أثر على جنبه، فسأل النبي ﷺ قائلاً: «السلام عليك يا رسول الله.. هل طلقت زوجاتك؟».

فأشار النبي ﷺ بالنفي وقال: «لا».

فأجاب عمر مستبشراً: «الله أكبر».

وهكذا يظهر لنا هذا الموقف الجانب الإنساني لرسول الله ﷺ سيدنا محمد ﷺ، الذي بالرغم من عصمته وعظمته، كان يمرُّ بتجارب ومشاعر مثلنا، وكانت له أسرته التي تحبُّه وتضايقه أحياناً، ويحيط به صحابة يحبونه ويخافون عليه.

ومع كل هذا، كان النبي ﷺ يحمل في قلبه الرحمة، والصبر، والحكمة، ويعلم أن الحياة لا تخلو من محن.

هذا الدرس العظيم يعلمنا أنه حتى أعظم البشر لهم لحظات ألم وضييق، وأن الأسرة الإنسانية قد تعيش أوقاتاً صعبة، ولكن بالحب والتفاهم تثمر العلاقات وتتجدد الأواصر، وأن النبي ﷺ كان الإنسان القدوة في الصبر، والرفق، والرحمة.

التوازن بين العمل والعبادة

قصة تبدأ بعبارة غريبة وعميقة من سيدنا عمر رضي الله عنه؛ إذ يقول: «كنت أنا وجاري من الأنصار نتعاقب على رسول الله ﷺ؛ ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزل جاري أخبرني بخبر الوحي». هذه الجملة البسيطة تحتل درساً عظيماً في قيمة العمل والكسب الحلال.

قد نعتقد أحياناً أن الحل الأمثل هو أن نكون دائماً موجودين مع النبي ﷺ، وأن نترك العمل؛ لأنه أمر دنيوي وفانٍ، لكن هذا ليس من سنة نبينا العظيم؛ فقد أقرَّ النبي ﷺ أن يظل الإنسان يعمل ويكسب رزقه بحلال، حتى لا يمد يده لأحد، ويحافظ على بيته وزوجته وأولاده، ويكون عزيز النفس في الدنيا. فلا تسمح لعدوك أن يتحكم في رزقك أو في حياتك. وكما نقول دائماً: «العمل عبادة». عبارة يمر عليها الكثيرون دون تدبر، لكن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يعيشها حقيقة، حيث كان نصف حياته في البستان ينفق من كسب يده، والنصف الآخر مع النبي ﷺ في خدمة الدين والناس، وكل ذلك هو سنة النبي ﷺ وأمره الذي ارتضى لعمر.

تجدر الإشارة إلى أن عمر رضي الله عنه عاش مع النبي ﷺ 23 سنة، وأسلم بعد سنتين من بدء الدعوة في مكة، وكان النبي ﷺ يقر ما كان يفعله عمر من تجارة وأمانة، معلماً إياه كيف يكون الإنسان العامل الصالح، الذي لا يترك عمله لكنه يستغل وقته أيضاً للعبادة والتعلم وخدمة الدين.

هذه القصة تذكرنا بأن الالتزام بالعمل الشريف هو جزء من ديننا وسنة نبينا، وأن الكسب الحلال هو من أعظم وسائل الحفاظ على الكرامة والشرف في الدنيا، والبركة في المال والحياة.

موقف يُظهر شدة حب أصحاب النبي ﷺ له

عندما جاء شريك عمر من الأنصار يطرق الباب بشدة، سأله عمر قائلاً: «أجاءت غسان؟». وكانت قبائل غسان، التي يبلغ تعداد مقاتليها 100 ألف مقاتل، تستعد لقتال المسلمين وغزو المدينة. فأجابه الشريك: «بل الأمر أشد من ذلك... فقد طلق رسول الله ﷺ زوجاته».

كان ذلك وكأنه يقول إن الوضع خطير جداً، فالنبي ﷺ في ضيق وحزن، حتى إنه طلق زوجاته. تخيل حجم الحب والوفاء للنبي ﷺ عندما يكون حزنه وألمه عند أصحابه وأحبائه أشد عليهم من مجيء جيش ضخم يزيد عدده عنهم بمائة ضعف، قادم ليجتاح المدينة.

فهذا هو الحب الحقيقي لرسول الله، في حياتك أنت : أن تشتاق للقاءه في يوم القيامة، أن تحرص على أن يفرح بنظرته إليك حين تعرض عليه أعمالك الصالحة في قبره الشريف. فهو النبي العظيم الذي قال:

«حياتي خير لكم، ووفاتي لكم خير، تُحدثون فيحدث لكم، فإذا أنا مت عُرِضَتْ عليَّ أعمالكم؛ فإن رأيتُ خيراً حمدتُ الله، وإن رأيتُ شراً استغفرتُ الله لكم» (172).

هكذا يكون حبُّ النبي ﷺ دافعاً للتوبة والرجوع؛ لأننا لا نريد أن نحزن قلبه الشريف، فهو مشغول بنا ويحبنا حباً عظيماً، حتى إن الله تعالى يخبره في كتابه العزيز:

ج
﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [سورة فاطر: 8]

فلا تجهد نفسك بحزن أو حسرة عليهم، فهو نور الدنيا والآخرة ﷺ.

انتهاء الهجر

يقول سيدنا عمر: سألت النبي ﷺ: «يا رسول الله، هل طلقت زوجاتك؟». فنظر إليه النبي ﷺ وأجابه: «لا». فقلت له حينها: «الله أكبر» وجلست. ثم أردت أن أسلي نفسي وأقول شيئاً يجعل النبي ﷺ يبتسم، فقلت له: «يا رسول الله، كنا في مكة قوماً نغلب نساءنا، فلما جئنا إلى المدينة، إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فاستمدت نساؤنا من أخلاق نساء الأنصار». فابتسم النبي ﷺ.

ثم قال سيدنا عمر: «قلت لحفصة: هل تراجعين رسول الله وتهجرينه من الصباح حتى الليل؟». فأجابت: «نعم». فابتسم النبي ﷺ مجدداً. كانت الجلسة هادئة وحزينة في بعض الأحيان، وسيدنا عمر كان يحاول بلطف أن يخفف عن النبي ﷺ هذا الضيق والهَم، مثلما نفعل عندما نريد أن نلطف جواً مشحوناً بالصمت.

ثم جلس ينظر إلى غرفة النبي ﷺ وقال: «لم يردني إلا ثلاثة أهْب». أي ثلاثة أكياس من الجلد ربما تحوي طعاماً أو ماءً فقط. فقلت له: «يا رسول الله، ادعُ الله أن يوسع عليك؛ فقد وسَّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله».

فقال النبي ﷺ بحكمة:

«أَوَيْني شَكَّ أَنْتَ يَا بَنَ الْخَطَّابِ؟! أُولَئِكَ قَوْمٌ عَجَلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (173).

هنا أوقف النبي ﷺ سيدنا عمر؛ لأن كلامه لم يكن مجرد دعاء بالتوسعة فقط، بل كان فيه مقارنة بين وضع المسلمين ووضع أقوام مثل الفرس والروم، الذين رغم أنهم لم يعبدوا الله، فإنهم غرّ بهم ورزقوا نعيم الدنيا، بينما أهل الحق وقتها يعانون.

فأراد النبي ﷺ أن يوضح أن مقارنة أنفسنا بمن لم يؤمنوا بالحق وتخلفوا عن هدايته أمر لا ينبغي، فهؤلاء لهم نصيبهم من الدنيا ولكن ليس لهم نصيب من الآخرة، فقد اشتروا الدنيا مقابل بيعهم للآخرة. و كانت فارس يعبدون النار، والروم كانوا نصارى، ومع ذلك كانت حياتهم الدنيا ميسرة، فالموازن ليست كما نتصورها دائماً، وهناك حكمة إلهية في كل ذلك.

قصة لطيفة بين النبي ﷺ والسيدة عائشة

يقول سيدنا عمر رضي الله عنه: بعد مرور تسعة وعشرين يوماً على انقطاع النبي ﷺ عن بيته وابتعاده عن زوجاته، عاد ﷺ إلى بيته، وكان أول بيت دخل عليه هو بيت السيدة عائشة رضي الله عنها، وهي التي كانت تحب أن تخفف عنه ﷺ حينما تراه متضيقاً. فقالت له بابتسامة مرحة: «يا رسول الله، لقد مرّ تسعة وعشرون يوماً، وأنت قد أقسمت ألا تعود إلا بعد مرور شهر كامل». فردّ عليها ﷺ بكل هدوء وابتسامة: «الشهر تسع وعشرون». مُدْركاً إياها بأن الشهر الهجري إما أن يكون تسعة وعشرين أو ثلاثين يوماً، كما هو الحال في شهر رمضان، وهذا نوع من اللطف الذي كانت تعبر به عن محبتها وحرصها على تخفيف ما به ﷺ من ضيق.

بعد ذلك، نزل القرآن الكريم يُخَيِّرُ زوجات النبي ﷺ بين خيارين: إما أن يوسع عليهن ﷺ في النفقة ويطلقهن؛ إذ كان النبي ﷺ يتحمل مسؤوليات عظيمة في الدعوة ورعاية الأمة كلها، وكان لا يطلب من أحد من أغنياء الصحابة الإنفاق عليه

أو على بيته قبل أن ينفق هو بنفسه ما لديه، وإما أن يعيش معه على نفس الحال؛
يشاركه الحياة التي فيها مسؤوليات النبوة والرسالة، ويكنّ أزواجه معه في الآخرة.

قال تعالى في سورة الأحزاب:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا
(28) وَإِن كُنْتُمْ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ
فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (29)﴾

[سورة الأحزاب: 28، 29]

فعندما سأل النبي ﷺ السيدة عائشة رضي الله عنها: (وَلَا عَلَيْكَ إِلَّا تَعَجَّلِي حَتَّى
تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ) .. أي: اعرفي رأي والديك أبي بكر رضي الله عنه وأُمك في هذا
الأمر، أجابته ببراءة وقوة: «يا رسول الله، أفيك أستأمر؟». في إشارة إلى أنه ليس
لأحد أن يستشير أحداً في الرضا بالحياة مع سيد الخلق ﷺ، وكان اختيارها واضحاً
ومؤكدًا بالبقاء معه مهما كانت طبيعة حياته ومسؤولياته.

هذا الحدث كان من أهم الأحداث الشخصية في بيت رسول الله ﷺ، قبل
الحدث الأعظم القادم، وهو غزوة تبوك، حيث تجلت فيه معاني الصبر، والحب،

والولاء، والتضحية في سبيل الله والرسول ﷺ.

احذر المقارنة

هذا المشهد له وقع عميق في القلب؛ إذ عندما رأى سيدنا عمر رضي الله عنه الأيكاس الجلدية الثلاثة التي في غرفة رسول الله ﷺ، والتي تُعرف بـ(الثلاثة أُهْب)، شعر بثقل الحال على النبي ﷺ، وكأنه تألم لحال سيد الخلق ﷺ، فقال له بصدق ومودة: «يا رسول الله، ادعُ الله أن يوسع عليك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله».

لكن النبي ﷺ، بحكمته ورحمته، لم يدعه يستمر في هذا التفكير، بل أناره بقول يحمل حكمة لا تنضب؛ إذ قال له: «أَوْ في شكٍّ في هذا أنت يا بن الخطاب؟! تلك أقوام عجَّلَتْ لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا».

ففهم سيدنا عمر حجم المقارنة الخاطئة التي كان يقوم بها بين حالهم وحال الأمم التي لا تعبد الله، وقال: «استغفر لي يا رسول الله».

وهنا تكمن الحكمة العظيمة: ليست القضية مجرد طموح، بل أن يكون منشأ الطموح الحقيقي هو الطلب من فضل الله وحده، دون أن نُقارن أنفسنا بالآخرين أو نأخذ سيرتهم كمقياس. فالطموح والرجاء يجب أن ينبعا من علاقتنا بالله، من الدعاء واليقين برزقه ورحمته، وليس من النظر إلى ما لدى الغير أو مقارنة الأرزاق.

لماذا لا نُقارن أنفسنا بالآخرين؟ لأن قصصهم وأقدارهم مختلفة، وما كتبه الله لهم ليس كحالنا، فكل إنسان له مسار خاص بأمر الله وقدره في العباد.

وفي قيمة الطموح يقول الإمام سفيان الثوري رحمه الله: «لأنّ أعمل فأخلف عشرة آلاف دينار يسألني الله عليها خير لي من أن أمد يدي إلى الناس أسألهم؛ أعطوني أو منعوني»..

يعني أنه يفضل أن يكون مجتهداً معتمداً على نفسه، مكتفياً بما لديه، لا يمد يده لأحد، بل يعمل ويكسب من حلال.

فالطموح مشروع ومبارك، لكنه لا يخرج عن دائرة القناعة والرضا والاعتماد على الله وحده، فلا نقول: «يا رب، أعطني مثل ما أعطيت فلان»؛ لأن المقارنة قد تحرم الإنسان من الرضا بأقدار واختيار الله له، ولا تنسَ قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾
[سورة يونس: 44]

فالله عدلٌ رحيم، وما يعطيه لكل منا هو الأفضل لنا بحكمته وعلمه، ونحن أحياناً نظلم أنفسنا عندما نحزن ونغضب من قسمة الله، فلا نرضى بما قسم لنا، وهذا هو الخطأ الحقيقي الذي ينبغي أن نتجنبه.

| طريقة لطيفة في الصلح

لطف السيدة عائشة رضي الله عنها يظهر في تلك اللحظة الجميلة حين دخل عليها النبي ﷺ متضايقاً بعد أن قضى تسعة وعشرين يوماً بعيداً، وكان قد أقسم ألا يعود إلا بعد شهر كامل. فعندما يغضب أو نحزن من أحدهم، أحياناً يشعر الشخص المتضايق أن الآخر لا يمنحه حقّ الزعل، أو كأنه يريد أن يُخَفِّف عنه من دون أن يترك له مجال التعبير عن مشاعره.

وهنا جاءت عائشة رضي الله عنها بتصرف راق ومليء بالحبّ والرحمة، حيث مزحت مع النبي ﷺ وقالت له بابتسامة وحب: «أقسمت يا رسول الله أنك لن ترجع إلا بعد شهر.. ومرّ فقط 29 يوماً!..».

كانت مزحة تحمل في طياتها دعاية خفيفة تُشعر النبي ﷺ بأنها تُعدُّ وتحسب الأيام، وأنها تهتم به وتُتطلع لعودته، حتى تُلطِّف الجو وتخفف عن قلبه المتضايق.

وهذا موقف رائع يعلِّبنا درساً ثميناً: عندما يغضب منا أو يُضايقنا شخص عزيز، من الجميل أن نُحاول نزع فتيل الضيق بحب و رقة، أن نربّت على كتف الآخر ونخفف عنه؛ لأنّ الزعل والضيق جزء من طبيعة الدنيا، ولكن قوة العلاقة تظهر في قدرتنا على تجاوز هذه اللحظات برحمة وحنان، حتى تعود العلاقة أقوى وأوثق من قبل.

اللهم صلّ على سيدنا محمد حبيب الرحمن وسيد
الأكوان، المجيب على من صلّى عليه في كل زمان
ومكان، صلاة تغفر بها ذنوبنا، وتستر بها عيوبنا،

وتقضي بها ديوننا، وتكشف بها همومنا، وعلى آله يا
مولانا وسلم تسليمًا كثيرًا.

اللهم إنا نسألك سترًا يحجب ما اقترفناه، وعلماً
منك يزيل ما جهلناه، ورزقاً واسعاً يفوق ما نتمناه،
وعافية تحفظنا بها مما نخشاه، ورضاً يغنيننا عما
فقدناه يا ربنا ويا سيدنا.



(166) رواه ابن هشام.

(167) رواه البخاري.

(168) رواه البخاري.

(169) ورد في الأثر الشريف.

(170) رواه البخاري.

(171) رواه البخاري.

(172) رواه ابن سعد.

مواقف هامة في بداية معركة تبوك

بداية معركة تبوك وأعداء المنافقين

ها نحن نقرب من منتصف السنة التاسعة بعد هجرة النبي ﷺ، وفي هذه المرحلة كان عمر النبي الكريم قد بلغ اثنين وستين عاماً، وكان مشهد الأحداث يتصاعد بوتيرة حاسمة نحو لحظات الانتقال إلى الرفيق الأعلى، حيث تترامى أمامنا مواقف عظيمة تملؤها الدروس والعبر التي يجب أن نعيها بقلوب نابضة وعقول متفتحة، من بين تلك المواقف التي لا بد أن نتوقف عندها بإمعان، تبرز «غزوة تبوك»، التي جرت في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، والتي حملت في طياتها أحداثاً عظيمة ووقائع تحتاج إلى فهم عميق لما جرى.

في تلك الأيام، وصلت إلى النبي ﷺ أخبار من مصادر موثوقة تُفيد بأن الرومان يعكفون على تجهيز جيش هائل، يبلغ عدده أربعمئة ألف مقاتل، عازمين على شن غزو ضخم على المدينة المنورة، كانت سمعة المسلمين في الجزيرة العربية تكبر يوماً بعد يوم؛ خاصة بعد خروج المسلمين لمواجهة الروم في غزوة مؤتة، هذا الخروج الذي دوت أصداؤه في جزيرة العرب، فقد استطاع سيدنا خالد أن يحقق انتصاراً

معنوياً كبيراً حين انسحب في تكتيك عسكري فذ بجيش المسلمين (ذي العدد القليل) دون انكسار أو هزيمة أمام جيش الروم (ذي العدد الكبير)، الأمر الذي رفع من معنويات المسلمين وزلزل أعداءهم. فقد أدركت جميع القبائل في الجزيرة قوة هذا النبي العظيم، فقد عرفوا فيه الوفاء والرحمة والعظمة، فكان التعامل معه بوقار واحترام، ومن أراد أن يواجهه، فعليه أن يجهز جيشاً ضخماً؛ لأن قوة محمد ﷺ كانت معروفة.

وعندما وصل إلى علم النبي ﷺ أن هناك تهديداً يلوح في الأفق، لم يكتفِ بالدفاع فقط، بل كان يخرج للقاء العدو خارج حدود المدينة؛ لأنه يعلم جيداً أن أفضل طرق الدفاع هي الهجوم المبكر؛ كي لا تقع الحرب داخل الأرض وتتحول إلى دمار شامل.

فبدأ النبي ﷺ رحلته الاستراتيجية صوب تبوك، التي تبعد عن المدينة قرابة ألف كيلومتر، في وقت كان الصيف فيه في أوجه، حيث كان الصحابة في موسم حصاد زرعهم الذي استثمروا فيه منذُ عام، وكان الجميع متشوقاً لجني ثمار الأرض بعد تعب وسهر طويل؛ ولهذا السبب أطلق القرآن على هذه الغزوة اسم «ساعة العُسرة»، فكانت اختباراً عسيراً وصعباً لأهل الإيمان، وقد نزلت في تلك الغزوة تقريباً سورة التوبة، التي تضمنت آيات تتحدث عن صمود المؤمنين وجبن المنافقين، حتى أطلق عليها العلماء اسم سورة «الفاضة»؛ لأنها كشفت عن حقيقة النفوس.

جمع النبي ﷺ أصحابه للخروج في هذه الغزوة، ولكن في هذه اللحظة بدأ المنافقون يظهرون على حقيقتهم، يرفضون السفر ويبحثون عن الأعذار، يقولون كيف نسير ألف كيلومتر في حرارة شديدة وفي وقت حصاد؟! هنا جاء قول الله تعالى فيهم:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ

بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [سورة التوبة: 42]

أي أنهم إن كان الغزو قريباً، أو إذا كان الأمر تجارياً وجني ثمار، لكانوا اتبعوه، لكن التعب والشدة جعلتهم يختلقون الأعذار ليهربوا من نصره الإسلام ونبههم.

ومن بين هؤلاء المنافقين جاء رجل يدعى «جد بن قيس» يُخبر النبي ﷺ بأنه لا يستطيع المجيء، معللاً ذلك بحبه لـنساء بني الأصفر الحسناوات؛ خوفاً من الفتنة، فقال للنبي ﷺ: فلا تفتني بنات بني الأصفر. فكان نزول الآية من الله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ

سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [سورة التوبة: 49]

وهنا يتجلى الموقف كما لو أن صديقاً يُخبر صاحبه بأن والده يعاني مرضاً خطيراً ويريد وقوفه معه في المستشفى، فيعتذر الصديق بسبب كسل أو ضعف إرادة.

وأيضاً في هذا المشهد، يظهر عبد الله بن أبي ابن سلول، زعيم المنافقين الذي كان يطمح في قيادة المدينة، لكنه خسرهما للحق الذي مع النبي ﷺ، وظل يخطط سراً لإيذائه، متآمراً مع اليهود، ناشراً الفتن والأكاذيب، ومنها اتهامه السيدة عائشة ؓ، وعندما بدأ جيش المسلمين بالتحرك، جلس هو وأتباعه في خيام مجاورة، وقالوا: «الحرارة شديدة الآن، سننتظر حتى يعتدل الجو». فأنزل الله فيهم قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ

كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة التوبة: 81]

فُيَسْأَلُ الله سبحانه وتعالى المنافقين عن أي حرارة يتحدثون، في حين أن هناك جيشاً عدده أربعمائة ألف مقاتل يستعد لاجتياح المدينة.

عن أي حرارة يتحدث المنافقون...!!

وأمام هذه المشاهد، وقف النبي ﷺ في وسط جيشه المقدام، يدعو كل من يملك القدرة المالية والقدرة على التجهيز إلى بذل ما يستطيع من إنفاق لتجهيز الجيش؛ لأن هذا الوقت هو وقت الجهاد في سبيل الله، وفي هذه اللحظات الحاسمة تظهر معادن الرجال الحقيقيين الذين لا يخجلون على دينهم وقيادتهم، فإذا كان رد فعل الرجال في هذه اللحظة؟

ماذا تخبرنا أولوياتنا؟

القلب هو الملك الحقيقي، هو سيد الجسد وموئل الإيمان ، وهو الذي يُسخر كل الأعضاء ويوجهها لخدمة القيم التي يعتنقها الإنسان. وعندما نتأمل حال المنافقين في غزوة تبوك، نرى بوضوح كيف تخلفوا عن هذا الموقف العظيم لأن قلوبهم لم تكن مرتبطة بقضية النبي ﷺ ولا بدينه الحنيف، بل كانت مشغولة بالدنيا؛ بالسعي وراء الحفاظ على مكانتهم في مجتمع النبي ﷺ، وبالمظاهر التي تخدع الآخرين. وفي لحظة الامتحان والاختبار الحقيقي، باعوا القضية، وفرحوا في سرهم ظانين أنهم قد خدعوا رسول الله ﷺ ووصلوا إلى مبتغاهم.

يذكرنا الله تعالى في كتابه الكريم بقسوة هذه النفوس؛ إذ يقول:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾

[سورة التوبة: 81]

ومن هنا، ينبثق السؤال الذي يلهم قلوبنا جميعاً: كيف نستفيد من ظلمة تلك القلوب المريضة، من عتمة المنافقين وأفعالهم، لنحول حياتنا إلى نور وهداية؟

عندما تجد نفسك تتردد أو تتهرب من بذل الجهد في سبيل قضية ما، عليك أن تتوقف وتساءل: هل قلبي متعلق حقًا بهذا الأمر؟ فإن لم يكن تعلقك الحقيقي من القلب، فاعلم أنك بحاجة إلى مراجعة صدق تعلقك بهذا الشيء.

فمن لا يحافظ على صلاته، ربما يكون بحاجة لأن يعيد النظر في علاقته بربه، بصاحب النداء العظيم الذي يناديه كل يوم: «الله أكبر.. الله أكبر». هذا ليس مجرد كسل أو تقاعس، بل هو فقدان لشعور القلب بالاهتمام الحقيقي. فالكسل الحقيقي هو أن تكسل عن شيء لا يعينك أصلًا، وليس أنك متعب أو ضعيف، فالإنسان يحمل في داخله طاقة عظيمة خلقها الله، لكنه مسئول أن يوجه هذه الطاقة في الاتجاه الصحيح.

القضية، إذن، هي قضية أولويات، تُرتب بحسب ما يملأ القلب ويشغل فكر الإنسان ووجدانه.

فانظر داخل نفسك، فإذا وجدت أنك لا تبذل جهدك في شيء غالٍ عند الله، فاعلم أن أولوياتك ليست كأولويات دينك، ولا كأولويات النبي محمد ﷺ.

ولكن حينما تشعر أن طاقتك وجهودك تتوجه نحو ما يرضي الله ورسوله، سواء كان ذلك في عملك، أو في تربية أطفالك، أو في دراستك، أو في الرياضة، أو في خدمة الآخرين، فعليك أن تطمئن؛ فذلك دليل على أن قلبك ينبض بأولويات تتوافق مع أولويات سيدنا محمد ﷺ.

هذا هو السر الحقيقي لثبات الإيمان وقوة العزيمة، حين يكون القلب هو الملك الحاكم، ومنه تنطلق الحياة المضئية.

تسابق المسلمين في الإنفاق

لقد أعلن النبي محمد ﷺ التعبئة العامة بكل حماس وإيمان، داعياً كل مسلم أن يُنفق ما يستطيع لتجهيز الجيش العظيم، مؤكداً أن من يملك المال فلينفد به في سبيل الله، ومن يملك رواحل - وهي الجمال القوية التي تتحمل السفر لمسافات طويلة - فليشارك بها في تجهيز هذه القافلة المباركة.

وقد بلغ عدد جيش المسلمين في غزوة تبوك حوالي ثلاثين ألف مقاتل، وهذا أول تجمع بهذا العدد الضخم من المؤمنين. إننا نذكر هنا كيف كان عدد الجيش في فتح مكة، ذلك الحدث العظيم في تاريخ الإسلام، حين كان الجيش لا يتجاوز عشرة آلاف مقاتل، ثم في غزوة حنين، حيث بلغ العدد اثني عشر ألفاً، أما الآن فقد تضاعف العدد بشكل مذهل وكأن الناس في هذه الفترة القصيرة قد تدفقوا أفواجاً إلى دين الله، وبدأت العرب كلها تؤمن برحمة النبي ﷺ وبنور هدايته، فتزايدت الأعداد وتكاثرت في سبيل نصرته الإسلام.

وفي هذا الوقت المبارك، وقف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، متبرعاً بسخاء، يقول: «عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها». والأحلاس والأقتاب هي عدّة الجمل من طعام وشراب ولباس وأدوات القتال، كأن عثمان رضي الله عنه كان يُجهز دبابة متكاملة القتال بمختلف تجهيزاتها، ما يدل على مدى كرم وفهم الصحابة لأهمية الجهد والتجهيز.

فلم يتردد عثمان في الإنفاق من ماله الخاص فوراً، وهو الذي كان يؤمن بأن المال يعطى ويُستعاد من عند الله، كما يقول أحد أصدقائي: «نحن لسنا أفضل من ربنا، فكيف يجعلنا الله نكرم الناس ولا يكرمنا هو سبحانه؟». وهكذا كانت نفوس الصحابة مفعمة بالإيمان والصدق، يقدمون ويعطون ويسامحون إن لم يستطع

المقترضون السداد، مستنديين إلى وعد الله الرحيم للرجل الذي لم يكن له عمل صالح، إلا أنه كان يتجاوز عن المعسرين، فقال الله لملائكته:

« تجاوزوا عنه؛ فنحن أحقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ » (174).

أي كما تجاوز هذا العبد عن المعسرين في الدنيا؛ فإن الله يتجاوز عنه يوم القيامة. ولكن النبي ﷺ لم يكتفِ بما قدَّمه الصحابة، بل كان يحثُّهم على المزيد، وحين كرر عثمان عرضه قائلاً مرة أخرى: «عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها». استمر في ذلك حتى وصلت التبرعات إلى ما بين سبعمائة إلى تسعمائة بعير بمعداتها، حتى قال النبي ﷺ وهو يُقلب كفيه:

«ما ضرَّ عثمانَ ما عَمِلَ بعدَ اليومِ» (175).

تعبيراً عن أن عمله هذا قد رفع مكانته وأصبح في أمان ورضا عند الله.

ثم جاء دور سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان في ذلك الوقت يمتلك مالاً كثيراً، فقال بحماسة: «اليوم أسبق أبا بكر الصديق». فقرر أن يتبرع بنصف ماله، فقدم ماله للنبي ﷺ، فسأله النبي: «ما أبقيت لأهلك؟». فأجاب: «أبقيت نصف مالي».

وفي ذات اللحظة دخل سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ومعه مال وفير، فسأله النبي أيضاً:

«ما أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» (176)».

فأجاب بثقة وإيمان:

«أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». متبرعاً بكل ماله، فقال له سيدنا عمر: « لا أُسَابِقُكَ إلى شيءٍ أبداً» مؤكداً عظمة تضحياته وكرمه.

وبدأ الصحابة يتبرعون.. كلُّ على قدر استطاعته، بينما بقي المنافقون جالسين، يعلقون على تصرفات المسلمين بالسخرية والانتقاد، ولم يُخرجوا أي شيء..

جاء سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فأتى بمبلغ ضخم وصل إلى أربعة آلاف درهم ووضعها بين يدي النبي ﷺ، فثار المنافقون وقالوا: «إنه يُرائي أمام الناس». أي أنه يتباهى ويتفاخر بتبرعه.

ثم جاء صحابي بسيط يدعى أبو عَاقِل، أحضر صاعاً من التمر، وهو كل ما يملك في بيته، قد لا يكفي سوى لطعام شخص واحد، فوضعه أمام النبي ﷺ، فهتف المنافقون: «وما يغني هذا المال القليل؟!».

فأنزل الله تعالى في حق هؤلاء المنافقين قوله العزيز:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ

مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [سورة التوبة: 79]

تُبَيِّنُ هذه الآية موقف المنافقين الذين ظلُّوا ينظرون للإنفاق بنظرة زائفة، يَتهَمُّون من يبذل بسخاء بالرياء، ويسخرون مِمَّن يبذل ما يستطيع، بينما هم أنفسهم لم يشاركوا في هذا الجهاد، جُبْنًا ونفاقًا، فجاءت سورة التوبة لتفضحهم بكل وضوح، وتُعَرِّج حقيقة قلوبهم وعقولهم، في واحدة من أعظم دروس الصدق والإخلاص في سبيل الله.

مشاهد من نور

“المشهد الأول: في هذا المشهد تتجلى روعة الإيمان والكرم الحقيقي، حيث نرى سيدنا عثمان رضي الله عنه ينفق ما يقارب تسعمائة بغير مع تجهيزاتها الكاملة من طعام وشراب وعدة القتال وملابس، كأنه وحده يجهز جيش العُسرة بأكمله. إلى جانبه، نجد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم نصف ثروته بسخاء، وسيدنا أبا

بكر الصديق رضي الله عنه يتبرع بكل ماله دون تردد أو حساب.

فأين النور في هذا الإنفاق العظيم؟ النور هنا هو في تلك الحقيقة المؤكدة بأنه لا أحد من هؤلاء الكرام صار فقيراً أو محتاجاً بسبب هذا الإنفاق، بل على العكس، الله سبحانه وتعالى يعوض كل من ينفق ويُدع في بذل ماله في سبيله. فالمقصود هنا هو وعد الله سبحانه:

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سورة سبأ: 39]

وهو وعد قطعي لا محالة فيه، فلا يمكن أن تُنفق شيئاً في سبيل الله ولا يعوضك الله خيراً منه؛ لأن الله أيضاً قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [سورة آل عمران: 9]

فيصبح الإنفاق في سبيل الله علامة واضحة على أنه سيُبدل الله هذا الخير في أضعافه، مثلها تذهب إلى عملك وترى موعد راتبك مؤكداً، كذلك في الإنفاق في

سبيل الله، فهو يقين بأنه تعبير عن إيمان وعلاقة متينة بين العبد وربّه.

المشهد الثاني: أما المنافقون فقد كانوا كمثل «الفاضي يعمل قاضي»، لا يملكون من قوة الإيمان في قلوبهم شيئاً، فظلوا يسخرون ويعيرون المؤمنين الذين قدموا أموالهم الغالية من أجل نصرّة الإسلام. فهم لم يشاركوا في الجهاد، ولم ينفقوا شيئاً من أموالهم؛ لأن قلوبهم معقودة على الدنيا والجن والنفاق، وهم في الأصل باعوا القضية، لكن ضمائرهم كانت تؤنبهم كلما رأوا الرجال يتجهزون للنفير، فينغص عليهم ذلك صفو راحتهم النفسية.

لذلك حاولوا إسكات صوت الضمير في داخلهم بإطلاق السخرية والالتهامات. فحين رأوا سيدنا عبد الرحمن بن عوف يتبرع بمبلغ كبير جداً، اتهموه بالرياء والتظاهر أمام الناس، وعندما قدم أبو عقيل، ذلك الصحابي البسيط، صاعاً من التمر، سخروا منه وقالوا: «وما يُغني هذا القليل أمام جيش مكون من ثلاثين ألف مقاتل؟!».

ظلوا يطلقون الأقاويل والأباطيل ليخففوا عن أنفسهم وجع الضمير الذي كشف حقيقتهم كجبناء لا يملكون نور الإيمان، فالبشر بطبعهم لا يستطيعون تحمل صوت الضمير الصادق في داخلهم، فيُقمع هذا الصوت بإسكات الآخرين وهدم ما يبنيه من صدق ونقاء.

وهنا يكمن درس عظيم لنا جميعاً، فإذا سمعت كلاماً سلبياً عنك، أو اتهاماً ظالماً في حين أنك تقيس أفعالك ونياتك على نور هدي النبي ﷺ، فاعلم يقيناً أن المشكلة ليست فيك، بل في المتكلم ذاته، وما يقوله هو لغو لا معنى له، كما وصفه الله سبحانه في كتابه:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) ﴾

[سورة المؤمنون: 1-3]

فتمسك بنور إيمانك، واجعل قلبك معلقاً بربه، ولا تلتفت إلا لمن يرفعك إلى الله ويقربك من الحق والخير.

قصص مهمة في طريق المعركة

تحرك سيدنا محمد ﷺ في غزوة تبوك في يوم الخميس من شهر رجب، في السنة التاسعة بعد الهجرة، وترك في المدينة اثنين من أصحابه الكرام لقيادة شئون المدينة في غيابه: عبد الله بن أم مكتوم ليؤم الناس في الصلاة ويؤذن لهم، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ليقود المدينة بحكمته وشجاعته، لكن المنافقين بدءوا يطلقون الإشاعات وينشرون الأكاذيب، يقولون: إن النبي ﷺ قد استثقل علياً وتركه في المدينة لأنه ملّ من صحبته. وكانوا يبثون هذا الكلام حتى وصلت هذه الشائعات إلى أذن علي رضي الله عنه، فذهب إلى النبي ﷺ يسأله ويواجهه بما يقال عنه؛ إن كان فعلاً متضايقاً منه أو تركه عن عمد؛ فقال للنبي ﷺ: «أُخْلِفَنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟». فردّ عليه النبي ﷺ بكل حزم ووضوح:

«لا، كَذَبُوا.. يا عليُّ، والله ما تركتك إلا لما خلفته من أهلي» (177).

أي: هل تظن أنني تركتك لأنك ضعيف؟

أو: والله ما تركتك إلا لما تركت من أهلي وعشيرتي. إنني ذاهب في غزوة عظيمة، وعدد المسلمين فيها كبير، وأريد أن أترك في المدينة رجالاً قوياً، عاقلاً، ذا دين وأخلاق وحكمة، ليحفظ الأمور ويرعى الناس؛ لأننا نترك في المدينة نساءً وشيوخاً وأطفالاً وأموالاً، فلا بد أن يبقى من يحميهم، وطمأن النبي ﷺ علياً رضي الله عنه بقوله:

«أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي؟» (178).

فكما ذهب سيدنا موسى حتى يقابل ربه وينزل عليه التوراة وأخذ معه 40 شخصاً فقط من قومه، ترك سيدنا هارون مع بني إسرائيل، فكذلك أخبرنا الله في القرآن أن سيدنا موسى قال لأخيه:

﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [سورة الأعراف: 142]

فكأنما أخبره أنه كما ترك موسى أخاه هارون ليخلفه في قومه ويرعى شئونهم حين غاب، فإنه قد ترك علياً بدوره، ولكنه ليس نبياً بعده، وهذا تكريم عظيم المنزلة.

ثم بدأ النبي ﷺ يتحرك مع جيش المسلمين الكبير الذي بلغ ثلاثين ألف مقاتل، وهذا هو أكبر جيش يجتمع للمسلمين في تلك الفترة، ولم تكن توجد في ذلك الزمان أجهزة حاسوب أو وسائل إحصاء حديثة لتسجيل أسماء المقاتلين وحصرهم، بل كان النبي ﷺ يعرف أصحابه جميعاً بالاسم وبالصفة، ويعرف من جاء ومن تخلف.

من بين الذين تخلفوا عن الطلعة الأولى الصحابي أبو خيثمة، الذي قرر بينه وبين نفسه أن يجني ثمار بيته أولاً ثم يلحق بالجيش، فبدأ يجمع ثمار النخل حتى نضجت، ورأى زوجته وقد جهزت له خيمته ووضع عليها الماء لتبقى باردة مثل التكييف، وأعدت له الطعام والثمار، فجلس يستريح ويأكل من الثمار في راحة وسكينة، ثم أخذت نفسه لحظة إدراك ومحاسبة، قال في نفسه: «أنا في بيتي مع زوجتي آكل طيب الثمار، ورسول الله والصحابة ينفرون في الحر والجهاد، والله ليس هذا بالنصف». أي: إن هذا من الظلم، وليس من الإنصاف أن يجلس هو في

الراحة بينما الرجال مع النبي ﷺ في الجهاد والصبر على المشاق. فما كان منه إلا أن جهز جملة على الفور وأسرع للحاق بالجيش.

وعندما رآه النبي ﷺ قال للصحابة: «أين أبو خيثمة؟» فقالوا: «مشغول يا رسول الله». فقال النبي ﷺ:

«إِنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فَيَسْلِحْهُ اللَّهُ بِكُمْ» (179).

وبعد قليل ظهر شيء يلعب في الصحراء من بعيد؛ كانت خوذة على رأسه، فاقترب النبي ﷺ وقال له: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ». وكأن النبي ﷺ يدعو له ويرجو أن يكون هو من يلحق بالجيش، وعندما وصل أخيراً، سأله النبي ﷺ: «ما الذي خلفك يا أبا خيثمة؟». فأجاب أن الدنيا فتنته وانشغل بجني الثمار، ثم - في لحظة صدق - رجع إلى نفسه وقال: «ليس هذا بالنصف»، فغفر له النبي ﷺ وقال له:

«أَوَّلَى لَكَ يَا أَبَا خَيْثَمَةَ» (180).

أي: إن اللحاق بالجيش وإن تأخر أنقذه من الهلاك في الدنيا والآخرة.

ومَنْ تخلف أيضاً الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، ولكنه لم يتخلف بإرادته، بل بسبب ظروف خارجة عن إرادته، حيث كان الجمل الذي يركب عليه مريضاً وضعيفاً، ولم يكن قادراً على السير لمسافة تزيد على ألف كيلومتر مشياً على قدميه، فقرر أن ينزل من على الجمل ويحمل أمتعته على ظهره، ويسير حتى يصل إلى الجيش وإن تأخر، وعندما رآه النبي ﷺ من بعيد، قال له: «كُنْ أَبَا ذَرٍّ». وعندما اقترب منه قال له برحمة:

«يرحمُ اللهُ أبا ذرٍّ، يمِثِّي وحدهُ ، ويموتُ وحدهُ ، ويُبعثُ وحدهُ» (181).

تعبيراً عن عظيم احترامه لتضحياته وصبره، وأنه سيظل وحده في كثير من المواقف، لكنه مميز في إيمانه وجهاده.

تصرفاتك.. هل فيها عدل أم ظلم لنفسك؟

تأمل - يا عزيزي - النور العظيم في موقف سيدنا «أبو خيثمة» عندما جلس في خيمته، ووجد زوجته قد جهزت له الخيمة والماء البارد والطعام الطيب، بينما كل الصحابة خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى الحرب، رغم أن كلاً منهم كان ينتظر أيضاً قطف الثمار، لكنهم أسرعوا ليلبوا نداء الجهاد والطاعة. في المقابل، جلس أبو خيثمة يستريح في ظل الراحة والهدوء، وقطف الثمار، لكنه لم يلبث أن توقفت نفسه عند هذا المشهد، وبدأ يفكر بعمق، كيف يكون هو هكذا بينما الرجال مع النبي ﷺ يصبرون على المشاق؟ كيف يجلس هو في راحة بينما جيش المسلمين يتحمل العناء في سبيل الله؟

قال في نفسه بكل صدق: «والله ما هذا بالنصف». يعني هذا ليس بالعدل، هذا ظلم لنفسي، والعدل هو أن يكون الإنسان جزءاً من الجهاد والمجاهدة، يشارك في التضحية والمثابرة، فالرجولة الحقيقية والشهامة ليست مجرد كلمات، بل أفعال تنطق بها القلوب واليدان. فالرجال يدافعون عن المدينة في وجه غزو الرومان الذين بلغ عددهم 400 ألف، وأنا هنا جالس في خيمتي مستريح، فكيف يكون هذا عدلاً؟!!

فأسرع أبو خيثمة إلى رسول الله ﷺ ليشارك في الصفوف، فالحمد لله أنه لحق بالجيش ولم يتأخر.

وهنا علينا أن نتعلم درساً عميقاً، وهو أن كل واحد منا كثيراً ما يقوم بأفعال أو يمر بمواقف يحتاج فيها إلى أن يراجع نفسه ويحاسبها: هل أنا أعدل مع نفسي؟ هل أؤدي دوري؟ هل أظلم نفسي بالتقاعس أو التهرب؟

مثلاً: عندما تغفل عن صلاة الجمعة، بينما الرجال جميعاً يحتشدون في المسجد رغم حرارة الشمس الشديدة، يتزاحون ليستمعوا إلى كلام ربهم في صلاة واحدة أسبوعياً، وأنت نائم أو متكاسل عن الذهاب، فهل هذا عدل مع نفسك، أم أنك بذلك تظلم روحك وتفوت فرصة عظيمة؟

وكذلك في البيت، حين تكون الأسرة منشغلة بترتيب المنزل قبل العيد، والأم والأب يحملان السفرة والكراسي الثقيلة، والجميع متعب، وأنت تلعب «بلاي ستيشن» متعللاً بعدم حبك للترتيب، فهل هذا عدل؟ أنت تريد بيتاً نظيفاً ومرتباً، إذن، شاركهم وكن معهم حتى تزرع روح التعاون والمودة.

ونفس المعنى ينطبق على مشروع التخرج في الجامعة، حيث الجميع يبذل جهده، وأنت لا تهتم وكأنك لا علاقة لك بهم، أو في العمل، حيث فريق العمل يتعب ويجهد وأنت متفرج من بعيد لا تحرك ساكناً، بل تُنظر فقط، فهل هذا عدل؟

وبالمناسبة، التوفيق الحقيقي من عند الله لا يأتي إلا للمجتهدين الذين يبذلون قصارى جهدهم، أما الذين يستهينون ويقللون من أهمية ما يفعلون، حتى وإن حاولوا التظاهر أو الاندماج، فإن الحقيقة تظهر في وقت ما، فالله سبحانه وتعالى يقول في محكم التنزيل:

﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [سورة الكهف: 30]

وهذا وعد من الله للذين يحسنون العمل ويؤدون الأمانة.

فمن قصة سيدنا أبي خيثمة نتعلم أن نقيس أعمالنا وتصرفاتنا بدقة، هل هناك عدل مع أنفسنا؟ هل نحن نؤدي دورنا حق الأداء، أم أننا نترك غيرنا يتحملون أعباء أدوارنا بسبب تقاعسنا؟ وهذا ليس بالعدل، بل ظلم للنفس وللآخرين، والله لا يحب الظلم.

قصة البكائين

بينما كان النبي ﷺ وأصحابه معسكرين في خيامهم على طريق الغزو، أخبرهم بأن هناك أناساً في المدينة ليسوا معهم الآن، لكنهم سيأخذون معهم نفس الأجر والثواب، فمن هم هؤلاء؟ كان اسمهم «البكاءون».

حينما استعد رسول الله ﷺ للخروج من المدينة، جاءه سبعة من الأنصار، ولكنهم لم يكن لديهم «رواحل» أي: لا يمتلكون جمالاً أو وسائل نقل ضخمة تمكّنهم من السفر في تلك الرحلة الطويلة التي تمتد لحوالي ألف كيلومتر، والمسافة لا تنفع معها البغلة أو الحصان العادي. طلب هؤلاء الرجال من النبي ﷺ أن يوفر لهم وسيلة يركبونها، فرد عليهم:

«لا أجدُ ما أحملُكم عليه» (182).

فبكوا وهم يمشون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً، ومن هنا تسموا بالبكاكين؛ لأن قلوبهم كانت مشتاقة للخروج مع رسول الله ﷺ، لكنهم لم يجدوا ما يركبون عليه.

وفي هذا الموقف العظيم نزل الوحي على النبي ﷺ بالآية الكريمة:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [سورة التوبة: 92]

هؤلاء الرجال لم يرضوا بالاعتذار، ولم يقولوا «هذا يكفيننا»، بل بكوا حزناً وحرقة على أنهم لم يكونوا بين صفوف المجاهدين، فهم كانوا مخلصين لرسول الله وللدین، يرغبون في الجهاد والنصرة، لكن الظروف حالت بينهم وبين المشاركة، فسيدنا محمد ﷺ قال لهم:

«إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَاِدِيًّا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ. قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟! قال: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ» (183).

وهنا ينبثق لنا نور عظيم، وهو أن الله سبحانه وتعالى ينظر إلى النيات قبل الأعمال، كما قال النبي ﷺ:

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» (184).

فمن كان نيته صادقة ومخلصة، حتى وإن لم يتمكن من القيام بالفعل، فإن الله يحتسب له أجره ويعوضه، وقد يُفاجأ يوم القيامة بجزاء وأجر عظيم على ما كان يرجوه ويتمناه، وهذا من رحمة الله بعباده.

فهذا المشهد يذكرنا بأن العبرة ليست فقط في الفعل المادي، بل في صدق النية وحب الله ورسوله والحرص على الطاعة، وهذا هو جوهر الإيمان.

حديث معاذ العظيم

سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه رأى رسول الله ﷺ وحده في خلوة، فأراد أن يسأله عن أمر مهم في حياته، فاقرب وقال: «يا رسول الله، أنبئني عن عمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار».

فابتسم النبي ﷺ، وقال له: (لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه؛ تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت). قال: (ألا أدلك على أبواب الخير؟). قلت: (أجل يا رسول الله). قال: (الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل). قال: ثم تلا

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾

[سورة السجدة: 16]

حَتَّىٰ بَلَغَ {يَعْمَلُونَ}، ثُمَّ قَالَ: (أَلَا أَخْبَرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟). قُلْتُ: (بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ). قَالَ: (رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ). ثُمَّ قَالَ:

«أَلَا أَخْبَرُكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» (185).

فهنا نفهم أن «الجنة» تعني الحماية التي تحيط بالمؤمن، و«رأس الأمر وعموده» هما الأصل والأساس، مثل الرأس للجسم، و«ذروة السنام» تعني القمة والعظمة في الإسلام، وهي الجهاد في سبيل الله.

ثم قال معاذ: «يا نبيَّ الله، هل نحنُ مؤاخِذون بما نتكلم به؟». أي: هل سنحاسب على كلامنا؛ من غيبة أو نسيمة أو نقل أخبار كاذبة؟

فرد النبي ﷺ قائلاً: «ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَا معاذ». على طريقة العرب في التعبير عن شدة التحذير، كأن أمك فقدتك لو لم تكن تعرف هذه الحقيقة. وأضاف ﷺ:

«وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ
الْسِّنِّهِمْ؟» (186).

كان هذا الحوار بين النبي ﷺ وسيدنا معاذ رحمه الله ملخصاً عميقاً لقواعد الحياة والعمل الصالح، نوره يشع لكل من يريد أن يمضي على طريق الله بثقة ويصل إلى الجنة برحمة الله ورضاه، ويتعد عن نار جهنم. هو درس في الإخلاص؛ العمل الصالح، وقوة الكلمة، وأهمية مراقبة اللسان، فيضيء القلب بنور النبي ﷺ.

فهو ونيتة فأجرهما سواء

وصل سيدنا محمد ﷺ إلى أرض تبوك، ومع ذلك كان هناك من أصحابه من لم يتمكن من الخروج معه؛ لأنهم لم يجدوا ما يركبون من الرواحل؛ أي الجمال أو الدواب التي تسهل عليهم المسير في هذه الرحلة الطويلة والشاقة. عندما أخبرهم النبي ﷺ بأنه لا يجد ما يحملهم عليه، لم يتخذوا الأمر بسهولة، بل:

﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا

يَنْفِقُونَ﴾ [سورة التوبة: 92]

فَعَرَفُوا فِي التَّارِيخِ بـ«البكائين».

وفي هذه القصة عبرة عظيمة في ديننا الحنيف، تظهر مدى كرم الله سبحانه وتعالى ورحمته التي لا حدود لها. فالله يحب أن يكرم عباده بالأجر، حتى وإن لم يتمكنوا من القيام بالعمل نفسه بسبب عجز أو قلة قدرة، فالنية الطيبة وحدها تكفي لتنال الأجر العظيم.

قال النبي ﷺ:

«إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي في ماله ربه، ويصل به رحمه وعبد رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالاً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، وهما في الأجر سواء» (187).

أما الرجل الذي رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يخرج حق الله في هذا المال، ويرحم به أهله وأقرباءه ويعلمهم، وهذا في أعظم المنازل وأشرفها.

وأما من رزقه الله العلم ولم يرزقه المال، فهو يقول في قلبه: «لو أن لي مالاً، لعملت به عمل فلان». فهو بنيته الصادقة، وهؤلاء في الأجر سواء مع الذين أعملوا المال؛ لأن الله عليم بحالهم.

وهنا تتجلى حكمة ربانية عظيمة، تدفعك لأن تطمئن وتعرف أن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء فيك، يعلم نياتك وصدق قلبك، وإن لم تستطع أن تقوم بما تنوي عليه بسبب ضيق الحال أو قلة الإمكانيات، فاعلم أن «العين بصيرة، والإيد قصيرة»، وربك قريب منك، يعلم حالك ويجازيك خير الجزاء.

فلا تيأس ولا تحزن إذا لم تستطع أن تفعل شيئاً في وقت معين، بل اثبت على النية الصادقة، وكن مطمئناً أن الله سيكتب لك الأجر ويثيبك عليه؛ لأن النية الطيبة في ديننا هي أصل الأعمال وأساسها، كما جاء في الحديث الشريف:

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» (188).

أهمية حفظ اللسان

الموقف الثاني المنير في سفر (تبوك) حديث سيدنا (معاذ بن جبل) الذي عندما وجد رسول الله يجلس وحده جلس معه ليسأله عن أكثر شيء يفعله ليدخل به الجنة ويبعده عن النار.. فأجابه ﷺ (وإنه ليسير على من يسره الله عليه)، وحدثه عن الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، ثم قال له خلاصة الموضوع كله: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟) أي: لب الموضوع وأصله: (كُفَّ عليك هذا).. فلا نتكلم بكلام عديم الفائدة، فسأل سيدنا معاذ هل الموضوع هام؟ (أونحن مؤخذون بما نتكلم؟).. فأجابه ﷺ بأن اللسان هو السبب في دخول الناس النار؛ لأن به تكون الغيبة والسخرية وإفشاء الأسرار والإهانة والسب، ولذلك فقد قال ﷺ:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» (189).

فكان النبي ﷺ يرشدك بنوره في الطريق؛ بأن تتحكم في لسانك، فليس من العيب أن تصمت، ولكن العيب أن تتكلم بالكلام المؤذي، فصمتك عن الحرام

دليل على احترامك لله تعالى، قال ﷺ:

«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» (190).

فليس عيباً أن تصمت حين لا يكون للكلام فائدة، بل العيب أن تتفق بكلام مؤذٍ أو خاطئ، فالصمت عن الحرام دليل على تعظيم واحترام لله تعالى، وحفظ للنفس والمجتمع. وهذا الموقف يذكّرنا بأهمية مراقبة ألسنتنا وحسن الكلام، فهو مفتاح للنجاة والفلاح في الدنيا والآخرة.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد صاحب
العقل الأكل، والميزان الأثقل، صاحب الوسيلة
والفضيلة، والدرجة العالية الرفيعة، وصاحب
الحوض والشفاعة، وسلم تسليماً كثيراً!

اللهم يسِّر لنا ما يرضيك، واجعلنا من أسعد خلقك
وأقرب عبادك إليك، واغفر لنا ما مضى وأصلح
لنا ما بقي، وامن علينا بغفرانك ورضاك، ووفقنا
لكل خير، واحفظنا يا مولانا وادفع عنا كل شر!



-
- (174) مسند أحمد.
(175) رواه الترمذي.
(176) رواه أبو داود.
(177) دلائل النبوة للبيهقي.
(178) رواه البخاري.
(179) رواه الحاكم.
(180) رواه مسلم.
(181) رواه الحاكم.
(182) رواه البخاري.
(183) رواه البخاري.
(184) رواه مسلم.
(185) رواه الترمذي.
(186) رواه الترمذي.
(187) رواه الترمذي.
(188) رواه البخاري.
(189) رواه البخاري.
(190) رواه مسلم.

أحداث معركة تبوك وتوبة كعب بن مالك

مواقف عظيمة في طريق تبوك

وصلنا اليوم إلى محطة عظيمة في سيرة رسول الله ﷺ، وهي غزوة تبوك التي وقعت في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، تلك الغزوة التي كانت مليئة بالمواقف النورانية والحقائق العميقة التي أحب النبي ﷺ أن يُبينها لأصحابه وأُمَّته قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى بعد سنة وعدة أشهر.

خرج النبي ﷺ من المدينة رافعاً راية الحق ومعه ثلاثون ألفاً من الصحابة الأوفياء، في رحلة شاقة طويلة، قطعوا فيها نحو ألف كيلومتر ذهاباً وإياباً، قضوا في الطريق أياماً وليالي، وربما أسابيع، تحملوا خلالها صعب المشقة والثبات على المبدأ.

وفي هذه الغزوة العظيمة نزلت سورة التوبة التي أطلق عليها العلماء سورة الفاضحة؛ لأنها فضحت مكامن جبن المنافقين، وكشفت عن رجولة المؤمنين الأوفياء الذين صدقوا الله ورسوله.

وبينما هم في طريقهم إلى تبوك، مروا بمكان عظيم يحمل في طياته عبرة لا تُنسى، وهو مدائن ثمود، حيث عاش قوم النبي صالح عليه السلام، الذين ذكرهم ربنا سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [سورة الفجر: 9]

هؤلاء القوم الذين كذبوا نبيهم وذبحوا الناقة التي كانت آية لهم، فأرسل الله عليهم صيحة من السماء جلبها جبريل عليه السلام، فأهلكتهم وتركوا وراءهم ذكراً وعبرة.

وعندما نزل الصحابة في ذلك الموضع، وجدوا فيه الماء الذي ارتوت به دوابهم، وبدءوا يجهزون العجين للخبز، ولما رأى النبي ﷺ هذا المشهد قال لهم كلاماً مؤثراً يوجه نفوسنا جميعاً حين نمر بديار الظالمين الذين أرسل الله إليهم أنبياء فرفضوا الهداية، وعانوا من عذاب الله:

«لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِأَكِينٍ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بِأَكِينٍ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ» (191).

كأن النبي ﷺ يريد أن يذكّرنا بأن نكون رحماء وذاكرين، نُحيي قلوبنا بذكر عذاب من كذبوا الأنبياء، ونعلم أن الله بعث أنبياءه لعبادته وحده، وأن الدنيا فانية والآخرة باقية. فالذكرى في هذه الآيات ليست للتشفي بل للعظة، لكي نتمسك بديننا ونرحم بعضنا ونعمر الأرض بما يرضي ربنا.

كما أمر النبي ﷺ الصحابة أن يطعموا دوابهم فقط، وألا يشربوا أو يأكلوا في ذلك المكان الذي حلَّ به العذاب؛ ليكون ذلك عبرة تحذرهم من المعاصي والظلم.

ثم حدث موقف إنساني عميق أثناء استراحتهم، حين ضلَّت ناقته ﷺ، وكان من بين الصحابة سيدنا عمارة بن حزم، ومعه في خيمته رجل يدعى زيد بن اللصيت، وهو من المنافقين الذين خرجوا معهم. وفي جلسة بينهما، قال زيد مستهزئاً: «أيدعي محمد أنه يأتيه الخبر من السماء وأنه يُنبئ أنه نبي، ولا يستطيع أن يعرف أين ناقته؟!» وهذا الكلام الجارح زلزل عمارة الذي لم يجد جواباً، حتى وصل الخبر إلى النبي ﷺ، فطمأن الجميع بقوله:

«وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ، وَقَدْ دَلَّنِي اللَّهُ عَلَيْهَا، وَهِيَ فِي الْوَادِي فِي شَعْبٍ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ حَبَسْتُهَا شَجَرَةً بِزَمَامِهَا» (192).

أي إن الناقة علقت بجبلها في شجرة ولم تستطع الحركة. فذهب الصحابة إلى المكان المذكور، فعثروا عليها فعلاً، وأحضروا الناقة إلى رسول الله ﷺ.

حينها، لم يتردد عمارة بن حزم في طرد زيد بن اللصيت من خيمته قائلاً له: «لا ترافقني في خيمتي، ولا تصحبني في رحلتي». فقد كان الأمر جلياً أن زيد بن اللصيت لم يكن من أهل الإيمان، فكيف يجرؤ على التشكيك في نبوة سيد البشر، وهم مقبلون على معركة عظيمة.

ثم وقعت مواقف مهمة خلال الصلاة على الطريق، تُعلمنا كيف كان النبي ﷺ يوجه أمته في أدق التفاصيل.

الموقف الأول: كان حين جاء وقت الصلاة، وكان النبي ﷺ يتوضأ، فتقدم سيدنا المغيرة بن شعبة ليزيل الخفين عن قدمي النبي ﷺ ليغسلهما، فقال له النبي ﷺ بحكمة رفيعة:

«دَعُهُمَا، فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ» (193).

ومن هنا أخذ العلماء حكم المسح على الخفين، فأصبح المسلمون يستطيعون إذا كانوا مقيمين أن يمسحوا على خفافهم خمس مرات، وإذا كانوا مسافرين فعليهم أن يمسحوا لمدة ثلاثة أيام ولياليها، أي: خمسة عشر صلاة، وهذا الحكم امتداد لرحمة الإسلام التي تسهل على العباد.

أما الموقف الثاني: فقد كان عندما تأخر النبي ﷺ في قضاء حاجته فتوضأ، بينما بدأ الناس الصلاة خلف سيدنا عبد الرحمن بن عوف إماماً، فصلى النبي معهم، ثم عندما انتهى الإمام قام النبي ﷺ ليصلي ما فاته من ركعات، وهنا تعجب

الصحابة، فهل يجوز أن نصلي خلف عبد الرحمن بن عوف وصلى معنا النبي ﷺ؟ فلما انتهى النبي ﷺ بارك عليهم وشكرهم، وأثنى عليهم، مؤكداً أن أهم ما يجب أن يُحافظ عليه هو الصلاة في وقتها، وأن يكون المسلم ملتزماً بصلواته الخمس، وهذه كانت وصيته النورانية لهم في أواخر أيامه قبل أن ينتقل إلى بارئته.

مواقف من نور

الموقف الأول: ضياع ناقته ﷺ

قد يبدو لنا من الوهلة الأولى أن موقف ضياع ناقته ﷺ هو أمرٌ غير متوقع في قصة حياة النبي ﷺ، كأن هذا النوع من الحوادث لا يليق بسيد الأنبياء، ولكن حكمة الله سبحانه وتعالى تدبر شؤون جميع الخلق بحكمة بالغة لا يدركها إلا هو وحده. كثيراً ما نمر نحن في مواقف صغيرة، مثل أن تفقد محافظتك من جيبك، فتعود إلى البيت تبحث عنها بلا جدوى، ثم تجدتها أخيراً في السيارة، فتساءل: ما

الحكمة من هذا التأخير؟ ولماذا حدث؟ والله وحده يعلم تلك الحكمة، وقد تكون واضحة لنا أحياناً، وفي أحيان أخرى تظل غامضة حتى يظهر لنا الله حكمته.

في موقف ضياع ناقته ﷺ، تكشف لنا حكمة بالغة، فبين الصحابة كان هناك من يُخفي نفاقه، لم يظهر لأحد إلا في هذا الموقف، حينما ضاعت الناقة، سخر وقال: كيف يدعي محمد أنه نبي ولا يعرف أين ناقته؟! وكأنه يستخف بعظمة النبي ﷺ وارتباطه بالوحي الإلهي. لكن النبي ﷺ رد عليه بكل ثقة: «وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله». وأخبرهم عن مكان الناقة في وادٍ، حيث كانت قد علقت بجبل شجرة، فلم تستطع التحرك.

فذهب الصحابة إلى الوادي، فوجدوا الناقة معلقة كما أخبرهم النبي ﷺ، وأحضروها إليه بسلام. وهنا ظهر أثر الحق واضحاً. وعندما علم سيدنا عمارة بن حزم بهذا النفاق، طرد ذلك المنافق من خيمته، فأنجاه الله من صحبة الشرِّ في رحلته، ووقفه للبقاء مع أهل الإيمان طوال الطريق.

وهكذا، كثيراً ما تمر بنا مواقف نظنها بسيطة أو غير هامة، أو حتى كنا نمتنى ألا تحدث، لكن لولاها ما ظهرت لنا الحقائق العميقة.

الموقف الثاني: الصلاة في وقتها

هل تأملت يوماً المشهد الذي خرج فيه النبي ﷺ ليتوضأ، فبينما هو في وضوئه بدأ الصحابة الصلاة خلف سيدنا عبد الرحمن بن عوف إماماً؟ وعندما عاد النبي ﷺ وجدهم قد ابتدءوا الصلاة، فصلَّى معهم، وبعد أن انتهى الإمام من صلاته، قام النبي ﷺ ليتم ركعاته التي فاتته.

وهنا تعجب الصحابة وسألوا في نفوسهم: كيف صلينا خلف عبد الرحمن بن عوف ونحن مع النبي ﷺ؟!

لكن النبي ﷺ، بأخلاقه العالية ونبيل طبعه، بارك عليهم وشكرهم، وكأنه يغطهم؛ ويفرح لأنهم أدركوا الصلاة في وقتها، لم ينتظروا وصوله، بل ابتدءوا بأداء الفرض في حينه.

وهذه الغبطة يا أعزائي هي من أجمل معاني الحب والمودة؛ فهي تعني أن أتمنى أن أكون معك في النعمة التي تملكها، بعكس الحسد الذي هو تمنّي أن تزول النعمة منك.

وفي هذه اللحظة العظيمة، يُذكرنا النبي ﷺ بأهمية الصلاة في وقتها، ويحبّبها إلينا حتى يكون أداؤها سبباً لفرحة ورضا رب العالمين.

كما قال الله تعالى:

﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ

وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التوبة: 105]

وسُئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن أحب الأعمال إلى الله، فقال النبي ﷺ:

«الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» (194).

فكن أنت، يا من تسمع النداء، سبباً في تفرّج قلب النبي ﷺ، وسبباً في استجابة نداء ربك بمجرد أن تسمع «حي على الصلاة»، فالصلاة أولاً، ثم كل شيء.

اللهم علمنا واجعلنا من الذين يستجيبون لندائك فور سماعهم، ولا تؤخر الصلاة عن وقتها، واجعلنا من السعداء في الدنيا والآخرة.

نزل النبي ﷺ وخطبته

في رحلته المباركة إلى تبوك، كان جيش المسلمين قد جمع ثلاثين ألفاً من الصحابة الأبطال، مستعدين لمواجهة جيش الروم الذي بلغ تعدادهم أربعمئة ألف كما وردت الأخبار، وهم أقوى جيش في ذلك الزمان. لكن عندما وصل النبي ﷺ إلى ساحة المعركة، لم يجد أمامه إلا الصمت؛ إذ فرّ جيش الروم مذعوراً، وقد قذف الله في قلوبهم الرعب والخوف من قوة إيمان المسلمين وعزيمتهم، فتركوا تبوك وعادوا إلى ديارهم خائبين.

وبينما وقف النبي ﷺ في ذلك المكان المهيّب، خطب في الناس بقلبٍ يفيض حكمة ونوراً فقال:

«ليس من عمل يقرب من الجنة إلا وقد أمرتكم به ، ولا عمل يقرب من النار إلا وقد نهيتكم عنه ، فلا يستبطن أحد منكم رزقه ، فإن جبريل ألقى في روعي

أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه ، فاتقوا الله أيها الناس وأَجْمِلُوا في الطلب ، فإن استبطأ أحد منكم رزقه ، فلا يطلبه بمعصية الله تعالى ، فإن الله لا ينال فضله بمعصيته» (195) .

في هذه الخطبة العظيمة، يوضح النبي ﷺ حقيقة لا يمكن إنكارها، وهي أن كل أمر من أوامر الله هو بوحى من عنده، وأن الرزق مكتوب على كل نفس، فما عليك إلا أن تتجهّد وتسعى بصدق وإخلاص، والله سبحانه وتعالى سيسخر لك الأسباب وينزل عليك رزقك في الوقت المناسب، كما أن أجلك مقدر لا يُتجاوز.

فكما أن موعد وفاتك محدد عند رب العالمين بدقة تامة ، فكذلك رزقك لن يفوتك، حتى وإن تأخر. فإذا أصابتك ضائقة مالية أو أزمة، فلا تستبدل قيمك أو مبدأك من أجل المال، ولا تغامر بطلب رزقك من طرق محرمة أو بخالفة أمر الله، فإن الله لا يُعطى فضله لمن يغضبه ويعصي أوامره.

وهنا تتجلى لنا قاعدة حياتية عظيمة:

أولاً: طمئن قلبك وأرح بالك بأن السعي مطلوب منك، ولكن الرزق بيد الله، فاعمل بجد ولا تقلق من النتائج، فهو المقدر لكل شيء.

ثانياً: لا تتنازل عن قيمك ومبادئك أبداً مهما كانت حاجتك أو ضيقك؛ لأن الكرامة والثبات على الحق هما طريقك إلى السعادة والنجاح الحقيقي.

قصة (ذي البجادين)

في رحلة العودة من تبوك، شهد المسلمون قصة مؤثرة تلامس القلوب، قصة شاب من قبيلة مُزَيْنَةَ يُدعى عبد الله ذا البجادين. كان هذا الشاب يتيمًا، عاش في كنف عمه الذي كان ينفق عليه ويرعاه، ومع ذلك كان قلبه مفعماً بحب الإسلام والحنين إلى الحق، فلقد أسلم عبد الله بكل إخلاص، وانتظر طويلاً أن يكون عمه من الذين يختارون طريق الله وينضمون إلى دين الحق، لكن ذلك لم يحدث.

حينما فتح النبي ﷺ مكة وعاد إلى المدينة، لم يستطع عبد الله الانتظار أكثر ليكون في صحبة رسول الله ﷺ، فطلب من عمه أن يسمح له بالذهاب والالتحاق بالنبي ﷺ، فلم يوافق عمه ولم يشارك عبد الله إيمانه، بل هددته بأنه إن خرج فلن يبقى له من ماله شيء، وسيجرده من كل ما أنفق عليه، حتى ثيابه.

فكان رد عبد الله رحمه الله عجيباً ومؤثراً، قال: «خذ كل شيء في الدنيا، لكن دعني أذهب لرسول الله ﷺ». ففعل عمه ذلك؛ جرد عبد الله من ملابسه، ولم يترك له إلا قطعة بسيطة من الثياب تسمى «الإزار» ليستر بها أسفل جسده.

لم يئس عبد الله، بل ذهب إلى أمه يروي لها ما حدث، فكانت رحمها الله أماً حنوناً، قطعت له قطعة من قماش مخطط غليظ يُعرف بـ «البجاد»، وقسمته نصفين، ليحمي جسده من برد الصحراء القارس في الشتاء، ومن هوائها الحار في الصيف. فألبسته قطعة من فوق، وأخرى من تحت، ليكمل ستره ويقيه برودة الليل وحرارة النهار.

وفي الهيئة البسيطة هذه، جاء عبد الله إلى رسول الله ﷺ، الذي سأله بركة:

«مَنْ أَنْتَ؟» (196).

فقص عليه عبد الله قصته مع عمه وما جرى له من حرمان ومن حب وإخلاص لله.

أعجب النبي ﷺ بشبابه وإيمانه، وخصوصاً بحبه لتلاوة القرآن بصوت عالٍ، فقد كان من أحب الصحابة إلى قلبه ﷺ.

وفي طريقهم إلى تبوك، جاء عبد الله وطلب من النبي ﷺ شيئاً غالياً على قلبه، فقال له: «لي عندك طلب، ادعُ الله أن أموت شهيداً». فرفع النبي ﷺ يديه ودعا له:

«اللهم إني أحرمُ دمه على الكفار» (197).

وكان عبد الله متعجباً من هذا الدعاء، وقال: «والله ما هذا أردت». أي إنه كان يرجو الشهادة في سبيل الله، فقال له النبي ﷺ:

«إنك إذا خرجت غازياً في سبيل الله، فأخذتك حمى فقتلتك، فأنت شهيد، أو وقصتك دابتك فأنت شهيد، لا تُبال بأيته كان» (198).

وفي طريق العودة، أصاب عبد الله حمى شديدة، مات فيها شهيداً، وعند تلك اللحظة قال بلال بن الحارث: «استيقظت في الليل فوجدت عبد الله وبلالاً يمسكان للنبي ﷺ شيئاً يشبه الشعلة، والنبي يحفر حفرة في الأرض». ثم قال لهم: «ناولوني أخاكم». فنقل عبد الله إلى ذلك المكان، فكان النبي ﷺ هو الذي وضعه بنفسه في قبره الشريف، ثم رفع يديه إلى السماء ودعا:

«اللهم إني أمسيتُ عنه راضياً فارضُ عنه» (199).

إنها قصة شاب ترك الدنيا وما فيها من ملذات وأموال، من أجل حب الله ورغبته في لقاء ربه شهيداً، فكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «وكنت أتمنى أن أكون أنا صاحب هذا القبر». تعبيراً عن مدى حبه وشوقه لتلك القبور المباركة.

وهكذا، مات عبد الله ذو البجادين وهم في طريق العودة من تبوك، ودُفن أشرف دفنة، بيد خير البشر؛ رسول الله ﷺ؛ شاهداً على عظمة إيمانه وصدق حبه لله تعالى.

منزلة عظيمة .. كيف ننالها؟

كلما أقرأ قصة عبد الله ذا البجادين، ذلك الشاب الذي حفر له النبي ﷺ قبره بيديه الطاهرتين، ورفع يديه بالدعاء قائلاً: «اللهم إني أمسيتُ عنه راضياً فارضُ عنه»- يغمرنني شعور عميق بالمسئولية والتساؤل: ماذا فعلت في رحلتي في هذه الحياة لأكون ممن يرضى عنهم رسول الله ﷺ؟!

أتأمل في علاقتي بربي، في العلم الذي تعلمته، وفي العمل الذي قمت به، وفي الدعوة التي حاولت أن أنشرها، وفي حرصي على حفظ الناس من شرّي.

علاقتنا مع الله عز وجل ليست مجرد كلمات أو شعائر نمضيها، بل هي حياة متكاملة: نتعلم ديننا ودنيانا، نعمل بقلوب صادقة، نعبد الله سبحانه وتعالى، نكرم خلقه، نعمل الأرض بما يرضي الله، وندعو الناس إلى الخير، لنكون سبباً في هدايتهم إلى الصراط المستقيم، كما يحفظنا الله من أن نكون أذى لهم.

ولو نظرنا بعمق نجد درجات مختلفة في هذا المسار:

◆ قد يكون عندنا العلم والعمل والدعوة معاً، وهذه أعلى المراتب.

◆ أو يكون عندنا العلم والعمل، لكن لا ندعو الناس، ولكننا نحفظ الناس من شرورنا، فهذا أمر عظيم.

◆ أو يكون عندنا العلم فقط، ولا نعمل به، لكن نحاول ألا نؤذي أحداً، وهذا أيضاً خير.

وأقل المراتب إذا لم نحصل العلم أو العمل أو الدعوة - أن نحفظ الناس من شرنا، وهو ما قاله النبي ﷺ عندما سأله رجل عن الأعمال الكبيرة: «تعبد الله وتعمل وتساعد الناس». فلما قال الرجل: «وإن لم أستطع؟». قال ﷺ:

«تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ» (200).

◆ فلنسأل أنفسنا: ماذا فعلنا اليوم؟ هل بذلنا جهداً في التعلم والعمل والدعوة؟ وهل كففنا أذى أنفسنا عن الآخرين؟

فحتى إذا تعذر علينا ما هو أعظم، فعلى الأقل يجب أن ننام كل ليلة ونحن غير مؤذنين أحداً، أن نبين بسلام مع الله ومع خلقه.

كان النبي ﷺ في خطبه يردد دوماً:

«ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا ، ومن سيئاتِ أعمالنا» (201).

ليذكرنا بأن نراقب أنفسنا، ونسأل الله العافية.

فلنتذكر ذلك ونحن نقرأ قصة عبد الله ذي البجادين الذي كان النبي ﷺ هو الذي وضعه بنفسه في قبره الشريف، حمله بيديه الشريفتين، ودعا له بخشوع: (أمسيت راضياً عنه، فارض عنه يا رب). لقد كانت أعمالهم ثقيلة في الميزان، نورهم متلألئ بنور نبهم ﷺ، وهذا هو هديهم لنا؛ أن نسير على خطاهم، لا بالقول فقط، بل بالأفعال التي تُشرفنا أمام الله ورسوله.

شأن كعب بن مالك وصاحبيه

عندما عاد النبي ﷺ إلى المدينة بعد غزوة تبوك، حدثت قصة عظيمة محفورة في القلب والذاكرة؛ قصة سيدنا كعب بن مالك، أحد أعظم صحابة النبي ﷺ، الذي كانت سيرته عبرة لكل من يخطئ ويبحث عن طريق العودة إلى الله.

قبل غزوة تبوك، كان كعب بن مالك في وضع مادي مريح، يمتلك الكثير من المال وراحتين قويتين، وكان يظن بثقة زائدة أنه يستطيع اللحاق بالجيش ولو تأخر قليلاً، فالناس جميعهم خرجوا، وهو لا يزال في المدينة، يمر في طرقها ولا يرى إلا الشيخ الكبير، أو المرأة، أو الرجل الذي غمسته الريبة في النفاق. لم يستطع اللحاق بركب الصحابة الغارقين في جهادهم.

وعندما وصل النبي ﷺ إلى تبوك، سأل الصحابة:

«ما فعل كعب بن مالك؟» (202).

فقام أحدهم فقال: (يا رسول الله، شغله بُرداه والنظر في عطفيه). أي إنه ليس رجلاً يحب الحرب، ولكنه يجلس يرتدي أحسن الثياب، (البُرد): اللبس، (العطف): الجانب، ونظر في عطفيه: أي مرَّ معجباً بنفسه.

فقال (معاذ بن جبل): (بئس ما قُلت.. والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً). حينها، تخلى النبي ﷺ عن الرد؛ لأنه كان يعلم أن في الأمر أكثر مما يظهر.

ومع عودة النبي ﷺ إلى المدينة، شعر كعب بثقل ذنبه وحزنه الشديد. كان يتردد في مواجهته، يحاول إيجاد عذر يُخفي به تخلفه عن اللحاق برسول الله ﷺ، لكنه لم يستطع. حتى وصل إلى المسجد حيث صلى النبي ﷺ، وهناك قال الحقيقة بشكل مباشر عندما سأله الرسول ﷺ:

«ما خلَّفَكَ؟ ألم تكنِ ابتعتَ ظَهْرَكَ؟!» (203).

قال: «يا رسول الله، والله لو كنت عند غيرك من أهل الدنيا لخرجت من سخطه بعذر، لقد أوتيت جدلاً (أي: أستطيع أن أخرج من المشكلة بالكلام المنمق)، ولكن يا رسول الله إن حدثتك بحديث كذب ترضي عني فيه يوشك الله أن يُسخطك عليّ، وإني لو حدثتك بحديث صدق تجد عليّ فيه (تغضب مني) إني لأرجو فيه عِقبي الله (سيكرمني الله ويسترها معي)». فقال النبي ﷺ: «قل». فقلت: «يا رسول الله، والله ما كان لي من عُذر، وما كنت أيسر قط من تلك الأيام».

قال ﷺ: «أما هذا فقد صدقت فيه». فهو ﷺ وكأنه لديه يقين بأن الباقيين يقولون الكذب، وقال لي: «فقم حتى يقضي الله فيك». يقول كعب بن مالك: «فقمتم، فجاء معي بعض رجال بني سلمة.. فقالوا لي: «أما كان يكفيك استغفار رسول الله؟!». وكأنهم يؤنبونه على قوله الحقيقة، قال: «حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسي». أعود وأقول أي حجة أو عذر، ثم سألت: «هل فعل مثلي أحد؟». أي: هل هناك أحد من الرجال وليس من المنافقين المعروفين فعل مثلي وتخلّف بدون عذر؟ فذكروا لي اثنين ممن شهدوا بدرًا: (هلال بن أمية) و(مرارة ابن الربيع)، قال: «فلما علمت بهما ثبتاني فبقيت على مقالتي».

لكن لم تكن رحلته سهلة بعد ذلك؛ فقد واجه كعب بعضًا من بني سلمة، الذين أشاروا إليه مستنكرين أنه لم يكن يكفيه استغفار النبي ﷺ، وكأنهم يحاولون إقناعه بالتراجع عن قوله الحقيقة. فصار يتأرجح بين الرغبة في الكذب والتمسك بالصدق، لكنه استمد عزيمته من معرفته بأن اثنين من رجاله بدر، هلال بن أمية ومرارة ابن الربيع، قد تخلّفا بدورهما بدون عذر.

فثبت كعب على قوله، مؤمنًا بأن طريق الصدق والاعتراف هو السبيل إلى النجاة، مهما كانت العواقب.

هذه القصة تذكرنا بأن التوبة الحقيقية ليست مجرد كلمات نردها، بل صدق مع النفس، وشجاعة في الاعتراف، وإصرار على الثبات على الحق، مهما كانت الصعاب. وأن رحمة الله لا تنقطع عن عباده التائبين مهما بلغوا من الخطأ.

اختر الله دائماً

قصة سيدنا كعب بن مالك تُحفر في أعماق القلب، فهي مليئة بالنور والدروس التي تثير طريق المؤمن. عندما وقف كعب أمام رسول الله ﷺ، حدث لديه صراع داخلي عميق بين قيمتين متناقضتين، وكأنهما يتزاحمان في قلبه وعقله. كان أمامه خياران : قيمة تحركه نحو إرضاء الناس، والحفاظ على صورته أمام أعينهم، وهي قيمة مهمة لدى جميع البشر؛ إذ إن كل إنسان يحرص على أن يظهر بمظهر حسن وجميل أمام الآخرين، وأن يكون محبوباً في أعينهم. ولكن أمام هذه القيمة العظيمة، ارتفعت قيمة أخرى أكبر وأسمى، وهي قيمة إرضاء الله عز وجل ورسوله ﷺ.

لقد قال كعب لرسول الله ﷺ: «لو كنت عند غيرك من أهل الدنيا، لخرجت من سخطه بعذر أتقنه وأخفي به حقيقي، وأكذب عليه فيرضى عني، فقد أوتيت جدلاً». أي: (قدرت أن أرتب كلامي وأزينه حتى لا أنكشف أمام الناس، ويبقى رأسي مرفوعاً وشكلي حسناً بينهم). ولكن لما كان الأمر مع الله ورسوله ﷺ، اختار أن يقول الحقيقة مهما كانت مرة وصعبة؛ لأن الكذب في هذا المقام كان يعني أن يغضب الله عليه ويغضب عليه النبي ﷺ، وهذا لا يريده بأي حال من الأحوال. يقول: «ولكني يا رسول الله، لو حدثتك بحديث كذب ترضى به عني، ليوشك الله أن يسخطك عليّ». وهنا تجلّت عنده لحظة توازن القيم، واختار بحكمة وصراحة وقوة أن تكون قيمة إرضاء الله ورسوله هي التي تسود، حتى لو كانت الحقيقة تجرح.

أما الفكرة الثانية العظيمة في قصته، فهي ما حدث له وهو يمشي في المدينة بعد أن تخلف عن غزوة تبوك. كان يشعر بألم شديد وحزن عميق؛ لأنه لم يستطع اللحاق بجيش المسلمين، ورأى أن المدينة خلت من الرجال الأقوياء والشجعان، فلا يلتقي إلا بشيخ كبير في السن، أو امرأة، أو طفل صغير، أو رجل معروف بالنفاق ومغموص فيه، وهذا جعله يشعر أن مكانه ليس هنا، وأنه ليس من هؤلاء الذين

حوله، بل إن مكانه الحقيقي مع الرجال الأبطال الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله.

وهذا الشعور أقره الله في كتابه العزيز حيث يقول سبحانه:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ۖ ﴾

[سورة التوبة: 118]

أي: حين يشعر الإنسان بأن الأرض التي كان يتنفس فيها صارت ضيقة عليه؛ لأنها مليئة بما يضيق صدره ويقيده ويجعله يشعر بالاختناق. فصوت الضمير هو صوت الله في القلب، ينادي الإنسان بأن هذا ليس مكانه الصحيح، وأن عليه أن يبحث عن مكان وسط الصالحين الذين يعينونه على الخير ويشعره بالراحة والطمأنينة.

فكم من إنسان يجلس في مجالس لا ترضي الله؛ حيث الخمر، والغيبة، والفساد، لكنه يبقى صامتاً، ويكتم ضميره، ويصمت خوفاً من أن يُنظر إليه بنظرة غير طيبة، أو من أن يفقد مكانته الاجتماعية! إن قصة كعب بن مالك تعلمنا أن نكون صادقين مع ضمائرنا، وأن نسمع ذلك النداء الرباني الحي الذي ينبعث في القلب، ليقودنا إلى التوبة والرجوع إلى الطريق المستقيم، والابتعاد عن أماكن الفساد والمعاصي، والبحث عمن يكون لنا سنداً في رحلتنا الإيمانية.

فاستمع لصوت ضميرك، ولا تخذله، فمكانك الحقيقي ليس حيث الظلم والمعصية، بل حيث النور والإيمان والعمل الصالح، حيث تجد نفسك بين أهل الله

وأوليائه، فهناك فقط تشعر بالسعادة الحقيقية والرضا الرباني.

باقي قصة كعب بن مالك ونزول القرآن

خرج سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه من عند رسول الله ﷺ صادقاً في قوله، صريحاً في اعترافه، ولم يخفِ الحقيقة، ولم يلجأ إلى الكذب أو المراوغة. وكان من الممكن أن يغفر له النبي ﷺ بسبب صدقه هذا، ولكن المسألة كانت أعقد من ذلك؛ لأن ذنب التخلف عن الجهاد في سبيل الله بدون عذر شرعي هو ذنب عظيم وثقيل على قلب النبي ﷺ، وكان لازماً أن يتحمل كعب وزملاؤه المسؤولية كاملة؛ لذلك نهى النبي ﷺ عن الكلام معهم، فأمر ألا يتحدث أحد مع كعب بن مالك، ولا مع هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وهم الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك العظيمة.

يصف سيدنا كعب ما حدث معه بقلبٍ موجوع، فيقول: «كنت أسير في طرقات المدينة فلا يكلّني أحد، أُلقي السلام فلا يرد عليّ أحد، حتى تنكرت لي نفسي، وتنكرت لي الأرض، وكنا كما قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ
لَا مَلْجَأُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾

[سورة التوبة: 118]

ويتابع كعب بن مالك وصفه المؤمن: «كنت أذهب إلى المسجد فأجد النبي ﷺ جالساً، فأقول له: السلام عليكم. ثم أنظر في وجهه، أتساءل: هل حرك شفتيه؟ هل رد عليّ السلام؟ أظن أنه رد، ثم أدخل في الصلاة، فأجد رسول الله ﷺ ينظر إليّ بطرف عينه، وحين أنظر إليه يختلس النظر مني ويعود إلى أصحابه، كأنه يريد أن يقول لي إنه يحبني، ولكن الله أمر ألا يتكلم معي أحد حتى يأذن هو بذلك».

ويقول: «ذهبت إلى حائط «بستان» ابن عمي أبي قتادة، وهو من أحب الناس إليّ، فجلست على السور وناديت عليه ثلاث مرات فلم يجبني، رغم أنه وحده ولا يراه النبي ﷺ. قلت له: يا أبا قتادة، أما تعلم أنني أحب الله ورسوله؟ فأجابني: الله ورسوله أعلم». هنا بكى كعب بن مالك، ونزل من على السور وكأنه يشعر بوحدة لا تُحتمل.

ثم يروي قصة غريبة أيضاً: «كنت أسير في طرقات المدينة وفجأة جاء رجل يسأل: أين كعب بن مالك؟ وبدأ الناس يشيرون إليّ دون أن يتكلم أحد، فقدم لي الرجل ورقة، وذهب. فتحت الورقة وإذا بها رسالة من ملك من ملوك الروم، فقد كان كعب يعيش عند الروم، وكان أميراً هناك. كتب له الملك يقول: (قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، وفي رواية (قد قلاك)، ولم يجعلك الله بدار هون عندك، فالحق بنا نواسك).

كلمة «قلاك» تعني «ملّ منك»، وكأن الملك يقول له: لقد علمنا أن أهل المدينة تركوك، فلماذا تبقى معهم وهم لا يريدون الكلام معك؟ ارجع إلينا لنجعلك أميراً كما كنت.

فرد سيدنا كعب بن مالك بقوة وصبر: «إن هذا من تمام البلاء». وأحرق الورقة في الفرن، يقول: «فتممت التنور فسجرتها»؛ أي حرقها تماماً.

مرت أربعون يوماً، وخلالها أمر النبي ﷺ زوجة كعب ألا تتحدث معه، وكان كعب يقول: «فضاقت علي الأرض بما رحبت».

وهنا نرى كيف كان النبي ﷺ يربي أصحابه، ويربي الأمة كلها، فكانت الغزوة التي غاب عنها هؤلاء في أشد الحاجة إلى كل رجل منهم، فلا يجوز لأي مسلم أن يتخلف عن الجهاد بدون عذر.

وفي اليوم الخمسين، صعد كعب يصلي في بيته صلاة الصبح، وكان قلبه مثقلاً وحزيناً، وبينما يقول «الله أكبر»، سمع صرخة منادٍ تقول: «أبشريا كعب!»

نحراً ساجداً شاكراً لله، فماذا حدث؟

لقد نزلت التوبة من الله في آيات القرآن الكريم من خواتيم سورة التوبة، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ

لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [سورة التوبة: 118]

نخرج رجل من المسجد راكباً على حصان، وصرخ أحد الصحابة من فوق المسجد، فبلغ صوته كعباً قبل وصول الراكب، وعندما وصل الرجل قال لكعب: «أبشر، تاب الله عليك». نفلع كعب رداءه وأعطاه له، وأخذ رداءً من عند زوجته

وذهب إلى المسجد حيث استقبله الناس بالتهاني، وما إن دخل المسجد حتى قام طلحة بن عبيد الله، ولم يقم غيره من الأنصار، فهنأه، ولن ينسى كعب ذلك اليوم أبداً.

وابتسم النبي ﷺ ابتسامة ناعمة كأن وجهه قطعة قر، بعد أن كانت ابتسامته في اللقاء السابق «تبسم المغضب»، فقال له ﷺ:

«أَبَشِّرْ يَا كَعْبُ بِخَيْرِ يَوْمٍ طَلَعَ عَلَيْكَ مِنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، فَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكَ» (204).

فقال كعب: «يا رسول الله، إن من توبتي أن أخرج من مالي كله، وأنفقه في سبيل الله». فقال له النبي ﷺ:

«أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» (205).

فأجاب كعب: «يا رسول الله، إن من توبتي ألا أحدث بعد ذلك إلا صدقاً». وهنا ينزل الله عز وجل الآية الكريمة التي تؤكد قيمة الصدق:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

وبهذا تنتهي قصة غزوة تبوك بكل ما فيها من العبر والدروس، مع تذكير عميق بأن التوبة النصوح، والصدق مع الله ومع النفس، هما الطريق إلى رضوان الرحمن والنجاة من العقاب.

احذر الثقة الزائفة واقطع طريق العودة للمعصية.

كان من أذكي وأحكم القرارات التي اتخذها سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه أن يلتقط الخطاب الذي جاءه من رجل من الشام ويرميه في الفرن ويحرقه؛ فقد كان هذا الخطاب يحمل رسالة من أحد ملوك الروم يدعوه فيها إلى ترك المدينة والعودة إلى موطنه، مع وعد بأن مكانه محفوظ هناك. كان من الممكن أن يقول كعب في نفسه: «لا بأس، فأنا أحب النبي ﷺ، ولكنني يمكنني الاحتفاظ بالخطاب في جيبتي كخطة احتياطية»، وربما بعد فترة تبدأ النفس الأمارة بالسوء تتسلل، وتبدأ التبريرات تملأ قلبه، فتجده يبرر لنفسه التخلف أو يغلق الباب أمام نفسه عن التوبة والعودة القلبية، وهذا ما يسمى بالثقة الزائفة بالنفس.

النبي ﷺ كان يقول له: «انتظر حتى يحكم الله». ومع مرور الأيام كان يمكن أن تتساءل نفسه: لماذا لم يحكم الله بعد؟ ولماذا طال الوقت؟ لكن سيدنا كعباً كان حكيماً في موقفه، ألقى الخطاب في الفرن حتى لا يراه أو يعود إليه ثانية؛ لأنه يعرف أن هذه الثقة الزائفة في النفس قد تجعل الإنسان يقع في معاصٍ لم يكن يتوقع أن يقع فيها.

وهنا يمكننا أن نستفيد من تجربة من يعملون في علاج الإدمان، حيث ينصحون المتعافين بعدم العودة إلى نفس الأماكن أو حتى تغيير أرقام هواتفهم؛

لأن الذكريات والروابط الذهنية التي ما زالت موجودة قد تعيدهم إلى نفس الطريق الخطر. قد تتساءل: لماذا كل هذا، مادام قد توقف عن الإدمان وخرج السم من جسده؟ والجواب: لأن هناك روابط نفسية وذهنية لا تزال موجودة وقد نثيره عند رؤية أشخاص أو أماكن معينة. لهذا يجب الحذر من الثقة الزائفة، وقطع الطريق على المعصية قبل أن تظهر من جديد، (فاجعل بينك وبين هذا الخطأ خندقاً عميقاً).

وفي ختام هذه القصة، يقول سيدنا كعب رضي الله عنه إن النبي ﷺ حين رآه بعد التوبة ابتسم وقال له:

«أَبْشِرْ يَا كَعْبُ بِخَيْرِ يَوْمٍ طَلَعَ عَلَيْكَ مِنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، فَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكَ» (206).

وكان كعب يصف ابتسامه النبي ﷺ قائلاً: «استنار وجهه كأنه قطعة قر»، وليس هناك أجمل ولا أحلى من ذلك اليوم الذي يعلم فيه الإنسان أن رب العالمين قد سامحه وغفر له! لأن مسامحة الله وتركه للنعم في يد الإنسان فضل عظيم لا يضاهي. فغالباً، حين يغضب الإنسان على أحد، يعاقبه بحرمانه مما يحب أو يملك، كما نفعل نحن مع أبنائنا حين يخطئون؛ فالولد الذي سقط في الامتحان بسبب اللهو يُحرم من الكمبيوتر، والموظف الذي لم يحقق أهدافه يُخصم من راتبه. أما الله فهو الكريم الغفور، فيغفر ويبقي النعم على عبده، وهذا هو الخير كله.

فلنجعل هذا المعنى النير حياً دائماً في قلوبنا: أن نعيش بصدق مع أنفسنا، وأن نثق بالله ونطلب منه الرحمة والمغفرة، ونحذر من ثقة النفس الزائفة التي قد تجرنا إلى السقوط، ونتذكر دوماً أن يوم غفران الله هو أعظم أيام حياتنا.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد الذي
شرحت صدره، ورفعت ذكره، وقرنت اسمه
باسمك، وجعلت طاعته من طاعتك، وخلعت عليه
من وصفك ونعتك.

اللهم ارزقنا تمام محبته، واتباع سنته، والتأدب
بآداب شريعته، والتمسك بأذيال أهله وعترته

واحشرنا يا مولانا يوم القيامة في زمرة.



(191) رواه البخاري.

(192) رواه البيهقي.

(193) رواه البخاري.

(194) رواه البخاري.

(195) رواه الحاكم.

(196) رواه أبو نعيم.

(197) رواه أبو نعيم.

(198) رواه أبو نعيم.

(199) رواه أبو نعيم.

(200) رواه مسلم.

(201) رواه أبو داود.

(202) رواه البخاري.

(203) رواه البخاري.

(204) مسند أحمد.

(205) رواه البخاري.

(206) رواه البخاري.

أحداث هامة في آخر العهد النبوي

وفاة السيدة أم كلثوم وقدم وفد ثقيف

وصلنا الآن إلى منتصف النصف الثاني من السنة التاسعة بعد هجرة النبي ﷺ، حيث كان عمره ﷺ آنذاك 62 عاماً، مع العلم أنه في السنة العاشرة سيبلغ 63 عاماً، ثم في ربيع الأول من السنة الحادية عشرة سيرتقي إلى الرفيق الأعلى، تاركاً وراءه حياة حافلة بالأحداث والمواقف العظيمة.

وفي السنة والنصف المتبقيتين من حياة النبي ﷺ، وقعت أحداث مهمة جداً، نبدؤها بحدث مؤلم وموجع، وهو وفاة السيدة الجليلة أم كلثوم بنت النبي ﷺ.

كانت للنبي ﷺ أربع بنات هن: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة رضي الله عنها، وكان له أولاد، هم: القاسم، وعبد الله، وإبراهيم، رحمهم الله جميعاً، لكن بعد وفاة أم كلثوم، لم يبق من أبنائه سوى فاطمة رضي الله عنها، وإبراهيم الذي توفي لاحقاً وهو صغير.

وكانت السيدة أم كلثوم رضي الله عنها متزوجة من سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان رسول الله ﷺ بنفسه هو الذي دفنها، ووضع التراب على قبرها وهو يقول:

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً

أُخْرَى ﴾ [سورة طه: 55]

ثم قال ﷺ وهو يسوي القبر:

«سُدُّوا خِلَالَ اللَّيْنِ». ثُمَّ قَالَ:

«أَمَّا إِنْ هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَلَكِنَّهُ يُطِيبُ بِنَفْسِ الْحَيِّ» (207).

وعموماً، الفكرة العميقة هنا أن الجسد البشري حين يدفن، قد لا يكون القبر كاملاً أو مثاليًا، لكن الذي يسكن هو الجسد، أما الروح فعند الله سبحانه وتعالى، فالهم أن الميت قد انتقل إلى رحمة الله، والحي هو من يطمئن حين يرى حسن الدفن، وهذا أول حدث مهم في هذه المرحلة من حياة النبي ﷺ.

أما الحدث الثاني في سيرة النبي ﷺ، فقد دخل على حياته شخصية مهمة للغاية، ظلت تتأخر طويلاً في الإسلام، وهو سيد من سادات قبيلة ثقيف في الطائف، وهو عروة بن مسعود الثقفي.

عروة بن مسعود كان من قبيلة عزيمة وقوية في الطائف، وقد قاومت الإسلام وقت دعوة النبي ﷺ لهم، بل كانوا يرمون النبي ﷺ بالحجارة، وأغروا السفهاء ليكونوا ضد الدعوة. وقد ذكر في القرآن الكريم نزول آيات تتحدث عنه وعن الوليد ابن المغيرة من قريش، حيث قال الوليد بن المغيرة، وهو أحد كبار قريش: «لو نزل عليّ القرآن في مكة أو على عروة بن مسعود في الطائف لَكُنَّا سَمْعَنَا الْكَلَامَ وَأَمْنًا، فلماذا نزل القرآن على محمد ونحن لا؟».

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾

عَظِيم ﴿[سورة الزخرف: 31]

والمقصود بالرجل من القريتين هنا: الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود.

هذا الرجل كان شديد الغلظة في موقفه، حتى إنه في صلح الحديبية وقف مستفزاً للنبي ﷺ، وأمسك بلحيته وقال له إن أتباعه من الأوشاب - الأوباش- سيتركونه ويهربون، لكن بعد فتح مكة هدى الله قلبه، وشعر بمدد الله لنبيه.

وبعد عودته من غزوة تبوك، جاء عروة بن مسعود إلى النبي ﷺ وقال له: «يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. إني ذاهب إلى قومي لأدعوهم».

لكن عروة كان يعلم أن قومه ثقيفاً كانوا مشركين وقاسين، فقال له النبي ﷺ:

«إنهم قاتلوك» (208).

فقال: «لا.. إني أحبُّ إليهم من أبصارهم».

وهكذا، خرج عروة إلى قومه، وصعد على تلّ عال، ونادى بدعوته قائلاً: «يا قوم، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أدعوكم إلى الله».

فرد عليه أحدهم بسهم، وضربوه بالنبال حتى أصابوه وقتلوه، فقال النبي ﷺ:

«إِنَّ مَثَلَهُ فِي قَوْمِهِ كَمَثَلِ صَاحِبِ يَاسِينَ فِي قَوْمِهِ» (209).

وتُذكر هنا قصة الرجل المؤمن في سورة يس، الذي جاء من أقصى المدينة يدعو قومه، فأصيب وقتل، ولكنه كان صادقاً في دعوته، وقد مكّنه الله وشرفه في الآخرة:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ
اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ
مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ
تَرْجِعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ

بُضْرٍ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23)
إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ
فَأَسْمِعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي
يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ

(27) ﴿﴾ . [سورة يس: 20-27]

مرت الأيام وندم أهل ثقيف على فعلتهم، وخافوا من مواجهة النبي ﷺ، فأرسلوا وفداً ليبايعوه ويسلخوا إن اقتنعوا.

حينما جاء الوفد، قابله المغيرة بن شعبة الثقفي، وهو من ثقيف، وأسلم مبكراً، فرحب بهم، وذهب ليُبشِّرَ النبي ﷺ بقدمهم، وأرشدهم كيف يُسلِّمُون بِتَحِيَّةِ الإسلام (السلام عليك يا رسول الله).

لكن عندما دخل الوفد، كان منهم من أسلم ومنهم من لم يُظهر الإيمان، فاستقبلوا النبي ﷺ بِتَحِيَّةِ الجاهلية قائلين: «أنعم صباحاً يا محمد»، رغم تعليم المغيرة لهم تحية الإسلام.

وكان النبي ﷺ بالنسبة لهم في البداية غريباً ومكروهاً، لكن بكلامه وحكمته صار لهم أحب الناس، وبدأ الحوار يدور بينهم:

قال أحدهم: «يا محمد، ألا تدعو لملكٍ كملك سليمان؟» حيث كان لسليمان رضي الله عنه مكانة عظيمة في أذهان العرب بسبب حكمته ومملكه.

فأجاب النبي ﷺ جواباً بديعاً في رقي وعمق، قال:

«لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ يدعو بها، وأريدُ أن أخبئَ دعوتي شفاعَةً لأُمِّي في الآخرة» (210).

تأمل معي عظمة هذا الرد، حيث إن النبي ﷺ لا يدعو لنفسه في الدنيا بملك أو جاه، بل يؤخر الدعاء إلى يوم القيامة، حيث تكون شفاعته لأُمته، وهذا يعكس كم هو كريم وعظيم ومتواضع في ذاته.

تعلّم ألا تحكم على أحد

سبحان الله! حقاً في حُسن الخواثيم عبرة عظيمة تضيء القلوب وتربطنا برحمة الله الواسعة.

عُروة بن مسعود الثقفي، الذي كان منذ فترة قصيرة في صلح الحديبية يواجه النبي ﷺ بالاستهزاء والانتقاص، ويقول له كلمات فيها استهزاء: «إني لأرى - أوباشاً - من الناس خليفاً أن يفروا ويدعوك»، وهو من كان المشركون يقولون عليه إنه من سادتهم، فيا ليت القرآن كان نزل عليه هو!

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولٍ مِّنَ الْقَرِينَيْنِ ﴾

عَظِيم ﴿ [سورة الزخرف: 31]

فما أجمل أن نرى كيف تحولت هذه الشخصية من إمام في الكفر إلى شهيد في سبيل الله!

الخاتمة بيد الله سبحانه وتعالى وحده، وهي التي تنير قلوبنا وتعلمنا ألا نحكم على أحد في الحال، وأن نحفظ دائماً بالأمل والرحمة.

فلنتعلم درساً ثميناً من هذا المشهد: إذا لم يعجبك حال أحد، فلا تغتظ أو تستصغر أو تستعل عليه، بل ادعُ لنفسك بالثبات والهداية، وادعُ له أيضاً؛ لأننا لا نعلم خاتمته أو خاتمته، والله وحده هو الذي يحكم بين الناس برحمته وعدله.

وهل تأملت جمال ونقاء الرحمة التي علمنا إياها النبي ﷺ في قصة عروة بن مسعود؟

عندما قُتل عروة على يد قومه، شبهه النبي ﷺ بمؤمن آل ياسين-ذلك الرجل الذي ذكره الله تعالى في القرآن الكريم-رغم ما كان عليه من قسوة تجاه النبي ﷺ في الماضي، وهذا يدل على حنان النبي ﷺ ورحمته ورفع له لمن تاب إلى الله مهما كانت خطاياهم الماضية.

فحتى وإن كان تاريخ شخص ما مليئاً بالقسوة أو العناد أو الخطأ، لا يجوز لنا أن نشكك في رحمة الله أو نحكم على مصيره، فنحن لا نعلم ما حدث في قلبه وموقفه

مع ربه، وأبواب التوبة مفتوحة، وهذا هو هدي النبي ﷺ الرحب والعطوف.

حقاً، هذه القصة دعوة لنا لأن نكون رحماء، وألا نغلق أبواب الخير والرجاء أمام أحد، وأن نتذكر دائماً أن الخواتيم بيد الله وحده، والرحمة أوسع من كل شيء.

وصية النبي ﷺ لـ (عثمان بن أبي العاص)

بعد أن أسلم وفد قبيلة (ثقيف)، كلف رسول الله ﷺ سيدنا (عثمان بن أبي العاص) أن يكون عليهم إماماً في الصلاة، وطلب منه أن يقيم الصلاة معهم. بقي هؤلاء القوم عدة أيام عند النبي ﷺ يتعلمون منه أحكام الدين. وداخل المسجد الشريف كانوا يتلقون العلم ويتعرفون على دين الإسلام عن قرب.

كان سيدنا عثمان بن أبي العاص كثير السؤال عن أحكام الصلاة وكيفيةها، فسأل النبي ﷺ عن مقدار الصلاة التي يُصليها الإنسان أمام الناس، وكم يقرأ من القرآن أثناء الصلاة الجماعية، فأجابه النبي ﷺ قائلاً:

«إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ، فَلْيُخَفِّفْ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ الضَّعِيفَ، وَالسَّقِيمَ،
وَالْكَبِيرَ» (211).

وفي رواية:

«وَالضَّعِيفَ، وَالْمَرِيضَ، وَذَا الْحَاجَةِ» (212).

أي: إنه يراعي حال من يصلون معه، من ضعفاء وصغار وكبار وأحياناً مرضى، فلا يشق عليهم في الصلاة الطويلة أو في قراءة السور الطويلة، بل يجعلها مختصرة تيسيراً لهم.

ثم سأل عثمان: «ما مقدارها؟» فرد النبي ﷺ عليه بجميل القول:

«اقْرَأْ: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَسَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وَخُحَّهَا» (213).

أي: يمكنه أن يقرأ سوراً قصيرة مثل سورة الضحى، أو الشمس، أو سبِّح اسم ربك الأعلى، وغيرها من السور القصيرة التي تحتوي على معانٍ جليلة، فتكفي في صلاة الجماعة.

وحدث بعد ذلك أن عثمان بن أبي العاص جلس في المسجد النبوي، ولكنه أحياناً كان يشعر بتشتت الذهن أثناء الصلاة، فاقترب إلى النبي ﷺ وقال له: «يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي». فأخبره النبي ﷺ وقال له:

«ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَاتَّقِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا» (214).

أي: استعن بالله، وادعه ليُبعدَ عنك هذا الوسواس، ثم ألقِ عليه الثلاث بفمك على يسارك لتطرده، وكانت هذه طريقة روحية عملية للتخلص من تشتت الذهن والوسوسة أثناء الصلاة.

وبعد ذلك جاء عثمان بن أبي العاص إلى النبي ﷺ وقال له: «يا رسول الله، هناك ألم في جسدي، ماذا أفعل؟» فأجابه النبي ﷺ بقلبه الرحيم قائلاً:

«ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ» (215).

هنا علمه النبي ﷺ كيف يستعين بالله في مواجهة الألم الجسدي بالثقة والرجاء، وكيف يستخدم الدعاء كدواء روعي يمسح الألم ويهدئ النفس.

كل هذه الأمور تبين لنا مدى رحمة النبي ﷺ وعطفه على أصحابه، وكيف كان يسهل عليهم دين الله ويرشدهم إلى طرق عملية روحية تجمع بين العمل القلبي والعبادة الحقيقية؛ ليعيشوا الطمأنينة والسكينة في صلاتهم وعبادتهم، سواء في أوقات اليسر أو في أوقات الشدة.

فهذا رسول الله ﷺ الذي كان يعلم أتباعه أن يخففوا الصلاة للناس، كي لا يثقل عليهم، وأن يلتزموا بسور قصيرة مختصرة تُيسر عليهم، وأن يعرفوا كيفية مواجهة الشيطان والوسوسة، وكيف يستعينون بالله في مواجهة الألم، وكل ذلك برحمة وحنان لا مثيل لهما.

إسلام (وحشي بن حرب)

كان هناك بطل، له حضور مهيب في أحداث السيرة النبوية، جاء ضمن وفد قبيلة ثقيف الذين أسلموا، فوقف فجأة أمام النبي ﷺ، وبلسان يملؤه الرجاء قال:

«أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله».. إنه وحشي بن حرب.

وحشي، العبد الذي كان عند جبير بن مطعم، ذاك الذي استأجرته هند بنت عتبة لقتل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة، في غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة.

وحين دخل النبي ﷺ مكة فاتحاً، هرب وحشي خوفاً من الحساب، وذهب إلى الطائف، وبينما كان يفكر في الهرب إلى الشام، قابله رجل وقال له: «إن محمداً لا يقتل من دخل في دينه». تلك الكلمات كانت النور الذي تسلك إلى قلبه.. فلو أنه دخل في الإسلام بصدق، فإن الإسلام يهدم ما قبله، مهما كان ذلك الماضي قاسياً ومظلماً. فدخل وحشي في الإسلام.

ولما وقف أمام رسول الله ﷺ، نظر إليه النبي ﷺ وقال: (أأنت وحشي؟). قال: «نعم، يا رسول الله».

فقال له النبي ﷺ:

«أنت قتلت حمزة؟» (216).

فسكت الجميع، والهواء كاد يتوقف من هيبة اللحظة، فنحن لم نكن نعرف تفاصيل مقتل حمزة إلا من قاتله نفسه.

قال وحشي بصوت خاشع:

«رأيت يا رسول الله كاجمل الأورق، يهد الناس هدأً، فوقفتُ فهزرتُ حربتي حتى رضيتُ عنها، فأطلقتها، فدخلت من ظهره وخرجت من بين رجله».

ثم اختلفت الروايات في رد فعل النبي ﷺ.

الرواية الأولى: قال له النبي ﷺ:

«فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهك عني؟» (217).

وكان الألم الذي في قلبه لم يزل له قرار.

وقد فسر العلماء هذا بطريقتين:

♦ الرأي الأول (البشري): أن النبي ﷺ، الذي هو بشرٌ يوحى إليه، لم يكن قادراً على أن يرى أمامه من قتل عمه حمزة، الذي كان يحبه حباً عظيماً، فمن الطبيعي أن الجرح كان عميقاً، فطلب منه ألا يريه وجهه. وهذا الرأي يجعل من النبي ﷺ أسوة حسنة لكل إنسان جُرح بعمق، ولم يستطع أن يتعامل مع من آذاه وكان شيئاً لم يكن. فحتى الرسول ﷺ، رغم عفوه، تألم. فلا تُخرج من كُسرت روحه إن لم يقدر على المواجهة.

♦ الرأي الثاني (النبي الرحيم) : أن النبي ﷺ خشي على وحشي من نظرات الصحابة، أو من إيذاء قد يناله، فقد كانت مصيبة حمزة فادحة على القلوب. فطلب منه أن يغيب وجهه، حفاظاً عليه لا جفاءً منه. وهذا الرأي أقرب إلى النفسية النبوية التي اتسمت دوماً بالحب والتسامح والحرص على الناس.

الرواية الثانية: فيها موقف آخر عظيم، فقد تنفس النبي ﷺ ثلاث مرات في الأرض، كأنه يتنهد من ألم الذكرى.. ثم رفع يده وضرب على صدر وحشي ثلاثاً، وقال له:

«قُمْ جَاهِدْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا صَدَدْتَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» (218).

أي: امضِ في طريق الله، وابدأ صفحة جديدة، جاهد كما كنت سبباً في الصد، وكن سبباً في النصرة.

وكانت تلك الكلمات نقطة التحول الحاسمة في حياة وحشي.

ومضت الأيام، وتوفي رسول الله ﷺ، وخرج جيش الإسلام لمحاربة مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة. وكان وحشي ضمن الجيش، يحمل حربته التي غيرت حياته ذات يوم.

فلما رأى مسيلمة في ساحة القتال، قال:

«هزرت حربي حتى رضيت عنها، فأطلقتها، فدخلت في صدره»

ثم قال قوله الخالدة، التي تحمل في طياتها مرارة الدم، وحكمة التجربة:

«أنا وحشي بن حرب، قتلُ خير الناس، وقتلُ شر الناس».

هكذا كانت حياة وحشي.. لم تلُغ خطيئته الأولى قدر التوبة، ولم يمنعه ماضيه من أن يكون له في طريق الحق سهم ونصيب، وقد علمنا النبي ﷺ، أن باب الله لا يُغلق أبداً، وأن التوبة تفتح صفحات من النور، مهما كانت البداية مظلمة.

فلا تيأس من نفسك، ولا تحتقر توبة غيرك.. فمن يدري؟ لعل قاتل الأمس يكون مجاهد اليوم، ولعل دموع التوبة تطهر ما عجز الناس عن غفرانه.

من قاتل خير الصحابة - أسد الله - إلى صحابي؟

ما أعجبها من قصة! وما أعمقها من دروس! قصة سيدنا وحشي بن حرب، الذي بدأت حكايته في ظلال الجريمة، وانتهت بنور الصحبة مع النبي ﷺ، قصة تُدهشك بتقلباتها، وتُلين قلبك بمغزاها، وتهمس إليك: أن القلوب قد تتبدل، وأن الله واسع الرحمة، وأن باب التوبة لا يُغلق مهما بلغت الذنوب.

كان وحشي قد هرب من مكة بعد فتحها، وفرّ إلى الطائف حيث قبيلة ثقيف، لم يكن مجرد هروب، بل كان فراراً من مواجهة ماضي ثقيل.. فقد قتل بيده حمزة بن عبد المطلب؛ أسد الله وسيد الشهداء، عم النبي ﷺ وأخاه من الرضاعة، في مشهد لا تُمحي صورته من الأذهان.

لكن لما أسلمت ثقيف، ضاق صدره بالأرض كلها، وقرر الهرب إلى الشام. وفي الطريق، قال له رجل: «إن محمداً رجل طيب، إذا ضاقت عليك الدنيا، فإن قلبه يسعك».

تلك الكلمة وحدها كانت كافية لتعيده..

لم يُعده سيفٌ ولا خوف، بل أعاده حُسن خلق النبي ﷺ وسمعته الطيبة، حتى عند من لم يؤمنوا به بعد.

فعاد وحشي إلى المدينة، يطرق باب الرحمة، ويدخل إلى حضرة النبي ﷺ مسلماً، ويشهد شهادة الحق بين يديه.

وكما روي سابقاً، حين سأله النبي ﷺ: «أنت وحشي؟». قال: «نعم، يا رسول الله».

قال: «أنت الذي قتلت حمزة؟»

قال: «نعم».

فقال له النبي ﷺ:

«فهل تستطيع أن تغيبَ وجهك عني؟» (219).

وكانت تلك الجملة، برغم قصرها، مليئة بالمعاني العميقة التي أبحر فيها العلماء بحثاً وتأملًا:

بعضهم قال: هي تعبير بشري عن ألم لا يُطاق، فالنبي ﷺ أحب حمزة حباً عظيماً، وكان فقدّه جرحاً لا يُنسى، فحين رأى قاتله أمامه، لم يقدر على أن ينظر إليه. ومع ذلك، لم يطرده، ولم يهينه، بل قالها بلطف: «غيب وجهك عني». وهذا يجعل النبي ﷺ قدوة ورحمة حتى لمن لا يستطيع أن يسامح.. فمن الناس من طعن في أعماق قلبه، ومنهم من ظلم ظلماً يفوق طاقته، وهؤلاء يجدون في هذا الموقف نبأساً، أن الرحمة لا تعني الإنكار على من تألم، ولا الإكراه على الصفح، بل هي أن نعذر مشاعر من كُسر.

أما التفسير الثاني، وهو الأقرب لرحمة النبي ﷺ، فقالوا: إنما قال له ذلك خشيةً عليه من الصحابة؛ من نظراتهم، من ألهم، من ذكرى سيدنا حمزة الحاضرة في كل نفس، فكأنه ﷺ يقول له: «احفظ نفسك، وابق بعيداً عن هذه العيون التي لم تنس مصيبتها بعد».

وفي كلا الرأيين، تتجلى الرحمة النبوية في أسمى معانيها، سواء رحمة بمن لا يقدر على المسامحة، أو رحمة بمن أخطأ ولا يحتمل العتاب.

ولو تأملت في سر هذه القصة، لوجدت أن الذي أعاد وحشياً إلى الإسلام لم يكن سيفاً ولا دعوة مباشرة، بل سُمعة النبي ﷺ وأخلاقه العظيمة، التي كانت تتردد حتى على ألسنة المشركين: «إذا ضاقت عليك الدنيا، وسعك قلب محمد».

فأي قلب كان له ﷺ؟ وأي رحمة كانت تفيض من كلماته، حتى أسلم له قاتل أحب الناس إليه؟ بل ارتفع مقامه، فأصبح صحابياً جليلاً!

تلك هي المعاني التي نحب أن نغرسها في قلوبنا:

♦ ألا نئس من أحد مهما فعل.

♦ وأن نسأل الله سعة الصدر، لكن لا نُجبر القلوب
المجروحة على ما لا تطيق.

♦ وأن نبقى دائماً على خلق النبي ﷺ في عفوهِ، في عدله،
في حكمته، وفي رحمته التي وسعت حتى من أساء إليه.

وصايا نبوية عظيمة لرُسله إلى البلاد

في تلك السنة المباركة، أقبلت الوفود إلى المدينة، يأتون من كل مكان، يضعون
بين يدي النبي ﷺ أيديهم وقلوبهم، يعلنون الإسلام ويشهدون بوحداية الله
ورسالته. ومن بين تلك الوفود جاء وفد فزارة، مجموعة من القبائل، دخلوا على
رسول الله ﷺ، وقالوا بصدق الإيمان: «نشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله».

فسألهم النبي ﷺ بحنانه المعتاد: «حدثوني عن بلادكم!». فأجابوه بأسى: «يا
رسول الله، أجذبت البلاد، وهلك الزرع، وماتت الماشية، فادعُ الله أن يُغيثنا».

لقد جاءوا إليه يشكون الجفاف والقحط، وقد عرفوا أن باب السماء يُفتح
بدعاء الحبيب ﷺ، وأن الرحمة تنزل إذا رفع كفيه الطاهرتين.

فقال لهم النبي ﷺ جملة تذيب القلوب:

«ضَحِكُ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ» (220).

فسأله:

«يا رسولَ الله! أَوَيَضْحَكُ الربُّ؟ قال: نعم. قالوا: لن نعدمَ من ربِّ يَضْحَكُ خيراً» (221).

أي: فإذا كان من صفات الله أنه يضحك.. فهذا خير كبير جداً، فرفع النبي ﷺ يده وقال:

«اللَّهُمَّ اسْقِ بِلَدَكَ وَبِهَيْمَكَ، وَاَنْشُرْ بِرُكَّتِكَ.. اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مَغِيثًا مَرِيئًا مَرِيحًا طَبَقًا وَاسِعًا عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ.. اللَّهُمَّ سُقِنَا رَحْمَةً لَا سُقِيَا عَذَابٍ.. اللَّهُمَّ اسْقِنَا الْغَيْثَ وَانصُرْنَا عَلَى الْأَعْدَاءِ» (222).

فاستجاب الله دعاء نبيه، وسقاهم سُقيا رحمة، فنزل الغيث، واخضرت الأرض، وامتألت القلوب بالفرح.. وفرح النبي ﷺ، وفرح من في المدينة.

وفي مشهد آخر يفيض عذوبةً وواقعيةً، أرسل ملك من ملوك اليمن يدعى «ذي يزن» هدية للنبي ﷺ: عباءة فاخرة، تُقدَّر قيمتها بثمن ٣٣ بعيراً! فلبسها النبي ﷺ، مع أنه هو النبي الزاهد، الذي كانت تمرُّ عليه الأيام بلا نار توقد في بيته، لكنه ﷺ كان يوازن بين الزهد والتكريم، بين البساطة وقبول النعم.

هذه اللمة النبوية فيها رحمة للقلوب التي أنعم الله عليها، وسَّع أرزاقها، فتح لهم أبواب الخير. فمنهم من يُوظَّف مئآت، ويُعين آلاف الأسر، ويُخرج الزكاة والصدقات، ولكن يلبس ثياباً فاخرة.. فلا يُستنكر عليه ذلك، إنما يُستبشر له. فقد قبل النبي ﷺ العباءة ولبسها، ثم ما إن جاءه أحد الصحابة وقال:

«يا رسول الله، ما أحسنَ هذهِ فاكُسُنِها! فقال: نَعَمْ» (223).

وأعطاها له، وما تردد لحظة.

هكذا هو ﷺ.. لا يتعلق بشيء من الدنيا، فإذا جاءت إليه نعمة، استعملها وشكر الله عليها، ثم إذا احتاج إليها أحد، أعطاها دون تردد.

ثم نُضيء بموقف آخر من نور النبوة، حين بعث النبي ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى أهل اليمن، فوقفا بين يديه يسألانه بقلبين ممتلئين أمانة: «أوصنا يا رسول الله».

وكأنهما يقولان: بماذا نُحب أن يعرفك الناس؟ وبأي صورة نُمثلك أمامهم؟ فالناس في معركة الحياة، أنهكتهم الهموم، وأرهقهم التعب، ويحتاجون إلى رحمة، لا إلى تشديد، إلى التيسير لا التعسير.

فقال لهما ﷺ:

«يَسِّرًا وَلَا تُعَسِّرًا. وَبَشِّرًا وَلَا تُنْفِرًا» (224).

وقد ورد عن سيدنا أبي موسى الأشعري:

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرِبَةٍ تُصْنَعُ بِهَا، فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: الْبِتْعُ وَالْمِرْزُ. فَقُلْتُ لِأَبِي بُرْدَةَ: مَا الْبِتْعُ؟ قَالَ: نَبِيذُ الْعَسَلِ، وَالْمِرْزُ: نَبِيذُ الشَّعِيرِ. فَقَالَ: كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ» (225).

ما أعظم هذا الميزان! ليس بالأسماء، بل بالحقائق، فلو سُمِّي بأي اسم، فإن كان فيه ما يذهب العقل، فهو حرام.

ثم قال لمعاذ بن جبل:

«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتَرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ جَبَابٌ» (226).

ثم قالوا له: «أوصنا يا رسول الله». فقال:

«عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ، فَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا أَحْسَنُهُمْ دِينًا» (227).

وهكذا، ختم النبي ﷺ وصاياهم.. وصايا لكل من أراد أن يُمثله في دعوته، في منطقه، في خلقه، في تعامله مع الناس.

وصايا لا تزال حيّة.. تضيء دروب الدعاة، والمربين، وكل من يحمل نوراً من نوره ﷺ في قلبه ولسانه وسيرته.

4 أنوار عِش بها حتى تُحِب الناس في رب العالمين

افتح قلبك لأنوار النبي ﷺ في وصيته لسيدنا أبي موسى الأشعري وسيدنا معاذ بن جبل حين أرسلهما إلى اليمن ليدعوا الناس هناك، فقد كانا رسولين لرسول الله ﷺ، ومن الطبيعي أن يسألاه: يا رسول الله، بماذا توصي؟ وماذا تحبنا أن نكون عليه مع الناس؟ فكأنهما يقولان: بأي سلوك تُمثلك؟ وبأي وجه نُقابل خلق الله؟ وبأي خلق نكون صورة لدينك في أرضٍ لم تسمع عنك بعد؟

فقال لهما ﷺ، بكلمات قليلة في لفظها، عظيمة في معناها، خالدة في نورها:

(يَسِّرْ وَلَا تُعَسِّرْ، وَبَشِّرْ وَلَا تُنْفِرْ).

كلنا نحفظ هذه الكلمات، لكن القليل منا يطبقها كما ينبغي؛ لذلك إن كنت تريد أن يُحِب الناس ربهم، وتُقَرِّبهم من نبيهم، وتُحِبَّ إليهم الدين، فاعلم أنك بحاجة إلى أن تعيش في نور هذه الوصية، وتضيء بها قلبك، وسلوكك، وحديثك، ونظرتك للناس، ورفقك بهم، وصبرك على ضعفهم، فتكون حقاً من الذين حملوا النور وبلَّغوه، كما أراد الله ورسوله.

• النور الأول والثاني: (يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا)

فالدين لم يكن يوماً عبئاً على الناس، ولا تكليفاً يفوق طاقتهم، ولا عبادة تُثقل عليهم دنياهم؛ وإنما جاء هذا الدين رحمة؛ تُنظم الحياة، وتزكي النفوس، وتضبط الشهوات، دون أن تُجفف الروح أو تُعقّد الطريق. انظر إلى أحكام الله عز وجل تجد فيها من التيسير والرحمة والواقعية ما يجعلها نظاماً إلهياً متوازناً يصلح الدنيا ويقود إلى الآخرة بسلام.

لكنك لن تستطيع أن تُيسّر على الناس، وتفهم مراد الشريعة في تفاصيلها، حتى تتعلّم؛ فغالباً من لم يتعلّم ويتعمّق في علوم الشريعة، ولم يطلّع على خلافاً العلماء وآرائهم وسعة فهمهم للنصوص، تجده يُحرّم ويُشدّد في كل شيء.. لماذا؟

قال أبو سفيان رضي الله عنه:

«الرخصة من الفقه، وإن التشديد يُحسنه كل أحد».

لأن الذي لا يعلم يلجأ إلى أسهل موقف في ظنه، وهو التحريم، فيقول: «دعني احتاط، فإن كان حلالاً لم أفعل، وإن كان حراماً نجوت». لكنه نسي أن الاحتياط في الدين قد يُثقل على الناس، ويُفَرِّهم، ويُجَلِّهم فوق طاقتهم، وقد يؤدي بهم إلى ترك الدين من بابه.

فالعاقل من يتعلّم، ويعرف كيف يُفتي، ومتى يُيسّر، ومتى يُشدّد، ومتى يصمت، فالتيسير علم لا تهاون.. ورحمة لا ضعف.. وفهم لا تفريط.

• النور الثالث والرابع: (بَشُرُوا، وَلَا تَنْفَرُوا)

وقد رأيت ثلاث طرق يُنفر بها بعض الناس عباد الله من دينه، فيخسرون القلوب قبل أن تصل إلى الله، وربما أغلقوا دونها أبواب الرجاء، وهم لا يشعرون!

أولها: أن تفرض على الناس عبادات لم يكونوا مستعدين لها في هذا الوقت..
تجد إنساناً لا يزال في بداية طريقه إلى الله، فيُفاجأ بمن يضغط عليه في العبادات،
ويفرض عليه فوق طاقته، ويشعره بالتقصير إن لم يفعل، فيثقله بحملٍ لم يهيئه له،
فيتعب، ويظن أنه لا يصلح، وأن الطريق لا يناسبه، فيتركه من أوله.

مثل هذا يحدث مع أولادنا، مع أصدقائنا، مع من نُحبهم، ونريد لهم الخير،
لكننا ننسى أن الشريعة نزلت على مراحل، والناس طبقات، والقلوب تحتاج إلى
تدرُّج.

فإذا لم نلتزم بالتدرُّج، ونُزاع الاستعداد النفسي والروحي عند الناس، نفرط في
الدعوة، وتخسر القلوب ما كادت تفتحه من أبواب الهداية.

وثانيها: أن يُصنّف أحدنا رحمة الله في عيون الناس

فترى من يتكلم وكأنه أعلم الخلق بالله، يُقرّر أن فلاناً سيُغفر له، وفلاناً
سيُعذّب، بل ربما قال عن مريض أو مُبتلى: «الله عاقبه على ذنب فعله». أو قال
عن غني: «الله يُحبه لأنه أعطاه». وكأنما اطلع على لوح الغيب، وكأن الله قد أعلمه
بشئون خلقه ومصائرهم عنده!

لكن الله سبحانه لم يعطِ علمه لأحد. ولو كان البلاء علامة غضب، لما ابتلى
الله الأنبياء وهم معصومون! فليس لأحد أن يحكم على مصير أحد، ولا يُفتي في
نيات الناس، ولا يُصنّف لهم رحمة الله كأنها ملكه.

وثالثها: أن يكون سلوكك مع الناس لا يدل على أن الدين غيرك للأفضل،
فيتعامل معك الناس فلا يجدون فيك الرحمة، ولا اللين، ولا الخدمة، ولا النفع،
ولا الأدب، ولا التواضع، فيقولون: إن كان هذا هو أثر الدين، فما حاجتنا إليه؟!

وهذه أعظم خيانة للدعوة؛ أن تكون نموذجاً منفراً، وأنت تظن نفسك داعياً!
فكن أنت برهان الدين، قبل أن تتكلم فيه.

• الخلاصة:

إذا أردت أن تكون سبباً في هداية الناس لا تنفيرهم، وفي محبة الناس لربهم لا خوفهم منه، فاعمل بوصية نبيك ﷺ: (يَسِّرْ وَلَا تُعَسِّرْ، وَبَشِّرْ وَلَا تُنْفِرْ)، وافتح قلبك لأنوارها، وازرعها في بيتك، وألزم بها لسانك، وعش بها في كل موقف تكون فيه ممثلاً للدين، ناطقاً باسم الرحمة، وارثاً لنور النبوة.

رحمة النبي ﷺ برأس المنافقين

في أواخر السنة التاسعة من الهجرة، وفي المدينة المنورة، وقع حدث عظيم، ليس فقط من حيث أثره الظاهر، بل من حيث دلالاته في عمق التاريخ النبوي وسيرته ﷺ، إنه وفاة عبد الله بن أبي ابن سلول؛ رأس المنافقين، الذي ما ترك مناسبة إلا طعن فيها النبي ﷺ، وسعى فيها لتفريق كلمة المسلمين، وكان على مدار تسع سنوات يُخفي الحقد، ويُظهر ما لا يُبطن.

لكن مهما علا الإنسان، أو تَمَادَى في مكره، فإن النهاية واحدة؛ لأن الله قال في كتابه:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [سورة الرحمن: 26]

فلا يبقى في النهاية إلا وجه الله سبحانه.

فلما حضرت ابن سلول الوفاة، ودخل في سكرات الموت، إذا بالنبي ﷺ يزوره، يدخل عليه وهو في الرمق الأخير.. يا لعظمة هذا القلب النبوي الذي لا يحمل الضغينة، حتى لعدو نافق وسب وشكك وتآمر!

وهنا نستحضر مواقف كثيرة مشابهة، كان فيها النبي ﷺ يدخل على الناس في لحظاتهم الأخيرة، وكأنه ﷺ يُطمئنهم، ويحنو عليهم، ويبعث فيهم الرجاء وهم يودّعون الدنيا.

دخل يوماً على شاب في لحظات وفاته، فسأله ﷺ برقة قلب المحب: (كيف تجدك؟). فقال الشاب: (يا رسول الله، أرجو رحمة ربي، وأخاف ذنوبي). فقال له ﷺ الكلمة العظيمة التي تُعد من مفاتيح الرجاء:

«لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبٍ عَبْدٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ» (228).

ما أوسع رحمة الله! إن كان في قلبك رجاء صادق في الله، فالله أكرم من أن يُخيبك، وإن كنت تخاف ذنوبك، فالله غفور رحيم، يكفيك ويغفر لك.

ويوم دخل على عمه أبي طالب في لحظاته الأخيرة، وكان لا يزال على الشرك، قال له ﷺ وقد تفطّر قلبه عليه:

«أَيَّ عَمٍّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» (229).

لم يتركه، وهو الذي طالما نصره وحماه.

أما عبد الله بن أبيّ، فلما دخل عليه النبي ﷺ وهو يُحتَضِر، قال له بنبوة تذكير وموعظة أخيرة:

«قَدْ كُنْتَ أَنْهَاكَ عَنْ حُبِّ يَهُودٍ» (230).

كأنها لحظة صدق ختامية، كأن النبي ﷺ يُعَاتِبُهُ عَلَى عُمُرِ أَفْنَاهُ فِي النِّفَاقِ وَالتَّحَالُفِ مَعَ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ يَتَجَسَّسُ لَهُمْ وَيُشْعَلُ الْفِتْنَ، فَاقْتَرَبَ ابْنُ سُلُوكٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَكُونِ الْمَوْتِ.

ويروي سيدنا عمر رضي الله عنه هذا المشهد فيقول: (فسأَرَ النبيّ؛ قال له كلاماً مُعِيناً، فقام النبي ﷺ نَفَلَ رِداءه وغطاه به).

وهنا نسأل: لماذا طلب عبد الله بن أبيّ أَنْ يُكْفَنَ فِي رِداءِ النَّبِيِّ ﷺ؟

نعود بالذاكرة إلى يوم غزوة بدر، حين أُسِرَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ، وَكَانَ رَجُلًا ضَخْمًا، وَخَرَجَ مُكْرَهًا مَعَ كِفَارِ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أُسِرَ لَمْ يَجِدُوا لَهُ ثَوْبًا يُغْطِيهِ، إِلَّا ثَوْبَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيّ؛ فَقَدْ كَانَ ضَخْمًا مِثْلَهُ، فَأَعْطَى لَهُ ثَوْبَهُ.

فلما جاء وقت موت عبد الله، ردّ له النبي ﷺ ذلك الجميل الإنساني، فكفنه في ردائه، غسله وألبسه ثوبه، ثم قام ليُصلي عليه.

لكن هنا حدث موقف حاسم، جاء سيدنا عمر رضي الله عنه، وقال من أمام النبي ﷺ: (يا رسول الله، أتصلي على عدو الله؟) يعني: كيف تُصلي على هذا الذي نافق، وخان، وحاربك سرّاً وعلناً؟

فقال له النبي ﷺ: (إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ فَقَالَ:

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ

مَرَّةً ﴾ [سورة التوبة: 80]

وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ). قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقُ! قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى

قَبْرِهِ ﴾ [سورة التوبة: 84]

فصلى عليه النبي ﷺ، رحمة ورجاء، ثم نزل الوحي بعدها يوافق رأي عمر:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾

[سورة التوبة: 84]

فقال عمر: (فما صلى النبي ﷺ بعدها أبداً على منافق، حتى قبضه الله).

وتمر الأيام ويأتي (وفد بني بكر) .. قام أحدهم بعد وصول الوفد بربط جملة خارج المسجد، ودخل المسجد فقال: (أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكى بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكى فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي ﷺ: قد أجبتك. فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سألتك فشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك. فقال ﷺ: سل عما بدا لك. فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال ﷺ: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال ﷺ: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال ﷺ: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقراءنا؟ فقال النبي ﷺ: اللهم نعم .

«فقال الرجلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وأنا رسول من ورأَيْ من قَوْمِي، وأنا ضَمَامُ ابن ثعلبةَ أخو بني سعدِ بن بكرٍ» (231).

وكان سيِّداً من سادات قومه، فلها أسلم، أسلم الناس من ورائه.

ورغم طول حوارهِ، لم يضجر منه النبي ﷺ، لأنه كان يتحرى الصدق، ويريد أن يطمئن، فمن ورائه قوم ينتظرون ما سيقول.

أما وفد عبد القيس، فكان وفداً عظيماً، دخلوا المدينة بالخيول والإبل، وكانوا في شوق لرؤية رسول الله ﷺ، فلها وصلوا انكبوا عليه، يُقبِلون يديه وقدميه، يشهدون أنه رسول الله.

لكن من بينهم رجلٌ اسمه أشج عبد القيس، لم يُسرِع مع القوم، بل وقف، وفتح متاعه، فأخرج ثوباً جديداً، واغتسل، وتطيَّب، ثم دخل على النبي ﷺ، وقال له السلام، فسلم عليه وشهد أنه رسول الله ﷺ.

فقال له النبي ﷺ كلمة تُدَوِّن بماء الذهب:

«إِنَّ فِيكَ خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ؛ الْحِلْمَ وَالْأَنَاءَ» (232).

فقال الرجل: (يا رسولَ الله، أنا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أم الله جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟).

فقال ﷺ: (بل الله جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا).

فقال: (الحمد لله الذي جَبَلَنِي عَلَى خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله ورَسُولُهُ).

هكذا كان قلب النبي ﷺ يسع العالمين، يرحم عدوه، ويصبر على من يسأله، ويثني على من يتأني ويتأدب، ويكرم من أساء له يوماً إن قدّم معروفاً.. فهلاً اتخذنا من هذا القلب قدوة؟! وهلاً وسعت صدورنا ما وسعه صدره ﷺ؟!

الهدي النبوي في إجلال لحظة الموت

عند وفاة عبد الله بن أبيّ ابن سلول؛ ذلك الذي نزل في شأنه القرآن، والذي طالما آذى النبي ﷺ في القول والفعل، وكان رأس المنافقين وقائدهم في المدينة، لم يُقابل النبي ﷺ وفاته بالشماتة ولا الجفاء، بل بالعكس، وجدناه ﷺ حاضراً إلى جانبه، يزوره في لحظات احتضاره، ويُكفّنه بثوبه الشريف، ويُعامل مشهده الأخير برحمة وحنان، كأنما يُرينا بأفعاله أن الموت مقام هيبة وجلال، لا مقام انتقام ولا شماتة.

هذا الموقف، في حقيقته، شعاع نور من سيرة النبي ﷺ، يدخل قلوبنا ليضيئها ويهذبها، فيعلّمنا كيف نتعامل مع لحظة موت الآخرين، حتى وإن كانوا ممن بيننا وبينهم خصومة أو خلاف أو حتى أذى. فليس من نور النبي ﷺ أن تُطلق لسانك بالشماتة، أو أن تُعلّق بعبارات فيها ارتياح لموت أحدهم، وكأنك تُعلن أنك قد تخلصت منه، بل إن هذا أبعد ما يكون عن خلقه الكريم ﷺ، الذي عظم الموت، وجعله لحظة مهيبّة، فيها تنتقل الروح من دنيا إلى آخرة، من دار العمل إلى دار الجزاء.

فإذا مات إنسان، فهو إما إلى رحمة الله الواسعة إن كان من الصالحين، وإما إلى ضيق الحساب وشدة العذاب إن كان من الفجار والمشرّكين.. ومع ذلك، لم يكن من هدي النبي ﷺ أن يشمت، أو يفرح بموت أحد، بل كان يتأمل في قدر

الله، ويتفكر في نهاية الإنسان، ويربي الناس على أن للموت حرمة، وأن لحظة خروج الروح لحظة وقار وليست لحظة انتقام.

وما نراه اليوم على وسائل التواصل من تعليقات فيها قسوة، وعبارات تشفّ، واستهزاء بمن مات، أو قول بعضهم: «إلى جهنم وبئس المصير» - كل هذا مما يُقسي القلب، ويبعد صاحبه عن نور الرحمة الذي جاء به الحبيب ﷺ.

فالله تعالى يريد منا أن نُجِلَّ لحظة الموت، لا أن نُحقرها، ولا أن نتشفى فيها. وإن شعرت في داخلك أن موت شخصٍ ما قد أراحك، فالصمت أولى بك، ولا تقل إلا خيراً، أو فاصمت.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد أكرم
رسول، وأشرف نبي، وعلى ساداتنا وأئمتنا ذوي
القدر العلي أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر
الصحابة وتابعيهم على الطريق السوي، صلاة
تُطهِّرنا بها من كل خُلُقٍ دني برحمتك يا كريم يا
رزاق يا كافي يا غني.

اللهم لا تحجب إحسانك عنا بتقصيرنا، ولا تمنع
عنا فضلك بغفلتنا، واجعلنا يا مولانا شاكرين

لنعمائك، وقنّ نفوسنا بعطائك، وحاسبنا يا مولانا
يوم القيامة برحمتك، واجعل مستقرنا في نعيم
جنتك.



(207) مسند أحمد.

(208) رواه البخاري.

(209) رواه الحاكم.

(210) رواه البخاري.

(211) رواه البخاري.

(212) رواه السيوطي.

(213) رواه البخاري.

(214) رواه مسلم.

(215) رواه مسلم.

(216) رواه البخاري.

(217) صحيح البخاري.

(218) ورد في الأثر.

(219) صحيح البخاري.

(220) رواه أحمد.

(221) رواه أحمد.

(222) رواه أحمد.

(223) رواه البخاري.

(224) رواه البخاري.

(225) رواه البخاري.

(226) رواه البخاري.

(227) رواه الطبراني.

(228) رواه الترمذي

(229) رواه البخاري

(230) رواه أبو داود

(231) رواه البخاري

(232) رواه أبو داود

حجة الوداع وخطبة عظيمة

الوفود التي جاءت إلى النبي ﷺ ومواقفه الشريفة معهم

ما زلنا نواصل رحلتنا المباركة في دروب السيرة النبوية العطرة، نغترف من حياة سيدنا محمد ﷺ الشريفة التي تفيض بالنور؛ نورٌ يُبدد كل ظلام يسكن أرواحنا، ويضيء لنا الطريق في زمن طغت فيه الغفلة وكثر فيه التيه، فهو ﷺ الرحمة المهداة، من أخرج الناس من ظلمات الجهل والضلال، والظلم وعبادة غير الله جل في علاه، إلى رحاب النور والرحمة، إلى الأخلاق الكريمة، إلى الحياة السوية المتزنة المتصلة بخالقها، رب العالمين.

وقد بلغنا الآن نهاية السنة التاسعة من الهجرة المباركة، والنبي ﷺ قد بلغ من العمر في أواخر سنته الثانية والستين، وقارب الثالثة والستين، فكانت هذه السنة خاتمة لمراحل عظيمة، ومفتتحاً لأحداث جليلة، حملت في طياتها وفوداً من أقوام شتى، ومواقف فارقة، ووصايا أخيرة أراد الحبيب ﷺ أن يُثبِتَها في القلوب قبل أن يرتحل إلى الرفيق الأعلى.

كانت تلك الشهور الأخيرة من عمره الشريف ﷺ محملة بالحقائق العظيمة؛ حقائق حرص على أن يُعلِّمنا إياها، ليبقى أثرها خالداً، فهلمَّ إليَّ بقلبك، وافتح عقلك، وتأمل معي كل موقف أراد النبي ﷺ أن يورثنا فيه معنى، وكل كلمة أراد أن يغرس بها هداية فينا.

أول الوفود التي وفدت عليه ﷺ في نهاية هذه السنة المباركة كان «وفد نجران»، وكانوا من النصارى، جاءوا ليقابلوا النبي ﷺ. وحين كانوا في المسجد النبوي الشريف، طلبوا الإذن منه أن يُصلوا صلاتهم، فأذن لهم، فاتجهوا ناحية المشرق وصلّوا، ما أروع هذا المشهد! وما أسمى هذه الروح! قمة التسامح والتقبُّل، وترسيخ لمفهوم الأخوة الإنسانية، حتى مع اختلاف العقائد والديانات. وقد أكّد القرآن الكريم هذه القيم بقوله تعالى:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون: 6]

وقال سبحانه:

﴿وَالِإِذَا عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [سورة الأعراف: 65]

رغم أن قوم عاد كانوا مشركين يعبدون الأصنام، فقد وصف الله نبيهم بأنه «أخوهم» لما بينهما من نسب في الإنسانية؛ إذ كلهم من ذرية سيدنا آدم ؑ، فهي

هي الأخوة تتجلى، حتى مع من ضلّوا عن الطريق.

ثم جاء وفد آخر يُعرف بـ «وفد بني حنيفة»، ولم تُركِ السيرة النبوية كثيراً على هذا الوفد، إنما أضاءت لنا جانباً من خلال رجل واحد فيه، كان حضوره سبباً في اختبارٍ عظيمٍ للحق. إنه (مُسيلمَة)، الذي دخل المدينة مع الوفد، وأقام عند أحد أقربائه، وقد ذهب إليه رسول الله ﷺ بنفسه، وكأنه ﷺ شعر بشيء ما في قلبه تجاه هذا الرجل، فذهب إليه ومعه عصاً صغيرة، وكان برفقته سيدنا ثابت بن قيس رضي الله عنه، خطيب النبي ﷺ البليغ.

وعندما وصل إليه، قال له (مُسيلمَة) بجرأةٍ وتعالٍ: «إن شئت يا محمد خَلِّنا بينك وبين الأمر، على أن تجعله لنا من بعدك». أي بمعنى: أتركك تبلغ دينك، ولكن اشترط أن تكون النبوة له من بعده! فردَّ عليه النبي ﷺ بكل حزم وصدق:

«لو سألتني هذا القَضِيبَ ما أعطيتُكَ، وإنِّي لأراك الذي أُرِيتُ فيه ما أُرِيتُ، وهذا ثابتُ بنُ قَيْسٍ، وسيُجِيبُكَ عَنِّي» (233).

أي: حتى هذه العصا الصغيرة لا أعطيكها، وما أراك إلا ذاك الذي أُرِيتُ في رؤيائي، من يدعي النبوة من بعدي؛ لأن النبي ﷺ رأى في رؤيته أن هناك من يأتي بعده ويدعي النبوة، وبالفعل كان منهم (مُسيلمَة الكذاب)، وقد صدقت الرؤيا، فكان (مُسيلمَة) هو مسيلمَة الكذاب؛ أحد أعظم أدعياء النبوة في التاريخ.

ومن الوفود التي دخلت على النبي ﷺ أيضاً «وفد بني أسد»، وكان عددهم مائة رجل، ومن بينهم رجل يدعى «أبا راشد عبد الرحمن بن عبيد»، فلما اقتربوا من المدينة، قالوا له: «ادخل أنت أولاً، واسمع من محمد، فإن اقتنعت بما يقول أسلمنا جميعاً معك، وإن لم يعجبك كلامه نرجع كما جئنا». دخل أبو راشد على

النبي ﷺ، فسأله عن اسمه، فقال: «أبو مغوية عبد اللات والعزى». فقال له النبي ﷺ بلطف وإلهام:

«بل أنت أبو راشد عبد الرحمن» (234).

فأكرمه النبي ﷺ وأجلسه إلى جواره، وأعطاه جبته، ونعله، وعمامته، شرفاً وتقديراً له، وهذا من دلائل كرم النبي ﷺ العظيم.

ثم سأله النبي ﷺ: «من هذا الذي معك؟». قال: «هذا عبد يُدعى سرحان». فقال له النبي ﷺ:

«هل لك يا أبا راشد أن تُعْتَقَ فيُعْتَقَ الله عز وجل بكل عضوٍ منه عضواً منك من النار؟» (235).

فقال أبو راشد: «هو حرُّ لوجه الله». ثم قال: «والله ما رأيت أكرم من هذا الرجل». فخرج من عند النبي ﷺ مثلهل الوجه، موقناً بالإيمان، يردد التهليل والتكبير فرحاً بما وجد من كرم وسماحة ورحمة.

ولما سأل الصحابة النبي ﷺ عن سر هذا الكرم لأبي راشد، أجابهم النبي ﷺ بقوله:

«إذا جاءكم كرمٌ قوم فأكرمُوهم» (236).

هكذا علّمنا الحبيب ﷺ أن القرب من الله لا ينفصل عن الرحمة بالخلق، وأن الكرم من دلائل النبوة، وسلوك الأنبياء.

إنه ﷺ، كما وصفه رب العزة:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: 107]

رحمة في القول والفعل، في الموقف والقرار، في الهداية والتعليم، في السياسة والدعوة، في كل نبضة من حياته ﷺ.

حج سيدنا (أبي بكر الصديق) ووصية النبي ﷺ له

وفي ختام هذه السنة المباركة، وفي شهر (ذي الحجة)، بعث النبي الكريم ﷺ سيدنا الصديق أبا بكر رضي الله عنه إلى مسلمين في حج البيت الحرام، ومعه نفر من الصحابة الكرام، بعدما كانت مكة - التي فُتحت في العام السابق، في السنة الثامنة للهجرة - قد أصبحت طاهرة نقية من رجس الشرك والأوثان.

ولم يكن هذا الحج عادياً، بل حمّله النبي ﷺ رسائل عظيمة وأحكاماً فارقة، أراد بها أن يعلن للبشرية تحولاً جذرياً في قدسية البيت، وفي شعائر الله. فأوصاه قائلاً:

«لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ. مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَدَّةٌ فَأَجَلَهُ إِلَى مَدَّتِهِ؛ إِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ» (237).

يا لها من لحظة عظيمة! لقد أعلن فيها أن الطهارة الإيمانية شرط لدخول جنات الرحمن، وأن الطواف بالبيت لا يليق به شرك ولا عري، وأن المواثيق التي أبرمت مع المشركين قد قُيّدت بأجلٍ معلوم، بعده لا يبقى للشرك موطئ قدم في هذا الدين.

ولعل في النفس تساؤلاً يثور: أكان هناك من يطوف بالبيت وهو عارٍ تماماً من ثيابه؟! نعم، وللأسف! لقد لبس عليهم الشيطان، فألقى في نفوسهم وسوسة غريبة تقول: «لا تطوفوا بالبيت بثياب قد عصيتم الله فيها!»، فكانوا ينزعون ثيابهم ويتجردون تماماً، ويطوفون بالكعبة عُرَاة! تخيل مدى الانحراف عن الفطرة، ومدى حاجة البشرية لهدي السماء! وقد أدّى سيدنا أبو بكر رضي الله عنه الأمانة، وبلغ ما أمره به النبي ﷺ، فوقف في الناس يعلن هذه التشريعات الإلهية بكل وضوح، ليُعلم القريب والبعيد أن زمن الجاهلية قد ولى، وأن البيت الحرام لا يطوف به إلا ملبون طاهرون مؤمنون، مكرّمون بثيابهم كما كُرِّمت الكعبة بأحكام ربها.

وحجّ أبو بكر رضي الله عنه بهذه الرسالة، ثم عاد بها إلى النبي ﷺ الذي سيكون على موعد في العام التالي مع الحجّ الأعظم؛ الحجّة التي ودّع فيها الأمة، وودّعته السماء.. إنها حجّة الوداع، أو كما يسميها بعض أهل العلم: حجّة الإسلام، ففيها كملت الرسالة، وتم النور، ونزل قول الله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: 3]

فهنيئاً لمن كان شاهداً هذه اللحظات، وهنيئاً لمن وعى دروسها، واهتدى بهدي الحبيب ﷺ.

الرؤية الزائفة للنفس وعواقبها

ظهور شخصية (مُسيّلة الكذاب) وما رآه النبي محمد ﷺ في رؤياه عنه من ادعائه النبوة بالكذب، يُبين لنا كيف يمكن أن يكون لدى بعض الأشخاص تضخّم هائل في الذات لا حدود له، تخيل لو كان هذا الشخص لم ير نبياً قبله، فقد يمكننا أن نتفهم أن يظن في نفسه أنه قد يصلح ليكون نبياً، لأن الجهل قد يجعل الإنسان يظن نفسه قادراً على أمور عظيمة، ولكن (مُسيّلة) لم يكن في هذه الحالة، بل على العكس من ذلك، لقد رأى الأنوار المحمدية حقاً، ورأى النبي محمداً ﷺ بكل جلاله ونوره، وهو خير الأنبياء وأشرفهم، فهل كان من الممكن ألا يشعر (مُسيّلة) ويتيقن في أعماقه، وهو أمام هذه الحقيقة الساطعة، بأنه أقل بكثير من أن يدّعي النبوة ويزعمها زوراً وبهتاناً؟

هذا يشبه تماماً أن يأتي شخص لأول مرة في حياته إلى صالة الألعاب الرياضية (الجميم)، ويعلن بثقة أنه سيحصل على لقب «مستر أوليمبيا» - وهو لقب الأبطال في

كمال الأجسام - ثم يأتي ويرى عن قرب أمثال البطل العالمي (بج رامي)، ويشاهد خبراتهم وتجاربهم التي استمرت لعشرات السنين، ومع ذلك يظل متمسكاً في اعتقاده بأنه سيكون هو الأفضل، بالرغم من أنه لم يحمل الأوزان من قبل ولم يخض التدريبات الطويلة التي خاضوها.

إنه درس عميق في التواضع ومعرفة الذات. فكما أن النبي ﷺ هو المثل الأعلى للإنسان الكامل، فإن (مُسيلة الكذاب) الذي رأى هذه الحقيقة المحمدية وأدركها، ورغم ذلك أعلن أنه سيكون نبياً، كان يعاني من رؤية زائفة وغير واقعية لحقيقته كإنسان. كان يعتقد، في غلو غروره، أنه لو نطق وقال للناس: «قال الله، وقلت أنا الرسول»، فإن الناس ستستمع إليه وتصدق، لكن العجيب أن المتكبر يغيب عنه دائماً إدراك حقيقته؛ فهو لا يرى عيوبه ولا يقبل أن ينظر إليها بصدق. وهكذا، نجد أن المتكبر كمن يقف على قمة جبل ويرى كل الناس من حوله صغاراً، بينما الجميع يرونه هو نفسه صغيراً وضئيلاً في مكانه.

إنها صورة مؤثرة تذكّرنا بأن الغرور والغرور الذاتي يعميان القلوب عن الحقيقة، وأن التواضع هو الطريق لفهم الذات والعالم من حولنا بحق.

أ | حديث مكذوب عن النبي ﷺ .. احذر منه

أما بالنسبة لـ (وفد بني الأسد) الذين أرسلوا كبيرهم لتقييم كلام النبي محمد ﷺ، فقد خرج ذلك الرجل من عنده منبهراً ومبهوراً بكرم النبي ﷺ وأخلاقه العالية التي لا تُضاهى، وهنا أود أن أزيل من عقولنا وأذهاننا ذلك الحديث الموضوع والمكذوب، الذي يُقال عن سيدنا محمد ﷺ، وهو: (الكبر على أهل الكبر صدقة).

هذا القول لا يعكس الحقيقة؛ لأن الكبر على أي إنسان هو في الحقيقة معصية عظيمة، لا يجوز تبريرها تحت أي مسمى.

فالنبي ﷺ عندما شعر أن الرجل كان «شاييف نفسه» - أي متكبراً ومتعالياً - لم يعامله بازدراء أو تعالٍ، بل بالعكس، أكرمه وبالغ في استقباله وكرمه إلى أقصى حد، حتى استنفر فيه كل الجمال والسمو الذي كان داخله، خرج ذلك الرجل وهو يحكي للناس عن تلك الأنوار المحمدية التي رآها، داعياً إياهم إلى الإسلام قائلاً: «أسلموا لتروا هذه الأنوار التي رأيتموها».

وعندما سأل الصحابة النبي ﷺ عن سر إكرامه الشديد لهذا الرجل، أجابهم قائلاً: «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه». بهذه الكلمات، يضع لنا رسول الله ﷺ قواعد واضحة تنير قلوبنا وتوجهنا في كيفية التعامل مع الآخرين بخلق كريم وعقل راجح، دون أن ننسى أبداً قيمة التواضع والرحمة، ومبدأ احترام كل إنسان مهما كانت صفاته أو مواقفه.

فهذه الحكمة النبوية هي منارات تنير دروبنا في معاملة الناس، تعلمنا أن نكرم الشريف ونقدر الجمال الكامن في كل نفس، دون أن نسمح لأنفسنا بالوقوع في فخ الكبر والازدراء؛ لأن ذلك يتنافى مع روح الإسلام الحقيقية التي جاءت رحمةً وهداية للناس أجمعين.

وفاة سيدنا (إبراهيم) ابن النبي ﷺ ورحمة النبي ﷺ به لحظة وفاته

أعظم حدث تحفظه لنا السيرة النبوية في السنة العاشرة من بعد هجرة النبي محمد ﷺ، حينما كان عمره الشريف يقترب من ثلاثة وستين عاماً، هو وفاة (سيدنا إبراهيم) - ابن النبي ﷺ - في اليوم العاشر من شهر ربيع الأول، وكان عمره لا يتجاوز ستة عشر شهراً فقط. وكانت السيدة الجليلة (مارية القبطية) - أمة النبي ﷺ - وأختها (سيرين) يبكيان بحرقة على هذا الوليد الغالي، وهو يرحل عن الدنيا بروحه الطاهرة. ولم ينههما النبي ﷺ أو يمنعهما عن البكاء، بل سمح لقلوبهما الحزينة بأن تفيض من مشاعر الحزن والوجدان.

وعندما رفع للنبي ﷺ ذلك الصبي الغالي في لحظات حياته الأخيرة، قبله وشمه برقة ومحبة عميقة. فلنتأمل جمال هذه الأفعال النبوية، فهي على النقيض من القسوة والشدة التي كانت سائدة في ذلك الوقت بين العرب. فقد جاء رجل يجلس مع النبي ﷺ، فرّ عليه أحد أحفاد النبي ﷺ فقبله، فتساءل الرجل متعجباً: «أتقبلون الصبيان؟ إن لي عشرة أولاد لم أقبل أحداً منهم!». فرد عليه النبي ﷺ بكل حنان وبلاغة:

«أَوَأَمَلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟» (238).

هنا نرى كيف أن الأطفال يحتاجون إلى الحنان والرحمة، وأن الحزن الدافئ هو أساس ينشأ عليه الطفل، ليحظى بثقة قوية في نفسه.

وعندما توفي (سيدنا إبراهيم)، حمله النبي ﷺ بين ذراعيه وعبق أنفه به، كأن لكل إنسان رائحة خاصة تظل محفورة في الذاكرة ولا تُنسى بعد أن يرحل عن الدنيا. ثم بكى النبي ﷺ، وكان بجانبه الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف، فسأله عبد الرحمن بدهشة: وأنت يا رسول الله؟! فقال: (يا ابن عوف، إنها رحمة). ثم أتبعها بأخرى، فقال:

«إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون» (239).

في هذا الموقف الجلل، كشف لنا النبي ﷺ عن حقائق عظيمة، منها أن البكاء على الميت ليس من المحرمات، وإنما الصراخ والعيول المبالغ فيه هو ما لا يجوز، فحتى النبي ﷺ، سيد الرجال والأنبياء، لم يمنع دموعه ولم يكتف حنانه ومشاعره الرحيمة تجاه فقد ابنه الغالي، ولم ينه أمه أو من حوله من النساء عن التعبير عن الحزن بالبكاء. فالحزن والبكاء على الأحبة الذين نفارقهم هو شعور إنساني طبيعي وعميق.

وفي النهاية، دفن النبي ﷺ ابنه (إبراهيم) وصلى عليه، مظهرًا بذلك المودة والرحمة العظيمة، معلنا لنا أن الفراق مهما كان مؤلماً، فإنه يظل في إطار الإيمان والرضا بقضاء الله تعالى.

تجهيزات حجة الوداع (حجة الإسلام)

تمر الشهور في سنة عشر من بعد هجرة النبي ﷺ، وعمره الشريف يقترب من الثالثة والستين، ويقول لنا ابن هشام في سيرته العطرة: إنه في يوم العشرين من شهر ذي القعدة، بدأ النبي ﷺ يتحرك لأداء حجته العظيمة التي سماها سيدنا عبد الله بن عباس «حجة الإسلام»، رفض أن يطلق عليها ما يُعرف اليوم بـ«حجة الوداع»؛ لما فيها من معنى أن هذا الحج هو الحج الحقيقي للإسلام، حيث رسم فيه النبي ﷺ أسس معاني الدين وشرحه للناس.

وكان هذا هو الحج الوحيد الذي أداه النبي ﷺ في حياته؛ فقد أدى العمرة أربع مرات، لكنه حج مرة واحدة فقط. وعندما علم الناس أن رسول الله ﷺ سيتوجه إلى مكة لأداء الحج، توافدوا من كل قبيلة؛ رغبة في أن ينالوا بركة هذا الحج مع النبي ﷺ، وأن يشاركوه تلك اللحظات المباركة.

استعد النبي ﷺ لهذا السفر الروحي، فصلى صلاة الظهر في المدينة أربع ركعات، ثم تحرك على ناقته المتواضعة، دون أن يحمل معه إلا بعض الأغراض البسيطة جداً، مثل رحل رث وقطيفة بسيطة تساوي أربعة دراهم فقط. لم يكن يحمل تجهيزات فاخرة، بل كان حاله بسيطاً متواضعاً.

وقبل أن يتدبّر رحلته المباركة، رفع صوته بالدعاء قائلاً:

«اللَّهُمَّ حِجَّةً لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةً» (240).

كأنه يؤكد لنا أن جوهر الحج والعمرة هو التواضع والبساطة، وأنه لا مكان للتفاخر أو التميز بالمظاهر، فهذا هو الأقرب إلى القلوب والأنقى لدى الله. لذلك كانت ملابس الإحرام كلها متشابهة، مجرد قطع من القماش الأبيض البسيط، لا فرق بين غني وفقير، أو بين أمير وعبد، فتلك البساطة في الهيئة تُظهر روح المساواة التي يزرعها الإسلام في النفوس.

وعندما وصل النبي ﷺ إلى ذي الحليفة أو أبار علي - وهو المكان نفسه - اغتسل هناك استعداداً للإحرام. وتذكر السيدة عائشة رضي الله عنها كيف رآته كأنها ترى « وَيَبِصُّ الدُّهْنَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ »؛ أي كان شعره مليئاً بالعطر، فقد كان من عادته ﷺ أن يفرق شعره ويضع العطر في مفرق رأسه، تجملاً لله تعالى..

«إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» (241).

ثم ركب النبي ﷺ ناقته، وقبل أن يبدأ التلبية، نظر حوله بين الراكبين والمشاة، فكان معه حوالي مائة ألف صحابي رضوان الله عليهم، وقد شهد الله عز وجل ذلك في قوله تعالى:

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾

[سورة النصر: 2]

هل تذكر كيف بدأ الأمر صغيراً في دار الأرقم بن أبي الأرقم؟ كان عدد المؤمنين حينها 39 فقط، وعندما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، صاروا 40 فقط. وكان النبي ﷺ يقول عن تلك الأيام الصعبة:

«ولقد أتت علي ثلاثون من بين يومٍ وليلةٍ وما لي ولبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ إلا شيءٌ يُواريه إبطُ بلالٍ» (242).

أي لم يكن لديهم إلا القليل جداً.

وبعد ذلك، بدأ النبي ﷺ يردد التلبية بقلبٍ مفعم بالإيمان قائلاً:

«لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ» (243).

وقد حج النبي ﷺ، وعلى أقوى الأقوال أنه حج قارنًا، أي جمع بين العمرة والحج في نفس الشعيرة، فقال:

«لَبَّيْكَ عُمْرَةً وَحَجًّا» (244).

ويذكرنا العلماء بأن هناك أنواعًا مختلفة من الحج: فبعض الناس يحج مُتَمَتِّعًا، بمعنى أنه يبدأ بنية العمرة ثم يتحلل، وبعدها يبدأ الحج. والبعض الآخر ينوي الحج المفرد، ويقول: «لبيك اللهم بحج». وبدأ الجميع يردد التلبية مع النبي ﷺ، وكان سيدنا عبد الله بن عمر يزيد في التلبية ويقول: (لبيك وسعديك، لبيك والرغباء إليك والعمل).

«كان أصحابُ رسول الله ﷺ يرفعون أصواتهم بالتلبية حتى تُبَحَّ أصواتهم» (245).

وقد رُويت هذه القصة المباركة في كتب الحديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم، والكثير من كتب السنة، تحكي لنا قصة (حجة الوداع) أو كما سماها عبد الله بن عباس (حجة الإسلام)، وتظل ذكرى هذا الحج نبراسًا يهتدي به المسلمون إلى يوم الدين.

رحمة النبي ﷺ وأمانته في توصيل الوحي

بكاء سيدنا محمد ﷺ، أعظم وأقوى وأثبت وأنقى خلق الله على الإطلاق، كان بكاءً يحمل بين طياته طبخة حانية على كتف كل رجل أو امرأة فقدوا أحبائهم، وكأنه يقول لهم: «لا بأس، فالمشاعر التي تملأ القلب تفيض على العين، فالبكاء ليس مجرد دموع عابرة، بل هو تعبير صادق عن أحاسيس عميقة تنبع من القلب».

فالمشاعر التي تسكن القلب هي مزيج من الفرح والخوف والحزن، ووجع فراق الأولاد والأقارب، والقلب يمتلئ بكل هذا الحزن حتى تعبر عنه العين بالدموع. وهذا البكاء، لا علاقة له مطلقاً بالسخط على قضاء الله وقدره، بل هو تعبير إنساني رقيق، وموقف حيّ وواقعي من سيد الأكوان ﷺ.

وعندما سأل الصحابي النبي ﷺ عن سر بكائه، أجابه النبي ﷺ بحكمة وصدق: (إنها رحمة.. وإن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن) ، فيبين أن العين هي التي تعبر عن الحزن الذي يعتصر القلب، ويضيف النبي ﷺ أن القلب لا يملك إلا أن يقول: «ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

وفي هذا الموقف نرى مدى أمانة النبي ﷺ وصدق مشاعره مع أصحابه، حينما توفي إبراهيم رضي الله عنه، وحدث كسوف للشمس، فظن الصحابة أن هذا الكسوف كان لوفاة إبراهيم. وكان من الممكن لأي إنسان أن يسكت أو يترك الأمور كما هي، لكنه ﷺ لم يفعل ذلك، بل أوضح الحقيقة وأزال اللبس.

فعندما قال الصحابة: «انكسفت الشمس لموت إبراهيم»، أجابهم النبي ﷺ بكل

وضوح وحزم:

«إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عَبْدَهُ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ» (246).

وهذا الموقف يؤكد لنا أمانة النبي ﷺ في توصيل الوحي، وحرصه الشديد على أن تصل الحقيقة واضحة، خالية من أي لبس أو خرافة، في وقت كان الناس يحتاجون إلى هذا التوضيح ليمسكوا بالإيمان الصحيح، بعيداً عن الخرافات أو التفسيرات الخاطئة.

مشهد من نور

بكل مشاعر الامتنان والرغبة، ننتقل إلى مشهد (حجة الوداع) العظيم، حيث وقف النبي ﷺ محاطاً بمائة ألف من الناس، تجمعوا حوله في لحظة تاريخية ملؤها البركة والرحمة. في تلك اللحظة، كان في قلبه شعور جميل وعميق بالامتنان، كأنه يسترجع بدايات الدعوة التي كانت تبدو متواضعة وصعبة جداً، حينما كان وحيداً مع بلال فقط، أو مع أبي بكر الصديق، أو حينما كان مع زيد بن حارثة في الطائف، حيث تعرضا للرمي بالحجارة والشدائد.

والآن، في هذا اليوم العظيم، ينظر النبي ﷺ ببصره ويُشاهد المسلمين ينتشرون حوله في كل اتجاه، بين راكبين وماشين، كأن الأرض قد امتلأت بالناس الذين دخلوا في دين الله أفواجا، كما أخبرنا الله تعالى في قوله الكريم:

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾

[سورة النصر: 2]

ذلك المشهد لا ينسى، فهو يختصر قصة صبر وعطاء وتضحيات، قصة مَنْ تحول فيها القليل إلى الكثير، ومن الوحدة إلى جمع عظيم، قصة النور الذي عم وأضاء القلوب والأرواح.

وصول النبي ﷺ عند الكعبة ودعاؤه وقتها

ها نحن نعيش مع لحظات حية من رحلة النبي ﷺ وأصحابه على مشارف مكة المكرمة، حيث كانت الأجواء مليئة بالسكينة والطمأنينة، والقلوب مفعمة بالإيمان والرجاء. كان الصحابة مستمرين مع سيدنا رسول الله ﷺ، جميعهم يلبون ويكبرون بأصوات مفعمة بالخشوع والحب، والنبي ﷺ يسمعهم على اختلاف صيغ تليياتهم، فلم يُنكر على أحد، بل كان ذلك كله ينبض بهدوء وصفاء، فالسكينة كانت هي الجوهر الأساسي لهذا المشهد المبارك.

وقبل أن يدخلوا مكة، مروا بوادٍ يحمل اسمًا عظيمًا..

«وادي عسفان» (247).

فنبه النبي ﷺ أصحابه فقال:

«لقد مر به هود ، وصالح ، علي بكرين أحمرين (248) خطمهما (249) ليف ،
وأزرهم (250) العباء ، وأرديتهم (251) النمار (252) يلبون ، يحجون البيت
العتيق» (253).



ليؤكد بذلك أن عبادة البيت الحرام ليست فقط عبادة المسلمين، بل هي تاريخ
البشرية كلها، حيث كان الأنبياء جميعاً يتوجهون إلى هذا البيت الشريف بعد أن
بناه وأرسى قواعده أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وفي أثناء هذا الطريق، حاضت السيدة عائشة رضي الله عنها، فخرنت وبكت،
فطمأنها النبي ﷺ وقال لها:

«فَاعْبُدِي مَا يَفْعَلُ الْحَاجُّ، غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّى تَطْهَرِي» (254).

فطمأنها أن حيضها لا يمنعها من إتمام مناسك الحج، سوى الطواف حول
البيت الحرام، وهذه سنة عظيمة تعلمنا منها أن الله لا يُنقص من عمل العباد بسبب
أمر طبيعي تحدث للنساء، بل الفهم الحقيقي هو الرحمة واليسر.

وبعد طول انتظار وصلوا إلى مكة، ورأى النبي ﷺ الكعبة من بعيد، فرفع يديه
بالدعاء قائلاً:

«اللهم زد هذا البيت تشريقاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وزد من شرفه وكرمه وعظمه ممن حجه أو اعتمره تشريقاً وتكريماً وتعظيماً وبراً» (255).

ثم حين دخل المسجد الحرام، وضع النبي ﷺ شفتيه على الحجر الأسود وقبله، فانهاه بالبكاء، وكأنه يفرغ مشاعر وأحاسيس دفينه طوال سنوات من الشوق والحنين لهذا المكان المبارك.

وهنا ذكر سيدنا عمر رضي الله عنه، قائلاً: (فوضع النبي شفتيه على الحجر الأسود وقبله وأخذ يبكي). فكم نرجو أن يجعلنا الله مع النبي ﷺ في جنة عرضها السماوات والأرض، نراه ونعيش هذه المشاهد الخالدة.

تخيل حال النبي ﷺ، فهو يحج ومعه مائة ألف صحابي، بعد أن كان محروماً من هذا المكان طيلة 13 سنة في مكة، حينما كان حول الكعبة 360 صنماً، وكان يتعرض لأبشع أنواع الأذى من المشركين، حيث كان يُداس على رقبتة وهو ساجد، أو يُرمى عليه بفضلات الجمال الميتة، أو يُلقى التراب على رأسه ووجهه الشريف ﷺ، لكنه اليوم يعود، وقد أصبح هو القدوة والجميع يقتدون به وبأفعاله.

وعندما رفع نظره إلى عمر الذي كان يبكي أيضاً، قال له النبي ﷺ:

«يا عمر، هنا تُسكبُ العبراتُ» (256).

معنى ذلك أن هذا المكان هو مكان الدموع والبكاء خشيةً لله، ومكان تفتح القلوب على عظمة الرب سبحانه.

ثم أكل النبي ﷺ طوافه حول الكعبة على ناقته، حتى يمكن الناس من رؤيته وسؤاله، وكان يستلم الحجر الأسود بالعصا التي يحملها، وعندما وصل إلى الركن اليماني، الذي يقع بينه وبين الحجر الأسود ضلع من أضلاع الكعبة، رفع يديه بالدعاء المشهور الذي لا يغيب عن قلب مسلم:

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (257).

هذه الدعوة هي أجمل وأشهر دعوات الطواف، فهي تجمع بين طلب الخير في الدنيا والآخرة، كأن الله عز وجل يدعونا لأن نطلب الخير كله، فلا نفصل بين الدنيا والآخرة، بل هما متصلان، فكيف نكرم أنفسنا في الدنيا إلا لتكون لنا جنات الآخرة برحمة الله.

ثم تحرك النبي ﷺ مع الناس نحو منى وعرفة، وكل منهم يردد التكبير والتلبية، والنبي ﷺ يسمعهم ولا يرد عليهم، بل كان ذلك كله في هدوء وسكينة، وكأنه يعلمهم أن هذا الوقت ليس وقت الوعظ أو الجدال، بل وقت خشوع وخضوع لله.

وهكذا كان مشهد الحج، يملؤه نور النبي ﷺ وهدوء النفوس المؤمنة، يسير الجميع على سنة رسول الله ﷺ، في بهجة روحية لا تضاهيها فرحة.

تصور لمشاعر النبي ﷺ عند الحجر الأسود

تخيلت معك، وأنا أحكي لك هذا المشهد العميق في قلب النبي ﷺ، وهو يقبل الحجر الأسود ويبيكي، وحين قال لعمر: «هنا تُسكب العبرات»- شعوراً لا يمكن

وصفه بكلمات فقط، بل هو بحر لا ينضب من المشاعر الإنسانية والروحية العميقة.

فعلاً، ما يتبادر إلى الذهن هو كم ذكريات وأحاسيس حملها النبي ﷺ في قلبه في تلك اللحظة؛ تذكر السيدة خديجة رضي الله عنها، التي كانت أول من آمن به، والتي وقفت معه في أحلك الظروف، وعبارات الطيبة التي طمأنته عندما قال لها: «قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فقالت:

«فَوَاللَّهِ لَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا» (258).

ربما كان يتنى لو تشاركه فرحة هذا اليوم العظيم، وهو يراهم حوله مائة ألف صحابي موحدين، متماسكين في رحاب بيت الله الحرام.

وكذلك ربما تذكر أبناءه وبناته الذين فقدهم في حياته، كأن قلبه يشدو بشوق لهم، ويتنى أن يراهم في هذا اليوم المبارك، يطوفون معه ويشهدون فتح الله على أمته، هذه اللحظة تُجسد عمق إنسانية رسول الله ﷺ، الذي جمع بين الروحية والإنسانية، بين النبوة والمشاعر.

وأجمل ما في هذه المشاعر الطيبة، تقول السيدة عائشة إنها سألت النبي ﷺ فقالت له: «ألا تهدم الكعبة وتبنيها على قواعد إبراهيم؟». أذكرك هنا أنه عندما هُدمت الكعبة قبل بعثة النبي ﷺ حيث كانت سنه وقتها 35 عاماً، وبدءوا في بنائها لم يكن عندهم ما يكفي من المال (الحلال) حتى يكملوا البناء لأنهم كانوا لا يدفعون في بنائها أي مال حرام (لا مهر بغي «فلوس الدعارة» ولا مال ربا، ولا مالاً من ظلم أحد) فبنوها وقتها أقل من حجمها الحقيقي، فالذي تطوف حوله الآن وهو (حجر إسماعيل) كان هذا جزءاً من الكعبة فنطوف حوله وليس بداخله،

فعندما سأله السيدة عائشة أن يعيد بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، قال لها: «أَلَمْ تَرَى أَنَّ قَوْمَكَ لَمَّا بَنَوْا الْكُعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟».

«لَوْلَا حَدِثَانُ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَفَعَلْتُ» (259).

يعني وكأن الناس سيُصدَمون إذا هُدمت الكعبة وبنيت مرة أخرى.. فتركها كما هي.

كان رسول الله ﷺ يُراعي مشاعر أُمته، فهو لم يكن يعشق التغيير على حساب وحدة الناس واستقرارهم، بل كان الحكيم الذي يزن الأمور بعقلانية ورحمة.

والأئمة والخلفاء الراشدون بعده ساروا على نفس المنهج، لم يعبثوا بالكعبة، بل حفظوا التراث ومشاعر الناس؛ لأن البيت الحرام ليس فقط مبنى، بل رمز وذاكرة إيمانية وروحية تجمع المسلمين عبر الزمان والمكان.

هذه الذكريات والمواقف تذكّرنا بأن النبي ﷺ كان قلبه مليئاً بالرحمة والعطف، لا بالسلطة أو التغيير من أجل التغيير، وكان يحمل همّ أُمته في كل خطوة، بل كان إنساناً يحب ويحنُّ ويتألم، كما نحب ونحزن نحن اليوم.

مضمون (خطبة عرفة) وأهم الوصايا النبوية فيها

وصل رسول الله ﷺ إلى يوم عرفة في حجته الوحيدة، وكان ذلك اليوم يوم الجمعة مباركة، وخطب خطبة عرفة التي تُعتبر من أعظم الخطب وأوجزها وأكثرها وضوحاً وترتيباً في عقول البشر، وكأنها رسالة مقدسة يضعها بين أيدينا لنعيش في نورها وهدى ربنا.

بدأ خطبته بحمد الله والثناء عليه، ثم قال مخاطباً الناس بصوت ملؤه الحنان والوقار: «أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا»؛ أي أنه لا يعلم هل ستتاح له فرصة أن يلتقي بهم مرة أخرى بعد هذه السنة، وهم حوله بأعداد كبيرة، والناس يشيرون بعضهم إلى بعض ليبلغوا الكلمات، فقد كان الزمن قبل اختراع مكبرات الصوت.

ثم قال لهم كلاماً غاية في العظمة: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا».

هنا يعلم النبي ﷺ أن دماء الناس وحقوقهم وأموالهم وأعراضهم محفوظة ولها حرمة عظيمة، يحرم انتهاكها كما تحرم حرمة يوم عرفة؛ فهو يوم مقدس يجمعهم، وشهر ذو حرمة أيضاً، وهو شهر الحج؛ شهر العبادة والطاعة.

وأشار النبي ﷺ إلى أن هذه الحقوق الثلاثة – الدماء، والأموال، والأعراض – تمثل القيم التي يحفظها الله في الإنسان، وهي كرامة لا يجوز المساس بها أو التعدي عليها، كما لا يجوز انتهاك حرمة البيت الحرام.

ثم أكد أن مصيرهم إلى لقاء الله، فقال: «وَأَنْتُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، وَقَدْ بَلَغْتُ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ أُثِمَتْهُ عَلَيْهَا».

أي أنه بلغ الرسالة كاملة بلا نقصان، ووجب على كل إنسان أن يحافظ على الأمانات التي عنده، أن يرد الحقوق لأهلها، فلا يأخذ حق غيره، ولا يخونه، ولا

يغتاب، ولا يخون سرًّا أو مალًا.

ثم نبه ﷺ إلى موضوع الربا فقال: «وَإِنَّ كُلَّ رِبَاٍّ مَوْضُوعٌ، وَلَكِنْ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ».

أي أن الربا محرم بالكامل، وما يؤخذ من أصل المال فهو حق صاحبه، فلا ظلم ولا تعدي في استرداد الحقوق.

وذكر أن أول من أقر بالربا هو العباس بن عبد المطلب، فقال: «قَضَى اللَّهُ أَنَّهُ لَا رَبَا، وَإِنَّ رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ».

وهذه إشارة إلى أن الشريعة جاءت لتقطع هذا الظلم ولو كان من الأقربين.

ثم قال لهم: «أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَتَسَّ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنَّهُ إِنْ يُطْعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مِمَّا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ».

فالنبى ﷺ هنا يعلننا أن الشيطان يعلم أنه لن يُعبد بشكل مباشر، لكنه يمكن في الصغائر التي لا ننتبه إليها، فإذا تركناها تتراكم فإنها تظلم القلب وتبعدنا عن الله، فهذه الصغائر التي نتهاون فيها هي معركتنا الحقيقية مع إبليس، ويجب الحذر منها بشدة.

ثم بين لهم عدد الشهور فقال: «وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ، وَرَجَبُ مَضْرُوعٌ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ».

أي أن الأشهر الحرم هي ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، فهذه الأشهر لها مكانة عظيمة في الشريعة.

ثم ختم وصاياہ بالحديث عن النساء فقال: «وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ لَا يَمْلِكْنَ أَنْفُسَهُنَّ شَيْئًا، وَأَنْتُمْ إِذَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَمْتُمْ

فروجهنّ بكلماتِ الله، فاعقلوا أيّها النّاسُ قولي، فإنّي قد بلغت»، وهذه الوصية العميقة تظهر اهتمام النبي ﷺ برعاية النساء وحفظ كرامتهن، وتأكيد أن الزواج أمانة عظيمة وميثاق عظيم، وأن الزوج مسئول أمام الله عن رعاية هذه الأمانة برفق ورحمة.

ثم قال لهم آخر كلمة في خطبته: «أيّها النّاسُ، اسمعوا قولي وأعقلوه، تعلمن أنّ كلّ مسلمٍ أخٌ للمسلم، وأنّ المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرئٍ من أخيه إلّا ما أعطاه عن طيبِ نفسٍ منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟».

هذه الكلمات تدعو إلى الأخوة الحقّة والعدل في التعامل، وتحذر من الظلم بكل أشكاله.

وأخيراً قال: «اللهم هل بلغت؟»، فأجاب الناس: «اللهم نعم»، فقال لهم:

«اللهم اشهد» (260).

وهذه كانت خاتمة خطبته، تأكيداً أنه قد أتمّ البلاغ، وحمل الرسالة كاملة، مشدداً على أن من يسمع يجب أن يبلغ غيره، فقال: «فربّ مبلغ أوعى من سامع». أي أن من يبلغ كلام النبي ﷺ لغيره قد يكون أكثر حرصاً وأعمق فهماً منه.

هذه الخطبة العظيمة عاش الناس بها بعد رسول الله ﷺ، وعملوا بمضامينها، وحفظوها في صدورهم وقلوبهم، فكانت نوراً وهداية لهم، وهي لنا اليوم رسالة خالدة نحيا بها ونسير على نورها في حياتنا كلها.

أهم مواضيع خطبة الوداع

تأمل معي في مفردات خطبة الوداع، تلك الخطبة العظيمة التي ألقاها النبي ﷺ في أواخر حياته، وهي بحق من أجمل وأعمق الخطب التي تجمعت فيها حكمة الدنيا وآيات الدين.

أريد أن أوضح لك ستة مواضيع رئيسية تميز هذه الخطبة، أربعة منها تتعلق بعلاقتك مع الخلق، واثنان منها تربطك بالله، مع أن كل ذلك في النهاية لله وحده. من هذه المواضيع نفهم كيف رتب النبي ﷺ أولويات ديننا الحنيف، وما كان يريد أن يوصلك إليه قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى بعد حوالي ثلاثة أشهر من هذه الحجة المباركة.

أولاً: أن حرمة الإنسان هي أعظم حرمة وكرامة حتى من الكعبة نفسها. فالنبي ﷺ يعلمنا أن دماء الناس وأعراضهم وأموالهم محفوظة ولها حرمة عظيمة، لا يجوز التعدي عليها، فكيف بمن خلقهم وأكرمهم ورفع من شأنهم!

ثانياً: الربا من أكبر مصائب الدنيا؛ لأنه يستغل حاجة الناس ويزيد من فقرهم وضيقتهم. هو ظلم يبتنى على جشع الإنسان واستغلال ضعف الآخرين، ولذلك جاء الإسلام ليقطع دابر الربا ويحرمه تماماً.

ثالثاً: الشيطان يأس من عبادتك له مباشرة، لكنه يترصد بك في الصغائر التي قد تبدو بسيطة، لكنه يعرف أنها تفسد القلب وتبعدك عن الله. لهذا نُحذَر من ارتكاب الصغائر؛ لأن طريق الفساد يبدأ منها، وينبغي أن نُحذر الشيطان في كل صغيرة وكبيرة.

رابعاً: وصية النبي ﷺ بالنساء، قال: «وَأَسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا». فالمرأة ليست مجرد نصف المجتمع، بل هي عزيزتنا وأمننا وزوجتنا وأختنا وبنتنا، ووصية النبي ﷺ هنا عظيمة: إذا أردت أن تذهب إلى الله وهو راضٍ عنك، فعليك أن تراعي حقوق النساء وتحسن إليهن بكل رحمة واحترام.

خامساً: اعتصموا بالكتاب والسنة، فإنهما هما السراج المنير والهداية الصادقة إلى طريق الحق، ولا يمكن أن تفهم القرآن حق فهمه إلا بالسنة النبوية، وتركهما ضياع وهلاك.

سادساً: الأخوة والرحمة بين المسلمين، بين الإخوة من الأب والأم، وبين كل الإخوة في الإنسانية والدين، فالرسول ﷺ أرسى دعائم الأخوة التي يجب أن تعم بين المسلمين، فلا يظلم مسلم أخاه ولا يأخذ حقه إلا برضا وطيب خاطر.

وهنا يكمن السرُّ العظيم، أن من أراد أن يقف بين يدي الله يوم القيامة لا بد أن يراعي حق الخلق، فليس كافياً أن تكون عابداً، وإنما يجب أن تكون عادلاً ومراعياً لحقوق الآخرين؛ لأن الله تعالى قد يخذل العبد إذا كان في عنقه حق لأحد، فيأخذ منه أركان الإسلام كلها، كالصلاة والحج والزكاة، لأنه آذى أخاه أو تعدى على ماله أو عرضه.

فلنعش في الدنيا نُحِب الخير للناس ونحبيهم من شرنا، ونقتدي برسول الله ﷺ الذي كان نوراً وهداية للناس، فكانت حياته كلها عطاءً ورحمةً وخيراً للخلق، وهذه هي الخلاصة العميقة التي نخرج بها من خطبة الوداع المباركة.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا وحبينا محمد
أفضل الصلوات وأزكى التحيات، وعلى خديجة

الكُبرى وعائشة صاحبة الرضى وسائر أزواجه
الطاهرات الطيبات، وعلى آل بيته وصحابته النجوم
النيرات .. صلاة تملأ بها ما بين الأرض
والسماوات، وتُبدّل بها سيئاتنا حسنات، وتجزل
لنا بها الهبات والعطيات، وثبتنا بالقول الثابت في
الحياة وبعد الممات.



(233) رواه البخاري.

(234) رواه ابن عساكر.

(235) رواه السيوطي .

(236) رواه ابن ماجه.

(237) رواه أحمد.

(238) رواه البخاري.

(239) رواه البخاري.

(240) رواه ابن ماجه.

(241) رواه مسلم.

- (242) رواه الترمذي.
- (243) رواه البخاري.
- (244) رواه مسلم.
- (245) رواه الترمذي.
- (246) رواه البخاري.
- (247) بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة.
- (248) البكر: الفتي من الإبل.
- (249) الخطام : كل ما يوضع في أنف البعير ليقْتاد به، والجمع خطم.
- (250) أزهم : جمع إزار؛ وهو ما يستر به أسفل الجسم من الوسط.
- (251) أردية: جمع رداء؛ وهو ما يوضع على الكتفين ويستر به النصف الأعلى.
- (252) النمار: جمع ثمرة؛ وهي الشملة المخططة من مآزر الأعراب كأنها أخذت من لون التمر لما فيها من السواد والبياض.
- (253) رواه أحمد.
- (254) رواه البخاري.
- (255) رواه البيهقي.
- (256) رواه ابن ماجه.
- (257) رواه أبو داود.
- (258) رواه البخاري.
- (259) رواه البخاري.
- (260) رواه ابن إسحاق.

آخر حياة النبي ﷺ وخرافات مُسيلمَة الكذاب

وقوف النبي ﷺ بعرفة وأدعية عظيمة

ها قد وقف نبينا محمد ﷺ على صعيد عرفات في يوم الجمعة المبارك، في حجته العظيمة التي تُسمى «حجة الإسلام» أو «حجة الوداع»، وذلك في السنة العاشرة للهجرة، وكان عمره الشريف قد اقترب من ثلاثة وستين عاماً. في الفصل السابق قد بينّا بإسهاب مضمون خطبة النبي ﷺ في عرفات خلال حجة الوداع، والتي كانت كنزاً من الحكمة والهدى، ثم بدأ ﷺ في أداء مناسك الحج، وكان معه في هذه الرحلة العظيمة ما يقارب مائة ألف صحابي جليل، كلهم يترقبون كل كلمة ينطق بها، وكل طرفة عين يمضيها، وكل فعل يقوم به، ليتعلموا منه سواء في علاقة الإنسان بخالقه أو في علاقته مع نفسه والناس من حوله.

وقد اختلف الناس كثيراً حول ما إذا كان النبي ﷺ صائماً في يوم عرفة وهو يقف على جبل عرفات أم لا، لِيُعَلِّمَ الناس فضل صيام يوم عرفة في الحج، وفضل هذا الصيام الذي يكفر ذنوب سنة ماضية وسنة قادمة، ولكن الحقيقة الثابتة التي

رواها لنا التاريخ أنه في ذلك اليوم بعثت إليه السيدة الجليلة «أم الفضل بنت الحارث، بنت عم النبي ﷺ» بكوب من اللبن، فجلس ﷺ على ناقته يشربه أمام الناس في ذلك اليوم المبارك. لماذا فعل ذلك؟ ليعلم الحجاج أن الإفطار في يوم عرفة أثناء الحج جائز، بل مطلوب؛ كي يفرغ القلب والبدن لأداء مناسك الحج بكل خشوع وسكينة.

ثم وقف النبي ﷺ على صعيد عرفات وقال بكلمات تملؤها الحكمة والرحمة:

«وَوَقَفْتُ هَاهُنَا، وَعَرَفْتُ كُلَّهَا مَوْقِفٌ» (261).

أي أن جبل عرفة كله موقف واحد، وكل جزء منه يكفي ليقف فيه الحاج، ولماذا قال هذا؟ لأنه كان يعلم أن أجيال المسلمين القادمة ستأتي في كل عام تحاول أن تحجز مكان وقوف النبي ﷺ، وسيحدث تراحم شديد، فبين لهم أن الأجر عند الله ليس مرتبطاً بمكان محدد، بل بجميع أجزاء جبل عرفات، وكل من وقف على هذا الجبل كان له الأجر نفسه عند الله سبحانه وتعالى.

ومن أعظم وصايا النبي ﷺ في ذلك اليوم العظيم أن حث الناس على الدعاء، فقال لهم:

«خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (262).

ثم أخبرهم ﷺ عن قوة هذا اليوم، وأنه أكثر الأيام التي يضعف فيها الشيطان ويغضب، فقال:

«مَا رَأَى الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَذْهَبُ وَلَا أَحْقَرُ وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمٍ عَرَفَةَ. وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَى مِنْ تَنْزِيلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِلَّا مَا أَرَى يَوْمَ بَدْرٍ. قِيلَ: وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جَبْرِيلَ يَنْزِعُ الْمَلَائِكَةَ» (263).

أي أن أعظم يوم كان الشيطان فيه محبطاً هو يوم عرفة؛ لأنه يرى رحمة الله تنزل، وتغفر الذنوب العظام، ويشاهد الناس يغفر لهم، وهذا أكبر خسارة له، وإن كان يوم بدر أيضاً من أيام تحسره، حين رأى نزول جبريل ﷺ مع الملائكة لنصرة النبي ﷺ والمسلمين.

وقد حفظ لنا الصحابة الأدعية المباركة التي كان النبي ﷺ يدعو بها في يوم عرفة، ومنها ما رواه سيدنا علي بن أبي طالب ؓ، قال:

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَالَّذِي نَقُولُ وَخَيْرًا مِمَّا نَقُولُ، اللَّهُمَّ لَكَ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي، وَإِلَيْكَ مَأْبِي وَلَكَ رَبِّ تُرَاثِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَوَسْوَاسَةِ الصَّدْرِ وَشَتَاتِ الْأَمْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَجِيءُ بِهِ الرِّيحُ» (264).

ثم دعا ﷺ بأدعية كثيرة، منها:

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي سَمْعِي نُورًا وَفِي بَصَرِي نُورًا، اللَّهُمَّ اشرح لي

صدري ويسر لي أمري وأعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وفتنة
القبر ، اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل ومن شر ما يلج في النهار،
ومن شر ما تهب به الرياح ، ومن شر بوائق الدهر»(265).

وكان النبي ﷺ يدعو ويده مرفوعة إلى صدره كما لو كان يستجدي ويطلب
رحمة الله كالمسكين الذي يرجو عطاءً. وكان العلماء يصفون حالته هذه بأنها كانت
تُظهر بياض إبطيه في بعض الأحيان، مما يعكس إخلاصه وتواضعه بين يدي ربه.

ومن أدعيته أيضاً في ذلك اليوم:

«اللهم إنك تسمعُ كلامي، وترى مكاني، وتعلمُ سِرِّي وعلايتي، لا يخفى عليكَ
شيءٌ من أمري، وأنا البائسُ الفقيرُ، المُستَغِيثُ المُستَجِيرُ، الوَجِلُ المُشْفِقُ،
المُقِرُّ المُعْتَرِفُ بذنبه، أسألكَ مسألةَ المُسْكِينِ، وأبتُلُ إليكَ ابتِهالَ المُذْنِبِ
الذليلِ، وأدعوكَ دعاءَ الخائفِ الضريرِ، مَنْ خَضَعَتْ لكَ رقبتهُ، وفاضتْ لكَ
عَبْرَتُهُ، وذَلَّ لكَ جِسْمُهُ، ورَغِمَ لكَ أَنْفُهُ، اللهم لا تجعلني بدعائك شقيًّا، وكن
بي رءوفاً رحيماً، يا خيرَ المسؤولينَ، يا خيرَ المُعْطِينَ»(266).

ثم بعد أن أتم النبي ﷺ الوقوف في عرفات، توجه مع أصحابه إلى المزدلفة، وهو
«المشعر الحرام» الذي أمرنا الله تعالى بذكره في كتابه الكريم:

﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ

الْحَرَامِ ﴾ [سورة البقرة: 198]

وعندما رأى النبي ﷺ الحجاج يتسابقون ويركضون نحو المزدلفة، نصحهم قائلاً لهم: «عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ». أي تمهلوا واصبروا، واطمئنوا وكونوا هادئين في قلوبكم، فلا داعي للتزاحم والعجلة، وقال لهم أيضاً:

«فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالْإِيْضَاعِ» (267).

فالحقيقة أن البر ليس في الإسراع والهرولة، بل في الاتزان والخشوع والتأني.

وعندما وصل النبي ﷺ إلى المزدلفة وقف وقال:

«وَوَقَفْتُ هَاهُنَا، وَجَعْتُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ» (268).

ليخبر الحجاج مجدداً أن الموقف في المزدلفة واسع، وأن الجميع ينال أجره دون التزاحم والتنازع على المكان، مظهراً بذلك عظمة رحمته ورغبته في تسهيل الحج على أمته.

هذه المشاهد الرائعة من رحلة النبي ﷺ في حجته الأخيرة تحكي لنا قصة الإيمان العميق، والرحمة الواسعة، والحكمة البالغة التي كانت تحكم كل حركة وكل كلمة،

لتظل لنا نوراً وهدى نسير عليه إلى يوم القيامة.

احذر من خطوات الشيطان وخطته الخبيثة

من المشاهد المؤلمة جداً في يوم الحساب، والتي قد تزرع في القلب رعباً عميقاً، أن يشمت فيك الشيطان؛ أي أن يفرح بانكسارك وهزيمتك أمام الله، وهذا ما بينه النبي ﷺ في حجة الوداع حين قال:

«مَا رُبِّيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَذْرُ وَلَا أَحْقَرُ وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَى مِنْ تَنْزِيلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ» (269).

الشيطان.. هذا المخلوق الحاقد المليء بالغل، يتمنى لك الهلاك في نار جهنم ولسيدنا آدم وكل ذريته؛ لأنه لا يسعد أبداً عندما يرى النعمة تحيط بك، وأكبر هذه النعم هو رضا الله عنك ودخولك الجنة، يشعر الشيطان بالغضب الشديد حين يراك محاطاً برحمة الله، فتجده يتمنى أن تكون معه في النار، فلا تسمح له أن يحقق هذا المراد، ولا تتركه يعبت بقلبك أو بعقلك.

ففي يوم عرفة، يغفر الله تعالى جميع الذنوب لكل من حج وأعطى الحج حقه، أما من لم يستطع الحج لكنه صام يوم عرفة، فإنه يُغفر له ذنوب سنة ماضية وسنة قادمة، وهذا هو كرم الله ورحمته التي وسع بها عباده. فكم من مسلم لا يستطيع الحج بسبب تكاليفه أو بسبب ظروفه الصحية، فأكرمنا الله بهذا الثواب العظيم لمن يصوم يوم عرفة.

وحق المرأة التي حُرِّمَتْ من الصيام بسبب الحيض، فإنها إن شاء الله تنال الأجر والثواب؛ لأن نيتها كانت صادقة وتعبدية، فإذا لم تصم بسبب الحيض، فذلك طاعة لله أيضاً.

لذا، لا تسمع لصوت شيطانك حين يُزَيِّنْ لك المعاصي ويوسوس لك بالبعد عن الله، وانطلق من قيود الشيطان التي تعوقك عن الصلاة والطاعة، ولا تستسلم له حين يغرُّك وتبرِّرْ ذنوبك وبكائك. الله عز وجل يحب أن يرى عباده عزيزين مقيمين على الحق، لا ضعفاء ضائعين في الظلمات.

كن واعياً عندما يوسوس لك الشيطان بأنه ليس مسؤولاً عن أفعالك؛ فقد أوضح الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم كيف يتبرأ الشيطان منك حين يقول:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾

[سورة إبراهيم: 22]

وكأنه يقول: أنا لم أكرهكم، بل دعوتكم فلبَّيْتُم دعوتي، فلا تلوُمُونِي، بل لوموا أنفسكم. ويؤكد:

﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [سورة إبراهيم: 22]

أي: أنا لا أملك أن أجبركم، وأنتم لا تملكون أن تجبروني، كل واحد مسئول عن قراراته.

النبي ﷺ يخبرنا أن يوم عرفة هو اليوم الذي يكون فيه الشيطان أضعف المخلوقات، وأشدّها غيظًا وحزنًا؛ لأنه يرى رحمة الله تنزل على عباده، ويغفر ذنوبهم، قال تعالى:

﴿ لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ﴾ [سورة النور: 21]

فكن حذرًا منه، ولا تفتح له بابًا في قلبك.

وأكثر من التوبة الصادقة، وكرر قول «لا إله إلا الله»، وصلّ على النبي ﷺ، واستعد بالله من الشيطان الرجيم، فهذا تكون قد قطعت على الشيطان سبل النفوذ عليك، وتفرح في الآخرة بإذن الله بنصرك على هذا العدو اللدود في الدنيا، مع نفسك وأحبائك وأهلك.

صَلَّى
عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ

مواقف من نور في حج النبي

عندما وصل النبي ﷺ إلى (المزدلفة) حدثت معه مجموعة من المواقف الهامة جداً، وكان النبي ﷺ كان يُعَلِّم أصحابه، ونحن من بعدهم، حقائق عظيمة تنير لهم طريقهم وتُعدُّهم لتلك المرحلة التي سينتقل بعدها إلى الرفيق الأعلى بعد فترة قصيرة.

الموقف الأول:

وصَّى النبي ﷺ سيدنا (الفضل ابن العباس) أن يأتيه بالحصي الذي سيرمي به الجمرات، وخاصة جمرة العقبة، وقال له إن السنة أن يُلْتَقَط الحصى من المزدلفة. وأوصاه أن يختار الحصى صغير الحجم، مثل (حصى الخذف) التي تشبه حجم الحُصَّة الكبيرة أو الفولة الصغيرة، فأتاه بها. فلما وضع النبي ﷺ الحصى في يديه قال:

«إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوفَ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوفِ فِي الدِّينِ» (270).

وهنا ليس المقصود أن يكون الحصى كبيراً كأنه طوبة تضرب بها الشيطان أو تسبب إصابة الآخرين في الزحام، بل الأمر كله في القلب، والغرض الأسمى التبرؤ من الشيطان وسوءاته؛ لأن الغلو في الدين كان سبب هلاك الأمم السابقة.

الموقف الثاني:

جاءت امرأة من خثعم، وهي من النساء الجميلات، وسألت النبي ﷺ سؤالاً هاماً، وكان سيدنا (الفضل بن العباس) ابن عم النبي ﷺ يركب خلفه ويرافقه.

قالت المرأة: (يا رسول الله، إني أدركت أبي لا يستوي على بعير.. فهل أجد عنه؟). تعني أن أباه شيخ كبير في السن لا يستطيع أن يثبت على الجمل أو الحصان، فقد يوقعه التعب أو المرض، فهل يجوز لها أن تحج عنه؟ وبينما هي تسأل، كان سيدنا (الفضل بن العباس) راجعاً خلف النبي ﷺ، وهو محرم، ينظر إلى المرأة، والنبي ﷺ يحرص أن يُحوّل وجهه بعيداً عنها، ثم يعود لينظر إليها ثانية، ثم يعيد وجهه بعيداً.

ثم أجابها النبي ﷺ بكل لطف ورحمة:

«حُجِّي عن أبيك» (271).

وهنا تتجلى لنا نعمة لطف النبي ﷺ وصبره وحنانه على الفضل، الذي هو شاب صغير قد يخطئ في مثل هذا الموقف، فبدلاً من أن ينكر عليه أو يعاتبه، كان النبي ﷺ يُربِّيه بلطف ويعلمه، وهذا منهج النبي ﷺ الرائع. أما نحن في زماننا، إذا حدث مثل هذا الموقف مع أحدنا فربما نبعد هذا الشخص أو نتهمه بأنه غير صالح، أو أن رُفقتة غير طيبة، ولكن النبي ﷺ علمنا كيف نُربي باللين والرحمة، وكيف نتعامل مع جوانب الضعف لدى الآخرين، خاصة الشباب منهم.

الموقف الثالث:

في وسط أداء المناسك وقع أحد الرجال من فوق جملة وهو محرم، فانكسرت رقبته ومات:

«فَوَقَّصَتْهُ فَتَاتَ» (272).

فقال النبي ﷺ: (اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تحنطوه، ولا تحمروا رأسه).

فأمر النبي ﷺ أن يغسل الرجل بماء وسدر، ويكفن في ثيابه فقط، وألا يحنط ولا يُحمر رأسه؛ أي لا يكفن كما يكفن المعتاد من إغلاق الرأس بالكفن، فقال:

«فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً» (273).

وهذا دليل على عظمة شريعة الإسلام التي تراعي أحوال المحرم، وتخفف عنه حتى في الموت؛ لأن الإحرام حالة روحانية تظل معه حتى في القبر والبعث.

الموقف الرابع:

حدث مع رجل من الأعراب يدعى (الحارث بن عمرو السهمي) ذكر أنه لا يمكنه أن ينسى اللحظة التي كان يمشي فيها بجوار النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ راجياً على الجمل، وكان وجه الحارث ملاصقاً لركبة النبي ﷺ، فأنزل النبي ﷺ يده ومسح على وجهه برقة وحنان.

قال الصحابة بعد ذلك: (فما زالت النضرة في مسحة رسول الله في وجه الحارث إلى أن مات). وهذا يعبر عن عمق الرأفة واللفظ الذي كان يعامل به النبي ﷺ أصحابه وأتباعه، حتى من لم يكونوا معتادين على مثل هذا الحنان.

الموقف الخامس:

نام الناس في المزدلفة، واستيقظوا في اليوم التالي وهو يوم عرفة، ثم توجهوا إلى يوم العاشر من ذي الحجة، يوم الحج الأكبر، الذي يشمل أربعة أعمال عظيمة: (طواف الإفاضة، ورمي الجمرات، والحلق، والذبح).

وكان الناس يأتون إلى النبي ﷺ يسألون عن ترتيب أداء المناسك، فيقول أحدهم: (طُفْتُ قَبْلَ أَنْ أُذْبِحَ). ويأتي آخر يقول: (ذُبِحْتُ قَبْلَ أَنْ أُطُوفَ). وآخر يقول: (رَمَيْتُ الْجُمُرَاتِ أَوَّلًا). والنبي ﷺ يجيب بكل رحمة ويسر. ما سأل النبي ﷺ في ذلك اليوم عن شيء قَدَّمَ أو أَخَّرَ إلا قال:

«افْعَلْ وَلَا حَرْجَ» (274).

وهنا تظهر رحمته وتيسيره على الجموع الضخمة التي كانت في ذلك الوقت قد بلغ عددها مائة ألف حاج.

وعندما وصل النبي ﷺ إلى (منى)، ذبح هديه بنفسه، وبلغ عدد الهدي 63 جملاً! ففي زمننا الحالي عندما يحج الناس، نذبح غالباً خروفاً واحداً بسبب التكلفة، أما النبي ﷺ فذبح عدداً هائلاً من الجمال؛ ليُطعم أهل مكة جميعاً، وأمر بتفريق اللحوم والجلود على الناس، وكأنها بعدد سنوات عمره ﷺ المباركة.

وبعد ذلك جاء وقت (الحلق) وهو من مناسك يوم العاشر من ذي الحجة (يوم الحج الأكبر)، فخلق النبي ﷺ شعره تماماً (بالموسى) وقال:

«رَحِمَ اللهُ المَحْلِقِينَ. قالوا: والمَقْصِرِينَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: رَحِمَ اللهُ المَحْلِقِينَ. قالوا: والمَقْصِرِينَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: رَحِمَ اللهُ المَحْلِقِينَ. قالوا: والمَقْصِرِينَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: والمَقْصِرِينَ» (275).

وقال سيدنا أنس رضي الله عنه: عندما حلق النبي ﷺ شعره، لم أترك شعرة تسقط على الأرض. وحين سمع أحد التابعين هذا، قال: (والله لأن يكون عندي شعرة من رسول الله خير لي مما طلعت عليه الشمس).

وهذا هو الحب الحقيقي، من يتذوقه بصدق يفعل أشياء عظيمة لم يكن يتخيلها أو تخطر على باله قط.

ولكن هل لاحظت أن جميع الصحابة لم يحلقوا شعرهم بالموسى مثل النبي ﷺ، بل إن بعضهم فقط قصروا شعرهم، ولم ينكر عليهم النبي ﷺ ذلك. وهذا على عكس ما نراه الآن في الحج أو العمرة من خلافات كثيرة حول هذه المسألة. فالصحابة رضوان الله عليهم، منهم من حلق شعره ومنهم من قصره، ولكل إنسان ظروفه، والمهم أن يحافظ على السكينة في القلب، ويكون متوجهاً إلى الله، سائراً على نور النبي ﷺ، لا مشدوداً للخلافات والتشددات التي تشتت القلوب.

اللطف في معالجة الأخطاء

تخيّل معي لو أن الموقف الذي حدث مع المرأة الخثعمية التي جاءت تسأل النبي ﷺ، وأن سيدنا الفضل بن العباس، وهو محرم، ظلّ ينظر إليها بنظرات لا تليق بمقام الحج، فتصرف النبي ﷺ مع هذا الخطأ بطريقة مختلفة عما كان؛ فقد ينهره النبي ﷺ بنظرة حازمة ويقول له بصرامة: يا فضل، أنت في حالة إحرام، وحرام عليك النظر إلى النساء بهذا الشكل، وهذا لا يليق بك في هذا الوقت العظيم، أنت لا تستحق أن تكون في صحبتي إن استمرت على هذا الفعل؛ لأننا في وقت عبادة ومقاصد سامية، وهذا الأمر يبعدك عن الله ويذهب خشوعك، وأذكرك بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وأنه لا بد أن نصاحب الصالحين الذين يعينوننا على مرضاة الله. عليك أن تبتعد عن كل ما يبعدك عن الله، خصوصاً في أوقات العبادة، وإلا ستكون خسرت الدنيا والآخرة.

ربما كان هذا هو الحوار الذي قد يحدث في بعض المجتمعات اليوم، حيث الحزم والقسوة هما اللغة التي نستخدمها، والبعد عن المخطئ صار هو الحل، حتى يُطرد من حياتنا من يبعدنا عن الله، خاصة في أوقات العبادة التي تحتاج إلى خشوع وصفاء القلب.

لكن، سبحان الله! النبي ﷺ لم يكن هكذا، بل أراد أن يُعلّمنا درساً عميقاً في الرحمة والرفق. الله تعالى أمر المؤمنين قائلًا:

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [سورة النور: 30]

وهذا أمر عظيم لا يتحقق بسهولة، حتى الصحابة الكرام - الذين هم أفضل الناس بعد الأنبياء - ليسوا معصومين من الخطأ؛ لأن العصمة للأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم.

وعندما رأى النبي ﷺ نظرات الفضل تلك، لم ينهره، ولم يظهر له أي غلظة، بل حوّل وجهه بلطف ورفق، وكأنه يقول له بركة: «يا فضل، هذا وقت العبادة والقصد، فاحرص على أن يكون قلبك مع الله وحده، وركّز في طاعتك، كن مع الله في هذه اللحظات، فهذا هو جوهر الإحرام».

وفي هذا الفعل البسيط كان النبي ﷺ يُعلّمنا أعظم درس في التربية؛ أن نُعامل من حولنا برفق ورحمة، وأن نُصحّ أخطاءهم بركة لا قسوة، فالرفق من معاني القوة، والرحمة هي سر العظمة، فكيف بقلب من أرسل رحمة للعالمين؟!

وهذا المنهج النبوي، نورٌ يضيء دروبنا، ويُعلّمنا كيف نرتقي بأنفسنا وبمن حولنا، كيف نُحبُّ الله بصدق، ونتوب إليه برحابة صدر، ونُعامل أنفسنا والناس برحمة؛ لأن في ذلك الفوز في الدنيا والآخرة.

فلنُحي هذا النور الحمدي في قلوبنا، ولنَجعل منه منارةً نفتدي بها في كل شيء، ونُسعَ لأن يكون القصد والنية في عبادتنا خالصين لله وحده، لا يشغلنا شيء عن الله، ولا يُبعدنا شيء عن رحمته ومحبته.

(يُبعث المرء على ما مات عليه)

الرجل الذي وقع من فوق دابته فمات، وصفه النبي ﷺ بقوله إنه سيُبعث مُليّاً، وقال:

«مَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بَعَثَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ» (276).

هذا الحديث يحمل في طياته معاني تجمع بين الخوف والطمأنينة معاً.

يُخَوِّفُ هذا الحديث كل من يُصِرُّ على الذنب أو الكبائر، فيحذره من أن تأتي ساعة الموت وهو غارق في المعصية، فلا يجد فرصة للتوبة، ويكون مصيره عظيم الخطر.

وفي الوقت ذاته، يُطمئن كل شخص صادق في توبته؛ يجاهد نفسه، ويخدم الناس، ويخلص في عمله، بأن الله قد يمد في عمره ليأتي أجله وهو على فعل شريف يُرضي الله، فيبعث يوم القيامة على ما كان عليه.

إنها لقطات مليئة بأنوار الله ورحمة رسوله ﷺ، نُذَكِّرُ بها لتتعلم ونسير على نهج النبي ﷺ، نورضيء دروبنا في هذه الحياة ويهدي قلوبنا إلى رضا الله ومَرْضَاتِهِ.

وصايا نبوية في خُطب أيام التشريق

في أيام التشريق، التي تأتي في الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة، وهي الأيام الثانية والثالثة والرابعة من أيام العيد لمن لم يحج، وهي في مناسك الحج تُعرف بأيام التشريق، ألقى النبي ﷺ خطبة عظيمة وحية، أود منك أن تحفظها وتتمعن فيها جيداً، فهي من أجمل وأهم ما تركه النبي ﷺ لأصحابه الـ 100 ألف الذين كانوا معه في الحج، لتكون منهجاً واضحاً لأمتهم ينير لهم القلوب ويهدي النفوس.

قال النبي ﷺ في هذه الخطبة:

«لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» (277).

وهذا تحذير صارم ألا يعود المسلمون إلى الكفر والخصام، ولا يقتل بعضهم بعضاً بعد رحيله ﷺ.

ثم أضاف النبي ﷺ:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ إِسَّ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ رَضِيَ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ» (278).

أي أن الشيطان قد فقد الأمل في أن يعبدَه الناس وحده بلا شريك، لكنه ما زال يحاول بإثارة الفتن والشحناء بينهم؛ إذ عندما يدب الخلاف بين الناس في أي مكان، يضيع الأمر ويتفكك المجتمع، وهذا ما يريده الشيطان؛ لأن الإنسان حينما يعيش في حالة تهديد دائم ويُجبر على الدفاع عن نفسه، يفقد صبره ورقته وجمال أخلاقه ورحمته، فيصبح قاسي القلب، وهذه هي الغاية التي يبتغيها الشيطان.

ثم وضع النبي ﷺ معياراً واضحاً للإيمان كي لا نحكم على بعضنا بظنون أو أحكام ظالمة، وإنما كل واحد منا يقيم نفسه فقط، فقال:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ

الخطايا والذنوب» (279).

ففهمنا منه:

- ◆ المؤمن هو من يجعل الناس يشعرون بالأمان التام معه، على أنفسهم وأموالهم، فلا خوف معه .
 - ◆ المسلم هو الذي يملك لساناً رقيقاً لا يؤذي الآخرين، ويداً لا تضرب أحداً.
 - ◆ المجاهد هو من يجاهد نفسه ويكافحها لتطيع الله ويتباعد عن المعاصي.
 - ◆ المهاجر هو الذي يهجر ذنوبه وخطاياها، يتركها ويبغضها، ويتباعد عنها.
- ثم خطب النبي ﷺ فقال:

«إن أولياء الله المصلون» (280).

فمن يصلي هو ولي من أولياء الله الصالحين:

«من يقيم الصلاة الخمس التي كتبت عليه، ويصوم رمضان يحتسب صومه يرى أنه عليه حق، ويعطي زكاة ماله يحتسبها، ويجنب الكبائر التي نهى الله عنها» (281).

ثم إن رجلاً سأله فقال: (يا رسول الله، ما الكبائر حتى نتجنبها؟).

فقال له النبي ﷺ:

«هي تسع . قلت: ما هي ؟ قال : الإشرak بالله، وقذف المحصنة - قال: قلت: قبل القتل؟ قال : نعم ورغماً - وقتل النفس المؤمنة، والفرار من الزحف، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين المسلمين، وإلحاد بالبيت الحرام ، قبلتكم أحياء وأمواتاً» (282).

فالشيء العظيم في الكبائر هو الإشرak بالله، ثم قتل النفس بغير وجه حق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف النساء الشريفات بالكذب، والفرار من القتال في معركة الحق، وعقوق الوالدين، واستباحة حرمة البيت الحرام.

وبقي النبي ﷺ يخطب ويعلم، حتى قال:

«من اقتطع مال أخيه المسلم يمين فاجرة فليتبوا مقعده من النار. ليبلغ شاهدكم غائبكم (مرتين أو ثلاثاً)» (283).

أي من يحلف كذباً ليأخذ حق أخيه، فهذا قد وجبت له النار، وحرّمت عليه الجنة.

هذه الخطبة النبوية الكريمة، بكل ما فيها من حكم وعبر، تضع لنا أروع معايير السلوك في الإيمان، والإسلام، والجهاد، والهجرة، وتدلنا على الكبائر التي تهدد ديننا وقلوبنا، فتجعلنا نعيش حياة التوحيد والرحمة والأمان، بعيداً عن الفتن والبغضاء التي يزرعها الشيطان. فلنحرص جميعاً على حفظها والعمل بها، حتى تبقى منارات تنير لنا الطريق إلى رضوان الله وجنته.

ثواب الإنفاق على الأهل وتركهم أغنياء

في حجة الوداع، حدث موقف عميق وحكيم مع سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهو رجل كبير في السن؛ شعر بقرب أجله وأن نهايته قريبة، فاقترب من النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله، أريد أن أخرج جميع مالي صدقة، فأريد أن أتبرع بكل ما أملك قبل أن أموت.

لكن النبي ﷺ رد عليه بحكمة ورقة، فقال له: «لا». فسأله سعد: إذن أخرج ثلثي مالي؟ فقال النبي ﷺ: «لا». فسأل مرة أخرى: فأخرج الثلث؟ فقال له النبي ﷺ:

«والثلث كثير» (284).

وهنا أراد النبي ﷺ أن يعلمهم درساً عظيماً في الاقتصاد والرحمة والبركة، فقال لهم الحقيقة التي يجب أن تظل في قلوبهم:

«إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ» (285).

أي أن ترك مال كافٍ وميسر لذرية الإنسان، أفضل وأعظم من تركهم في حاجة يضطرون فيها لسؤال الناس والتكفف.

ثم ذكر النبي ﷺ شيئاً يؤكد رحمة الله سبحانه وتعالى وعدله، قائلاً:

«وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي» (286) امرأتك» (287).

أي أن كل صدقة ينفقها الإنسان وهو يبتغي بها وجه الله سبحانه وتعالى، مهما كانت صغيرة، حتى لو كانت في لقمة الطعام التي تدخل فم زوجته، فهو يؤجر عليها أجراً عظيماً من الله.

هذا الموقف يعلمنا توازناً رائعاً بين الإنفاق في سبيل الله، وبين حفظ الحقوق والأمانة تجاه الأسرة والذرية، ويظهر رحمة النبي ﷺ وحرصه على أن يكون العطاء مدروساً لا يضر بالأسرة أو بالمستقبل.

فكيف ننسى هذه الدروس في زمننا الذي نحتاج فيه إلى حكمة النبي ﷺ في كل لحظة؟! كل لحظة!

الأمان هو الأصل في الإيمان

في خطبة التشريق، أعطانا النبي ﷺ تعريفات واضحة وبسيطة جداً، يفهمها أي إنسان، حتى لو لم يكن متعلماً أو يعرف القراءة والكتابة، وكأن النبي ﷺ أراد أن يجعل لنا هذه المفاهيم واضحة في أبسط صورها؛ لنعيش بها ونعرف ما هي الألقاب التي ينبغي أن نرتقي إليها ونحملها أمام ربنا يوم الحساب.

فأوضح النبي ﷺ أن:

(المؤمن): هو من آمنه الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم. أي أن المؤمن الحقيقي هو ذلك الإنسان الذي يشعر معه الناس بالأمان التام؛ لا يخافون منه أن يؤذيهم أو يعتدي عليهم بأي شكل؛ لا على حياتهم ولا على كرامتهم ولا على أموالهم.

وأما (المسلم): فهو من سلم الناس من لسانه ويده. يعني المسلم هو الذي لا يؤذي الناس بكلامه ولا بأفعاله، لا يغتاب ولا يسب ولا يضرب، يسلم الناس من شره في القول والفعل.

وأما (المهاجر): فهو من هجر ما نهى الله عنه. وهذا يعني أن المهاجر الحقيقي هو من ترك المعاصي والذنوب، ترك كل ما حرمه الله سبحانه وتعالى، حتى تكون حياته كلها لله واتباعاً لسنة النبي ﷺ.

وكان النبي ﷺ يقول لنا الدين واسع، يناسب الجميع مهما كانت قدراتهم، والركيزة الأساسية فيه هي النفع وعدم الإضرار بالخلق. فإذا لم أكن أشعر معك بالأمان، مثلاً إذا كنت تغتابني أو تسرق مالي أو تسيء إلي سمعتي، فأنت بذلك

تسير في طريق الخطر الكبير؛ لأن المؤمن الحقيقي هو من يجعل الآخرين يشعرون بالأمان.

أما إذا كنت يا صديقي ممن تمنح الآخرين هذا الأمان، وتشعرهم بالطمأنينة، فأنت بذلك تكون في زمرة المؤمنين.

هذا الكلام ينطبق على كل الناس: المتزوجين، الأصحاب، الإخوة والأخوات.. فليعلم الجميع أن «الأمان» هو جوهر الإيمان. وأن:

«المسلمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» (288).

وهذا الحديث الذي حفظناه منذ صغرنا يحمل في طياته دلالة عميقة، فهو يحثنا على أن نكون رعاة سلام وأمان للناس من حولنا؛ لأن الإنسان قد يكون عبداً لله وربانياً، وقد يكون في الوقت نفسه أسوأ من الحيوان والشيطان، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

[سورة الفرقان: 44]

فالإنسان يحمل بداخله نقيضين: جانب رباني وملائكي يجعل منه خادماً للخلق، وجانب شيطاني وبهيمي يحركه الشر والرغبات الحيوانية التي تؤذي وتُفسد.

وهذا ما تؤكده علوم النفس والشرع؛ أن الإنسان بداخله دوافع حيوانية تحتوي على أذية، ودوافع شيطانية تحوي الشر، وأنت الذي تختار مسارك بين التقوى والفجور، وبين الخير والشر.

فعندما يفهم الإنسان أن تدينه الحقيقي مرتبط جداً بأن يعيش وسط الناس في سلام وأمان، وأن يكون نافعا لهم، عندها سيحدد أولوياته، ويسير بخطى ثابتة في طريق الله ونور النبي ﷺ.

إهانات متتالية لمُدَّعي النبوة (مُسيلمة الكذاب)

بعد أن عاد النبي ﷺ إلى المدينة، رأى في منامه رؤيا غريبة، كانت في يديه أساور من ذهب تُشعره بالضيق الشديد، فنفخ في تلك الأساور فطارت بعيداً، ف شعر بالراحة والاطمئنان. ففسّر النبي ﷺ تلك الرؤيا بأنها إشارة إلى ظهور من سيدّعي النبوة بعده، وهذا ما تحقق لاحقاً عندما ظهر اثنان من المنتسبين إلى هذا الادعاء: الأول هو مسيلمة الكذاب من قبيلة بني حنيفة، والثاني هو رجل يدعى أبا الأسود العنسي.

مسيلمة، الذي كان من بني حنيفة، قبيلة كبيرة وقوية، اشتهر بأنه كذاب؛ لأنه ادعى النبوة زوراً وبهتاناً، على الرغم من أن النبي ﷺ أخبر أن هناك ثلاثين رجلاً سيدّعون النبوة بعده. في بداية أمره، قال مسيلمة لقومه إنه مؤمن برسول الله ﷺ، لكنه أخبرهم أنه سيكون هو النبي بعد وفاة النبي ﷺ. ثم بدأ يتجرأ على تبديل الدين كما يشاء، فأحلّ الزنى وشرب الخمر، ورفع عنهم الصلاة، مسخراً الدين ليعخدم نزواته.

مسييلة بدأ يخلق كلاماً مشابهاً للقرآن الكريم بسجع مضحك، مثلما سُميت «سورة التفاح»، حيث قال فيها كلمات مثل: «إنا أعطيناك التفاح، فصلّ لربك وارتاح، إن شائئك هو العجل النطّاح»، في محاولة هزيلة لتقليد سورة الكوثر، لكنه فشل في تقمص مكانة النبي ﷺ.

وقال لهم إنه قادر على فعل معجزات تشبه معجزات النبي ﷺ، فعندما سأله إن كان يستطيع شفاء عين مريضة مثلما شُفي سيدنا قتادة، وافق. لكن عندما جاءه رجل بعين واحدة مصابة بحول، حاول مسح عينه، فأصيب الرجل بالعمى بدل الشفاء. وهنا وقعت له «إهانة» كما يسميها العلماء، فالفرق بين النبي ﷺ والولي الصالح وبين الإنسان الكاذب واضح: النبي يخرج المعجزات والكرامات، أما الكاذب فيخرج الإهانات والفضائح.

في موقف آخر، حينما كان الماء في بئر قوم مسييلة قليلاً أو غائراً، حاول أن يكرر فعل النبي ﷺ الذي كان يتفل في الماء فيفيض ويكثر، لكنه عندما تلمضمض ومجّ في البئر، غار الماء تماماً، وماتت الأرض، وهذا دليل آخر على فضيحة ادعائه وعجزه.

حتى قال له رجل من قبيلته؛ «والله إنك تعلم أنني أعلم أنك كذاب، ولكن كذاب بني ربيعة أحب إلينا من صادق مضر». وكأنه يعترف بأنه يعلم كذبه لكنه يفضل أن يتبعه لأنه من قبيلته، وهذه مأساتنا عندما نغلب الولاءات القبلية على الحق.

حين أرسل مسييلة خطاباً للنبي ﷺ يطلب أن يُقرّه بالزعامة بعد وفاته، رد عليه النبي الكريم بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾

[سورة الأعراف: 128]

أي أن الحق بيد الله وحده، وليس لأحد أن يدّعي وراثته نبوة أو حكمًا.

وعندما طلب مسيلة أن يقسموا الأرض بينه وبين النبي ﷺ رد عليه النبي ﷺ بنفس الآية، مؤكّدًا أنه خاتم الأنبياء، ولا سلطان لأحد بعده، ورغم ذلك لم يتوقف مسيلة عن الكذب، فقد ألّف سورة سُمّيت «سورة الضفدع»، يقول فيها كلمات ساخراً: «نُطِي كما تُنطِن نصفك في الماء ونصفك في الطين»، في محاولة منه للافتخار بأنه يمتلك نصف الأرض، بينما يقابلهم نصفها الآخر الذي هو قريش، قائلاً إنهم قوم ظالمون.

ربما تضحك على هذا «القرآن المزيف» لمسيلة، لكن هذا هو حال كل من يدّعي بدون علم أو حق، ويختلق أموراً على الله ورسوله، فيكون مصيره الإهانة والفضيحة.

وهذا المشهد كان من أبرز ما حدث في آخر أيام النبي ﷺ، وبعد وفاته قام المسلمون بحاربة مسيلة ومن تبعه حتى قضوا على هذا الادعاء الباطل؛ حفاظاً على دين الله ونور رسوله ﷺ.

الصدق نجاة والكذب ريبة

عجيب حقًا شأن مسيلة الكذاب، وهذا شأن كل من يدّعي ما ليس فيه ويكذب على الناس. فالأنبياء ﷺ تأتيهم أمور خارقة تُسمى معجزات، وهي علامات من عند الله تعالى لتأييد نبوتهم وبيان صدقهم، حتى يؤمن الناس بقوة الله التي تفوق كل القوى. هذه المعجزات هي عون للناس وهداية لهم، مثل معجزات سيدنا سليمان رضي الله عنه في تسخير الريح والجن، ومعرفته للغة الطيور والحيوانات، وكلها من قدرة الله تعالى.

أما مسيلة الكذاب، فقد حدث معه أشياء خارقة للطبيعة، لكنها لم تكن معجزات لتأييد نبوته، بل كانت إهانات وفضائح تُظهر ضعفه وهوانه. عندما حاول أن يعالج مرضى زادهم مرضًا، وحينما أراد أن يزيد ماء البئر غار الماء واختفى، حتى لم يستطيعوا أن يستخرجوا منه نقطة ماء واحدة. وأما «قرآنه» الذي ألّفه فكان مجرد نكتة عبر الزمان، صار الناس يضحكون عليه بسبب ضعف كلامه وهزله، كأنه ممثل في مسرحية سخيفة.

وما زاد من إهانتته أنه أباح للناس الزنى وشرب الخمر، ورفع عنهم الصلاة، عكس القرآن الذي أوصانا الله تعالى فيه بقول:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

[سورة الإسراء: 32]

وأن الصلاة فُرضت على المؤمنين بقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾

[سورة النساء: 103]

فتخيل أن يأتي شخص ويقول لمسيمة: هل «الزنى حلال؟»، أو «لا نصلي؟» وهو في الحقيقة ينقلب ضد شريعة الله التي فرضها رب العالمين.

ومن قصة مسيمة تتعلم درساً عميقاً: الصدق نجاة، والكذب ريبة وهلاك. فالإنسان عندما يدعي معرفة أو مكانة ليست له فقط لأغراض دنيوية، فإنه يقع في خطأ عظيم. الصدق يرفع مقام الإنسان في قلوب الناس، ويخلق بينهم مودة ورحمة، أما الكذاب فيعيش داخل فقاعة كبيرة تكبر في عيون الناس، لكنها سرعان ما تنفجر وتكشف حقيقته، فيفضح بين الناس وينكشف أمره.

فكيف يمكن لإنسان أن يدَّعي النبوة بينما هو يرى النبي ﷺ بعينه، يرى تكريم الله له، وتأنيده الصريح، ومعجزاته الواضحة؟! هذا تناقض لا يقبله عقل ولا قلب، وهو خير برهان على بطلان ادعاءات الكذابين.

في النهاية، تبقى قصة مسيمة الكذاب عبرة لكل من يحاول اختلاق الأكاذيب وتزييف الحقائق؛ لأن الحق يعلو ولا يُعلى عليه، والصدق نور يهدي، والكذب ظلام يُبني.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيدنا محمد الفاتح لما أُغلق،

والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى

صراطك المستقيم، وعلى آله وأصحابه حق قدره
ومقداره العظيم، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى
والعفاف والغنى. اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك
وأغننا يا مولانا بفضلك عمن سواك.



-
- (261) رواه مسلم.
(262) رواه الترمذي.
(263) رواه البيهقي.
(264) رواه البيهقي.
(265) رواه البيهقي.
(266) رواه الطبراني.
(267) رواه البخاري.
(268) رواه مسلم.
(269) رواه البيهقي.
(270) رواه أحمد.
(271) رواه البخاري.
(272) فَوَقَّصَتْهُ : كَسَرَتْ عُنُقَهُ.
(273) رواه البخاري.
(274) رواه البخاري.

- (275) رواه مسلم.
- (276) رواه مسلم.
- (277) رواه البخاري.
- (278) رواه مسلم.
- (279) رواه أحمد.
- (280) رواه الحاكم.
- (281) المصدر السابق.
- (282) المصدر السابق.
- (283) المصدر السابق.
- (284) رواه البخاري.
- (285) رواه البخاري.
- (286) في: هو الفم.
- (287) المصدر السابق.
- (288) رواه أحمد.

علامات اقتراب وفاة النبي ﷺ

علامات اقتراب أجل رسول الله ﷺ

ها قد وصلنا في رحلتنا مع حياة سيدنا محمد ﷺ إلى أيامه الأخيرة، وقد انتهت السنة العاشرة من الهجرة، حيث كان فتح مكة قبل عامين، وفي تلك السنة العظيمة، حج النبي ﷺ مع مائة ألف صحابي في حجة الوداع، وكان عمره عليه الصلاة والسلام آنذاك ثلاثة وستين عاماً. وفي يوم عرفة، في أوج موسم الحج، نزلت الآية المباركة التي تمثل علامة فارقة في تاريخ الإسلام، وهي قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: 3]

وكان اليهود حين يسمعون هذه الآية يرددون: «إن عندكم آية لو نزلت علينا لاتخذناها عيداً»، في إشارة إلى إدراكهم العميق لعظمة هذه الآية التي تعلن اكتمال الوحي وكمال دعوة نبينا محمد ﷺ.

وبدخولنا إلى السنة الحادية عشرة من بعد الهجرة، ظهرت خمس علامات جلية تدل على قرب وفاة نبينا الحبيب محمد ﷺ:

1- نزول سورة النصر

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)﴾ [سورة النصر: 1-3]

فكانت السيدة عائشة تقول: (كان النبي ﷺ يُكثِرُ من قول «سبحان الله وبحمده.. اللهم اغفر لي»)، فسألتها السيدة عائشة عن سبب كثرة ترديده لهذا الذكر، فقال لها: (خبرني ربي أنني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتهَا أَكْثَرْتُ من قول: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتَهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؛ فَتَحُ مَكَّةَ.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ
إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿(289)﴾. [النصر: 2، 3]

ويحكي سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يجلس مع النبي ﷺ وأكابر الصحابة من أشياخ بدر، وكان معهم الفتى عبد الله بن عباس، الذي لم يتجاوز عمره سبعة عشر أو ثمانية عشر عامًا، وكان الصحابة يتعجبون من جلوسه معهم، فقال لهم عمر: «إنه من حيث علمتم!» ثم قال لهم النبي ﷺ: «ما تقولون في قول الله:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة النصر: 1]

فبدأت أشياخ بدر بالإجابة بأن الله يأمر نبيه والمؤمنين إذا رأوا نصر الله والفتح أن يسبحوا بحمده، فتكلم ابن عباس قائلًا: «هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: «إذا جاء نصر الله والفتح»، وذلك علامة أجلك». وأكد عمر قائلًا: «أخبرتكم والله ما أعلم منها إلا كما يعلم ابن عباس».

2- أن سيدنا جبريل رضي الله عنه نزل على سيدنا محمد في السنة الأخيرة من حياته (مرتين يعارضه القرآن)؛ أي «يراجع معه القرآن»

وكان سيدنا جبريل ينزل على رسول الله ﷺ (مرة) واحدة كل عام، فلما جاء العام الأخير من حياته ﷺ نزل عليه (مرتين) يُراجع معه القرآن وترتيب الآيات والسور، فلمُصحف الذي نقرأ منه ترتيبه من عند رب العالمين - سبحانه وتعالى - وليس من ترتيب رسول الله ﷺ.

3- أن سيدنا النبي ﷺ اعتكف في هذه السنة (20 يوماً)

وفي باقي السنين كان ﷺ إذا جاء آخر رمضان يعتكف (10) أيام فقط «العشر الأواخر».

4- أن النبي ﷺ أصبح يُكثر الكلام عن موته وانتقاله

فكان يجلس مع أصحابه فيقول:

«حياتي خيرٌ لكم، ووفاتي لكم خيرٌ، تُحدثون فيحدثُ لكم، فإذا أنا متُّ عُرِضَتْ عليَّ أعمالُكم، فإن رأيتُ خيراً حمدتُ الله، وإن رأيتُ شراً استغفرتُ اللهَ لكم» (290).

ومعنى الحديث.. أن النبي ﷺ وهو في قبره تُعرض عليه أعمالنا من خير وشر، فما وجد من خير يحمد الله، وما وجد من شر يستغفر الله لنا.

وصعد النبي ﷺ على المنبر فقال:

«أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لِيَرُدَّ عَلَى أَقْوَامٍ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ» (291).

أي سأسبقكم عند الحوض.

5- كثرة زيارة النبي ﷺ لأهل البقيع المدفونين بجانب المسجد النبوي

فعلى يسار المسجد حيث توجد مقابر المسلمين هناك، مدفون فيها 10 آلاف صحابي، وكان ﷺ يأخذ أحد مواليه «خدمه» اسمه (أبو مويهبة)؛ كان يأخذه معه وهو يُسَلِّم على الأموات في البقيع فيقول له:

«يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، وَخِيَرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةَ. فَقَالَ «أَبُو مُوَيْهَبَةَ»: قُلْتُ: بِأَيِّ وَأُمِّي نَحْذُ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ. قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ، لَقَدْ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي وَالْجَنَّةَ» (292).

ثم عاد النبي ﷺ وبدأ يشكو من الوجع.

لكلِّ مناَّ أجله.. فلا تقلق

إذا سألت أي مسلم من أعماق قلبه، فبلا شك ستجد في نفسه تمنيًا عميقًا أن يبقى نبينا محمد ﷺ خالداً بيننا في هذه الدنيا، لا يرحل عنا وهو في عمر الثالثة والستين، لأننا نحبه ونشتاق إلى وجوده الدائم بجانبنا. نرغب في أن نصلي خلفه، نلجأ إليه إذا أحاطت بنا المشكلات، لنجد عنده الحل، ونستقبل الرد الإلهي على لسانه الشريف، وإذا كان بيني وبين نفسي همٌّ أو جرح لم أستطع تفسيره، أتمنى أن يشخصه لي بعق رحمته، ويوجهني إلى طريق الشفاء والراحة. وإذا تركني الجميع وحيداً في شدتي، أجد في حضنه الأمان والسكينة.

لكن رب العالمين له حكمة عظيمة تختلف عن مشاعرنا؛ فقد أراد سبحانه أن يكمل النبي ﷺ رسالته ثم يلقاه في جوار رحمته، فهو نفسه عليه الصلاة والسلام اختار لقاء ربه بعد أن أتم كل ما كُلف به من تبليغ الدعوة.

هل تأملتَ معي عمق تلك الآية الكريمة التي نزلت في يوم عرفة، وهي تصرخ في وجدان كل مؤمن:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: 3]

إنها تأكيد من رب العزة والجلال أن الدين قد اكتمل، وأن ما نحن عليه من إيمان واتباع هو رضا الله عن دينه الذي اختاره لنا.

وأكثر من ذلك، أنزل الله على نبيه سورة عظيمة تُخبره بأنه رأى ثمة جهده طوال سنوات الدعوة، ورأى أن الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وأن مدد الله سبحانه وتعالى معه مستمر:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)﴾ [سورة النصر: 1-3]

ولهذا، كان النبي ﷺ يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده.. اللهم اغفر لي»، تضرعاً وامتناناً لهذه النعمة العظيمة.

وهذا المعنى الجميل ينطبق على كل من فارقنا من أحبابنا، أمواتنا الذين رحلوا عن الدنيا، فلا فرق عند الله بين صغير وكبير، فكل واحد منهم أكمل دوره في هذه الحياة التي قدرها الله له، ورحل إلى دار الخلود حيث الأرواح تلتقي بخالقها. حقيقة الأمر أن أرزاق الدنيا التي كانت لهم قد انتهت، وبدأت معهم أرزاق الآخرة الخالدة، كما قال تعالى:

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [سورة الأعلى: 17]

فلذلك لا داعي للقلق على من سبقنا إلى دار الحق؛ لأن الحياة والموت بيد الله وحده، وهو الحكيم العليم.

بداية ظهور أعراض المرض على رسول الله

في آخر ليلة من شهر «صفر» في السنة الحادية عشرة للهجرة، تحكي السيدة عائشة رضي الله عنها عن حالة قاسية ألمّت بها؛ إذ أصابها ألم شديد في رأسها وكانت تربط رأسها محاولةً تخفيف الوجع، فجاءها رسول الله ﷺ وسألها بحنان: (مالك يا عائشة؟). فتنهدت وقالت: «وا رأساه». فأجابها النبي عليه الصلاة والسلام وهو يعاني مثلها:

«بل أنا وا رأساه» (293).

كان من النادر أن يتوجع النبي ﷺ، لكن في تلك الليلة اشتد عليه الألم في رأسه، فكان وجعاً وألماً عظيمين.

تروي عائشة رضي الله عنها: «فذهب فلم يلبث إلا يسيراً حتى جيء به محملاً في كساءٍ على أكتاف أصحابه» (294).

بدأ المرض يتفاقم مع ألم في الرأس وارتفاع شديد في الحرارة، حتى إن سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وضع يده على رأس النبي فسرعان ما نزعها متأثراً وقال: «ما أشدُّ حماك يا رسول الله! إنك لتوعك وعكاً شديداً». فأجابته السيدة عائشة: «نعم، ذاك له أجران». فقال النبي ﷺ:

«ما من مسلم يصيبه أذى إلا حاتَّ اللهُ عنه خطاياه كما تحاتُّ ورق الشجر» (295).

معبراً عن أن المرض يمسح الذنوب كما تتساقط أوراق الشجر في الخريف.

اشتد المرض على النبي ﷺ، فطلب من زوجاته الإذن أن يُطَبَّ ويُمرَّض في بيت السيدة عائشة؛ لأنه لم يعد قادراً على التنقل بين بيوته لشدة مرضه. تقول عائشة: «جاء النبي محملاً على كتف العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب، يضع قدمه على الأرض».

وعندما جاءت السيدة فاطمة لزيارة والدها، مال النبي ﷺ عليها ولكنه لم يستطع القيام كما كان يفعل عادة؛ إذ كان يرحب بها قائلاً: «مرحباً يا ابنتي». ثم يقبلها بين عينها ويجلسها بجانبه، ولكن في هذه المرة نظر إليها وقال: «تعالى». ومال عليها وهمس في أذنها شيئاً فأجهشت بالبكاء بكاءً شديداً، ثم مال إليها مرة أخرى وقال شيئاً آخر فابتسمت. وعندما سألوها عما قاله لها، أخبرتهم بأنها لا تستطيع الإفصاح عنه حينها، وبعد وفاة النبي ﷺ روته لهم: «قال لي في المرة الأولى: اقرب

أجلى فاتقى الله واصبري واحتسبي». ففهمت أنه سيموت، فبكيت بكاءً شديداً، ثم قال لي وهو يسرني: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة وأول أهلي لحوفاً بي؟». ففرحت وابتسمت.

وطلب النبي ﷺ بعد ذلك أن يصبوا عليه جرأاً من الماء، فسكبوا عليه سبع مرات، كما يسكب الماء في إناء كبير، بسبب شدة حرارته؛ إذ كان يرغب في الوقوف والكلام مع الناس.

حملوه إلى المسجد وخطب في الناس قائلاً:

«ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلَّا وقد كافأناه، ما خلا أبا بكرٍ، فإنَّ له عندنا يدًا يكافئه اللهُ بها يومَ القيامةِ» (296).

أي أن كل من خدمه أعاده الله له جزاءً، إلا أبا بكر فله فضل خاص لا يمكن أن يكافأ به إلا من الله.

ثم قال:

«لا يبقين في المسجد بابٌ إلَّا سدَّ إلَّا بابَ أبي بكرٍ» (297).

أي: تسد كل أبواب المسجد إلَّا بابَ أبي بكرٍ، فهو الوحيد الذي يُسمح له بالدخول إليه وقتما شاء.

ثم أضاف:

«إِنَّ عَبْدًا خَيْرَهُ اللَّهُ يُبَيِّنُ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ» (298).

فبكى أبو بكر وقال:

«نفديك بآبائنا وأمهاتنا». فتعجب الصحابة وقالوا:

«ما يبكي هذا الشيخ؟» (299).

وكان أبو سعيد الخدري يقول: «وكان أبو بكر أعلمنا برسول الله ﷺ».

كان النبي ﷺ ينعى لنا نفسه، والوحيد الذي فهم كلامه وتجاوب معه هو رفيقه وصاحبه المقرب أبو بكر الصديق ؓ، الذي قال له بكل إخلاص: «نفديك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله».

الحكمة والنتيجة من المرض.. وكيف نُفَرِّق بينهما؟

في حياة سيدنا محمد ﷺ هناك رحمة عظيمة ونور باهر من رب العالمين حتى في لحظة مرضه ووفاته، وهذا يحمل لنا درساً عميقاً في فهم المرض والحكمة منه.

كثير من الناس ينظرون إلى المرض نظرة محدودة، باعتباره فقط تكفيراً للسيئات أو رفعةً للدرجات عند الله؛ لهذا تجد من الصالحين والأولياء من يصابون بأمراض مؤلمة وشديدة، فتتساءل في نفسك: كيف يُصاب هذا الإنسان الطاهر بتلك الآلام التي تبدو أحياناً لا تناسب حاله؟

في هذا النقاش، يُفرّق العلماء بين مفهوم «الحكمة» و«النتيجة»، وهنا يكمن الفهم الحقيقي الذي يريح القلوب ويزيل اللبس. دعني أوضح لك الفرق من خلال هذا المثال: أنا إذاً أذكر وأجتهِد لكي أنجح وأصبح شخصاً محترماً ونافعاً في المجتمع، هذه هي «الحكمة» من المذاكرة. وعندما أنجح، تأتي النتيجة، وهي أن يشتري لي أبي دراجة هوائية «عجلة» هدية على نجاحي. فالـ«حكمة» هي النجاح والاحترام، و«النتيجة» هي الهدية الجميلة التي تعبر عن مكافأة لهذا النجاح.

بنفس الطريقة، عندما يمرض الإنسان، فالمرض يأتي لحكمة من الله سبحانه وتعالى، وهذه «الحكمة» هي السبب، أما «النتيجة» فقد تكون تكفيراً للسيئات أو رفعةً للدرجات، حسب ما حكمه الله تعالى، ولكن المرض بحد ذاته ليس هو التكفير ولا الرفع، بل هو سببٌ حكيم لا يعلمه إلا الله.

وهذا يعني أنه لا يصح أن نقول: النبي ﷺ مرض لكي يكفر الله عنه سيئات، فهذا خطأ في الفهم؛ لأن النبي ﷺ في أعلى درجات الكمال، وهو معصوم لا توجد عنده سيئات تحتاج إلى تكفير، فرضه ليس لتكفير سيئات أو رفع درجات، بل لحكمة عظيمة خاصة به لا يدركها إلا الله.

علينا أن نرحم أنفسنا ونرحم المرضى من هذا الاعتقاد الخاطئ، فلا ننقل عليهم بأن ما يعانونه من المرض هو فقط تكفير لذنوبهم. ربما في ذلك حكمة أعمق، لعلها ترفع من مكانتهم أو تهيئهم لمرحلة أخرى. وأيضاً، أحياناً نشعر بمرارة عندما نرى أشخاصاً فاسدين ومفسدين في الأرض أحياناً يظنون بصحة جيدة، بينما يعاني

الصالح من المرض، وهذا بسبب سوء الفهم؛ لأن المرض ليس عقاباً، بل قد يكون من رحمت الله وحكمته العظيمة التي لا نستطيع أن ندركها أبداً.

فلنحرص على تصحيح هذا الفهم، ولنعامل أنفسنا والآخرين برحمة وحكمة، ولنثق بأن كل ما يحدث لنا من مرض أو ألم هو من تدبير الله، فيه خير لا يراه إلا من وفقه الله للنظر بعمق وإيمان.

كلام من ذهب

هل تأملت يوماً كلام النبي ﷺ وهو يحدث عن صديقه المقرب أبي بكر الصديق؟ فجأة خرج منه هذا القول العميق: أن كل من خدمني أو قدم لي شيئاً قد كافأته في الدنيا عليه، إلا ما فعله صاحبي أبو بكر، فهذا الجزاء العظيم لا يقدر عليه إلا الله وحده، فهو القادر وحده على مكافأته بما يليق به.

تخيل معي، في تلك اللحظات الأخيرة قبل أن ينتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، كرم الحب والاحترام والتقدير الذي كان يغمر قلبه تجاه هذا الرفيق الذي وقف إلى جانبه في أصعب الظروف، وكأنه يقول له: يا أبا بكر، أنت أغلى من أن يُرد لك حقك بيد بشر، فالله وحده هو الذي يمنحك الجزاء العظيم على ما قدمته لي من إخلاص ووفاء.

هذا التعبير النابع من القلب يحمل في طياته عمق الصداقة الحقيقية، وصدق المحبة التي تجاوزت حدود الدنيا، لتصل إلى منتهى الروح والوفاء.

أهمية إرجاع الحقوق ووصية النبي ﷺ بها

أمر النبي ﷺ بإنفاد بعث سيدنا أسامة بن زيد بن حارثة، وهو شاب صغير في عمره لا يتجاوز حوالي ستة عشر عاماً، فجعله قائداً على جيش لصد عدوان الرومان في بلاد الشام، ثم طلب النبي ﷺ أن يخطب في الناس، اتكأ على أصحابه، وقد ربط عصاةً فوق رأسه، وجلس على منبره، فحمد الله وأثنى عليه، وخطبهم قائلاً:

«فَإِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ وَيَقِلُّ الْأَنْصَارُ، حَتَّى يَكُونُوا فِي النَّاسِ بِمَنْزِلَةِ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، فَمَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ شَيْئًا يَضُرُّ فِيهِ قَوْمًا وَيَنْفَعُ فِيهِ آخَرِينَ، فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ» (300).

هنا يوصي النبي ﷺ أصحابه بالأنصار ويحثهم على تكريمهم؛ لأنهم قد أكرموا وآووه وصدقوه ونصروه، حتى إن الله تعالى اختار أرض الأنصار لتكون مشواه وموضع دفنه إلى يوم القيامة، فخير خاطرهم بهذه الكلمات النابعة من محبته لهم وتقديره لوقوفهم إلى جانبه.

ثم قال لهم ﷺ:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ دَنَا مِنْي حَقُوقٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ» (301).

(آن الأوان أن أرد لكم الحقوق)، فقال: «فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ألا ومن كنت قد شمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليستقد منه». رغم أن النبي ﷺ لم يضرب

أو يشتم أو يأخذ مالا من أحد، لكنه أراد أن يعلمنا درساً عظيماً أن كل حقوق الناس لا بد أن تُردَّ قبل الرحيل، مهما كانت بسيطة أو كبيرة، ليكون المرء طيب النفس عند لقاء الله.

ثم أكمل ﷺ قائلاً: «ألا لا يقولَنَّ رجلٌ إني أخشى الشَّحْنَاءَ من قبلِ رسولِ اللهِ ﷺ، ألا وإنَّ الشَّحْنَاءَ لَيْسَتْ من طَبِيعِي ولا من شَأْنِي، ألا وإنَّ أَحَبُّكُمْ إلي من أَخَذَ حقًّا إن كان له أو حلَّلي فلَقِيتُ اللهَ وأنا طيِّبُ النَّفْسِ». أي أنه ﷺ لا يخشى أن يُطالب أحدٌ بحقوقه، ولا يحمل ضغينة أو عداً لأي شخص، بل إن أحب الناس إليه هم من أخذوا حقوقهم أو حللوا له ما أخذ منهم، وهو يود أن يقابل الله وهو طيب النفس لا يجرح أحداً.

جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال له: «يا رسول الله، لي عندك ثلاثة دراهم». فقال ﷺ: «أما إنا لا نكذبُ قائلاً، ولا نستحلفه، فم صارت لك عندي؟». أي أراد أن يسمع منه متى وأين أخذ هذه الدراهم، فأخبره الرجل: «يا رسول الله، تذكر يوم كذا، جاءك مسكين فقلت لي أعطه ثلاثة دراهم». فتذكر النبي ﷺ وقال لسيدنا الفضل: «ادفعها إليه يا فضل».

ثم قال النبي ﷺ: «فضوح الدنيا أيسر من فضح الآخرة».

ثم جاء رجل آخر وقال: «يا رسول الله، كنت قد أخذت ثلاثة دراهم منك غلولاً من غنائم ليست لي». فقال النبي ﷺ: «ردها». فأعادها، ثم قال ﷺ: «خذها يا فضل».

ثم جاء رجل آخر واعترف بقوله: «يا رسول الله، أنا كذاب ومنافق وثنوم». أي أنه كثير النوم، فقال له النبي ﷺ: «اللهم ارزقه صدقاً، وإيماناً، وصبراً أمره إلى خير».

ثم جاء آخر وقال: «يا رسول الله، إني لكذاب ومنافق، وما تركت من شيء إلا فعلته». أي أنه كان يذنب كثيراً، فقال عمر بن الخطاب: «فضحت نفسك». فغضب النبي ﷺ وقال له: «مه يا بن الخطاب، فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة». ثم دعا له قائلًا: «اللهم ارزقه صدقًا، وإيمانًا، وصير أمره إلى خير».

ثم قال النبي ﷺ:

«عمرُ معي، وأنا معه، والحقُّ بعدي مع عمرٍ حيثُ كان» (302).

وكان النبي ﷺ، قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، يخبر الناس بالحقيقة عن أصحابه، كما قال عن أبي بكر إن الله هو من يجزيه خير الجزاء، وقال عن عمر إن الحق معه، وأنه سند قوي في نشر الإسلام والعدل بعده ﷺ.

ثم صلى ﷺ، وكانت السيدة أم الفضل بنت الحارث تقول: «إن آخر صلاة سمعت النبي ﷺ يُصلِّيها إمامًا بالناس كانت صلاة قرأ فيها من سورة (والمرسلات عرفاً)»، وهي سورة في الجزء التاسع والعشرين من القرآن الكريم.

بعد ذلك عاد النبي ﷺ إلى بيته، يُطِّبُونَهُ وَيُمرِّضُونَهُ، مُحَاطًا بِمَحَبَّةِ أَهْلِيهِ وَرِعَايَتِهِمْ.

سبب رهن درع النبي ﷺ عند اليهودي

كل تصرف في آخر حياة سيدنا محمد ﷺ كان كأنه شعاع نورٍ ساطع يضيء دروب الصحابة وكل من ساندوه ووقفوا معه، يترك في قلوبهم عبرة وعظة لا تُنسى؛ فقد جلس ﷺ على المنبر مخاطباً الناس، وطلب منهم بكل رحمة وصدق أن من كان له عنده حق فليطالب به دون خوف أو وجل؛ لأنه يرغب في أن ينتقل إلى جوار ربه وهو طيب النفس، لا يحمل في قلبه ضغينة أو شحنة لأحد، فقال لهم بكل يقين: «لا يقولن رجل: إني أخشى الشحنة من قبل رسول الله ﷺ، ألا وإن الشحنة ليست من طبعي ولا من شأني». رغم أن النبي ﷺ لم يضرب أحداً قط، ولم يسب أو يشتم أحداً يوماً، فقد كان حريصاً على أن يرد الحقوق لأصحابها بكل رحابة صدر ومحبة. فحينما ذكره رجل بثلاثة دراهم أمره ذات يوم بأن يعطيها صدقة لمسكين، لم يتردد ﷺ في أن يأمر سيدنا الفضل بأن يدفعها لهذا الرجل فوراً، حتى لا يبقى له حق عنده.

وهنا تأتي قصة درعه التي كانت مرهونة عند يهودي، وهي نقطة هامة جداً في فهم تعامله مع المال وحقوق الناس في آخر حياته ﷺ؛ فقد روى العلماء أن النبي ﷺ وضع درعه في رهن عند يهودي، ولم يطلب المال من أغنياء صحابته مثل سيدنا عثمان ابن عفان، زوج ابنته الذي كان يمتلك مالاً وفيراً وكان سيشكره لو طلب منه المال، لكنه ﷺ لم يُرد أن يشغل بال أصحابه أو يُثقل عليهم، ففضل أن يأخذ المال من عند اليهودي لأنه يعلم أن اليهودي لن يترك حقه وسيطالب به في الوقت المناسب.

كان هذا حرص النبي ﷺ على ألا يكون لأحد من الناس حق عليه، ولا أن يشغل بال أصحابه، وهذا درس عظيم لنا: مهما كانت أوضاعنا، فعلينا أن نحافظ على حقوق الناس، ولا نأخذها بغير وجه حق، ولا نترك شيئاً بيننا وبين الآخرين إلا وأديناه؛ لأن الحقوق يوم القيامة يُحاسب عليها حساباً دقيقاً.

وقد أراد النبي ﷺ بهذا أن يُخبرنا جميعاً أن العودة إلى الله بقبور من نور - ويوم القيامة مليء بالنور- مرتبطة بإسلامنا وأمانتنا في الدنيا، وأن أكل حقوق الناس حتى لو غفرها الله سبحانه وتعالى، قد يُسلب الإنسان حسناته من أجلها يوم القيامة؛ لأنه مهما غُفرت الذنوب فإن الحقوق لا تُغفر إلا بردها إلى أصحابها.

كأنه ﷺ يُوصينا بأن نترك الدنيا ونحن قد سلّمنا كل الحقوق لأصحابها، فلا نُخلف وراءنا مظالم أو حقوقاً لأحد، حتى نكون عند لقاء الله يشملنا عفو الله الكريم، فلا يوقفنا إنسان صاحب حق يقول: «يا رب، قد ظلمني أو شتمني أو أخذ حقي»، وتصبح ضحية لمن يقول «نفسي .. نفسي».

إنها وصية عظيمة من الحبيب ﷺ، نورٌ يهدي القلوب، ودعوة صادقة لأن نكون أناساً يعتمد عليهم في الحقوق والعدل، حتى نلقى الله ونحن طيبو النفوس، مطمئنون، مرفوعو الرؤوس أمام خالقنا الكريم.

وصايا النبي ﷺ في لحظاته الأخيرة

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ في بيتي يعظنا عن الصلاة ويُعظّم شأنها». أي كان ﷺ يحدثنا عن الصلاة، وعن حضور القلب مع الله سبحانه وتعالى، وعن خشوع النفس وتوقير هذا الركن العظيم من أركان الإسلام.

ثم حين أذن سيدنا بلال للصلاة، قال النبي ﷺ لأصحابه: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ». وبعد فترة قصيرة، وهو يشعر بالتعب والضعف، كرر قائلاً: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ».

حينها قالت له السيدة عائشة: «يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف، رقيق القلب، فإذا صلى بالناس بكوا لبكائه الشديد». أي سيفقد الناس تركيزهم على القراءة ولا يفهمون من قراءته.

لكن النبي ﷺ أجابها بحزم ورقة في آنٍ معاً، وقال:

«إِنَّكُمْ لَا تَنْتَ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُّوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ» (303).

وقد فسّر العلماء هذه العبارة بأن «صاحبات يوسف» هن النساء اللائي جئن إلى امرأة العزيز ليس بغرض الزيارة العادية، وإنما لرؤية يوسف عليه السلام، حين كانت نظراتهن ملؤها الشوق والحنين. والنبي ﷺ خاطب عائشة بهذا التعبير لينبهها أن الأمر أعظم من مجرد مشاعر الرفق بأبي بكر؛ فلكي لا يحدث تباين واختلاف في الناس بعد وفاته، لا بد لأبي بكر من أن يصلي بالناس، وأن يكون هو الإمام الذي يقود الأمة في مرحلة رحيله ﷺ.

بعد ذلك أقاموا النبي ﷺ وسندوه، فوضع قدمه الشريفة على الأرض، فذهب وجلس بجانب أبي بكر الصديق وهو يصلي إماماً بالناس .

ثم أوصى النبي ﷺ بوصيتين عظيمتين في أواخر أيامه:

الوصية الأولى:

قال ﷺ:

«إيَّاكُمْ وكثرة الحديث عني، فمن قال عليّ، فليقلّ حقّاً أو صدقاً، ومن تقول عليّ ما لم أقلّ، فليتبوأ مقعده من النار» (304).

كان يدعو أصحابه لأن يتمسكوا بالحق، وأن ينقلوا عنه فقط ما هو صحيح، حتى لا تنتشر الأقوال الكاذبة وتؤثر سيرته الطاهرة، وأن يكون القرآن والسنة منهمجهم الثابت.

الوصية الثانية:

قال ﷺ:

«لا يموتن أحدكم إلّا وهو يحسن الظنّ بالله عزّ وجلّ» (305).

أي ألا يموت أحد وهو خائف من لقاء الله أو قلق منه، بل ينبغي أن يحيا في قلبه طمأنينة كاملة بأن الله رحيمٌ غفورٌ كريم، وأن لقاءه سبحانه ليس مصيراً مظلماً، وإنما لقاء مع الرحيم الذي قال عن نفسه في أول سورة الفاتحة: (بسم الله الرحمن الرحيم).

في هذه الأوقات، عاد سيدنا أسامة بن زيد من قيادته للجيش، بعدما علم أن النبي ﷺ مريض، ولم يكمل المسير؛ لأن المرض قد اشتد عليه.

ثم أوصى النبي ﷺ بحصر ما لديه من المال، فوجدوه ما بين 6 أو 7 دنانير، فأوصى بأن تُنفق كلها قبل أن يلقي ربه سبحانه وتعالى، ليكون قد أداها وأبرأ ذمته، ويعلم أصحابه كيف يكون التصرف الصحيح في أموال الدنيا.

مرَّ يوم أو يومان، وشعر النبي ﷺ ببعض النشاط، فبدأ يؤخر الستار وينظر إلى أصحابه في المسجد، وكأن عينيه تلتقطان ما حوله من الوجوه المحبة التي تحيط به، ولكن، كان هذا النشاط مجرد لحظة استفاقة؛ لأن أجل النبي ﷺ قد اقترب جداً، والوداع كان وشيكاً.

راحة النبي ﷺ الحقيقية في اطمئنانه على أمته

يمكن أن تكون آخر ابتسامة رسمها النبي ﷺ على وجهه نوراً وطمأنينةً، حين أزاح الستار في غرفته الشريفة التي هي جزء من المسجد، وألقى نظرة على أصحابه وهم يصلون بخشوعٍ وتراصٍ، أكتفهم تلامس أكتاف بعض، يركعون ويسجدون في وحدة مع الإمام، ينتقلون بين خضوع وحركة طاعة، سائرين على درب الله المستقيم، وكأن النبي ﷺ اطمأن لما رآه، فرأى أن أمته مستمرة على طريق الحق، وكأن انشراح صدره في أن يطمئن عليهم حتى بعد أن يرحل، فكيف لا وهو الرسول الذي كان رفيق دربهم ودليلهم؟!

هو ﷺ في الدنيا كان حاضر القلب لهم، وفي القبر لا يزال يرحمهم، وفي الآخرة لن يستقر تمام الاستقرار إلا برؤيتهم وهم في خير حال، حتى في الجنة ستكتمل

فرحته برضاهم ونجاتهم.

فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأُحَمِّدُهُ بِمَحَامِدِهِ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ، يُلْهِمُنِيهِ اللَّهُ، ثُمَّ أَخْرُجُ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ: يَسْمَعُ لَكَ، وَسَلِّ تَعْطَهُ، وَاشْفَعْ تَشْفَعْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بَرَةٍ، أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرَجَهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فَأُحَمِّدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخْرُجُ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يَسْمَعُ لَكَ، وَسَلِّ تَعْطَهُ، وَاشْفَعْ تَشْفَعْ، فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرَجَهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَى رَبِّي فَأُحَمِّدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخْرُجُ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يَسْمَعُ لَكَ، وَسَلِّ تَعْطَهُ، وَاشْفَعْ تَشْفَعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرَجَهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ.

هذا حديث معبد عن أنس، وزاد الحسن عنه: ثم أرجع إلى ربي في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرج له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع. فأقول: يا رب، ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله. قال: ليس ذاك لك - أو قال: ليس ذاك إليك - ولكن وعزتي! وكبريائي! وعظمتي! وجبريائي! لأخرجن من قال:

لا إله إلا الله (306).

تأمل معي قول سيدنا علي بن أبي طالب في تفسير هذه الآية:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [سورة الضحى: 5]

حيث قال: «إن رضا النبي ﷺ هو أن نكون كلنا معه في الجنة».

فماذا يعني ذلك؟ يعني أن من يعيش حياته غير مرتبط بالنبي ﷺ، غير سائر على نهجه، غير متطلع إلى نوره وهديه، هو خاسر حقاً، لأنه فقد أجمل وأعظم هدية في الحياة والآخرة.

ومن أعظم الأمور التي علمنا إياها النبي ﷺ في لحظات وداعه أنه لا يجب أن يخاف أحد من عذاب القبر، فهذا من حقائق القرآن والسنة، ولا خوف على المؤمنين، بل هناك نعيم القبر الثابت في النصوص الشرعية.

قال ﷺ:

«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل» (307).

هذا هو الأمل، هذه هي الطمأنينة التي يجب أن نغرسها في قلوبنا؛ لأن لقاء الله ليس مخيفاً لمن يتوكل عليه، بل هو أرحم الراحمين.

كما أوصاهم ﷺ أن يكونوا أمناء على نقل أحاديثه، وأن يحذروا من اختلاق أو نسب كلام إليه لم يقله قط؛ لأن من يفعل ذلك يضل الناس ويبعثر الحق، وهو بذلك يكون قد حجز لنفسه مقعداً في النار، كما قال ﷺ:

«وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (308).

فلتكن وصية النبي ﷺ لنا جميعاً أن نتمسك بالحق، وننقل سنته كما هي، ونعيش حياةً تنبع من إيمانٍ راسخ، حتى يكون مصيرنا في الآخرة من الفائزين مع نبي الرحمة محمد ﷺ.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها،
وعافية الأبدان وشفائها، ونور الأبصار وضياءها،
وعلى آله وصحبه وسلم.

اللهم افتح لنا أبواب الرزق، وطيب ذكركنا عند
أهل السماء، وارزقنا صُحبة عبادك الصالحين، وسخِّر
لنا من يتولى أمرنا، وارزقنا من خيرات الدنيا
أجملها وأيسرها وأوسعها يا رب العالمين.



(289) رواه مسلم.

(290) رواه ابن سعد.

(291) رواه البخاري.

(292) رواه أحمد.

(293) رواه البخاري.

(294) رواه أحمد.

(295) رواه البخاري.

(296) رواه الترمذي.

(297) رواه البخاري.

(298) رواه ابن حبان

(299) رواه البخاري

(300) رواه البخاري.

(301) رواه الطبراني.

(302) رواه الطبراني.

(303) رواه البخاري.

(304) رواه ابن ماجه.

(305) رواه مسلم.

(306) رواه البخاري ومسلم.

(307) رواه مسلم.

(308) رواه ابن ماجه.

وفاة النبي ﷺ

مشاهد من حياة النبي ﷺ في آخر لحظات حياته

لقد وصلنا إلى الفصل الأخير من حياة نبينا الكريم محمد ﷺ، حيث نستعرض معاً تلك اللحظات الأخيرة التي ودّع فيها الدنيا وانتقل إلى رب العالمين، منذ أن بدأت أكتب هذه القصة وأنا أدعو الله أن يهيني القدرة على أن يغلبني شعور يمزج بين الحزن والفرح، الحزن يملأ قلبي؛ لأننا نتحدث عن وداع النبي ﷺ، وهو ألم عميق لكل من يحب هذا الرسول العظيم، ولمن عاشوا معه كصحابته الكرام، ولكن في ذات الوقت هناك فرحة، فرحة من القلب؛ لأن هذه هي نهاية رحلة النبي ﷺ التي عانى فيها كثيراً من أجل هداية الناس.

تذكر السيدة فاطمة رضي الله عنها لحظة وفاة والدها حين قالت: «واكرب أبتاه!». فرد عليها النبي ﷺ بكلمات تفيض سكينه وطمأنينة:

«لَيْسَ عَلَىٰ أَيْكَ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ» (309).

تلك الكلمات حين قرأتها أثناء التحضير لـ«نور» لمست قلبي بطريقة مختلفة، فرغم معرفتي المسبقة بها، شعرت - هذه المرة - بمزيج عميق من الحزن والسكينة. إن قراءة رحلة النبي ﷺ منذ بدايتها تجعلك ترتبط به بشدة، فتشعر بالألم لفراقه، وتجده في نفس الوقت راحة وطمأنينة؛ لأنه انتقل إلى حيث من كان يشاق للقاءه؛ لقاء ربه سبحانه وتعالى.

في هذا الوقت، كانت مشاعري تتأرجح بين حزن الفقد وراحة القلب؛ لأن النبي ﷺ قد انتقل إلى جوار ربه بعد حياة مليئة بالصبر والجهد.

في آخر يومين من حياته المباركة، قام النبي ﷺ بتنحية الستار عن الصحابة الكرام، فرآهم يُصلُّون. يقول سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: «كأن وجهه ورقة مصحف». في هدوئه وصفائه كصفاء المصحف الذي يحمل آيات الله، وعندما رأى الصحابة يُصلُّون خلف أبي بكر الصديق رضي الله عنه، اطمأن وابتم، تلك الابتسامة كانت دليلاً على سكينته ورضاه.

أما سيدنا أبو بكر الصديق فقد صلى سبعة عشر فرضاً مع المسلمين في تلك الأيام الأخيرة.

وبعد انتهاء الصلاة، قال النبي ﷺ كلمات تحمل في طياتها عمق الحكمة، فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النَّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تَرَىٰ لَهُ» (310).

وتروي عائشة رضي الله عنها أنه في آخر لحظاته دخل عبد الرحمن بن أبي بكر وهو يحمل سواكاً رطباً، ليطمئن عليه، فلما رآه النبي ومعه السواك مدَّ بصره لكنه لم يستطع الكلام، فقامت عائشة رضي الله عنها، «فأخذت السواك من عبد الرحمن وقضته من الناحية الأخرى، وطيبته للنبي فاستاك به»، وتضيف الزوجة الحبيبة بكلمات تنبض بالحب والرقّة: «فكان آخر ما دخل في ريق النبي.. ريقى».

اختيار النبي.. (الرفيق الأعلى)

كان سيدنا رسول الله ﷺ في لحظاته الأخيرة يقول:

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكْرَاتٍ» (312).

تأمل هذا القول العظيم؛ فهو من فم خير خلق الله، يخبرنا فيه أن الموت ليس مجرد لحظة عبور، بل له سكرات؛ آلام روحية وجسدية لا يعلم مداها إلا من عاشها أو من اختاره الله ليرى حقيقتها. والسُّكر هنا ليس فقط ألماً، بل هو غياب عن إدراك الدنيا، انقطاع تدريجي عن تفاصيل الحياة.

ولكن، علينا أن نعي أمراً عظيماً: ليس كل من رأيته على فراش الموت يئن أو يضعف، يعني بالضرورة أنه يعاني في روحه، فالنبي ﷺ، وهو أحب الخلق إلى الله، جاءه سيدنا جبريل عليه السلام وخيره، كما في الحديث:

«مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرُضُ إِلَّا خُبِرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (313).

ولما خُبر النبي ﷺ، قال بقلبٍ مشتاقٍ واثق:

«اللهم الرفيق الأعلى» (314).

تلك الكلمات لم تكن مجرد وداع، بل اختيار، وتوجهٌ بكامل الوعي إلى لقاء الله - عز وجل -، وكأن النبي ﷺ يقول لنا جميعاً: لا تنظروا إلى لحظة الاحتضار من ظاهرها، فربما كانت الروح آنذاك تطير في ملكوت الرحمة.

حتى لو رأيت إنساناً يُنازع جسدياً، فاعلم أنَّ الجسد ما هو إلا ثوبٌ يفارق صاحبه؛ قشرة خارجية، بينما الروح هي أنت، هي حقيقتك، وهي ما تُكرم عند الله إذا طابت وسكنت إليه، والروح عند مفارقتها الجسد ترى ما لا نراه نحن، ترى ملائكة الرحمة تحفها، وتسمع نداء السلام والبشرى من رب العزة.

كما وصف لنا الحبيب ﷺ، فإن ملك الموت يدخل على المؤمن ويقول له: «السلام عليكم.. هيا إلى الجنة». وهذا ليس خيالاً، بل هو وعدٌ إلهي جاء في كتاب الله الكريم:

﴿لَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل: 32]

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ

رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29)

وَادْخُلِي جَنَّتِي (30) ﴿ [سورة الفجر: 27-30]

فعل النبي ﷺ حتى في مرضه ووفاته، كان يُرسل لنا جميعاً رسالة نور: ألا نحكم على الظاهر، فالمنازعة قد تكون في الجسد، لكن الروح قد تكون في أعذب لحظاتها، مقبلة على رحمة الله، ترى ما لا نرى، وتُبشِّر بما لا نسمع. كان ﷺ قدوة في الحياة، وها هو يعلمنا كيف نواجه الموت أيضاً بثبات ويقين.

كثير من الناس يترقب لحظة الموت وكأنها مشهد رومانسي بسيط؛ نوم لا فزع فيه، أو انتقال في لحظة هدوء، ولكن سيدنا محمداً ﷺ - وهو أعظم الخلق - عاش لحظات فيها مشقة المرض، ورغم ذلك كانت لحظة انتقاله مملوءة بالعظمة والرحمة، تُعلم الأمة كلها كيف يكون التعلق بالله، لا بالرؤية السطحية للموت.

ثم، تأمل عظمة الاسم الذي اختاره النبي ﷺ وهو يُخَيَّر:

«اللهم في الرفيق الأعلى» (315).

من بين أسماء الله الحسنى كلها، اختار «الرفيق»، ذاك الاسم الذي يحمل معاني اللطف والحنان والقرب، اختار رفيقاً له في رحلته الأبدية. وكأن النبي ﷺ يقول:

إن كنت سأغادر الدنيا، فإني أذهب لمن كان دائماً رفيقي؛ إلى الله، الرفيق الأعلى.

وتحكي السيدة عائشة رضي الله عنها عن اللحظات الأخيرة، فتقول: كان النبي ﷺ قبل وفاته ينفث في يديه الشريفتين، يقرأ المعوذات، ويمسح بهما جسده، ولكن من شدة المرض لم يعد يقوى على ذلك، فكانت هي، حبيبة قلبه، من تأخذ يديه، تنفث فيهما وتقرأ، ثم تمسح بهما جسده الطاهر، تمسح بهما جسد من أنار قلوب الأمة كلها؛ تلهساً للبركة، وتضرعاً بالمحبة.

أما السيدة فاطمة، والسيدة عائشة، فكانتا بجانبه، وكاتتا أكثر من شهد تلك اللحظات ألماً وشدة، رأتا بأعينهما لحظات الفراق، مشاهد لا تُنسى، صعبة على أي قلب، لكنها زادت في قلوبهم حباً وارتباطاً بالحبيب ﷺ.

الأحوال المختلفة للصحابة بعد معرفتهم نبأ وفاة رسول الله ﷺ

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: في أيامه الأخيرة ﷺ، كان بجانبه ركوة؛ أشبه بعلبة ماء، يمدُّ يده الشريفة فيها، فيمسح بها على وجهه ورأسه، ثم يقول بكلمات خرجت من قلب النبوة:

«لا إله إلا الله، إنَّ للموتِ لسكراتٍ» (316).

وفي إحدى هذه اللحظات، دخلت السيدة فاطمة رضي الله عنها على أبيها، فرأته في شدة المرض والاحتضار، فتألَّت لرؤيته، وقالت بقلب الابنة التي لا

تَحْتَمِلُ فِرَاقَ أَهْلِهَا: «وَاكْرَبْ أَبْتَاهُ!». فَنَظَرَ إِلَيْهَا ﷺ بِكُلِّ الْخَنَانِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، وَقَالَ:
(لَيْسَ عَلَى أَيْدِيكَ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ).

كَلِمَاتٌ مَلُؤَهَا الْيَقِينُ، تَفِيضُ بِهَا رُوحُهُ الطَّاهِرَةُ حَتَّى فِي اللَّحْظَاتِ الْآخِرَةِ،
وَكَأَنَّهُ يُطَمِّنُهَا، وَيُطَمِّنُ الْأُمَّةَ مِنْ بَعْدِهَا أَنْ مَا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ هُوَ الرَّاحَةُ الْأَبَدِيَّةُ،
وَأَنَّهُ لَا حُزْنَ وَلَا كَرْبَ بَعْدَ الْخَلِّاقِ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى.

وَقَدْ تَحَدَّثَ الْعُلَمَاءُ عَنْ مَسْأَلَةِ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ، وَاخْتَلَفَتْ رَأْيُهُمْ فِي مَعْنَاهَا
وَحَقِيقَتِهَا. فَهُمْ مِنْ قَالَ: إِنَّ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ تَكُونُ شَدِيدَةً، وَيُتَبَلَّى بِهَا الْإِنْسَانُ لِتَكْفِيرِ
ذُنُوبِهِ، وَتَخْفِيفِ حِسَابِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ طَاهِرًا.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَيْسَتْ بِالضَّرُورَةِ أَنْ تَكُونَ مُؤَلِّمَةً، وَقَدْ تَمَرُّ بِلَحْظَاتٍ هَدُوءٍ
وَسَكِينَةٍ، خُصُوصًا عَلَى الصَّالِحِينَ، بَلْ إِنَّهُمْ يَمْضُونَ إِلَى رَبِّهِمْ بِطَّمَأْنِينَةٍ وَفَرَحٍ.

وَفِي الْمَقَابِلِ، لَمْ يَرِدْ دَلِيلٌ قَاطِعٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَأَلَّمُ أَلَمًا دُنْيَوِيًّا
شَدِيدًا، بَلْ هُوَ النَّبِيُّ الْمُطَهَّرُ، الْمُخْتَارُ، الَّذِي سَبَقَتْ لَهُ الْبَشَرَى.

ف«السُّكْرُ» فِي الْأَصْلِ يَعْنِي الْغِيَابَ عَنِ الْوَاقِعِ؛ أَيْ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْإِدْرَاكِ
الدُّنْيَوِيِّ إِلَى الْإِدْرَاكِ الْآخِرِيِّ، حَيْثُ يَرَى الْعَبْدُ مَنَازِلَ الْآخِرَةِ، وَيَرَى الْمَلَائِكَةَ،
وَيَبْصُرُ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ.

وَقَدْ فَسَّرَ الْعُلَمَاءُ قَوْلَهُ ﷺ: (إِنَّ لِلْمَوْتِ لِسَكْرَاتٍ) بِأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى هَذِهِ اللَّحْظَاتِ
الَّتِي يَغِيبُ فِيهَا الْعَبْدُ عَنِ عَالَمِ النَّاسِ، وَيَدْخُلُ فِي مَشْهَدٍ آخَرَ لَا نَرَاهُ نَحْنُ، لَكِنَّهُ
يَرَاهُ، وَيَذُوقُهُ.

وَقَدْ سَأَلَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النَّبِيَّ ﷺ فِي وَقْتٍ سَابِقٍ، فَقَالَتْ لَهُ:
«يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُنْتُ تَقُولُ: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ
كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَكُنَّا يَكْرَهُ الْمَوْتَ!». فَقَالَ لَهَا الْحَبِيبُ ﷺ:

«ليس ذاك، ولكنَّ المؤمنَ إذا حضرَهُ الموتُ بِشَرِّ بَرَضوانِ اللَّهِ وَكَرامَتِهِ، فليسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ ممَّا أَمامَهُ؛ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ» (317).

فمعنى «إنَّ للموتِ لسكراتٍ» هو أنَّ العبدَ في لحظة الاحتضار ينفصل عن الدنيا، ويتصل بالآخرة، يرى ما لا تراه العيون، يسمع ما لا تسمعه الآذان، ويبصر حقائق الغيب التي أخبر بها النبي ﷺ.

فحين قال النبي ﷺ: (إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ)، فلا ينبغي أن يخطر في بالك أنه يتألم ويتعذب، بل كان ﷺ يُردد أعظم شهادة للتوحيد: (لا إله إلا الله) وهو في لحظات يرى فيها ما وعده الله، ويرى ما بشر به الناس طيلة حياته.

وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها أنها سمعته في حياته، قبل مرضه، يقول:

«إِنَّهُ لَمْ يَقْبِضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ» (318).

وتكل السيدة عائشة الرواية فتقول: «فعند وفاة النبي ﷺ رأيته ينظر إلى سقف البيت، وقال: (بل الرفيق الأعلى)». فعرفت أنه يُخَيَّرُ بين الدنيا والآخرة، وأنه اختار لقاء الله.

وفي هذه اللحظات النورانية، تقول السيدة عائشة: وكان آخر ما أوصى به النبي ﷺ وهو في النزاع الأخير: (الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم... الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم).

وكان النبي ﷺ قد بلغ من المرض مبلغاً شديداً، فلم يكن يستطيع أن يرفع صوته بالكلمات، لكنها كانت تخرج من صدره الشريف بتعب شديد، وإصرار واضح، حتى وهو يُودّع الحياة.

وقد قال العلماء في تفسير وصيته: أن «ما ملكت أيمانكم» تشمل من جعلهم الله في عهدتك، وأولهم زوجتك أو زوجك، ومن كانت لك عليهم ولاية. فكان ﷺ في وصيته الأخيرة يُحدد لنا أعظم ميزانين في حياة الإنسان:

الصلاة: فهي عنوان علاقتك بالله، وسر قبولك عنده.

والمعاملة الطيبة مع من حولك، وخاصة أهل بيتك: فهي ميزان علاقتك مع الخلق.

ثم تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ مُسنداً رأسه إلى صدري، فقال برأسه على كتفي، فنزلت من فمه نُطفة باردة على رقبتني، اقشعر لها جلدي، فظننت أنه يريد أن يكلمني، فنظرت إليه، فإذا هو قد ثقل.. أي توفاه الله.»

وفي هذه اللحظة، اختلفت الروايات:

• الرواية الأولى:

أن السيدة عائشة رضي الله عنها نادى على سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا المغيرة بن شعبة، فدخلوا على النبي ﷺ، فوجده المغيرة قد فارق الحياة، فقال: «مات رسول الله.»

أما سيدنا عمر رضي الله عنه، فكان لا يصدق، وظن أن النبي مغمى عليه من شدة المرض، وقال: «ما أشد ما أصابك يا رسول الله!».

ثم صاح: «ما مات رسول الله.. ما مات رسول الله، إنما ذهب إلى لقاء ربه كما ذهب موسى، وسيعود، وسيقطع أيدي وأرجل من يقول إنه مات!».

• الرواية الثانية:

أن السيدة عائشة رضي الله عنها لما رأت النبي قد ثقل، دخلت المسجد وهي تبكي، وهي لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، وتقول: «مات رسول الله.. مات رسول الله».

وكانت الفاجعة قد نزلت على الناس كالصاعقة، فكل واحدٍ منهم كان يعيش مشهده الخاص:

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفع سيفه ووقف على المنبر يقول بصوت مزلز: «لم يمت رسول الله.. ما مات، وإنما ذهب إلى ربه كما ذهب موسى، وسيعود!».

♦ وسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه جلس في مكانه يبكي، لا يقوى على الحركة.

♦ وسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه جلس صامتاً لا
يقدر أن يتحدث بكلمة.

♦ وعمّ الحزن والاضطراب والهرج المسجد.

أما سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فكان في ذلك الوقت في منطقة
تُسمى العالية، وهي مكان قريب من المدينة، يزور أحد أقاربه.

وكان النبي ﷺ قد تحسّن قليلاً، نخرج أبو بكر، لكنه حين سمع أن المرض قد
اشتد، عاد مسرعاً إلى المدينة.

فلما دخل المسجد، وجد سيدنا عمر يصيح، والسيوف مرفوعة، والقلوب
مكسورة. فلم يلتفت إلى شيء، بل توجه مباشرة إلى حجرات النبي ﷺ، ودخل عليه،
فراه ﷺ قد انتقل إلى جوار ربه.

فقال عليه، وقبله بين عينيه، وقال:

«طبت حياً وميتاً يا رسول الله.. وا خيلاً، وا صفيّاً، وا حبيباً.. لأنّ
أكرم على الله من أن يجمع عليك موئتين».

ثم خرج إلى المسجد، ليرى أحوال المسلمين، فوجد منهم من سقط مغشياً عليه،
ومنهم من بكى بكاءً مرّاً، ومنهم من جمد في مكانه لا يتكلم، ومنهم من صاح ينكر
الحقيقة.

وهنا.. بدأت مرحلة جديدة، حاسمة، فارقة في حياة أمة سيدنا محمد ﷺ.

آخر وصايا النبي ﷺ .. الصلاة الصلاة

كانت كلمات النبي ﷺ الأخيرة شعلة نور تنير درب الأمة إلى يوم الدين. حين بلغ المرض بالنبي ﷺ أشده، وحين ثقل جسده الشريف، ولم يعد يقوى على الحديث، بقي صوت الحق في صدره يعلو بكلمة واحدة، يُحسّج بها من شدة الألم، ويُخرجها بمشقة عظيمة، لكنها كانت عنده أعظم من أن تُسكت.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها، وقد شهدت تلك اللحظات الخالدة: «كان رسول الله ﷺ يردد:

«الصَّلَاةَ وما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، الصَّلَاةَ وما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» (319).

ثم يعاود فيقولها ثانية وثالثة».

كانت الكلمة تنزل من صدره وكأنها آخر قطرات النور، خرجت من فمه المبارك لتمكث في قلوبنا إلى الأبد.

(الصلاة، الصلاة) ... لم تكن مجرد وصية، بل كانت صرخة حب، وإنذاراً، ورسالة وداع، وميثاق أمان إلى الأمة).

إنها الكلمة التي لو سمعها قلب حي، لما توانى لحظة عن أن يسجد لله. إنها كلمة تكفي أن يُراجع غير المصلي نفسه، وأن يجتهد من يصلي في تجويد صلاته، حضوراً وخشوعاً، وإخلاصاً.

في تلك اللحظات، اختار النبي ﷺ أن يذكر الأمة بأعظم ما يُحفظ به الإيمان، علاقتك مع ربك (في الصلاة)، وعلاقتك مع من في ذمتك (في أهل

بيتك)، فقال: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم»... أي: يا أمة محمد، إن أردتم أن تطمئنوا قلب نبيكم، فإن وصيته الأخيرة لم تكن كنوزاً، ولا فتوحات، ولا ملُكاً، بل كانت: صلاتكم... وأهلكم... بيتكم... أقرب الناس إليكم.

ولم يكن النبي ﷺ يختلف عن باقي الرسل، فقد جعل الله الوصايا الأخيرة من أعظم ما يُحفظ في القرآن.

اقرأ وتأمل:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
(132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) ﴿

[سورة البقرة: 132، 133]

فكما أوصى يعقوب أبناءه بالتوحيد، أوصانا محمد ﷺ بـ«الصلاة»؛ لأنها عمود الدين، وروح العبادة، وهي الخط الذي يصل الأرض بالسماء، ويصل قلبك بالله.

فإن وجدت نفسك تؤخر الصلاة، أو تنشغل عنها، أو تهجرها... فاعلم أن المسألة ليست كسلًا، ولا مللاً، بل هي عدم ترتيب أولويات، وعدم استشعار قيمة هذه العبادة التي كانت آخر وصية من سيد الخلق ﷺ.

إن الله جل جلاله لم يفرض الصلاة على كبار العباد والزهاد فقط، بل فرضها على كل مسلم، وعلى أقل الناس همّة، وعلى أكثرهم انشغالاً، فاختار لها خمس مرات، في توقيتات موزعة على اليوم، كأنها جرعات حياة، ونفحات طمأنينة.

لا تقل: «لا أشعر بخشوع».. لا بأس.

صلِّ كما أنت... والخشوع سيأتي.

سيمنُّ الله عليك به، وسيبارك لك في هذه اللحظات، فقط أقبل على الصلاة بقلب مشتاق، حتى وإن كان مثقلاً بالهموم، فالصلاة تطهّر القلوب، لا تنتظر أن تتطهّر لتُصلي.

وعندما تسمع المؤذن يقول: «حي على الصلاة، حي على الفلاح» تذكّر النبي ﷺ في لحظاته الأخيرة، تذكّره وهو على فراش الموت يردّد (الصلاة، الصلاة)، وكأن قلبه يخاطب قلبك أنت... أنت بالذات.

فما الذي سيشغلك بعد اليوم؟

وما الذي أعظم من أن تقف بين يدي من خلقك؟

وما الذي يمكن أن يُرضي النبي ﷺ بعد موته، أكثر من أن تُقيم وصيته، وأن تكون ممن قال عنهم:

(أمّتي أمّتي)؟!

فحافظ على الصلاة، فإنها حبك لربك، ووفائك لنبيك، وعهدك مع نفسك ألا تموت إلا وأنت مسلم.

موقف سيدنا أبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ

ويخرج سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وبه ما به، وقلبه يعتصر ألماً، فهو الصاحب الأقرب، والمحِبُّ الأوفى، والرفيق في الغار، هو من نزل فيه قول الله تعالى:

﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ [سورة التوبة: 40]

لكنها ساعةٌ تتطلب الثبات، واليقين، وحمل الأمانة الثقيلة على الأكتاف.

وفي تلك اللحظة، حين يهتزُّ أقوى الرجال، ويتزلزل أثبت القلوب، كان رد فعل سيدنا أبي بكر آية من آيات التثبيت من الله.

كما نطن - لو تخيلنا المشهد - أنه سيكون أكثر الصحابة حزناً وألماً، فهو رفيق عمر النبي ﷺ، وصاحبه في درب الهجرة، وصدره الذي أسند إليه النبي رأسه، وعينه التي لا تنام خوفاً على الحبيب.

لكن الله ثبت قلبه، فخرج يواجه الأمة كلها، والحدث أعظم من أن يُحتمل.

دخل المسجد، فوجد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوع السيف، يقف على المنبر ويصرخ من شدة الفقد: «إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول

الله قد توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات».

فتقدم أبو بكر بثبات الإيمان، ويقين القلب، وهدوء اليقظة، وقال لعمر: «على رسلك أيها الخالف». أي تمهل، ثم أقبل على الناس بوجه النور والعزم، وخطب فيهم خطبة ستظل تُروى إلى قيام الساعة، فقال: «أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

ثم تلا على أسماعهم آية من سورة آل عمران؛ آية تُزلزل القلوب، وتوقظ العقول، تليت بصوتٍ ملؤه الخشوع والحزم:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

[سورة آل عمران: 144]

وكان سيدنا عمر يقول بعد ذلك: «فما إن سمعتها، حتى وقعت الحقيقة على قلبي، وأيقنت أن رسول الله ﷺ قد مات، وسقطت، ما حملتني قدماي».

لقد كانت الآية محفوظة، معلومة، لكنها حين خرجت من فم أبي بكر، خرجت من قلبٍ رأى الحقيقة، فدخلت قلوب الصحابة كالبرق، فقومت المعوج، وثبتت المتزلزل، وأعادت التوازن إلى الأمة في لحظة المصاب الجلل.

ثم دخلت السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها على أبيها بعدما قبض، فقالت: واأبتاه... أجاب رباً دعاه، واكرب أبتاه... مَنْ جنة الفردوس مأواه، ويا أبتاه... إلى جبريل نناه».

وكانت علاقتها بالنبي ﷺ عظيمة، حباً واحتواءً، حتى سُميت بـ«أم أبيها»؛ لأنها كانت له السكن بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها.

وأما الصحابة، فكانت المدينة كلها تغرق في مشهدٍ لا يُنسى. يتقابل الناس في الطرقات، فلا يملكون إلا أن يعزي بعضهم بعضاً في وفاة حبيب القلوب، ونور الوجود، وسيد الخلق ﷺ.

كان الصحابة يكرّرون قولهم: «البقاء لله... البقاء لله...».

فلا أحد يُصدّق، ولا أحد يُطيق، ولا أحد يعرف كيف ستكون الأيام القادمة بدون من كان لهم كلّ الحياة.

وقد وصفه سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله: «قد وسّع الناس بسطه وخلّقه، حتى صار أباً لهم، وصاروا عنده في الحقّ سواء».

فهو وإن لم يكن أباً نسبياً، كما قال الله تعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ
اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب: 40]

إلا أنه كان أباً روحياً، مريباً، مرشداً، ملجأً، وملاذاً.

كل واحد من الصحابة كان يشعر أنه الأقرب، وأن النبي ﷺ له وحده.

ظل الصحابة في ذلك الحزن العظيم يناقشون، ويتشاورون، وتغمرهم السكينة
المتزجة بالحزن، والدموع الممتزجة بالإيمان، حتى جاءت لحظة الوداع الأخيرة.

فقد توفي النبي ﷺ يوم الإثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، وبقي الجسد
الطاهر مسجى، حتى كان دفنه يوم الأربعاء، بعد أن اجتمع الصحابة وأتموا
مشاورتهم في أمر الأمة، ليودّع خير من وطئ الثرى ﷺ، ويدفن حيث مات، في
حجرته، التي أصبحت أطهر مكان على وجه الأرض بعد الكعبة.

كيفية (تغسيل، تكفين، دفن) رسول الله

وفي لحظة كان الحزن فيها يُخيم على المدينة بأكملها، والجميع في صدمة لا توصف،
وقف سيدنا العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، عم النبي ﷺ، يُحاول أن يُعيد

الصحابة إلى وعيهم، وأن يحركهم من طور الحزن إلى مقام العمل والمسئولية، فقال قولته التي لا تنسى، بكل حكمة وواقعية:

«أيها الناس، إن صاحبكم بشرٌ كالْبَشَرِ، يَأْسَنُ كما يَأْسَنُ الْبَشَرُ» (320).

وهو يقصد أن جسد النبي ﷺ - وإن كان أظهر الأجساد - فإن له طبيعة البشر، وإذا تأخر دفنه، فإن سنن الله في خلقه تجري كما تجري على سائر البشر.

بهذه الكلمات، بدأ التحول النفسي في قلوب الصحابة... ففهموا أن لحظة الفقد قد وقعت، وأن عليهم الآن أن يقوموا بواجبهم الأخير تجاه الحبيب المصطفى ﷺ، وأن يُكْرِموه كما ينبغي لجسد طاهر أن يُكْرَم.

ثم التفت العباس إلى سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ابن عم النبي، وزوج ابنته، وشبيهه في الخلق والخلق، فوجده غارقاً في بكائه، لا يكاد يتمالك نفسه، نفاطبه بكلمات تُنبهه وتحثه على القيام بالواجب فقال:

«دَعْ خَيْنِكَ نَحْنِ الْمَرْأَةَ... وقم إلى رسول الله».

أي: كُفْ عن البكاء، فقد آن وقت الخدمة، وقت العمل، وقت الفعل.

وهنا قام سيدنا علي بكل ما في قلبه من محبة، وجوارحه من طاقة، وتحرك معه الفضل بن العباس، وقام رجل من الأنصار يُدعى أوس بن خولي يحمل الماء ويشاركهم، فبدءوا الاستعداد لتغسيل الجسد الشريف.

وفي هذه اللحظة اجتمعوا يتشاورون كيف يَغْسِلُونَهُ ﷺ، هل يُجَرِّدُونَهُ من ثيابه كما يُفْعَلُ مع سائر الموتى؟ فقال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، بقلب العارف، وفهم المحب، وثقة الموقن: «نُغْسِلُ رسول الله ﷺ من فوق ثيابه، ولا نُجَرِّدُهُ». فأجمعوا على ذلك، حياءً من نبي الله، وصيانةً لحرمة جسده الشريف، فبدءوا بتغسيله وهو في ثيابه الطاهرة، يفيض الماء على جسده من فوق الملابس، ويدلكون برفق فوقها، حفظاً لجلال المقام.

ثم لما فرغوا من الغسل، كفنوه في ثلاثة أثواب سخوية، وهي أقمشة بيضاء من اليمن، نظيفة طاهرة، كُفِّنَ بها رسول الله ﷺ، لا جلاية، ولا زينة، فقط الأكفان البيضاء النقية فوق ملابسه المباركة.

ثم بدءوا يتساءلون: أين ندفنه؟ في البقيع، أم في مكان آخر؟ فوقف سيدنا أبو بكر مرة أخرى، ليقطع الحيرة، ويهديهم بوصية نبوية عظيمة، فقال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من نبي إلا ويدفن حيث يموت».

فأزاحوا سرير النبي ﷺ، وأعدُّوا الأرض تحت فراشه الطاهر، ففي هذا المكان، داخل حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حيث أسلم روحه، سيكون موضع دفنه الشريف.

وأصبحت تلك البقعة أطهر بقعة في الأرض بعد الكعبة؛ لأنها تحتضن الجسد الأطهر، والنور الأعظم، والرحمة المهداة ﷺ.

ادعُ الله دائماً بالثبات

هل نتذكر دعوة النبي ﷺ التي كان يكثر منها، حتى وهو رسول الله، المعصوم،
المؤيد بالوحي؟

«يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» (321).

كم في هذه الدعوة من تواضع وخشية! وكم فيها من اعتراف بأن الثبات ليس
بقدرتنا، ولا بقوة قلوبنا، وإنما هو منحة ربانية، لا يُدِيمُهَا إِلَّا اللَّهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ!
وإذا نظرت في موقف وفاة النبي ﷺ، فإنك تتوقع أن أكثر الناس حُبًّا وتأثراً
هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، هذا الصاحب الذي قال الله عنه في كتابه:

﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [سورة التوبة: 40]

صاحب رسول الله ﷺ في كل أحواله؛ في سلمٍ وحرب، في مكة والمدينة، في
الحزن والفرح، في الهجرة، وفي كل خطوة من خطوات الدعوة.

لكنك تُفاجأ بأن أكثرهم تماسكاً وثباتاً في هذه اللحظة التي اهتزت لها القلوب،
وانكسرت فيها النفوس، كان أبا بكر!

في حين أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الجبل الصلب، المهَاب،
الفاروق، لم يحتمل الموقف، فصعد المنبر صارخاً: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَمِتْ، وَإِنَّمَا
ذَهَبَ إِلَى رَبِّهِ كَمَا ذَهَبَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ، وَسَيَعُودُ، وَسَيَقْطَعُ أَيْدِي وَأَرْجُلَ مَنْ قَالَ

إنه قد مات!». وظل يقول في وجع لا يخفى: «لن يموت حتى يفني الله المنافقين». وكان الناس في حال من الدهول والارتباك، لا يدرون ماذا يفعلون ولا ما يقولون.

أما سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فكان يبكي في صمت، قلبه مكلوم، وهو تلميذ النبي، وتربيته، وزوج ابنته، فالحزن قد بلغ به مبلغه.

وأما سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، فجلس صامتاً، لا يقدر على الكلام، وكأن الوجع قد أخذ صوته ووعيه.

فمن الذي جمع هذه القلوب التائهة، وهدأ هذا الطوفان من الألم؟

إنه سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الرجل الذي كنت تظن أنه سيكون أول من ينهار، لكنه كان أول من ثبت!

دخل على النبي ﷺ، فقبله بكل حب ووداع، وقال كلماته التي تخرج من قلب مطمئن، ممتلئ بالإيمان: «طبت حياً وميتاً يا رسول الله». ثم خرج إلى الناس، ووقف أمام سيدنا عمر، وقال له برفق وثبات: «على رسلك أيها الخالف». أي: تمهل يا عمر، هون عليك.

ثم توجه إلى الأمة كلها، وقال كلمته الخالدة التي لا تزال تتردد في القلوب والعقول، كأنها بوصلة إيمانية تعيدنا إلى الثبات إذا تُهنا: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

ثم تلا على الناس آية كانت في صدورهم، لكن الحزن غيَّبها عنهم:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾

[سورة آل عمران: 144]

فما إن سمعها عمر حتى قال: «كأنني أسمعها لأول مرة، فعلت أنه قد مات، وما حملتني قدماي، فسقطت»

هذا هو الثبات الحقيقي... الثبات في لحظة الفقد، الثبات في أقصى لحظة عرفتها الأمة، حين انتقل حبيبها ونبيها، الرحمة المهداة ﷺ.

وهنا ندرك لم كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء: (اللهم يا مُقَلِّبِ القلوب، ثَبِّتْ قلبي على دينك)، فإن الثبات لا يكون بالعلم فقط، ولا بالمقام، ولا بالصحة... بل هو توفيق من الله، يُنزل السكينة في القلب، فيثبت العبد في الفتن والمصائب.

فلا تظن أنك مستعد دوماً، ولا تُراهن على قوتك النفسية، بل الزم هذا الدعاء، وكرِّره بقلب خاشع، وقل كما قال نبيك: «اللهم يا مُقَلِّبِ القلوب، ثَبِّتْ قلبي على دينك». اللهم ثَبِّتْنَا في الحياة، وعند الموت، وفي القبر، وعلى الصراط، وفي كل موقفٍ تزل فيه الأقدام، وارزقنا قلوباً مطمئنة بك، يا حي يا قيوم.

الحمد لله أن في الأمة أبا بكر الصديق.

الحمد لله على نعمة الثبات، ونعمة من يذكّرنا إذا نسينا، ويثبّتنا إذا اهتزت القلوب.

كيف كانت صلاة الجنازة على رسول الله ﷺ ؟

غُسِّلَ رسول الله ﷺ وكُفِّنَ، ولكن بقي سؤال تهتز له القلوب: كيف سنُصَلِّي عليه؟ من ذا الذي يتقدّم إمام الأنبياء، إمام الدنيا والآخرة؟ ﷺ فلا أحد، فكان القرار: أن يُصَلِّي عليه بلا إمام.

كانوا يدخلون جماعات؛ اثنين أو ثلاثة من المهاجرين، فيقفون أمام النبي المسجّي في كفنه الشريف، يُصَلُّون عليه ويخرجون، ثم دخل الأنصار، ثم نساء المهاجرين، ثم نساء الأنصار، ثم الصبيان، ثم العبيد؛ فصلوا عليه أرسالاً، وكان قد سبقهم إلى الدخول عليه ﷺ أبو بكر وعمر فكانا كلما دخلت جماعة تصلي عليه وتدعو له ﷺ أَمَّا عَلَى دَعَائِهِمْ

في مشهد أقرب ما يكون إلى الملائكة وهي تُشَيِّعُ نبياً كريماً.

وكانا يقولان على سيدنا محمد وهو في كفنه، والناس تُصَلِّي عليه: (اللهم إنا نشهد أنه قد بَلَغَ ما أُنْزِلَ إليه، ونصح أُمته، وجاهد في سبيل الله حتى أَعَزَّ الله دينه وَتَمَّتْ كلماته، فَآمَنَّا به وحده لا شريك له، فاجعلنا يا إلهنا ممن يتبع القول الذي أُنْزِلَ معه، واجمع بيننا وبينه حتى يعرفنا ونعرفه، فإنه كان بالمؤمنين رءوفاً رحيماً، لا نبتغي بالإيمان بدلاً ولا نشترى به ثمناً).. فيقول الناس: (آمين.. آمين)

ثم يخرجون والقلوب مبللة بالفقد، والدموع لم تجف.

أمُّ المؤمنين أم سلمة تحكي عن لحظات الصلاة وتقول بكلمات يملؤها النور:

(وكان النبي أمامنا نشعر معه بالسكينة)، «فكان أمامهم بالكفن الشريف المُطَهَّر»، وزوجات النبي جالسات أمامه، تقول: (حتى سمعنا صوت (الكرازين) فصَحنا). فالنبي أمامنا ونحن حزينات عليه ولكننا نشعر بالسكينة ونحن نراه، إلى أن علت أصوات الفتوس التي يزيحون بها التراب ليدفنوا النبي ﷺ، فصَحنا وصاح الناس.

ثم جاءوا بجثمانه الشريف، وحملوه إلى الغرفة المباركة التي مات فيها. «ما من نبي يُدفن إلا حيث مات». هكذا قال الصديق رضي الله عنه، فكانت تلك الغرفة هي مكان دفن جسده الشريف.

ونزل إلى القبر الأحباء: سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والفضل بن العباس رضي الله عنه، وقُثم ابن العباس رضي الله عنه، ورجل من خواص النبي ﷺ يدعى سقران؛ مولاه وخادمه، المحب حتى النهاية.

كان في يد سقران قطعة قماش - قطيفة - كان رسول الله ﷺ يتغطى بها.

فلما وُضع النبي ﷺ في لحده، نادى سقران: «والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً». ثم بسطها فوق القبر. يا الله! أي حب هذا؟! وأي وفاء؟!

ويقول أنس بن مالك، الذي خدم النبي ﷺ عشر سنين: «دخل النبي ﷺ المدينة وأنا ابن عشر سنين، فأضاء منها كل شيء، وخرج منها - حين مات - وأنا ابن عشرين، فأظلم منها كل شيء». ثم قال وهو يبكي: «وما إن فرغنا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا، وأنكرنا أنفسنا بعد أن دفناه». كأنهم خرجوا من القبر ولكن قلوبهم دُفنت فيه.

ثم يروي أنس أنه رأى السيدة فاطمة رضي الله عنها تمشي تبكي، ثم قالت له كلمات خالدة تمزق القلب: «يا أنس، أطابت نفوسكم أن تحثوا التراب على رسول

الله؟» هل استطعتم أن تضعوا التراب فوق وجهه الكريم؟!

وانقلبت المدينة من مدينة النور إلى مدينة مظلمة باكية، فقد غابت عنها الشمس؛ النبي ﷺ، ذاك الذي قال الله فيه:

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: 46]

ومع كل هذا الوجع، لم يكن هذا الوداع نهاية، بل بداية... فالنبي ﷺ ترك لهم النور، وترك لهم الدين، وترك لهم رسالته العظيمة، فلم يكونوا ليرجعوا إلى الوراء، بل تقدموا إلى الأمام.

وفي أول صلاة بعد وفاته، صعد بلال ليؤذن... لكنه ما إن وصل إلى: «أشهد أن محمداً رسول الله» حتى انقطع صوته، وانهار بالبكاء... وبكى كل من سمعه.

ثم نزل إلى سيدنا أبي بكر وقال له: «يا أبا بكر، هلا أعتقتني لله؟». قال: «والله ما أعتقتك إلا لله». قال بلال: «إذن دعني أخرج؛ فإني لا أقدر أن أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ». وخرج بلال، وبقي صدى الأذان في القلوب يتردد كأنه يرفض أن يقال لغير رسول الله ﷺ.

لكنها كانت بداية مرحلة جديدة...

مرحلة نصره الدين، ورفع لواء محمد ﷺ، مرحلة التوحيد، والرحمة، والعدل، والجهاد في سبيل الله، فحمل الصحابة الأمانة، وحملوا نور النبي ﷺ على أكفهم، وانطلقوا في الأرض، يكملون الطريق.

صَلَّى اللَّهُ
وَعَلَيْهِ

عوضنا عن وفاة النبي

يا لها من كلمات تحمل في طياتها عمق المشاعر التي لا يستطيع وصفها إلا من عاش مع النبي ﷺ وشهد رحيله بعيون حزينة وقلب مكسور!

حين قالت أمنا أم سلمة: (كنا نجلس في سكون، والنبي ﷺ أمامنا في كفنه، فلها سمعنا صوت الكرازين صخنا). تخيل معي ذلك الصمت الثقيل، والصدى الذي ملاً المكان حين بدأ الجاروف ينقل التراب ليُجهز قبر خير البرية ﷺ، ذلك الجسد الطاهر الشريف الذي لن نراه بعد اليوم، ولن نصلي وراءه كما عهدناه.

وهنا بالذات، لا يمكن إلا أن نتعاطف مع من عاشوا تلك اللحظات؛ فقد أحسوا كأن كل شيء حولهم توقف، وكأن الوجود كله قد فقد بريقه.

قال سيدنا أنس رضي الله عنه: (فما إن دفنا رسول الله ﷺ حتى أنكرنا نفوسنا)، كأنهم يقولون: من نحن بدونك يا رسول الله؟ أنت كل ما لنا في الدنيا.

لكنني أريد أن أنهي هذا المشهد المؤلم بشيء من الفرح والطمأنينة، هل تعرف لماذا؟ لأن النبي ﷺ لم يكن ليودعنا على حزن، بل يريد لنا السعادة والسكينة. لقد قال قبل أن يرحل إلى الرفيق الأعلى:

«أنا فرطكم عند الحوض» (322).

سأسبقكم عند الحوض، فالأمان لنا بإذن الله، ونور النبي ﷺ يظل يُضيء لنا الطريق في الآخرة.

وهو حي في قبره، لا غياب، بل يستغفر لمن أساء، ويحمد الله على من أحسن،
فنحن نصلي عليه فيرد علينا السلام كما قال ﷺ:

«إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يَبْلِغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ» (323).

أتذكر القصة حين جاء وفد ثقيف يسأل النبي ﷺ: (لماذا لم يكن لك ملك مثل
ملك سليمان؟). فرد عليه ﷺ بأن الله أعطاه ملكاً أعظم؛ ملك الدعوة المستجابة،
قال:

«لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي
شَفَاعَةً لَأُمَّتِي، فَهِيَ نَائِلَةٌ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً» (324).

إنه ملكه الحقيقي ﷺ: أن يرانا بخير، وأن نعيش في سلام وأمان، وأن نكون
مطمئنين؛ لأن نوره لا ينطفئ.

فلنهي قصة النبي ﷺ ونحن على هذا النور، ونحن معه وهو معنا. لقد كان
يقول ﷺ:

«فَاكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ» (325).

فتساءل الصحابة: (وكيف تعرض عليك يا رسول الله وقد (أرمت)؟ أكلت
الأرض جسداً). فقال: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ).

كأنه يقول لنا: أنا معكم، فكن أنت أيضًا معه، وأكثر من الصلاة عليه، وتعرف على سيرته العطرة، وزر قبره الشريف، وسلم عليه، وصلِّ بجواره.

واعلم أن الله أراد أن تكون هذه العلاقة بيننا وبينه، فحين كان حيًّا، عشنا في نوره، وحين انتقل إلى الله، نعيش أيضًا في نوره الذي لا ينطفئ أبدًا ﷺ.

اللهم صلِّ وسلِّم على نبينا محمد، صلاة تنزه بها
أفكارنا، وتُصَفِّي بها أكَدارنا، وتُورِّث بها أبصارنا،
وتُفتَح بها علينا، وتقوي بها عزائمنا، وتهون بها
مصائبنا، وتُختم بها حياتنا، وتنور بها قبورنا.

اللهم يا قادرٍ يسِّرْ بقدرتك كل عسير، وافتح
بأمرِك كل باب مُغلق يا نعم المولى ويا نعم
النصير.



(310) رواه البخاري.

(311) رواه ابن ماجه.

(312) رواه البخاري.

(313) رواه البخاري.

(314) رواه البخاري.

(315) رواه البخاري.

(316) رواه البخاري.

(317) رواه البخاري.

(318) رواه البخاري.

(319) رواه السيوطي.

(320) رواه ابن سعد.

(321) رواه الترمذي.

(322) رواه البخاري

(323) رواه النسائي.

(324) رواه البخاري.

(325) رواه أبو داود.

شفاعة رسول الله ﷺ

أركان العلاقة بيننا وبين سيدنا محمد ﷺ

في هذا الفصل الأخير من حياة رسول الله ﷺ، أود أن أشارككم شيئاً عميقاً وضرورياً، وهو استعادة أركان العلاقة الحقيقية التي يجب أن تربطنا بسيدنا محمد ﷺ في حياة كل واحد منا، يجب أن نُعلي مكانة الكبير، ونرتب أولوياتنا بحيث يكون هو في مقدمة هذه الأولويات، ومن أعظم ما ينبغي أن يضعه المؤمن في قلبه هو إدراك حقيقة أنه عبدٌ خاضع لله وحده، وأن هناك رسولاً أرسله الله إليهم، وهو سيدنا محمد ﷺ، فلا بد أن تتناسب أولوياتنا مع هذا الإدراك العظيم، وأن يتربع حب واحترام النبي ﷺ على عرش قلوبنا.

فكر معي: ما المكانة التي تستحق أن يحتلها النبي ﷺ في قلبك؟

هناك أربعة أركان تحكم علاقتنا برسول الله ﷺ، وهذه الأركان استقيتها من خلال قراءاتي وما تعلمته، وهي وجهة نظر، تأمل فيها، وتستطيع أن تضيف عليها أيضاً ما يشاء قلبك.

الرَّكْنُ الْأَوَّلُ: (أَنْ تُنْزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي قَلْبِكَ مَنْزِلَةُ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ مِنَ اللَّهِ.. مَا مَعْنَى ذَلِكَ؟). ليس سيدنا محمد ﷺ مجرد إنسان عظيم مر في التاريخ، أو مجرد شخص يساعدنا على التقرب من الله، بل هو أعظم وأجل بكثير من ذلك، هو الإنسان الذي اختاره الله ورفعته إلى أعلى المراتب، وأعطاه العصمة في أقواله وأفعاله من أجلنا. إن المحبة الحقيقية تأتي عندما ندرك أن هذا النبي ﷺ هو الذي اختاره الله ليكون رسوله إلى قلوبنا، قال الله تعالى :

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ ﴾ [سورة البقرة: 151]

الله تعالى لا يدعنا نعتبره مجرد إنسان عادي، بل يؤكد عظمته، ويأمرنا بقوله:

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾

﴿ [سورة النور: 63]

فلا ينطق اسمه مجرداً، بل يُقال له: «يا رسول الله» و«يا نبي الله»، فالله لم ينادِه باسمه في القرآن فقط، بل نادى عليه بأسمائه العظيمة، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ [سورة الأنفال: 64]

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ [سورة المائدة: 41]

وفي سورة الحجر، عندما أقسم الله بحياة النبي ﷺ في وصف قوم لوط، قال:

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة الحجر: 72]

ويقول تعالى:

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الأحزاب: 6]

عليك أن تعرف أن النبي ﷺ لا يريد لنفسه شيئاً، لم يأت ليحكمنا فقط، بل جاء ليقودنا إلى الله ويرشدنا إلى الخير، ويرفعنا في الدنيا والآخرة.

خلقنا الله ووهبنا نعمًا كثيرة، وأعطانا غريزة وشهوات وامتحانات؛ ليعلمنا كيف نعيش، وكيف نرتقي. ومن أجل هذه الرحلة العظيمة أرسل لنا أفضل وأكمل البشر؛ نبينا محمد ﷺ، لأجلنا نحن .

هل تعي لماذا ترتفع أسعار الجامعات الراقية؟ لأنها تختار أفضل الأساتذة ليخرجوا أفضل الطلاب.

ولله المثل الأعلى سبحانه وتعالى، اختار لنا النبي ﷺ وأرسله وهو أكمل البشر، وأعطاه كمالاً لا حدود له؛ ليكون المعلم والأستاذ لنا في الدنيا والآخرة.

كان النبي ﷺ حريصاً علينا، حتى جاءه الوحي بأن يخفف عن نفسه، فلا يجهد روحه؛ لأن دوره هو أن يبلغ الرسالة، قال الله تعالى:

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ
وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا
فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ

بِالْعِبَادِ ﴿

[سورة آل عمران: 20]

أي: إن جادلوك فقل لهم إنني أسلمت لله، ومن اتبعني كذلك، فأنا أبلغ الرسالة فقط، والله هو الذي يحاسب.

فأنت لا بد أن تضع النبي ﷺ في قلبك ليس باعتباره شخصاً عادياً، ولكن بوصفه رسول الله، الذي أرسله الله ليكون مرشدك في الحياة، وأن تتعامل معه على هذا الأساس العظيم.

الرُّكن الثاني: (لا توقف رحلة الترقى في التعلق بسيدنا محمد ﷺ وحبّه والتعرف إليه).

في هذه الدنيا، رحلة التعرف إلى الله ورسالته لا تنتهي، وكذلك رحلة التعرف إلى النبي ﷺ وحبّه لا تنتهي.

كلما عرفت النبي ﷺ أكثر ازدادت محبتك له، وزاد ارتباطك به، وأخذت تحاكيه في أخلاقه وأفعاله التي ترتقي بك.

الحب الحقيقي هو تعلق دافع للخدمة والتقليد، وحب النبي ﷺ يدفعك لأن تكون أفضل، لأن تلتزم بأوامره، وتسعى لأن تصلح نفسك وعلاقتك بالآخرين.

كان عمر بن الخطاب يمشي مع النبي ﷺ، فقال له: «يا رسول الله، إنك أحب إليّ من كل شيء في الدنيا إلا نفسي».

فأجابه النبي ﷺ: (لا، والذي نفسي بيده، حتّى أكون أحبّ إليك من نفسك). ففكر عمر ملياً، وأدرك أن النبي ﷺ هو الأحق بالحب وأنه ينبغي أن يكون هو أغلى من النفس.

فسأل نفسه: (أنا أحوج إلى نفسي في الآخرة، أم أحوج إلى رسول الله؟). فوجد أنه أحوج إلى رسول الله، فذهب إلى النبي ﷺ وأخبره فقال:

(الآن يا رسول الله .. أنت أحب إليّ من نفسي). فقال له:

«الآن يا عمر» (326).

فعندما يكون النبي ﷺ أحب إليك من نفسك، فستحرص على طاعته واحترامه، ولن تسمح لشيء أن يسيء إليه أو يغيب عنك.

وعندما أحب سيدنا محمدًا ﷺ فسأظل أسير على خطاه في جميع تصرفاته التي يُرقيني بها؛ فمن أهم وظائف النبي ﷺ:

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [سورة الجمعة: 2]

«يُزَكِّيهِمْ»: يُرقيهم.

فثلاً التعامل بين الزوجين وقت الخلاف ينبغي أن يكون في أفضل صورة يرضى عنها سيدنا محمد ﷺ إذا كان حاضراً بيننا.

أيضاً أداؤك لعملك لا بد أن يكون بإتقان يرضى عنه رسول الله ﷺ تقديراً وتقديساً له.

فالناس التي تعرف حقيقة النبي ﷺ وتسير على خطاه في أخلاقه تجد أنهم كل فترة يرتقون لنسخ أجمل من شخصياتهم؛ لذا، اجعل حب النبي ﷺ مفتاح حياتك، وكن دائماً في رحلة التعرف إليه.

الركن الثالث: (الثقة في أن الله حَفِظَ عِلْمَ النبي ﷺ)

علم النبي ﷺ محفوظ بأمر الله، فلا تسمحوا لأنفسكم بالشك في السنة النبوية أو التقليل من أهميتها.

الله سبحانه وتعالى لم يرسل نبيه بالقرآن فقط، بل معه العلم الكامل الذي نحتاج إليه لنعلمنا كيف نعيش.

أذكر لك ثلاث آيات عظيمة تحفظ قلبك:

الآية الأولى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: 9]

ف (الذكر) هنا.. المقصود به هو «القرآن والسنة»، وليس القرآن فقط، وراجع هنا جميع تفاسير أهل العلم.. لماذا؟ لأن الله تعالى قال في آية أخرى :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل: 44]

ومعناها أن الله تعالى يقول إنه أنزل إليك السنة لتشرح للناس القرآن الذي نزل عليهم، فقد قيل عن (السنة) إنها ذكر.

الآية الثانية:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة الحشر: 7]

فمعناها أن النبي ﷺ يُخبرك بأوامر ونواه من عند الله فخذُ بها.

الآية الثالثة:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ
الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَيْهِ شَدِيدُ
الْقُوَى (5)﴾ [سورة النجم: 2 - 5]

ومعناها أن سيدنا جبريل أوحى إلى النبي ﷺ وعلمه من عند الله سبحانه وتعالى.

فكن مطمئناً بأن علم النبي ﷺ محفوظ، وأن العلماء قاموا بتفريق السنة المكذوبة على النبي ﷺ والضعيفة وفصل السنة الصحيحة، وعلمونا كيف نفرق بينها، ولكن اطلب العلم من أهل العلم الثقات.

قال النبي ﷺ:

«ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه» (327).

(ألا إني أوتيت الكتاب): أي: القرآن، (ومثله معه) : وهي السنة المطهرة. ثقب سنة النبي ﷺ فهي لك طريق النجاة.

الركن الرابع:

(وتقليده وتوقيره والاهتمام بطاعته ﷺ واتباعه).

إن سيدنا محمداً ﷺ ليس مجرد خير عادي في شئون الحياة، وسيأتي إلينا خير ثانٍ نختار منه بعض الأمور ونترك بعضها، ولا هو صاحب كتاب ممتع نأخذ منه ما يعجبنا ونرفض ما لا يناسبنا؛ بل هو رسول الله الذي أرسله الله سبحانه وتعالى لأمر عظيم ليطاع بإذن الله.

قال الله تعالى في محكم التنزيل:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

[سورة النساء: 64]

أي أن طاعة الرسول أمر صادر بأمر الله تعالى، فلا مجال لمجادلة أو تهاون في ذلك.

الله تعالى أرسل لنا سيدنا محمداً ﷺ لكي نرى أفعاله ونقتدي بها ونتمسك بهديه، وذلك كله من أجلك أنت، نعم أنت الذي تقرأ هذه الكلمات، فالنبي ﷺ لا يحتاج إلى شيء منا، والله تعالى لا ينتفع بطاعتنا، ولا تضره معصيتنا، لكنه أرسل ليعلمنا ماذا نقول، وماذا نفعل، وماذا يحرم وماذا يُحلل؛ لكي نعرف طريق الله ونسير فيه، لأنه ليس طريق يظهر إلا عبر باب سيدنا محمد ﷺ.

قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الحجرات: 1]

وهذا يعني: لا تسبق أمر الله ورأي رسوله، ولا تقدم هواك على شرع الله، بل اجعل أمر الله ورسوله هو المقدم دائماً في حياتك.

وقال تعالى أيضاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ

النَّبِيِّ ۚ﴾ [سورة الحجرات: 2]

والصوت هنا هو مجاز عن الرأي، ووجهة النظر، والقرار، فلا ينبغي لرأينا أن يعلو على رأي النبي ﷺ، فإذا قال النبي ﷺ شيئاً، فعليك تنفيذه بكل رضا وطمأنينة، وإذا لم تستطع ذلك فاستغفر الله واطلب منه العون، ولا تتعال برأيك قائلاً إن سنة النبي ﷺ بعد أكثر من 1400 سنة لا تناسب عصرنا الحالي، فلو كان ذلك كما تدّعي لكان الله قد أرسل بعده رسولاً آخر، لكنه خاتم الأنبياء، ومعتقدنا أن كلامه يبقى متنسقاً وصالحاً لنا حتى قيام الساعة.

وقد قال الله تعالى أيضاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ

النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴿٢﴾ [سورة الحجرات: 2]

نحن نجهر بالقول أحياناً بعضنا مع بعض، وسواء كنت معارضاً أو متكبراً، فتقديم رأيك أمام رأي رسول الله قد يحبط أعمالك دون أن تشعر.

ففي الحياة يمكن أن تتناقش وتبادل الآراء بيننا، وقد نخطئ وقد نصيب، ونحاول أن يساعد بعضنا بعضاً، لكن لو كنت أمام طبيب ماهر وأنت لا تفقه في الطب شيئاً، فهل يناسبك أن تناقشه في تخصصه؟ بالتأكيد لا. فكيف بمن يتكلم في دين الله، الذي هو جوهر حياتنا وغاية وجودنا؟! نحن عباد الله، ونحتاج إلى أن نؤمن ونلتزم بكل ما جاء به النبي ﷺ، فلا نختار من شرعه ما يعجبنا ونترك ما نكره.

وقد أنار الله دروبنا بنور رسولنا ﷺ فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنُّ

تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات: 2]

فنحن نضيع أجرنا إذا ناقشنا كلام النبي ﷺ واعتبرنا بعض ما جاء به غير مناسب أو غير مجدٍ لعصرنا.

إن النبي ﷺ ما زال يدعو لنا وهو في قبره الشريف، وقلبه مرتبط بنا، متصل بنا في الدنيا وفي القبر وفي الآخرة، ولن يتركنا بإذن الله أبداً.

لذلك يقول الله تعالى له:

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [سورة فاطر: 8]

أي لا تحزن على الذين يرفضون الهداية، فإن قلب النبي ﷺ مفعم بالمحبة لكل البشر ويريد هدايتهم.

فهذه كانت أربعة أركان مهمة، أرجو منك أن تراجعها جيداً في رحلتك الحياتية، كي تظل منيرة بنور النبي ﷺ، فتضيء حياتك وتملأ قلبك بالسكينة والهدى.

انشغال النبي ﷺ بنا في جميع أوقاته

جيل الصحابة الكرام، والأجيال التي تلتهم، والكثير من الناس عبر الأزمنة التي تلتهم إلى يومنا هذا، عندما يسمعون أن سيدنا محمداً ﷺ يحب شيئاً معيناً، يندفعون إليه بكل ثقة وطمأنينة، يتبعونه فيه بلا تردد أو شك. لماذا؟ لأن النبي ﷺ أرحم بنا من أنفسنا، فالله سبحانه وتعالى خلقه بهذه الرحمة الفريدة، وهو أعلم بنا من أنفسنا، فقد علمه الله تعالى ما لم يعلمه غيره، وهو أقرب إلينا من أنفسنا؛ إذ أراد الله أن يكون رسولنا الكريم كذلك. ولذلك، عندما يأمرنا النبي ﷺ بشيء، فاعلم يقيناً أن ذلك الأمر من أجلنا نحن، وفي مصلحتنا الحقيقية، فليس الهدف منه أن يحكمنا فقط، بل ينصحنا ويرشدنا إلى طريق الله برحمة ومحبة، بسبب محبته العظيمة لنا.

حتى وهو في قبره الشريف، يقول ﷺ كلمات تفيض حباً وحناناً لا حدود
لهما:

«حياتي خير لكم، ووفاتي لكم خير، تُحدثون فيحدث لكم، فإذا أنا مت عُرِضَتْ
عليّ أعمالكم، فإن رأيتُ خيراً حمدتُ الله، وإن رأيتُ شراً استغفرتُ اللهَ
لكم» (328).

ويقول الله تعالى في محكم كتابه العزيز:

﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسِرِّيَ اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التوبة: 105]

وكأن الله يخبرنا هنا أن رسولنا الكريم لا يغفل ولا يغيب عما نفعل، بل يراه
ويهتم به، ويشاركنا في قضايانا وأفراحنا.

ودائماً ما يخبرونا الصحابة أن الأنبياء ليسوا جُثّاً هامدة في قبورهم، أتذكر يوم
الإسراء والمعراج عندما ركب النبي ﷺ البراق وقال:

«أَتَيْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي
قَبْرِهِ» (329) ؟

وقد قال النبي ﷺ: (إن من خير أيامكم يوم الجمعة، فأكثرُوا عليَّ من الصَّلَاةِ فيه؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ معروضةٌ عليَّ). قيل: يا رسول الله: (كيف تُعرض عليك صلاتنا وقد أُرمت؟). «أُرمت» تأتي من فكرة الرميم ..

﴿يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [سورة يس: 78]

قال:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ» (330).

إذا كان (الشهداء):

﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران: 169]

فما بالك بـ(الأنبياء) الذين نزلت عليهم الرسالات، وأمرهم الله بأن يكونوا أحياءً بروحهم ووجودهم؟!

حين تدرك كم كان سيدنا محمد ﷺ مهتمًا ومشغولًا بنا إلى هذه الدرجة، ستري جليًا سر ذلك الحب العظيم الذي كان يحيط به الصحابة رضوان الله عليهم، وكيف

كانوا يتبعونه بكل نفس راضية ممتنة؛ لأن النبي ﷺ بلغ وأوصل كل العلم الذي أُوحى إليه من ربه الكريم، كما قال تعالى:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ

شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [سورة التكوين: 24-25]

(ضَنِين): بخيل.

فلم يكن النبي ﷺ يخجل بأي معلومة أو توجيه، بل كان ينقلها بكل صدق وأمانة؛ لأن الله أمره بذلك.

ولذلك، عندما ينهانا رسول الله ﷺ عن أمر ما، لا بد أن نمتثل على الفور، لماذا؟ لأننا نتق يقيناً بأنه يحبنا، ويخاف علينا، وليس لأنه يريد تقييد حياتنا أو التدخل في حريتنا، بل لأنه يصف لنا طريق النجاة والفلاح، كما قال ﷺ:

«إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى النَّارِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ» (331).

وهذا هو جوهر حب النبي ﷺ، وهذا هو سر طاعته واتباعه بقلوب صادقة.

وصف حب الصحابة للنبي ﷺ

لا نتعجب حين نسمع قصة حب سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ، فقد سأله أحد التابعين مرة عن هذا الحب العظيم فقال بكلمات تختزل أعظم معاني المحبة والإخلاص: (كان أحب إلينا من أنفسنا ومن آبائنا وأمهاتنا وأبنائنا ومن الماء البارد على الظمأ).

تأمل هذه الإجابة بعمق، فهي ليست مجرد رد عابر أو كلام ارتجالي، بل هي حياة كاملة ومشاعر متجذرة في القلب، عبر عنها بأبلغ الكلمات. فالعربي الذي يعيش في صحراء قاحلة يعرف معنى العطش القاتل، والظمأ الذي يكاد يميت، فتخيل فرحته العارمة حين يجد ماءً بارداً، ليس ماءً من ثلاجة أو آلة تبريد، بل مجرد ماء موضوع في الظل، مُغطى بقماشة تبعد عنه حرارة الشمس القاسية. حين يشرب هذا الماء، يدرك تماماً قيمة الحياة التي أُعيدت إليه بفضل هذا الماء، فكيف إذا كان النبي ﷺ، الذي هو بالنسبة له أغلى وأثمن من ذلك الماء البارد الذي أنقذ حياته؟! هذا هو عمق الحب والارتباط الذي كان يكنه علي ؑ لنبينا الكريم ﷺ، حب يفوق كل ما يمكن تخيله.

من مظاهر حب الصحابة وتعلقهم بأوامره

لم يكن الذهب محرماً على الرجال في بداية الأمر، والنبي ﷺ لبس خاتماً من الذهب، كما ورد في رواية في صحيح البخاري، ولكن عندما حرم الله تعالى الذهب على الرجال، خلعه النبي ﷺ بنفسه وقال بجزم:

«وَاللَّهِ، لَا أَلْبَسُهُ أَبَدًا» (332).

فوفاء لقول النبي ﷺ، قام جميع الصحابة في لحظة واحدة بخلع خواتمهم الذهبية ووضعوها جانباً، احتراماً لطاعته وحبهم له .

وفي رواية أخرى، عندما رأى النبي ﷺ أحد الصحابة يرتدي خاتمًا من ذهب، أخذه من يده بركة وحب، لا بعنف، وقال له:

«أَيْعَمَدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ؟» (333).

في إشارة واضحة إلى أن الذهب حرام على الرجال، وأن لبسه كالجمر الحار في اليد.

فقال الصحابة للرجل: (خُذْ الخاتم فِيعِهِ)، فإن البيع جائز وأخذ الثمن لا بأس به؛ لأن المشكلة في اللبس فقط.

فرد الرجل: (لا.. لا آخذ شيئاً قد وضعه (طرحه) رسول الله). أي أن النبي ﷺ قد نزع الخاتم وأبعده جانباً، فكان هذا علامة على حرمة اللبس، فلا يمد يده ليأخذه؛ احتراماً لحكم النبي وحبه له.

وهنا يظهر لنا أن المحبة الحقيقية هي التي تُترجم إلى أفعال وتصرفات، فمن يحب يُظهر حبه في أدق التفاصيل، مثل اتباع أوامر النبي ﷺ بكل رضا وحب؛ لأنه يعلم أن ذلك هو الخير والبركة له.

ما فعل برسول الله؟

القصة الشهيرة التي تدور أحداثها في غزوة أحد، حينما انتشرت في المدينة إشاعة مفجعة بأن النبي ﷺ قد قُتل، كانت تلك اللحظة صدمة كبرى هزت قلوب نساء المدينة وكل من سمع الخبر، فعمّ الحزن والصرخات في كل مكان، وملأت

الدموع الأجواء. في وسط ذلك الحزن العميق، أسرع إحدى الصحابيات، وهي امرأة شجاعة ومخلصة، إلى أرض المعركة باحثة عن نبيها الحبيب ﷺ.

عندما وصلت إلى هناك، قابلها الناس حاملين جثث الشهداء الذين سقطوا في القتال، وكان من بينهم أبوها وأخوها وزوجها وابنها؛ أي أن معظم رجال عائلتها قد استشهدوا في سبيل الله.

كان من الطبيعي أن يخرج الرجال الذين يستطيعون القتال للجهاد، لذلك قالوا لها بكل حزن: «مات أبوك وأخوك وزوجك وابنك». فردت بصبر واحتساب: «إنا لله وإنا إليه راجعون». ثم سألتهم بقلق: «ما فعل رسول الله ﷺ؟». لكنهم طلبوا منها أن تنظر أولاً إلى من استشهد من أهلها، فقالت مجدداً: «إنا لله وإنا إليه راجعون.. ما فعل رسول الله ﷺ؟». وعندما رأت النبي ﷺ سالماً لم يصب بسوء، أخذت بطرف ثيابه وقالت:

(كل مصيبة بعدك جَلَل)؛ أي صغيرة، أي أن كل المصائب التي تعترضها بعد فقدانه ستكون محتملة، لكنها لا تستطيع أن تتحمل أن تفقده هو، أن يصير بينهم غائباً.

وهذا المشهد المهيّب يشرح لنا سر تلك المحبة العميقة التي ملأت قلوب الصحابة والتابعين، ولماذا قال الله:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ

لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿[سورة التوبة: 100]

وكان هذه الآية تعطي طمأنينة وتواسي الأجيال التي جاءت بعد النبي ﷺ ولم تره عيونهم ، لكنهم اتبعوه ﷺ بإحسان، فنسأل الله أن يجعلنا منهم، ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه، وننال بذلك رضا رب العالمين وجناته الخالدة.

قال ﷺ:

«مَنْ أَشَدَّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالَهُ» (334).

فهؤلاء الناس الذين يكونون بعد النبي ﷺ، ليسوا من صحابته بل من الأجيال التي لم تره، إلا أن حبهم له أعظم وأصدق من كثير من الذين عاشروه.

ويمكنك أن تراهم بنفسك، خاصة إذا زرت المسجد النبوي في رحلة عمرة أو زيارة، تجد من هؤلاء البسطاء الذين باعوا أراضيهم، أو بهائمهم ، أو كل ما يملكون، فقط ليحظوا بزيارة رسول الله ﷺ. ولو كانوا يقيمون في فندق بعيد عن المسجد، فستجدهم يقضون معظم أوقاتهم في المسجد، كأن أراضيهم المباركة هي ملاذهم وأملهم في رؤية أثر خطوات النبي ﷺ.

إن هذا الحب الصادق يتجلى في التعلق الكبير، والنية الخالصة للخدمة والاتباع، فاجعل حب النبي ﷺ هذا أحد أعظم أهدافك في الحياة، دافعاً لك للسير على خطاه في كل يوم من أيامك.

شفاعة النبي ﷺ

عقيدتنا الراسخة أن سيدنا محمداً ﷺ قد أكرمه ربه سبحانه وتعالى بهدية عظيمة من إكراماته له، ألا وهي شفاعة يوم القيامة، تلك الشفاعة التي جعلها الله تعالى له تميزاً عظيماً وكرامة لا تضاهي، وهي ليست هدية خاصة فقط للنبي محمد ﷺ، بل هي إكرام من الله منحه للملائكة الكرام، وللأنبياء والمرسلين، وللمؤمنين الصالحين أيضاً. هل نتذكر حين أخبرنا رسول الله ﷺ عن فضل الشهداء؟ إذ قال:

«يُشَفَّعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ» (335).

وهذا تأكيد أن الشفاعة ليست أمراً مقصوراً على النبي ﷺ وحده، بل تشمل عباد الله الصالحين الذين آمنوا وتوكلوا على الله.

أيضاً في كتاب الله العزيز، في سورة الشعراء، يقول الله تعالى:

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾

[سورة الشعراء: 100-101]

وعند تفسير العلماء لهذه الآيات الكريمة، جاء التوضيح أن بعض المؤمنين سوف يأذن لهم الله أن يشفعوا لأصحابهم وأحبابهم الموحدين كي يخرجوا من النار، أما من لم يؤمن بالله فلا شفاعة له ولا صديق ينصره، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ
(101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102)
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

[سورة الشعراء: 100-104]

ففكرة الشفاعة، ذلك الإكرام العظيم من الله عز وجل، لم يقتصر فقط على الأنبياء، بل شمل حتى الصالحين من عباده.

وأما لسيدنا محمد ﷺ فقد قال الله تعالى له:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ

رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: 79]

محمود: أي شخص مشكور من الناس.

أي: يا محمد، صلِّ بالليل قياماً تطوعاً، فإن ربك قد وعدك بأن يرفعك مقاماً محموداً؛ ذلك المقام الذي يحمّدك الناس فيه ويثنون عليك أجمل الثناء.

وعندما تقول خلف كل أذان:

«اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ،
وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَّحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ» (336).

فأنت تردد دعاءً مبنياً على وعد الله تعالى الذي لم يخلفه، حيث قال:

﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: 79]

وعندما تسمع كلمة «عسى» في القرآن تعرف يقيناً أنها ستتحقق بإذن الله تعالى.

لذلك لا بد أن تعرف أن في يوم القيامة للنبي ﷺ وقفة عظيمة ، و لكنك تسأل نفسك لماذا هذه الوقفة يا رسول الله ؟! فقد أدت أمانة رسالتك على أكل وجهه، وحتى في قبرك كنت تدعو لنا وتسلم علينا، واليوم العظيم حين تقوم الساعة، سيكون الفاصل بين الناس هو الله الملك الرحيم، وتجزي كل نفس على أعمالها.

ولكن لا يطمئن قلب النبي ﷺ إلا عندما يرانا جميعاً معه في الجنة؛ ذلك لأن الله ملأ قلبه بحب عظيم لأمته، لذلك كان سيدنا علي بن أبي طالب ؓ، في مجلسه مع أصحابه، يختبرهم ويجري معهم شيئاً يشبه المسابقات، ويسألهم: «ما هي أرجى آية في القرآن؟»، أي أكثر آية في القرآن تبشر برحمة الله، فيقول أحدهم:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا

مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [سورة الزمر: 53]

فيجيبه علي رضي الله عنه: لا.. أرجى آية في القرآن هي: نص الآية الكريمة:

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [سورة الضحى: 5]

فسألوه: لماذا؟ فأجاب: «لأن رضا النبي والكل في الجنة».

وفي الرواية المشهورة في التفسير: لأنه قال:

«رِضَاهُ أَنْ تُدْخَلَ أُمَّتُهُ كُلُّهُمْ الْجَنَّةَ» (337).

وللنبي محمد ﷺ سبع شفاعات في يوم القيامة

فهناك 7 مستويات من الشفاعات وردت في القرآن والسنة، على رأسها أن الله سيبدأ الحساب إكراماً لسيدنا النبي ﷺ، فكما نذكر حديث البخاري عندما يستجد الناس في هذا الموقف الصعب بالأنبياء لكي يستأذنوا الله أن يبدأ الحساب، يقولون: (حتى يخلصونا من مقامنا هذا). فيوم القيامة ذكر الله مدته في القرآن بأنه (50 ألف سنة) ولكن يمر على المؤمن كركعتين يصلحهما كما في بعض الأحاديث أو كما في الحديث:

«يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ» (338).

فجميع البشر يذهبون للأنبياء بداية من سيدنا آدم ومروراً بكل الأنبياء، وكل نبي يقول: (نفسي نفسي.. إن الله غضب اليوم غضبة لم يغضبها من قبل).

إلى أن وصلوا إلى سيدنا محمد ﷺ الذي قال: (أنا لها). وكأنه ﷺ منتظرهم حتى يساعد الجميع، فيسجد عند العرش ويحمد ربه بحامد يعلمها إياه وقتها، فيقول الله تعالى: (يا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يَسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ).. ويبدأ الحساب، وهذا حديث البخاري.

أما في حديث المستدرک للإمام الحاکم، يقول النبي ﷺ:

(«لأنبياء منابر من ذهب» قال : «فيجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه - أو لا أقعد عليه - قائماً بين يدي ربي مخافة أن يبعث بي إلى الجنة ويبقي أمتي من بعدي ، فأقول : يا رب، أمتي أمتي . فيقول الله - عز وجل - : يا محمد، ما تريد أن أصنع بأمتك ؟ فأقول : يا رب، عجل حسابهم . فيدعى بهم فيحاسبون، فمنهم من يدخل الجنة برحمة الله ، ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي ، فما أزال أشفع حتى أعطى صكاً كبرجال قد بعث بهم إلى النار) (339).

وهذا يدل على عظمة رحمة النبي ﷺ وحبه لأمته حتى في أصعب المواقف، حتى إنه سيخرج من الجنة ذات يوم ليطلب من الله أن يسمح له أن يُخرج من النار من يستحق النجاة، وهو أمر عظيم لا يمكن أن يتصوره الكثيرون اليوم، لكنه من خلق الله وطبيعة النبي ﷺ أن يظل يحب أمته بهذا القدر العظيم.

وفي حديث البخاري ومسلم، يقول النبي ﷺ:

«فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِداً، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَقَالُ لِي: ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يَسْمَعُ، وَأَشْفَعُ تَشْفَعُ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدِ يَعْلَنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدِلُ لِي حَدًّا، ثُمَّ أَخْرِجُهُم مِنَ النَّارِ، وَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقْعُ سَاجِداً مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ، أَوِ الرَّابِعَةِ، حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ» (340).

ظل كذلك ﷺ 4 مرات كما في الحديث وفي كل مرة يجد الله له حداً فيخرجهم من النار.

قال: (أعود الرابعة فأقول: يا رب، ما بقي إلا من حبسه القرآن).

(حبسه القرآن): أي قال القرآن وحكم عليه بأنه لن يخرج من النار، ومن رفض توحيد الله والإيمان به «الكافر الجاحد» الذي جاءه الحق فعرف أنه صحيح ورفضه، فكما يقول القرآن:

﴿وَمَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل: 14]

فيطمئن النبي ﷺ، ويبقى الاستقرار الكامل عندما يجد كل أُمته حوله.. فهذا هو النبي ﷺ.

فالله سبحانه وتعالى أوجد في نفس النبي ﷺ حباً عظيماً لأُمته، وهذا الحب يستمر معه في كل مكان وفي كل زمان، فلا تحرم نفسك من لذة السير في أنوار نبيه ﷺ، حتى وإن كنت مقصراً أو خطاءً، فكلنا كذلك، لكن لا بد أن نجعل النبي ﷺ نُصَبَ أعيننا، وإذا أخطأنا وأذنبنا، نسارع إلى الاستغفار والتوبة، ونسير خلفه مرة أخرى، مستمرين في هذه الرحلة إلى أن نلقاه في الآخرة، ونشرب من يديه الكريمتين برحمة الله.

اللهم صلِّ أفضل صلاة على أسعد مخلوقاتك سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم، عدد معلوماتك ومداد
كلماتك، كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك
الغافلون، اللهم إن ضعفت قلوبنا في السير إليك،
فاحملنا إليك حمل الكرام عليك، اللهم خذ بأيدينا
إلى طريق السُّنة، ووصلنا مع تمام العافية إلى
أبواب الجنة، نحن وكل من نحب من أحببنا
وأهلنا يا واسع العطاء يا مولانا.



(326) رواه البخاري.

(327) رواه أبو داود.

(328) رواه ابن سعد.

(329) رواه مسلم.

(330) رواه أبو داود.

(331) رواه الحاكم.

(332) رواه البخاري.

(333) رواه مسلم.

(334) رواه مسلم.

(335) رواه أبو داود.

(336) رواه البخاري.

(337) رواه البيهقي.

(338) رواه الحاكم.

(339) رواه الحاكم.

(340) رواه البخاري ومسلم.

رف 404

t.me/Rff404
